

في اليمن عبر العصور

تأليف محمد سعيد جراده

الذكرى العاشرة للاستقلال الوطني
١٩٦٧ - ١٩٧٧

دار الفارابي - بيروت
لجنة نشر الكتاب اليمني
عدن



دار الفارابي - بيروت

ص . ب : ٣١٨١

كانون الأول ١٩٧٧

مقدمة

هذا الكتاب محاولة متواضعة لاستعراض حركة الفكر والادب والثقافة في اليمن عبر التاريخ . وقد ظل هذا الكتاب مشروعا في الذهن اختمر فيه منذ سنين خلت ، وكانت تصد عن تحقيقه موانع كثيرة وعوائق مختلفة من بينها صعوبة المصادر وقلة المراجع التي يمكن ان تسهل مهمة الدارس وتجعل الطريق امامه بينة الصوى واضحة المعالم .

فان الذي لا ريب فيه ان استعراض حركة الادب والثقافة في اي قطر من اقطار الوطن العربي — عدا اليمن — امر هو من السهولة واليسر بحيث لا تعترضه الصعاب . ذلك لان المصادر في متناول اليد وكثير منها مطبوعة . فاما اليمن فان الامر فيهما يختلف ، فان العزلة التي فرضت على اليمن من اقدم عصور التاريخ قد ضربت بينها وبين غيرها من اقطار الوطن العربي سورا ليس له باب . فالتراث اليمني اغلبه اما ان يكون مفقودا يحتاج البحث عنه الى الارتحال الى مكاتب العالم ، او هو مطمور يعيش في زوايا الجوامع والمكتبات ، والبيوت الخاصة ، وما خرج من كتب التراث اليمني الى عالم النور لا يكاد يتعدى النزر اليسير الذي يعد بالاصابع .

وقد كانت لي مندوحة عن التعرض لتأليف كتاب يؤرخ لحركة الادب والثقافة من قبل الاسلام الى عصرنا هذا ، فان التخصص في فترة واحدة قدرها نصف قرن او قرن او اكثر من ذلك او اقل ، بل ان التخصص في دراسة شخصية واحدة من ادباء اليمن او شعرائها او كتابها او مؤرخيها قد يكون — على فائدته — اقل مؤونة واخف اصرا . ولكني آثرت ان اسلك هذا الطريق لاني اختطه اول ما اختطه لنفسي قبل ان استهدف منه منفعة القارىء . لقد لاحظت على نفسي منذ ايام الشباب اني كنت اعنى بالادباء والعلماء والمفكرين خارج اليمن اكثر مما اعني باحثا لهم داخل اليمن وساعد على ذلك غياب الدراسات والبحوث والتواليف التي تعني بهم وتتحدث عن عطائهم في مجال الادب والفن ، وحين تجاوزت مرحلة الشباب بدأت اعد المذكرات التي ادون فيها الافكار والملاحظات حول هذا الاديب اليمني او ذاك فاجتمعت تحت يدي طائفة من الاخبار والتراجم اقل ما توصف بهأنها لا تخضع للتواصل والتنسيق فهذا مؤرخ من القرن الثامن ، وهذا فيلسوف يتخذ مكانه الى جانب اديب عابث ، وهذه ترجمة طبيب بجانب ترجمة فقيه ، وسيرة حاكم بجانب سيرة قارىء ،

وكان اظهر ما يسود هذه المدونات خلوها من الروابط التي تشدها الى عجلة التاريخ بحيث يعرف كل اديب وكل عالم وكل لغوي وكل مفكر في عصره السياسي الذي اظله وفي ظل الاوضاع الاجتماعية التي عاشها .

ومن اجل ذلك كله عقدت العزم على تاليف هذا الكتاب الذي حرصت فيه على دراسة حركة الادب والثقافة قرنا فقرنا منذ اكثر من قرن قبل الاسلام ، وقد دابت فيه على تقديم فترة كل مائة سنة باوضاعها السياسية ودولها القائمة واحوالها الثقافية والاجتماعية ، ثم اخلص من ذلك الى التعرض لحركة الشعر والنثر وانواع الفنون محللا او مقيما بحسب ما يتطلبه البحث ويستدعيه مقام الكلام .

ولا يعني هذا اني قدمت كل مائة سنة بكل من ظهر في تلك المائة من ادباء وشعراء وفقهاء ومحدثين وعلماء ومؤرخين . كلا فاني لو قد فعلت كل ذلك لما اتسع هذا الجزء الاول من الكتاب لهذه التراجم والسير التي وصلت بها الى نهاية القرن الثامن للهجرة ، وانما كان وكدي ان اقدم ابرز الوجوه الممثلة لكل قرن مع تقديم النماذج القصيرة والامثلة الموجزة التي تجلو ملامح ذلك القرن وتسلط على اعلامه الاضواء الكاشفة . وقد يحدث اثناء استعراض فترة من الفترات ان اربط بينها وبين فترة مماثلة في مصر او العراق او الشام او اي قطر عربي وذلك عملا بالوحدة الثقافية التي كانت ولا تزال ، تربط بين اجزاء الوطن العربي ولكن ذلك لم يحصل الا عرضا وبطريقة لا تحيد عن الغرض الذي وضع من اجله الكتاب وهو التاريخ للادب والثقافة في القطر اليمني وحده .

وقد رجعت في هذا الكتاب الى عشرات المصادر والمراجع بعضها مطبوعة وبعضها مخطوطة ، واشرت الى كثير منها في حواشي الكتاب وما لم اذكره في الحواشي فقد ذكرته في ثنايا سطور الكتاب ، وقد تجنبت — وخاصة فيما يمس نصوص ما قبل الاسلام والنصوص الادبية لفجر الاسلام — الافاضة بل تجنبت الاشارة الى اختلاف الروايات في هذا النص الشعري او ذاك او الاختلاف في نسبة هذا الشعر لهذا الشاعر او ذاك وذلك لكي لا اشوش ذهن القارىء ، وقدمت ما صحت روايته وثبتت نسبته بالتواتر والاجماع لاني ارى ان هذا هو الطريق السليم للتمتع بجماليات الادب وحسن التذوق الشعري .

وهذا الكتاب هو كما اسلفت خاص بالادباء والشعراء الذين عاشوا غالبا داخل اليمن وقد اشرت فيه (1) الى الهجرة الواسعة التي تقاطرت فيها جموع حافلة من الادباء والعلماء والمؤرخين ورجال الفقه واللغة الى خارج اليمن ، ومن هذه الجموع المستقر في مكة او الكوفة او البصرة وفي بغداد او دمشق او مصر ومنها السائر في ركب الفتوح الممتد عبر خط عريض يبتدىء من العراق

---

١ — انظر الفصل الخاص بالقرن التالي للهجرة من هذا الكتاب .

وسوريا ومصر وفلسطين الى المغرب فالاندلس فهذه البقاع كانت الهجرة مستمرة من اليمن اليها .

وسيطول الكلام لو تحدثنا عن هذه الهجرة وأعلام اليمنيين الذين لمعت اسماؤهم خارج اليمن ومنهم الشاعر والمقري والمفسر والمحدث والنحوي واللغوي وليس من غرضنا ان نترجم الاعلام اليمنيين خارج اليمن ، وانما نحن نستعرض حركة الادب والادباء داخل اليمن واذا دخل في نطاق الكتاب شخصية او شخصيات عاشت خارج اليمن فترة او فترات فعلى اساس انها لم تنقطع عن اليمن مولدا او منشأ او وفاة .

وكنت اود ان يخرج هذا الكتاب مشتملا على معجم وفهرس لمفردات اللغة وأسماء المواقع والبلدان ولكني أحسست ان ذلك يحتاج الى شيء من الوقت قد يعوقني عن المضي في جمع وترتيب وتبويب وصياغة المادة الخاصة بالجزء الثاني لهذا الكتاب ورأيت ان من الاصوب تأجيل ذلك حتى يتم تأليف الجزء الثاني الذي سيشتمل — ان شاء الله — على هذا المعجم والفهرس لكلا الجزأين .

هذا وتقتضيني امانة الضمير الادبي والشعور بمسؤولية الحرف ان اتقدم بأجمل آي الشكر والتقدير الى الاخ علي ناصر محمد رئيس مجلس الوزراء فهو الذي شجع على القيام بهذا العمل الادبي وفرغني من اجله وهو الذي يعود اليه الفضل في خروج هذا الكتاب الى عالم النور .

محمد سعيد جراده

٣٠ رمضان ١٣٩٧
الموافق ١٣ سبتمبر ١٩٧٧

المركز اليمني للابحاث الثقافية

لغة اليمن قبل الاسلام :

كان هذا الموضوع حساسا ومثيرا . شحذ من اجله أدباء اليمن اقلامهم — وبخاصة في الستينات — مراجعين او مناقشين أو معارضين للراي الذي أدلى به الدكتور طه حسين في كتابه « في الادب الجاهلي » والذي افترض فيه ان اليمن لم يكن لها أدب في عهد ما قبل الاسلام وأن لغتها لم تكن اللغة العربية .

وكان الدكتور طه حسين في رأيه ذاك قد استند الى وجهة نظر استشراقية وكانت حجته في هذا الرأي تستند الى وجوه الاختلاف بين لغة النقوش المكتشفة في اليمن ، واللغة السائدة في شمال شبه الجزيرة العربية، على النحو الذي أكده بقوله :

« ١) (أن البحث الحديث قد أثبت خلافا جوهريا بين اللغة التي كان يصطنعها الناس في جنوب البلاد العربية واللغة التي كانوا يصطنعونها في شمال هذه البلاد ، ولدينا الآن نقوش ونصوص تمكننا من اثبات هذا الاختلاف في اللفظ وفي قواعد النحو والتصريف أيضا) .

ولم ينكر الدكتور طه حسين تكلم اليمن بالعربية بل هو انكر فيما انكر نصوص الشعر المروى عن اليمن قبل الاسلام . ففي فصل عقده حول شعر اليمن تحت عنوان « وهل لليمن في الجاهلية شعراء قال :

٢) « ولكننا نقف من هؤلاء الشعراء جميعا لا نقول موقف الحيطة بل موقف الرفض والانكار فأمر هؤلاء الشعراء قائم كله على خطأ اساسي أو قائم كله على تكلف قصد به التضليل » .

ويدلل على هذا الزيف والتكلف والتضليل القائم في تاريخ اليمن الادبي بقوله في نفس الصفحة من نفس المصدر .

---

(١) في الادب الجاهلي طه حسين .

(٢) نفس المصدر ص ١٨٠ .

٣) « ان القدماء زعموا او خيل اليهم أن اهل اليمن عرب كغيرهم من العرب فيجب ان يكون حظهم من الشعر والشعراء كحظ غيرهم من اهل الحجاز ونجد ، واذا كان الامر كذلك فلا بد من أن يكون لكل قبيلة شاعرها أو شعراؤها ، ولا بد من ان تكون السنة اليمنيين فصيحة عذبة كما كانت السنة العدنانيين » .

وخلاصة آراء الدكتور في هذا الفصل تذهب الى انكار الهجرة اليمنية الى الشمال كهجرة الاوس والخزرج والازد وقضاعة التي استوطنت الشمال وانكار وجود شعراء ما قبل الاسلام واعتبار ما خلفوا من آثار عملا من اعمال الاضافة والنحل والتزيد صنعه المتأخرون بلغة شمال الجزيرة . « وأن العرب العاربه انما هم العدنانيون وأن العرب المستعربة انما هم القحطانيون ولكنهم استعربوا بعد الاسلام لا قبله » (١) .

« وقد أثار كتاب الدكتور طه حسين ابان صدوره ضجة كبيرة وكتبت حوله الردود المختلفة التي تبين فساد المنهج الذي اتبع في الكتاب ، فمن الكتب التي ناقضته كتاب الاستاذ مصطفى صادق الرافعي « تحت راية القرآن » وكتاب الاستاذ محمد فريد وجدي « نقد كتاب الشعر الجاهلي » وكتاب الاستاذ محمد الخضر حسين نقض « كتاب في الشعر الجاهلي » وكتاب محمد احمد الغمراوي « النقد التحليلي » وكتاب محمد لطفي جمعه « الشهاب الراصد » واغلب مؤلفي هذه الكتب ركزوا على تجريح « نظرية الشك » التي استخدمها الدكتور طه حسين ومجافاتها لاسلوب البحث العلمي ، الذي يقوم على النظر والاستدلال والبحث العلمي ، ومقابلة النصوص بعضها ببعض دراسة ونقدا وتحليلا اكثر مما يقوم على الظن والافتراض والحكم على قضايا التاريخ حكما اعتسافيا لا يبذل فيه الباحث والناقد والعالم والاديب الجهد والمعاناة المنتظرين ممن يتصدى لدراسة آثار الانسانية في أي مجال من مجالات العلم والتاريخ وقضايا الفن والادب .

في الستينات من هذا القرن :

وفي اليمن وبالذات في الستينات اثار بعض ادباء اليمن غبار هذه المعركة من جديد ، ففي عام ١٩٦٤ . أصدر زيد بن علي الوزير كتابه « دراسات في الشعر اليمني — القديم الحديث — وفيه فصل عقده تحت عنوان (٢) «الشعر بين الحقيقة وطه حسين » وفي هذا الفصل يفند راي الدكتور فيما يتعلق بخلو لغة النقوش اليمنية من النصوص الادبية معتمدا على راي المؤرخ جواد علي الذي يقول :

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(١) في الادب الجاهلي ص ٩١ .

(٢) دراسات من ص ١٥ الى ٤٠ .

« ان الكتابات المعينية والحضرمية والسبأيه تخلو من النصوص الادبية من شعر ونثر والنصوص الدينية من ادعية وصلوات ، وهو أمر قد يبدو غريبا ولكننا لا نستطيع ان نحكم حكما قاطعا في هذا فما وصل الينا قليل وما لم يصل الينا اكثر والحكم بيد المستقبل » (٣) .

وزيد الوزير يتخذ من قول المؤرخ جواد علي دليلا على أن الدكتور قد تعجل في الحكم على أمر بانت له اوائله ولم تتبين له أواخره وأنه قد بنى رأيه على حقيقة علمية غير كاملة لان النقوش التي ظهرت لا تصلح ان تكون الدليل الحاسم في هذا المجال .

وفحوى آراء زيد في هذه القضية ان الدكتور قد اعتمد على المكتبة العربية فيما زجحه من آراء ولم يعتمد على المكتبة اليمنية ، وأن آراءه لا تخرج عن اطار الظن وتلك خطيئة علمية ، وبالاخص عندما يلح الراي في طلب الدليل المادي وأن المكتبة اليمنية زاخرة بوجود شعراء يمنيين كثيرين قبل الاسلام مما يدل على أنهم أخضعوا لغة الشمال للادب وهو أمر يحتاج الى وقت غير قصير ، ويستشهد زيد الوزير برأي ولفنستون حول هجرة اليمنيين التي يقول بأن هذه الهجرة قد استوطنت بلدان شمال الجزيرة العربية وأثرت في لغات القبائل الحجازية واقلامها وفي حضارتها تأثيرا عظيما .

وفي حدود عام ١٩٦٥ ، اي بعد عام واحد من صدور كتاب « دراسات في الادب اليمني » لزيد الوزير ، اصدر الشاعر اليمني احمد الشامي كتابه « قصة الادب في اليمن » وفيه عرض لنفس القضايا الذي عرض لها الوزير في الفصل الذي عقده في كتابه حول لغة اليمن وشعر اليمن .

والذي نود ان نقوله في هذا الصدد ان لغة اليمن قبل الاسلام لم تشكل معضلة من معضلات « علم اللسان » وما كان لمثل هذه القضية ان تثير هذا الخلاف الطويل العريض ، بسبب جملة قالها او رواها عبد الله بن سلام الجمحي عن ابي عمرو بن العلاء (٤) « وما لسان حمير واقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا » وهي جملة عابرة لعله قصد بها بعض لهجات حمير التي حددت الجملة انهم من اقاصي اليمن ولا تزال امثال هذه اللهجات المختلفة عن الفصحى متداولة الى اليوم في بعض مناطق اليمن كسقطرى وحضرموت وبعض المناطق الاخرى من اليمن .

أجل لم تشكل اللغة معضلة لدى القدماء ، فكل ما أورده المؤرخون من خطب ومناظرات في مجالس الخلفاء والقادة في فجر الاسلام ، لا تلفت النظر الى وجود خلاف بين لساني عدنان وقحطان واذا وجد شيء من ذلك فهو خلاف طفيف كالذي قيل في شنشنة اليمن التي ينطق بعض أبنائها الكاف شينا «كلبيش» أي لبيك ويقلب بعض أبنائها التاء كافا الى يومنا هذا « عصيك » أي «عصيت» ولكن مثل هذه العيوب ان صح انها عيوب موجودة في لهجات كثير من القبائل

(٣) نفس المصدر ص ٢٤ .

(٤) طبقات الشعراء لابن سلام ص ٨ مكتبة الثقافة العربية .

غير اليمنية كتميم التي تكسر أول الفعل المضارع وهو مرفوع وكهذيل التي تنطق العين نونا فتقول أنطي ، أي أعطي ومثل ذلك تنطق أنطي في بعض أنحاء اليمن وفي العراق الى يومنا هذا .

ونحن لا نحب أن نفضي الى مصادر الأدب العربي القديم التي قدمت النماذج الكثيرة من قصائد شعراءاليمن وكلمات خطبائهاواسجاع كهانها لانحب أن نفضي الى ذلك قبل الافضاء الى المصادر العلمية الجديدة ، مصادر العلماء المتخصصين في دراسة « الحضارة اليمنية » الذين توصلوا من دراسة النقوش والآثار اليمنية الى نتائج لمَ تكن معروفة في الفترة التي ألف فيها كتاب في الشعر الجاهلي .

ففي الندوة العالمية للحضارة اليمنية التي انعقدت في عدن في الفصل الأول من عام ١٩٧٥م تحدث الدكتور بتروفسكي من الاتحاد السوفياتي (٥) عن الترا ث اليمني في الحضارة الاسلامية « ومن الامور التي ناقشها في بحثه قضية الخط الحميري وهجرة القبائل اليمنية وأثرها في توحيد لغة العرب قال «لتاريخ اليمن الأهمية الخاصة لان الحضارة اليمنية كانت أكثر تطورا من حضارات الجزيرة العربية القديمة وقد اثرت تأثيرا كبيرا على المناطق العربية الاخرى ان اليمن القديمة قد لعبت دورا بارزا في حياة الجزيرة العربية قبل الاسلام وخاصة في القرون الاخيرة عندما قام ملوك حمير بالسياسة النشيطة في جميع نواحي الجزيرة ، وساعدت التجارة اليمنية قديمة الاصل على توحيد الجزيرة العربية اقتصاديا ، وكانت الانجازات الثقافية والفنية تنتشر مع التجار واستخدمت القبائل الشمالية الخط الحميري لانشاء الكتابة اللحيانية والثمودية والصفوية ، وقد ساهمت هجرات القبائل اليمنية وتدخل القبائل الشمالية الى اليمن في توحيد لغة العرب وثقافتهم وكانت الملاحم والاساطير اليمنية مشهورة في الجزيرة العربية ، وكان الشعراء يعرفونها وذكرها القرآن الكريم » .

وما أكثر الكتب التي أشارت الى لغات القبائل اليمنية الواردة في القرآن وما أكثر الالفاظ التي عزاها علماء القراءات الى قبائل يمنية وفي مقدمتها كتاب الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ، وما أكثر معاجم اللغة ومصادرها التي عرضت لهذا الموضوع كالصحاح للجوهري ولسان العرب لابن منظور وتاج العروس للزبيدي لقد تحدثت هذه المصادر وعشرات المصادر غيرها عن المفردات اليمنية في القرآن .

وفي البحث الذي قدمه الدكتور محمود علي الغول في ندوة الحضارة اليمنية تحت عنوان « مكانة نقوش اليمن القديمة في تراث اللغة العربية الفصحى » (٦) نقتطف من هذا البحث قوله :

« اخترت لهذه المحاضرة اليوم أسئلة وشواهد لها علاقة بالقرآن والحديث

---

(٥) الحكمة عدد ابريل ١٩٧٥ ص ٥٤ .
(٦) نفس المصدر .

وأمور من سيرة الرسول وأحوال صدر الاسلام ليعرف منها أن الحاجة ماسة الى معرفة نقوش اليمن القديم » .

ذكر بعض المفسرين وكثير من أهل اللغة ألفاظا وردت في القرآن الكريم ، ونصوا على أنها من أصل حميري أو أنها لغة حميرية ، ثم يفضي الدكتور الغول الى الآية الكريمة التي تقول « أن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها » والى قوله عليه السلام لبني الذار ورئيسهم حين سلمهم مفتاح الكعبة خذوها بأمانة الله وأعملوا فيها بالمعروف وهو يعقب على ذلك بقوله :

«المفسرون يفسرون الامانات هنا على انها ما أؤتمن عليه الانسان. معنى عام مطلق ولكننا نجد في النقوش شيئا يجعلنا نرى في الآية اذا أخذت على التخصيص بسبب النزول اصطلاحا دقيقا، وذلك اننا نعرف من النقوش المعينية أنه كان في معين طبقة أو جماعة مخصوصة تسمى أهل الأمانات يبدو أنها كانت تتوارث تلك المكانة ، وقد حدد في نقش بعينه ان الذي يحجب الاله اي يتولى حجابة بيته هو رئيس أهل الامانات واذا ذكرنا حجابة البيت التي يكون فيها الشرف في مكة أدركنا أن استعمال الامانات في الآية الكريمة في معرض ذكر الحجابة فيه اكثر من صدى لمعنى الامانات في مصطلح اهل الامانات في النقوش المعينية » .

ويعرض الدكتور الغول للفظ « خليفة » و « مصر » و « هجرة » فيقول : وردت كلمة خليفة في النقوش المتأخرة ولا سيما نقش أبرهة الحبشي المشهور عند سد مأرب وفيه كلمة خليفة بمعنى من ينوب عن صاحب الامر أو يحكم باسمه كما وردت لفظة « استخلف » بمعنى اتخذ أحد الناس خليفة .

وكذلك لفظ مصر فسرها اللغويون بأنها مأخوذة بمعنى الحد أو العلامة ؛ فكأنما البصرة والكوفة كانتا على حدود جزيرة العرب وخير منه أخذ معنى «مصر» من مصر في نقوش جزيرة العرب حيث تستعمل لمحطة العسكر والمقاتلين .

أما الهجرة وهي قضية كبرى في الاسلام فقد اشتقها الناس من هجر المكان بمعنى تركه وان هجرة النبي ومن معه كانت تركهم مكة الى المدينة ، وهذا ليس صحيحا على علاته ، فالهجرة مأخوذة من الهجر وهي بلغة النقوش ولغة حمير القرية أو المدينة التي فيها سلطان او من ينوب منا به ومعنى هاجرٌ هو اتخاذ الهجر دارا للاقامة والتقيد بطلعة صاحب الامر فيها .

وفي « مشروع ورقة عمل لندوة الحضارة (٧) الذي أعده المؤرخ اليمني سلطان ناجي وفي فقرة من كلمته تحت عنوان تأليف مدونة عربية للنقوش اليمنية تحدث عن الدراسة الاخيرة للوثائق السريانية التي كتبت حول: مذبحة نجران» أو ما يسميها القرآن بقصة أصحاب الاخدود قال المؤرخ اليمني سلطان ناجي :

ان تلك الوثائق تشير الى قضايا هامة تاريخية ولغوية خاصة فيما يتعلق بقضية اللغة العربية ودور اليمن فيها ، فمن تلك النتائج الهامة التي توصل

---

(٧) نفس المصدر

اليها المؤلف أنه استطاع أن يبرهن على أن هذه الرسائل التي قام بنشرها وتحليلها مؤخرا الاستاذ عرفان شهيد ، قد كتبت أصلا باللغة العربية عام ٥٢٠ للميلاد وذلك لان كاتبها « سيمون » يشير في آخرها بأنه قد تلقى تقارير هذه الحوادث — مذبحة نجران — وهو في المعسكر الغساني في الجابية مكتوبة باللغة العربية ، وقد برهن المؤلف على أن هذه اللغة النجرانية ما هي الا اللغة العربية ، وفي هذا الصدد يقول عرفان شهيد في صفحة ٤٠ من كتابه شهداء نجران :

ان هذا يثبت أن اللغة العربية التي سبق أن برزت كلغة شعرية أدبية منذ القرن الخامس الميلادي قد برزت منذ مائة عام قبل الهجرة كلغة مكتوبة بالمعنى الواسع وليس بالمعنى المحدود للغة تستخدم لكتابة النقوش .

ان هذه الحقيقة ذات أهمية قصوى لحل القضايا الكبرى كقضية وجود نسخة عربية للانجيل قبل الاسلام ومسألة تدوين الشعر العربي في الجاهلية ، ومن ابعاد هذا الاكتشاف هو انه يقضي نهائيا على الجدل الذي أثير منذ العشرينات من هذا القرن حول لغة اليمن قبل الاسلام وعن قضية اختلاف الحميرية عن العربية ، ان هذا الاكتشاف يؤكد أن اليمن هي مصدر الاثنتين الحميرية والنجرانية أي العربية على السواء .

تلك آراء أكثر من عالم من علماء النقوش ، حول لغة النقوش اليمنية وتأثيرها على مفردات اللغة الفصحى والجديد في هذه الاراء انها تزيل كثيرا من آثار ذلك الوهم الذي كان سائدا في العشرينات من هذا القرن والذي انحجبت من جرائه كثير من حقائق التقارب بين لهجات اليمن القديم واللغة العربية الفصيحة .

أما مصادر التاريخ القديم للادب العربي فطافحة بالاخبار التي تتحدث عن وحدة اللغة بين الجنوب والشمال من بضعة قرون سبقت الاسلام ، ففي «البيان والتبيين» للجاحظ ، وفي «الكامل» للمبرد ، وفي الآمالي لابي علي القالي وفي طبقات الشعراء لابن قتيبة ، وفي « المختلف والمؤتلف » للامدى ، وفي « معجم الشعراء » للمرزباني ، وفي كثير من أمثال هذه المصادر الشيء الكثير من خطابة اليمن وشعر اليمن قبل الاسلام ، ذلك لان الشقة لم تكن متباعدة بين الجنوب والشمال فكلا القطرين واقع في الجزيرة العربية ، ولقريش احدى رحلتي الشتاء والصيف الى اليمن ، والروابط التجارية وثيقة بين الطرفين ، والهجرة من الجنوب الى الشمال مستمرة ان لم تكن منذ وقوع حادث « سيل العرم » ، فعلى الاقل منذ تدهور الاوضاع السياسية منذ الاحتلالين الحبشي والفارسي ، وربما قبل هذه الفترة نظرا للصراع السياسي بين ملوك وحكام الطوائف ذلك الصراع الذي أدى الى وقوع اليمن فريسة في أيدي المحتلين من أبناء الحبشة وفارس .

واذا كانت هذه الروابط موجودة بين الجنوب والشمال في مجال التجارة

وفي مجال السياسة عن طريق التحالف بين القبائل المعروف في العصر القديم يضاف الى ذلك الرابطة الدينية عند زيارة اليمنيين مكة أثناء موسم الحج ، اذا وجدت أمثال هذه الروابط فأحر بأن توجد الرابطة الثقافية بين الجنوب والشمال حيث كانت أسواق العرب ندوات متنقلة تتبارى فيها المواهب العربية شعرا ونثرا وخطابة الى غير تلك من قضايا السياسة والاجتماع .

واذا استثنينا أقوال علماء النقوش والاثار الذين عرضنا بعض آرائهم فيما يخص لهجات اليمن وتأثيرها على العربية ، اذا استثنينا هذه الاقوال ، والقينا نظرة على ما كتبه العلماء المختصون بدراسة اللغات السامية فسنجد أنهم يكادون يجمعون على أن القرن السادس لم يكد يبتدي حتى كانت لهجات اليمن قد ذابت كلها في لغة شمال الجزيرة التي اكتسحتها اكتساحا بحيث لم تدع لها مكانا في غير جدران المعابد وحجارة الاثار المدونة بالخط المسند ، وفي هذا الصدد يقول ولفنستون استاذ اللغات السامية في كتابه تاريخ اللغات السامية (٨) .

« اخذت اللهجات السامية في القرون القريبة من الاسلام تتمتع بقوة وعزة واستقلال فكانت تتدفق في نواحي الجزيرة بقوة وفتوة وروح يملؤه النشاط حتى كونت لنفسها أدبا جديدا وشعرا فتيا ، في ذلك الحين بدأت اللهجات في بلاد اليمن تتدهور وتتلاشى حتى كادت تفنى في القرن السادس بعد الميلاد فتقلص ظل اللهجات اليمنية وأفسحت المجال أمام الشمالية كما تقلصت اللغات السامية الاخرى في سوريا والعراق وأطراف الشام أمام اللغة العربية الشمالية » .

ومن النص المتقدم لولفنستون يقف المرء شبه حائر ذلك لان تاريخ حياة أكثر شعراء الجاهلية — وخاصة غير القريبين منهم الى عهد الاسلام — مجهول، ولعل تحديد فناء اللهجات اليمنية ببداية القرن السادس يدل على أن أصحاب هذا التحديد اعتمدوا فيه شعر امرىء القيس كأقدم نص يمني عرف فيه العصر الذي عاش فيه هذا الشاعر الذي يحدد الدكتور يوسف شلحود (٩) تاريخ وفاته بعد عام ٥٣٩ ميلادية ويقول في احدى فقرات بحثه الذي أعده لندوة الحضارة اليمنية .

« أميل الى الاعتقاد بأن توحد اللهجات في الجزيرة العربية قد بدأ قبل الاسلام بمدة طويلة بينما بقيت لغة البلاط سائدة لتدوين الحوادث وعلينا أن لا ننسى أن أمرىء القيس المتوفي سنة ٥٣٩ ميلادية كان من قبيلة كندة اليمنية، وفي ديوانه من الجمال في السبك والاتقان والمجاز ما يدل على أنه ليس أول من ابتدع القصيدة ولا شك في أنها قديمة العهد اذ لا يمكن أن يتم لها فجأة مثل هذا النضوج ، ومن البديهي ان يكون النضوج اللغوى سابقا لها » .

---

(٨) تاريخ اللغات السامية ، ص ١٦٨ .

(٩) مجلة الحكمة عدد أول ابريل ١٩٧٥ ، ص ٧٥ .

وناحية هامة تتصل بهذا الموضوع ناقشها الشاعر أحمد محمد الشامي في كتاب « قصة الادب في اليمن » وتدور حول « لغة النقوش اليمنية وانها لا يمكن أن تمثل بالضرورة لغة التفاهم المتداولة بين القبائل اليمنية ، وفي نفس الوقت لا يمكن أن تمثل لغة الشعر والقصيدة التي كانت توحد بين القبائل العربية جمعاء في الشمال والجنوب » وهو يستأنس في هذا الصدد بقول الدكتور مراد كامل الذي يقول (١٠) « من الغريب أن هذه النقوش اليمنية دونت لهجاتها المختلفة بأسلوب واحد في الفترة ما بين القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد وبين القرن الرابع أو الثالث ميلادي وهذا يوضح أن اللغة التي استخدمت في النقوش كانت لا تعبر عن لغة التخاطب » .

ويستشهد ايضا بقول الدكتور مراد كامل الذي قدم الدليل مصداقا لقوله وذلك حين قال : (١١) « اننا في مصر القديمة مثلا نرى نقوشا في المقابر والمعابد ولا تكاد هذه النقوش تتغير في أشكالها أو في نحوها وأجروميتها الا قليلا ، بينما نعرف من دراسة هذه النقوش المصرية أنه كانت للشعب لغة أخرى ولها صيغ نحوية أخرى بل واختلفت كتابتها اختلافا كبيرا جدا عن لغة النقوش التي كانت تكتب في العصر ذاته على واجهات المعابد وجدران المقابـــر » .

واذا صح أن لغة النقوش اليمنية مختلفة عن لغة التخاطب المتداولة فهل يصح القول أن الخط المسند كان هو الخط السائد في الرسائل والمكاتبات اليومية .. ان ابن خلدون في مقدمته (١٢) يتحدث عن « الخط الحميري وما بلغ مـــن الاحكام والاتقان والجودة في دولة التبابعة وكيف انتقل الى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر نسباء التبابعة في العصبية والمجددين لملك العرب بأرض العراق ومن الحيرة لقنه أهل الطائف وقريش » (١٣) . ويقول الدكتور جواد علي في كتابه « تاريخ العرب قبل الاسلام » « المسند من الاقلام العتيقة وهو أعتق من القلم النبطي بل أقدم الاقلام التي وجدت في شبه الجزيرة العربية وهو أقدم حتى من الابجدية الكنعانية التي يزعم فريق أن المعينيين تعلموا الخط المسند مـــن الكنعانيين برابط التجارة معهم بدليل أن الكنعانية ينقصها حروف و ، ض ، ظ ، س ، ث ، غ ، ويرى كثير من الباحثين أن الاقلام التي عثر عليها في الجزيرة العربية كلها متفرغة من الخط المسند ، وهي تعد متأخرة الى حوالي القرن الاول للميلاد وهذا القرن محل نظر فقد وجدت نقوش تحمل أبجديات أخرى وهي تعود الى ما قبل هذا التاريخ .

ويعد بعض خبراء الخط العربي (١٤) مجموعة من الخطوط العربية كانت

---

(١٠) قصة الادب في اليمن ، احمد الشامي ، ص ٥٢ .
(١١) المصدر السابق ، نفس الصفحة .
(١٢) مقدمة ابن خلدون ٤١٨ .
(١٣) تاريخ العرب قبل الاسلام .
(١٤) بدائع الخط العربي ، ناجي زين الدين المصرف .

متداولة قبل الاسلام من أهمها الخط الكوفي والنبطي والصفوي والثمودي وكل هذه الخطوط متأثرة بالخط الحميري ، وعنها أخذت قريش الخط بفترة وجيزة قبل الاسلام .

ولسنا نشك في أن اليمن كانت تستعمل أحد أو بعض هذه الخطوط قبل الاسلام لانها تتناسب وقواعد النحو التي تأصلت في اللغة الموحدة بين الشمال والجنوب بل بين هذه اللغة في شبه الجزيرة واللغة العربية في العراق والشام أيام الغساسنة والمناذرة والمتمثلة في شعر النابغة الذبياني والمنخل اليشكري وغيرهما من الشعراء الوافدين على المناذرة والغساسنة في العراق والشام قبل الاسلام .

وما دمنا قد أثبتنا من أقوال العلماء والباحثين لغة اليمن الفصيحة التي كانت تتكلمها قبل الاسلام بوقت طويل والتي لا تختلف عن اللغة السائدة في الشمال بل وفي العراق والشام ، والخط الذي كتبته والذي كان متداولا في الجهات السالف ذكرها فلا بد من أن نشير الى ناحيتين طال فيهما الاخذ والرد بين الداحثين في قضايا التراث العربي وخاصة في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن ، الناحية الاولى تمس قضية جهل العرب بالكتابة قبل الاسلام والناحية الثانية تمس قضية الانتحال والنحل في شعر تلك الفترة .

لقد كان الرأي السائد لدى كثير من الدارسين والباحثين في التاريخ الثقافي للامة العربية أنها أمة لم تعرف التدوين قبل الاسلام ، وان أول أثر مكتوب من اثارها هو القرآن ، واستشهدوا بطلب الرسول من أسرى بدر أن يفتدوا أنفسهم بتعليم مجموعة من المسلمين الكتابة ، وضربوا المثل من أمية الرسول عليه السلام وعدم المامه بالقراءة والكتابة الى غير تلك من الاستنتاجات التي أصبحت وكأنها قضية مسلمة ليس الى نقضها من سبيل .

والواقع أن الامة العربية قبل الاسلام كانت مجزاة ومفككة وواقعة تحت قهر سياسي واجتماعي ، فاليمن واقعة تحت نير الحكم الفارسي وقبله الحبشي والمجتمع اليمني بعضه في الداخل يعاني مرارة الاحتلال الاجنبي وبعضه مهاجر في الحجاز وفي العراق والشام ، وقد تداعت أركان الحضارة اليمنية ، وغشيت العقل اليمني سحابة من الركود حال بين القلم وبين تدوين ما أبدع العقل اليمني من أدب رفيع وفن خصيب .

وكان المجتمع العربي في شمال الجزيرة مجتمعا فئة قليلة منه تحترف سدانة البيت الحرام الذي يدر عليها رزقا كفافا تنتظره عاما بعد عام ، وفئة اخرى اقل منها تمسك بدولاب التجارة لا يهمها غير تأمين طرقها من صعلوك ثائر أو فاتك مغير ، والفئة الاخيرة وهي الاكثر عددا كانت وحدات متناثرة من قبائل الرعاة يقاتل بعضها بعضا من اجل الماء والكلأ .

وطبيعي في أمة كهذه أن تنتشر فيها الامية ، ولكن من غير الطبيعي أن يكثر في مثل هذه الامة الادباء والشعراء والخطباء والحكماء الذين يتبارون بعرض

انتاجهم في أسواق العرب وهم جميعا لا يعرفون الكتابة ولا يعتمدون في تدوين أفكارهم وتسجيل ثقافاتهم على غير الذاكرة والذاكرة وحدها .

لقد ورد في القرآن ذكر الصحف مثل « ان هذا لفي الصحف الاولى صحف ابراهيم وموسى » الايتان ١٨ و ١٩ من سورة الاعلى ، واذا الصحف نشرت « الاية العاشرة من سورة التكوير ، في صحف مكرمة » الاية ١٣ من سورة عيسى . .

وورد ذكر القلم مثل « ن والقلم وما يسطرون » الاية الاولى من سورة ـ ن ـ « الذي علم بالقلم » الاية ٤ من سورة العلق « ولو أن ما في الارض من شجر أقلام » الاية ٢٦ سورة لقمان « وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم » الاية ٤٣ آلُ عمران .

وتكرر ذكر مادة كتب والكتاب عشرات المرات في القرآن مثل ذلك الكتاب لا ريب فيه الاية (١) من سورة البقرة « تلك آيات الكتاب الحكيم » الاية (١) من سورة يونس « الم تلك ايات الكتاب الحكيم » الاية ١ من سورة لقمان ، الى تلك «آيات الكتاب المبين» الاية الاولى من سورة يوسف « كتاب فصلت آياته قرآنا » الاية ٣ من سورة فصلت « كتاب مرقوم » الاية ٢٠ من سورة المطففين « كراما كاتبين » الاية ١١ سورة الانفطار .

ان هذه الايات لتشير بوضوح الى أن الكتابة ليست شيئا جديدا على العرب قبل الاسلام ، وفي التاريخ شواهد تدل على ذلك ، وأقربها الى الاذهان ما ذكر المؤرخون عن القصائد المعلقة على البيت الحرام (١٥) وما ذكروه عن الصحيفة التي علقها قريش في مقاطعتها للنبي عليه السلام والتي استنكرها المطعم بن عدى وعمل على تمزيقها ، ومشهورة قصة الصحيفة التي حملها طرفة بن العبد الى عامل عمرو بن هند في البحرين ، والتي القاها المتلمس وفر ناجيا بنفسه وحملها ابن أخته طرفة بن العبد فلقي حتفه بسببها وذلك بعد هجائها عمر بن هند وفي ذلك يقول المتلمس (١٦) :

أودى الذي علق الصحيفة منهما ... ونجا حذار حبائه المتلمس

ومتواترة أخبار المؤرخين التي تذكر أن ورقة بن نوفل (١٧) « كان عم خديجة وكان نصرانيا قد تتبع الكتب وعلم علم الناس » .

وفي الشعر الجاهلي ورد ذكر القلم مكررا قال المرقش الاكبر :

الدار قفر والرسوم كما ... رقش في ظهر الاديم قلم

وقال شراح هذا البيت وبهذا البيت سمى مرقشا (١٨)

---

(١٥) بدائع الخط العربي ناجي المصرف .

(١٦) شرح شواهد المغني للسيوطي ج ١ ص ٢٩٥ .

(١٧) تايخ ابن اسحاق حاشية ابن هشام ، ص ١٨٤ طبعة المغرب العربي .

(١٨) شواهد المغني ج ٢ ، ص ٨٨٩ والمفضيلة رقم ٥٤ والشعر والشعراء ، ص ١٦٢ .

وكان لبيد العامري كاتبا في الجاهلية وهو قائل هذا البيت :

وجلا السيول عن الطلول كأنها زبر تجد متونها أقلامها (١٩)

وقال امرؤ القيس ذاكرا القلم :

لمن طلل أبصرته فشجاني كخط زبور في عسيب يمان

وقال في وصف الطلول ذاكرا القلم :

أتت حجج بعدى عليها فأصبحت كخط زبور في مصاحف رهبان

ومع ذلك فنحن نقول أن الخط العربي قد تطور تطورا كبيرا في العصور الاسلامية حيث تنوعت الوان الخط ودخلت عليهاشكال من الزخرف والتزيين تأثرت بالحضارة الاسلامية ومعطياتها الجديدة .

ومما هو جدير بالملاحظة في هذا الصدد ، الكتب التي ألفت في عصر الاسلام والمشتملة على علم الانساب وسلاسل التاريخ القديم لملوك معين سبأ قتبان وحمير ، ومن أمثلة هذه الكتب مؤلفات ابن الكلبي وعبيد بن شرية والهمداني ، لقد اشار علماء النقوش في ندوة الحضارة اليمنية الى كثير من سلاسل ملوك اليمن القدماء الواردة في تلك الكتب وتطابقها مع ما ورد في النقوش اليمنية من حقائق تاريخية .

ترى أيمكن أن نقول أن هذه السلاسل والجداول للاعلام والمواقع المذكورة في تلك الكتب اعتمدت على الذاكرة وحدها ، ان العقل ليستبعد ذلك ان لم يكن هناك احتمال قوي لوجود خط معروف تناقله المؤرخون خلفا عن سلف منذ عصور موغلة في القدم قبل الاسلام ، هذه قضية نلفت اليها النظر وان كنا لا نملك الادلة الواضحة التي تجعلها حقيقة لا تقبل شكا ولا نقضا .

---

(١٩) ديوان لبيد العامري المعلقة .

قضية النحل والانتحال في الشعر :

ومسألة النحل والانتحال في الشعر ليست جديدة أثارها المحدثون ، وانما مي مسألة قديمةاتهم بهابعض رواةالشعر، واتهم بمثلهابعض الذين عرضواذلك الشعر على الرواة منتفعين من تكثير مادته باضافة البيت والبيتين والابيات الى القصيدة وربما باضافة القصيدة الى شاعر لم يقلها ، هذا اللون من النحل وجد في تاريخ الشعر العربي وكان وجوده خاضعا لظروف الارتزاق حينا ، ولظروف السياسة حينا اخر ، ولكن من الحق أن نقول أن هذا النحل لم يكن الطابع العام لكل ما ورثه العرب من شعر الفترة التي سبقت الاسلام .

ان من أصعب الامور أن ينسب الى أبناء فترة متأخرة كل فن وكل أدب فترة متقدمة نظرا لبعد ما بين الفترتين من فوراق في أساليب الحياة وتغير الاحداث واختلاف الزمان والمكان وخصائص البيئة ، وخوالج الشعور والوجدان .

لقد تقدمت الدراسات الادبية في الوطن العربي وخاصة بعد العناية التي بذلها كثير من المستشرقين في طبع كتب التراث ودواوين الشعر العربي القديم وبالذات شعر ما قبل الاسلام ، وتوشك دواوين كثيرة من شعراء هذه الفترة أن تتكامل حلقاتها ، بفضل عناية الباحثين المتخصصين العرب ، وقد دلت أكثر هذه الدواوين المطبوعة على صدق نسبة هذا الشعر الى أصحابه تحت ضوء المنهج الذي يمتد عبر الخطوط التالية :

١ ـ قاموس الشاعر اللفظي الذي لا يمكن أن يشاركه غيره فيه تناولا واستعمالا .

٢ ـ تتبع اسماء المواقع والبلدان التي عاش فيها والتي وردت في شعره ليعرف منها أين عاش توصلا من ذلك الى فهم بيئته وتأثيرها على شعره .

٣ ـ تتبع الاحداث التي وصفها في شعره ، والشخصيات التي ذكرها

ليعرف منها عصره عن طريق الرجوع الى تاريخ أيام العرب ووقائعهم وأحوالهم.

٤ ــ المقابلة بين المراجع والمصادر التي روت شعره ليعرف أكثرهــــا تواترا وأرجحها وزنا وأقومها قيلا .

٥ ــ تشخيص السمات العامة لشــعره تمثلا لمزاجــه الفني واستبطان خصائص أسلوبه سهولة أو خشونة وتبديا أو تحضرا ، ومقارنة ذلك بمجموعته الشعرية بحسب ما تقدمه معطيات كل مقطع وكل قصيدة من قصائده .

وعن طريق هذا المنهج السليم بدأت تتكشف كثير من الحقائق التي كانت تتوارى تحت ستار كثيف من أوهام الباحثين الذين كان رفض شعر ما قبــل الاسلام أيسر طريق سلكوه للتخلص مما تكلفهم الرحلة في افاق هذه الفترة من مشاق ومتاعب .

نثر اليمن قبل الاسلام :

حين تلقي النظر على المدونات القديمة في التاريخ تقف على سيل هامر من الاخبار عن الامم البائدة مثل طسم وجديس والعمالقة وعاد وثمود وجرهم وغيرها من الشعوب والامم وكل الاخبار عن هذه الامم الخالية منقطعة لا تشير الا الى هلاكهم وانمحاء اثارهم الا ما عثر على ما لهم من اثار قليلة لا تتجاوز معرفة القدماء عنهم معرفة العلماء المحدثين المختصين بدراسة النقوش والاثار القديمة .

ولكننا حين نراجع المدونات القديمة التي كتبت عن حضارة معين وسبأ وقتبان وريدان واوسان وحمير نقف على سلاسل كثيرة من تاريخ الملوك والدول تسمى اولئك الحكام وتشير الى خلفائهم في الحكم واحدا بعد واحد فكيف يمكن ان يتم ذلك كله اذا لم يكن تدوين قضايا التاريخ مسألة قديمة مكتوبة وليست مجرد رواية تتداولها أفواه الخلف عن السلف .

لقد كان الرأي السائد لدى كثير من الدارسين للحضارات القديمة أن تاريخ تلك الحضارات لا يمكن أن يستدل عليه بسوى النقوش والاثار المدونة فحسب وان روايات الاخباريين امر لا يعتمد عليه لانها روايات تقوم على الخلق والاختراع وتبتعد عن حقائق التاريخ .

كان ذلك هو الرأي السائد الى بداية هذا القرن ، ولكن اراء كثير من العلماء المختصين بدراسة الحضارات القديمة قد تغيرت كثيرا فيما يتعلق بهذه القضية فقد أصبحوا يؤمنون بأن روايات الاخباريين وخاصة أولئك الذين كتبوا عن حضارة اليمن أن رواياتهم مكملة لجهود الدارسين المحدثين أثبتت التجارب صدقها وتطابقها مع ما ورد في النقوش من قضايا الدول وحقائق التاريخ القديم .

ففي البحث الذي قدمه في ندوة الحضارة اليمنية الدكتور يوسف عبد الله الحكمة عدد أول أبريل ٧٥م تحت عنوان « التكامل في شواهد تاريخ اليمن القديم » لقد تحدث الدكتور يوسف عن الشواهد الكتابية وهي « المصدر

الثاني » وصلتنا في الكتب التي دونت بعد الاسلام على شكل أساطير وقصص وتاريخ وسجلت ما نقله الناس عن أمجاد أسلافنا قبل الاسلام بعضها كان ما زال قائما في عصر المؤلف وربما كانت تلك الاستمرارية التاريخية حافزا على تأليف هذه الكتب الى ان يقول وهذه الشواهد هي المصدر الثالث الذي نستقي منه شواهد التاريخ اليمني القديم .

والواقع أن كثيرا من الكتب التي ألفها الاخباريون في العصر الاموي أمثال ابن الكلبي وعبيد بن شرية ومن جاء بعدهم كابن اسحاق والواقدي كل هؤلاء رووا للتبابعة والاذواء شعرا كثيرا ونثرا كثيرا وقد تناقل هذا الشعر وهذا النثر من جاء بعدهم من المؤلفين في عصر بني العباس .

وقد لاحظنا ونحن نكتب الفصل السابق عن الشعر في اليمن أن عشرات الشعراء قبل الاسلام قالوا شعرا كثيرا دخل كثير منه في كتب شواهد اللغة وفي مجاميع الشعر وبقى أن نلقي نظرة على ما دونته هذه المصادر من الكلام المنثور ، ونثر اليمن قبل الاسلام يشبه النثر الذي كان يقال في شمال شبه الجزيرة وهو يعد نثرا متعدد الالوان يمكن ان نحصره في ما يلي :

نثر المثل :

والمثل اليمني يحتاج الى دراسة خاصة وعناية في التمحيص لان اكثر الامثال اليمنية التي قيلت في العصور التي سبقت الاسلام قد وردت متفرقة في كتب الامثال ضمن الامثال التي قالها العرب من كل حي وقبيل ومن نماذج المثل اليمني قول امرىء القيس اليوم خمر وغدا مر وقوله ايضا اضاعني صغيرا وحملني دمه كبيرا . (1)

نثر الكهانة :

ومن أمثلة هذا النثر ما رواه ابن اسحاق في تاريخه عن الكاهنين اليمنيين سطيح واسمه ربيع بن ربيعة ، وشق بن صعب بن يشكر قال المصدر المذكور أن ربيعة بن نصر ملك اليمن كان من بين ملوك التبابعة وقد بعث الى سطيح وشق يسألهما بصدد الرؤيا التي أفظعته وقد جاء سطيح فقال له الملك اليمني اني قد رايت رؤيا هالتني وفظعت بها فاخبرني بها فانك ان أصبتها أصبت تأويلها فقال « رأيت حممه خرجت من ظلمة فوقعت بأرض تهمه فأكلت منها كل ذات جمجمة قال ما أخطأت فما عندك في تأويلها قال أحلف بما بين الحرتين

---

(1) من المؤسف ان الهمداني اشار في الاكليل الى انه ضمن الجزء التاسع منه أمثال حمير وحكمتها ولو وجد هذا الكتاب لافادنا في هذا الباب كثيرا .

من حنش لتهبطن أرضكم الحبش فليملكن ما بين أبين الى جرش قال التبع وأبيك ان هذا لغائظ موجع فمتى هو كائن في زماني هذا أم بعده قال لا بل بعده بحين أكثر من ستين أو سبعين يمضين من السنين قال أفيدوم ذلك من ملكهم قال لا بل ينقطع لبضع وسبعين من السنين ثم يقتلون ويخرجون منها هاربين قال ومن يلي ذلك من قتلهم واخراجهم قال يليه ارم ذيزن يخرج عليهم من عدن فلا يترك أحدا منهم باليمن الى اخر الحديث ».

وقال شق كلاما لا يختلف عن كلام سطيح ومما قاله :

أحلف بمابين الحرتين منانسان لينزلن ارضكم السودان فليغلبنعلى كل طفلة البنان وليملكن ما بين أبين الى نجران ثم يستنقذكم منهم عظيم ذو شأن ويذيقهم أشد الهوان قال ومن هذا العظيم الشان الى اخر الحديث .

التحليل :

هذا اللون من الكلام كثرت أمثاله في عصور ما قبل الاسلام وكان الكهان ضروبا يدعون العلم بالغيب ويمارسون ألوانا من الشعوذة يخفونها وراء أثواب مزينة من اللغة البليغة والبيان الخلاب ، ومن أجل ذلكَ حرم الاسلام السجع الكهنوتي ، ولم يحرم السجع اذا كان موضوعيا يخدم فكرة صالحة وغرضا شريفا ومن أجل ذلك سأل النبي عليه السلام في استنكار الرجل الذي كان يستعمل السجع في غير وجهه الصحيح سأله مستنكرا أسجعا كسجع الكهان؟..

النثر الخطابي :

ومن ألوان النثر الذي قيلَ في اليمن النثر الخطابي الذي يستخدم في الاغراض السياسية ومن نماذجه الكلمتان اللتان تبادلهما عبد المطلب بن هاشم وفد قريش في الحفل الذي أقيم بقصر عمدان بصنعاء بعد جلاء الاحباش عن اليمن قال عبد المطلب بن هاشم :

« ان الله أحلك أيها الملك محلا رفيعا صعبا منيعا شامخا باذخا ، وأنبتكَ منبتا طابت أرومته وعزت جرثومته فيَ أكرم موطن وأطيب معدن ، فأنت أبيت اللعن ملك العرب ، وربيعها الذي به تخصب وأنت رأس العرب الذي له تنقاد وعمودها الذي عليه العماد ، ومعقلها الذي تلجأ اليه العباد فسلفك خير سلف وأنت منهم خير خلف فلن يخمل من أنت خلفه ، ولن يهلك من أنت سلفه نحن أهل حرم الله وسدنه بيته أشخصنا اليكَ الذي أبهجنا لكشفك الكروب عن وجوه العرب فنحن وفود التهنئة لا وفود المرزئية .

وقد أجاب سيف بن ذي يزن على هذه الكلمة بقوله :

مرحبا وأهلا وناقة ورحلا ومناخا سهلا وملكا ربلا يعطي عطاء جزلا قد

سمع الملك مقالتكم وقبل وسيلتكم ، وأنتم أهل الشرف والنباهة ولكم الكرامة ما أقمتم ، والحباء اذا ظعنتم .

التحليل :

هذه الوفود التي وصلت الى صنعاء مشاركة في أعياد النصر التي أقيمت احتفاء بمناسبة جلاء الاحباش هذه الوفود يدل وصولها الى اليمن على الروابط الوثيقة التي كانت تربط بين جنوب شبه الجزيرة وشمالها ، لقد كان جلاء الاحباش عن هذه البقعة الحضارية أمرا لا يخص اليمن وحدها وانما يخص العرب جميعا على النحو الذي أشار اليه عبد المطلب بن هاشم في كلمته .

وهاتان الكلمتان تدلان أيضا على تشابه الاساليب اللغوية بين الجنوب والشمال فكلا الطرفين يستعملان الكلمة المسجوعة ، ويتبادلان الشعور باللغة المتداولة في كلا القطرين .

وقد استعمل النثر قبل الاسلام في أغراض عديدة من أغراض الكلام فمما دار حول هذه الاغراض هذه الكلمات التي قالها عدد من الخطباء عزوا الزعيم اليمني سلامة فائش ممدوح الشاعر الاعشى الذي له فيه عدة قصائد مثبتة في ديوانه ـــ ديوان الاعشى وسياق الخبر نثبته بلفظ كتاب الامالي للقالي الذي يقول :

نشأ لسلامة ذي فائش ابن كأكمل ابناء الاقبال وكان به مسرورا يرشحه لموضعه واجتمعت وفود العرب ببابه ليعزوه فخرج الى الناس فقام خطباؤهم يؤسونه وكان في القوم الملبب بن عوف بن سلمه الجعفي فقام الملبب فقال معزيا:

« أيها الملك ان الدنيا تجود لتسلب وتعطي لتأخذ ، وتجمع لتشتت وتحلي لتمر وتزرع الاحزان في القلوب بما تفجأ به من استرداد الموهوب ، وكل مصيبة تخطأتك جلل ما لم تدن الاجل وتقطع الامل وان حادثا ألم بك فاستبد بأقلك وصفح عن اكثرك لمن أجل النعم عليك وقد تناهت اليك أنباء من رزىء فصبر وأصيب فاغتفر اذا كان شوى فيما يرتقب ويحذر فاستشعر اليأس مما فات اذ كان ارتجاعه ممتنعا ومرامه صعبا فلشيء ما ضربت الاسى وفزع أولو الالباب الى حسن العزاء » .

ونظير ذلك الكلمة التي قالها بعض أهل اليمن معزيا ذارعين أحد ملوك حمير بموت أخيه : وقد رواها صاحب الامالي :

ان الخلق للخالق والشكر للمنعم ولا بد مما هو كائن وقد حل مالا يدفع ولا سبيل الى رجوع ما قد فات وقد أقام معك ما سيذهب عنك وتتركه فما الجزع مما لا بد منه وما الطمع فيما لا يرجى وما الحيلة فيما سينقل عنك أو تنقل عنه ، ومد مضت لنا أصول نحن فروعها فما بقاء الفرع بعد الاصل وانما أهل الدنيا سفر لا يحلون عن الركاب الا في غيرها فما أحسن الشكر عند النعم والتسليم

عند الغير فاعتبر بمن قد رايت من أهل الجزع الى أن يقول واعلم انما ابتـلاك المنعم وأخذ منك المعطي وما ترك اكثر فان نسيت الصبر فلا تغفل عن الشكر .

النثر الديني :

ومن النثر الذي قيل في اليمن النثر الديني ويبدو أن هذا النثر متأثر شيئاما بالافكار الدينية التي تضمنتها اليهودية والمسيحية وكلتاهما شريعتان انتشرتا في اليمن قبل الاسلام وهذا لون من ألوان هذا النثر :

من خطابة للمأمور الحارثي في نادي قومه : (1)

قصد المأمون الحارثي في نادي قومه فنظر الى السماء والنجوم ثم أفكر طويلا ثم قال : ارعوني أسماعكم ، وأصغوا الى قلوبكم ، يبلغ الوعظ منكم حيث أريد ، طمح بالاهواء الاشر ، وران على القلوب الكدر ، وطخطخ الجهل النظر ، ان فيما ترى لمعتبرا لمن اعتبر ، أرض موضوعة ، وسماء مرفوعة ، وشمس تطلع وتغرب ، ونجوم تسرى فتعزب ، وقمر تطلعه النحور ، وتمحقه أدبار الشهور ، وعاجز مثر ، وحول مكد ، وشاب محتضر ، ويفن قد غبر ، وراحلون لا يؤوبون ، وموقوفون لا يفرطون ، ومطر يرسل بقدر، فيحي البشر، ويورق الشجر ، ويطلع الثمر ، وينبت الزهر ، وماء يتفجر من الصخر ، فيصدع المدر عن افتنان الخضر ، فيحي الانام ، ويشبع السوام ، وينمي الانعام ، ان في ذلك لاوضح الدلائل على المدبر المقدر ، البارىء المصور ، يا أيها العقول النافرة ، والقلوب النائرة ، انى تؤفكون ، وعن أي سبيل تعمهون ، وفي أي حيرة تهيمون ، والى أي غاية توفضون ، لو كشفت الاغطية عن القلوب ، وتجلت الغشاوة عن العيون ، لصرح الشك عن اليقين ، وافاق من نشوة الجهالة، من استولت عليه الضلالة .

(1) الامالي لابى علي القالي ج ١ ، ص ٢٧٣ .

التحقيقات القديمة والمعاصرة :

حين نلقي النظر على المصادر القديمة التي روت شعر اليمن نلاحظ أن هذه المصادر يمكن تقسيمها الى قسمين :

مصادر غير متخصصنة وهي تلك التي روت هذا الشعر بغير عناية بتتبع طرق اسناده ، ففي تاريخ ابن اسحاق وفي « طبقات ابن سعد » وفي الكامل لابن الاثير وفي الامالي للقالي بل وحتى في الاكليل للهمداني شعر منسوب الى ملوك حمير السابقين ولكن هذا الشعر لا يأتي الا في معرض الذكرى والعبرة بأحداث الحياة وقضايا التاريخ وكثير من هذه المصادر — كابن اسحاق مثلا — لم يكن مؤلفوها علماء بالشعر يميزون جيده من رديئه واصيله من زائفه وماهو منه صحيح الاسناد وما هو منحول .

أما المصادر المتخصصة فهي تلك التي عنيت بتراجم الشعراء أو تقديم النماذج المختلفة من انتاجهم ومن هذه المصادر على سبيل المثال « طبقات الشعراء لابن قتيبة » الامالي للقالي ، معجم الشعراء للمرزباني ، الحماسة لابي تمام ، الحماسة للبحتري ، الحماسة للشجري ، الى غير تلك من المصادر ، وفي هذه المصادر ورد كثير من الشعر الذي قاله شعراء يمنيون .

وفي العصر الحديث يمكن أن نقف على نصوص موثوقة من شعر اليمن في دواوين الشعراء اليمنيين الذين حقق دواوينهم أهل الاستشراق وغيرهم من المحققين العرب ، وذلك مثل ديوان أمرىء القيس الذي شرحه وحققه حسن السندوبي والذي أشار فيه الى جهود المستشرقين التي بذلوها في خدمة الشعر العربي ، ومن بينها معلقة أمرىء القيس التي ترجمت الى الروسية بعناية جرجس مرقص في عام ١٨٨٩ ، وترجمها المستشرق الالماني « أيبل » في حدود عام ١٨٩١ مع شروحه وتعليقاته عليها ، كذلك ظهرت مجموعة من اشعار أمرىء القيس وأخباره في كتاب عنوانه « نزهة ذوي الكيس وتحفة الادباء في قصائد أمرىء القيس أشعر الشعراء » .

ومن المطبوعات الحديثة « لامية العرب » للشاعر اليمني الشنفري بن الاوس الازدى التي شرحها الدكتور محمد بديع شريف معتمدا على المصادر العربية والغربية في شرحها وترتيب أبوابها ومثل ذلك ديوان عمرو بن براقة وديوان الافوه الاودى والاخير ورد شعره في كتاب الطرائف الادبية تحقيق عبد العزيز الميمني . ومن هذه المطبوعات أيضا ديوان الشاعر عمر بن معدي كرب الزبيدي الذي حققه الباحث العراقي الاستاذ هاشم الطعان .

هذا وعلى ذكر جهد الاستاذ الطعان في العناية بديوان عمرو بن معدي كرب لا بد من الاشارة الى عمل أدبي اخر له لا يقل عن العمل الاول أهمية وخطرا ونقصد به رسالته أو بحثه الذي وضعه تحت عنوان « تأثر العربية باللغات اليمنية القديمة والذي وضع فيه معجما خاصا مرتبا بالحروف الابجدية للمفردات التي اختصت بها اليمن والتي وردت في القرآن وفي الحديث وفي معاجم اللغة وتشتمل مفردات المعجم على نحو ٢٩٠ كلمة عاد بها الى مصادرها في علوم القرآن ومصطلح الحديث وعلم اللسان .

وقد عرض صاحب هذه الرسالة المشار اليه لموضوع شعراء اليمن قبل الاسلام فأورد قائمة تضمنت أسماء عشرات منهم وقد رأينا اثبات هذه القائمة في هذا الكتاب نظرا لاهميتها مع ذكر المصادر والمظان التي وجدت فيها :

١ ــ الافوه الاودى ديوانه ضمن الطرائف الادبية وشعراء النصرانية وفيه اشارة غير دقيقة الى كونه معاصرا للمسيح .

٢ ــ الاسعر بن مالك الجعفي : جمهرة اللغة لابن دريد وتثقيف اللسان ٦٩

٣ ــ جابر الجعفي : لسان العرب لابن منظور مادة جعف .

٤ ــ محمد بن حمران الجعفي : المؤتلف والمختلف ١٤١ « ط القدسي » .

٥ ــ حمران الجعفي : وعقد شمس العلوم ٢١٠/١ ومجموعة المعاني ١٦ و ١٨٠ .

٦ ــ بيهى بن صريم الجرمي : اللسان ــ عدس

٧ ــ بيهس بن صهيب الجرمي . المؤتلف ٦٥ ولعله والذي قبله واحد .

٨ ــ كناز بن صريم الجرمي : معجم الشعراء ٢٨١ .

٩ ــ عبيدة بن مروان الجرمي : المؤتلف ١٥٣

١٠ ــ علي بن عميرة الجرمي : معجم الشعراء ٢٨١

١١ ــ ملحة الجرمي : اللسان وشرح الحماسة « المرزوقي » ١٧٤٨ و ١٨٠٦ .

١٢ ــ معاوية بن أبي معاوية الجرمي: لسان العرب ــ ابن منظور ــ قسر

١٣ ــ الحارث بن وعلة الجرمي : المؤتلف ١٩٦ (اللسان) عبر الحماسة البصرية ٢٩/١ المفضليات ١٣٢ .

١٤ ــ عابس بن حصرم الجرمي : معجم الشعراء ٢٧٨ .

١٥ ــ قدامة بن كنانة الجرمي : نهاية الاب ــ القشقلندي ، ٣٦٣ .

١٦ ـــ ابن عابس الجرمي ـــ اللسان/عبر .

١٧ ـــ العريان بن سهل الجرمي : خزانة الادب ـــ بولاق ـــ ٢/٥٢٢ .

١٨ ـــ وعلة بن الحارث الجرمي (جاهلي) : المؤتلف ١٩٦ .

١٩ ـــ عبدالله بن عجلان النهدي : اللسان/جدل وغيل سمط اللالي ٤٣٨

٢٠ ـــ كعح ذي الحبكة النهدي : معجم الشعراء ٣٤٥

٢١ ـــ حارثة بن عمران النهدي : المؤتلف ٩٩ .

٢٢ ـــ زهير بن جناب النهدي : المؤتلف ١٣٠ .

٢٣ ـــ طفيل بن يزيد الجارثي « جاهلي » : خزانة الادب ٢/٣٥٥ .

٢٤ ـــ عبيدالله بن زياد الحارثي : سمط اللالي ٢٢ .

٢٥ ـــ عمر بن عامر الحارثي من نجران : معجم الشعراء ٢٣٣ .

٢٦ ـــ جندل بن مثنى الحارثي : اللسان ـــ هزلج وغزل .

٢٧ ـــ ذو الدجاج الحارثي : المؤتلف ١١٥

٢٨ ـــ المأمور بن تبراء الحارثي « جاهلي » : معجم الشعراء ٤٧٢ .

٢٩ ـــ الشميدر الحارثي : المؤتلف ١١٤ .

٣٠ ـــ يزيد بن عبد المدان الحارثي : شمس العلوم ١/٢١٣ والاغاني ط « ط الساسي » فهرسة .

٣١ ـــ يزيد بن محزم الحارثي : معجم الشعراء ٤٩٤ .

٣٢ ـــ الاجدع بن مالك الهمداني : المؤتلف ٤٩ والاصمعيات ٦٣ .

٣٣ ـــ عمرو بن زياد الهمداني . جاهلي : معجم الشعراء ٢٣٦ .

٣٤ ـــ عمرو بن خالد الهمداني . جاهلي : معجم الشعراء ٢٣٧ .

٣٥ ـــ عمرو بن شراحيل ـــ جاهلي . معجم الشعراء ٢٣٦ .

٣٧ ـــ مالك بن حريم ـــ جاهلي : معجم الشعراء ٤٩٤ والاصمعيات ٥٦ .

٣٧ ـــ عمرو بن براقة الهمداني ـــ جاهلي : الحماسة البصرية ١/١١١ .

٣٨ ـــ مالك بن نمط الهمداني : حسن الصحابة ١/٣٥٥ .

٣٩ ـــ عمرو بن معدي كرب الزبيدي الاكبر ـــ جاهلي : المؤتلف ١٥٦ .

٤٠ ـــ عاصم بن الاصقع الزبيدي . اشتقاق بن دريد ٤١٢ ونهاية الارب ٢٥٠ .

٤١ ـــ عمرو بن معدي كرب الزبيدي مخضـــرم : المؤتلف ١٥٦ ومعجم الشعراء ٢٠٨ وكتب الصحابة .

٤٢ ـــ معتق بن حوراء الزبيدي : معجم الشعراء ٤٧٣ ونسبه مضطرب عند المرزباني .

٤٣ ـــ محصن بن عتبان بن ظالم الزبيدي ـــ جاهلي : المعمرون ٢٦ « ط عبد المنعم عامر » .

٤٤ ـــ قيس بن مكشوح المرادى « مخضرم » : معجم الشعراء ٣٢٣ وكتب الصحابة .

٤٥ ــ عمرو بن قنعاس بن عبد يغوث . معجم الشعراء ٢٣٦ والطرائف الادبية

المرادى «جاهلي» : ١/٧٢ .

٤٦ ــ عمرو بن قيس بن مسعود المرادى ــ جاهلي : معجم الشعراء ٢٣٦

٤٧ ــ أنس بن مدركة الخثعمي : معمر ادرك الاسلام .

٤٨ ــ عمرو بن الصعق الخثعمي ــ جاهلي : معجم الشعراء ٢٣٧ .

٤٩ ــ عمرو بن مالك النخعي ــ جاهلي : معجم الشعراء ٢٣٤ والحماسة البصرية ١/٢١٩

٥٠ الهيثم بن الاسود بن قيس النخعي : الحماسة البصرية ٢/٤٣ .

جاهلي وانتهى المحقق في الهامش الى أنه اسلامي خلافا لما جاء في المتن .

٥١ ــ عمرو بن سيار السكوني ــ جاهلي : معجم الشعراء ٢٣٤ .

٥٢ ــ عمرو بن الحتارن السكوني ــ جاهلي : معجم الشعراء ٢٣٦ .

٥٣ ــ مشمرج الحميري ــ جاهلي : معجم الشعراء ٢٦٩

٥٤ ــ سيف بن ذي يزن ــ جاهلي : اللسان وتاج العروس للزبيدي .

٥٥ ــ أمرؤ القيس بن مالك الحميري : المؤتلف ١٢ .

٥٦ ــ محرز بن شريك الحميري : الحماسة البصرية ٢/٣٠ .

٥٧ ــ عفيف بن معدي كرب الكندي : خزانة الادب ٢/٢٢٧ .

٥٨ ــ فروة بن مسيك المرادى ــ مخضرم : الصحابة والاغاني «الفهرس» والاكليل .

وفي ختام هذه القائمة التي قدمها الاستاذ الطعان بين يدي رسالته تأثر العربية باللغات اليمنية القديمة كرر القول بأن تلك القائمة هي ليست كل ما يستطاع جمعه وانه أسقط منها من نص على كونه اسلاميا ومن يساوره الشك في أن ما نسب اليه غير منحول كسيف بن ذي يزن ومحصن بن عتبان الزبيدي ويبقى لدينا الكثير .

كما ألمع صاحب البحث بأن الامدى في المؤتلف والمختلف قد أشار الى مجموعات شعرية لشعراء القبائل اليمنية مثل كتاب « نهد » ص ٣٠ وكتاب « جرم » ص ١٩٦ ، وكتاب بني الحارث ص ١٨٧ وكتاب شعراء كندة ص ١٠ وكتاب أشعار حمير ص ١٢ .

وأشار الاستاذ الطعان الى أنه قد أهمل في قائمته هذه ذكر كثير من الشعراء عدهم النسابون يمنيين لان قبائلهم كانت ابان ظهور الاسلام تسكن خارج اليمن كشعراء كلب وطي وغسان الخ ، وكل هذه حقائق ــ قال صاحب المصدر المذكور ــ تجعلنا نعيد النظر فيما توصل اليه كثير من الباحثين .

وفي التقرير الذي أعدته في حدود عام ١٩٧٤ لجنة الادب وهي احدى لجان الوحدة المكونة من شمال الوطن وجنوبه قدم التقرير قائمة تشبه القائمة

السالفة مشتملة على اثبات لشعراء اليمن منذ الجاهلية الى العصر الحديث ، وفي هذا التقرير اشارة الى ثقافة اليمن قبل الاسلام والتي كان لها أثر كبير في فقه الشريعة الاسلامية وأشار التقرير — بوجه خاص — الى وجود نسخة من التوراة في اليمن — من قبل الاسلام — وهو الامر الذي ادى الى شيوع كثير من أساطير التوراة على أيدي علماء بالتوراة كوهب بن منبه وكعب الاخبار وهما عالمان اخباريان يمنيان يدل علمهما بالتوراة على وجود نصوص من التوراة مترجمة قبل الاسلام . (1)

---

(1) هذه النسخة المشار اليها مكتوبة بالعبرية ولكن الاساطير التي تملؤ كتب التفسير والتي تسمى بالاسرائيليات لا ريب في انها مترجمة الى العربية .

شعر اليمن قبل الاسلام :

الخصائص والملامح العامة

حين نلقي النظر على المجموعات الشعرية التي وصلت الينا من عهد ما قبل الاسلام نلاحظ أن هذا الشعر تغلب عليه السمات والملامح الاتية :

أ ـ شعر تميز بظاهرة الاسى والحزن من أجل حضارة اليمن الغاربة وماضيها المجيد ، فهو اذن شعر يختلف عن شعر الوقوف على الاطلال والدمن ، والمنازل والرسوم الذي يعج به دواوين الشعراء وخاصة في شمال شبه الجزيرة، ومن أمثلة ذلك شعر علقمة ذي جدن .

ب ـ شعر بطولي قاله شعراء فرسان تغنى كل منهم أمجاده الشخصية أو أمجاد قبيلته ، ويكثر في هذا الشعر ذكر الوقائع والحروب بكل ما يتميز به شعر الحرب من ملامح وسمات معروفة في شعر الفروسية الذي قيل في شمال شبه الجزيرة العربية ، ومن أمثلة ذلك شعر مالك بن حريم والافوه الاودى ، وعبد يغوث بن وقاص الحارثي .

ج ـ قسم من الشعر الثائر المتمرد على أعراف القبيلة وتقاليد المجتمع ويتمثل في ذلك شعر الشنفري الازدى وعمرو بن براقة اللذين ورد ذكرهما كثيرا ضمن أسماء الشعراء الصعاليك ، وتنال حركة الصعلكة في العصر الحديث اهتماما كبيرا لدى بعض الدارسين المعاصرين ومن الكتب التي الفت في العصر الحديث كتاب « الشعراء الصعاليك للخليفي » .

علقمة ذو جدن :

وصفه الهمداني في الاكليل بأنه نواحة اليمن ، واستشهد بأبيات متفرقة من شعره في الاجزاء الاربعة الموجودة من كتب الاكليل ، وقدم له القرشي صاحب « جمهرة أشعار العرب » قصيدته العينية ضمن ما قدم من قصائد المشهورين من شعراء العرب وقصيدة علقمة ذي جدن هي الرابعة من قصائد الجمهرة ص ٧٢١ .

وأورد له ابن اسحاق في تاريخه المقطوعة التي اولها :

هونك ليس يرد الدمع ما فاتا ... لا تهلكي أسفا في أثر من ماتا

ومكان هذه المقطوعة في «الحاشية» من صفحة ٣٧ من سيرة بن هشام « طبعة قديمة » المقرب العربي .

كما أورد له في نفس الصفحة مقطوعته التي يقول فيها « دعيني لا أبالك لن تطيقي » قصيدة علقمة في جمهرة أشعار العرب .

لكل جنب ما انحنى مضطجع ... والموت لا ينفع منه الجزع
والنفس لا يحزنك اتلافها ... ليس لها من يومها مرتجع
والموت ما ليس له دافع ... اذا حميم عن حميم دفع
لو كان حي مفلتا حينه ... أفلت منه في الجبال الصدع
أو ملك الاملاك ذو فائش ... كان نهييا جابرا ما صنع
أو تبع أسعد في ملكه ... لا يتبع العالم بل يتبع
وذو خليل كان في قومه ... يبنى بناء الحازم المضطلع
فسل جميع الناس عن حمير ... من أبصر الاقوال أو من سمع
يخبرك ذو العلم بأن لم يزل ... لهم من الايام يوم شنع
اليوم يجزون بأعمالهم ... كل امرىء يحصد ما قد زرع
صاروا الى الله بأعمالهم ... يجزى الذي خان ومن ارتدع
فكيف لا أبكيهم دائبا ... وكيف لا يذهب نفس الهلع
من نكبة حل بنا فقدها ... جرعنا ذا الموت منها جرع
اذا ذكرنا من مضى قبلنا ... من ملك يرفع ما قد رفع
فانقرضت أملاكنا كلهم ... وزايلوا ملكهم فانقطع
بنوا لمن خلف من بعدهم ... مجدا لعمر الله ما يقتلع
أن خرق الدهر لنا جانبا ... سدوا الذي خرقه أو رقع
تنظر اثارهم كلما ... عاينها الناظر منا خشع
يعرف في اثارهم أنهم ... أحباب ملك ليس بالمبتدع
تشهد للماضين منا بما ... نالوا من الملك ونقب القلع

هـل لانـاس مثـل اثـارهم ... بمـأرب ذات البنـاء اليفـع
أو مثل صرواح ومـا دونهـا ... ممـا بنـت بلقيس أو ذوبنع
لا مـا لحـي مثلـه مفخـر ... هيهات فازوا بالعلى والرفـع

وقال علقمة ذو جدن :

هونـك ليس يرد الدمع ما فاتا ... لا تهلكي أسفا في أثر من ماتا
أبعد بينـون لا عـين ولا أثر ... وبعد سلحين يبني الناس أبياتا

وقـال : (1)

دعيني لا ابالـك لـن تطيقي ... لحاك الله قـد أنزفت ريقي
لدى عزف القيـان اذا تغنت ... واذ نسقى مـن الخمر الرحيق
وشرب الخمـر ليس علي عارا ... اذا لـم يشكنى فيهـا رفيقي
فان المـوت لا ينهـاه نـاه ... ولو شرب الشفاء مع السويق
ولا متهـرب في اسـطوان ... يناطح جذره بيض الانـوق
وغمدان الـذي حدثت عنـه ... بنـوه مسـمكا في رأس نيـق
مصابيـح السليط تلـوح فيه ... اذا يمسي كتـو ماض البروق
ونخلتـه التي غرست اليـه ... يكاد البسر يهصـر بالعـذوق
فأصبح بعـد جدتـه رمـادا ... وغـير حسنه لهب الحريـق
واسلم ذو نواسـ مسـتكينا ... وحـذر قومـه ضنك المضيق

وقـال :

بينـون أقـوت فـلا خديـن ... فأنـت صـب بهـا حزيـن
تبكي على اثـر حـي صدق ... خانتهـم عيشـة خئـون
تبكـي حـزينا ديـار حـي ... قـد فرقت أهلهـا المنـون
خانتـهم غضـبة الليـالي ... وطحنتهـم رحـى طحـون
فأصـبحت دارهـم خواء ... يسفى بهـا الحرجف الحنـون

وقال في قصر بينون أيضا :

يا مـن رأى بينـون أمسـى ... خاويـا خربـا كعابـه
أمسـى الثعالـب أهلـه ... بعـد الـذين هـم صحابـه
ولقـد أراه بغبطـة ... في العيش مخضـرا خضابـه

وقال راثيا قصر « ناعط » :

عـين فابكي ناعطا واستعبري ... عثـر الدهـر عليهم فعثـر
كان فيها ألـف عون ذهبـوا ... فلـذا لـم يبق فيهم من بشر
درج الدهـر علـى اثارهـم ... فعفا من ثـوى فيهـا الاثـر
فـاذا أبصـرت اثـارا لهـم ... غشيتني زفـرة فيهـا عبـر

وقال علقمة يبكي قصور «بينون» و «سلحين» وناعط ومنازل حمير جميعا :

يا بنت قيل معـافر لا تسخري ... ثم اعذري من بعد ذلك أو ذري

---

(1) سيرة ابن هشام حاشية ابن اسحاق .

أو لا ترين وكل شيء هالـك « بينون » هالكة كأن لم تعمر
أو لا ترين ملوك ناعظ أصبحوا تسفى عليهم كـل ريح صرصر
أو ما سمعت بحمـير وبيوتهم أمسـت معطلة مسـاكن حمير
فابكيهم أو مـا بكيت لمعشـر لـه درك حميرا مـن معشر

وله أيضا راثيا أقيال حمير وحضارتهم الغاربة :

يابنة القيل قيل ذي فائش الفائق بعض الكلام ويحـك غضـي
لو رأيـت القشيب بعد بهـاء خاويا هـد بعضه فوق بعض
وأقاويل حمـير قـد تولـوا بعد عقد للامـر منهم ونقض
الف ملك سقاهم الدهر كأسـا مـرة زلزلـت بهم كـل أرض

وله أيضا في نفس الموضوع :

وذا لعوة المشهور من رأس حصنه أزلن وكان الليث حامي الحقـائق
وبادر بالعلات أرباب « ناعط » فلم يدفعوا بالشيد كيد الطوارق
وقد كـان ذو المشعار فيها مؤثلا فسالبنه قسـرا عتـاق النمارق

التحليل :

تلك مجموعة مختارة من شعر علقمة ذي جدن حرصنا على ايرادهـا لان شعره مفرق في المصادر القديمة لم يجتمع منه في مصدر منها مثل هذا القـدر . وانما أورد منها القدماء نتفا في معرض الذكرى والاعتبار في سياق تاريخ الحضارة اليمنية الغابرة حضارة معين وسبأ وقتبان وأوسان وحمير .

وقد جمعنا ــ بقدر الاستطاعة ــ هذه النصوص من شعره مـن مصادرها المختلفة ؛ من جمهرة اشعار العرب للقرشي ومن الاكليل للهمداني ومن سيـرة ابن اسحاق ومن كتب الحماسة ومجاميع الشعر القديم .

والامر الذي لا نرتاب فيه أن كثيرا من شعر علقمة ذي جدن قد ضاع أو هـو قد ورد في المصادر القديمة بدون هوية ؛ ففي المصادر السالفة كثير من القصائد والمقطوعات التي بكت الحضارة اليمنية . ولكنها وردت بغير ذكر الاسمـاء قائليها الذين لا نشك أنهم ــ أو أن أغلبهم ــ قد وجدوا قبل الاسلام .

وعلقمة ذو جدون في هذه النصوص التي قدمناها شاعر نواحة ملم بتاريخ قومه يذكر اثارهم واخبار اقيالهم ، وانباء ايامهم بقلب شاعر يفيض اسى وحسرة على ما آل اليه امرهم من هبوط وانحدار بعد صعود وارتفاع ليس لهما نظير ، وهو في هذه الناحية يشبه او يشبهه الشاعر المسيحي عدى بن زيد العبادي الذي قال قبل الاسلام .

وبنو الاصفر الكرام ملوك الـروم لـم يبـق منهم مذكـور
وأخو الحضر اذ بناه واذ دجلـة تجبـي اليـه والخابـور
شـاده مرمرا وجلله كلسـا فللطـير فـي ذراه وكـور

ومما يستوقف النظر في شعر ذي جدن ورود بعض الافكار الدينية في بعـض

شعره وقليل بل نادر ما ورد ذلك في شعره مثل قوله :

اليوم يجزون بأعمالهم كل امرىء يحصد منا قد زرع
صاروا الى الله بأعمالهم يجزى الذي خان ومن ارتدع

ترى هل هذان البيتان اضيفا الى شعر علقمة ذي جدن بعد الاسلام ، أم أن فكرة الجزاء على العمل والصيرورة الى عالم اخر بعد الموت أمران لا يستغرب احدهما أو كلاهما على الفكر اليمني قبل الاسلام فقد عرفت فكرة التوحيد في اليمن منذ عهد معين وسبأ ، فعلى كثرة ما عبد اليمنيون من الهة الا أن القمر « المقة » ظل كبير الالهة عندهم لا يكاد ينافسه اي من الالهة المتعددة غيره .

كما عرف اليمنيون فكرة الجزاء على العمل والصيرورة الى عالم اخر بعد الموت عن طريق اليهودية والمسيحية اللتين رفض اليمينيون تعاليمها رفضا سياسيا وان لم يرفضوا منهما ما يتلاءم مع طبيعتهم من آراء تتصل بفكرة العدل والتوحيد .

الشعراء الفرسان :

تمهيـــد

تناولنا في الشعر اليمني الذي قيل قبل الاسلام بكائيات لحضارة اليمن القديم وقدمنا على ذلك مثالا شعر علقمة ذي جدن وفي هذا الفصل نتناول اثار الشعراء الفرسان ، وشعر الفروسية غالب على شعر ما قبل الاسلام الذي قيل في اليمن وهو من هذه الناحية ينقسم الى قسمين :

قسم منه متمثل في شعر الحروب التي دارت بين القبائل اليمنية والقبائل التي تسكن في شمال شبه الجزيرة العربية ، ولهذا القسم من الشعر قيمة وثائقيــة خاصة ذلك لانه يصور العلاقات القائمة بين جنوب شبه الجزيرة وشمالها قربــا وبعدا ، وائتلافا واختلافا ، ثم ان هذا الشعر بعد ذلك — يمثل اللغة التي كانت متداولة في اليمن والحجاز ، يمثلها تمثيلا يدحض الرأي الواهم الذي ذهب بــه البعض الى أن لغة اليمن قبل الاسلام كانت شيئا يختلف عن لغة شمال شبــه الجزيرة .

لقد كان الجانبان يتبادلان المصالح التجارية ، والوفادات السياسية وعلـى مستوى الوحدات القبلية كان الجانبان يتقاتلان ويتصالحان ويتهادنان ويتحالفان بحسب الظروف التي تمليها احوال ذلك المجتمـــع العشائري بكل مشاكلـــه وتناقضاته وكان الشعر يسجل تلك الحياة سلما وحربا ووفاقا وافتراقا .

لقد كانت للشمال وفادات الى الجنوب مثل وفد قريش الى صنعاء برئاسة عبد المطلب بن هاشم وفي هذه المناسبة — مناسبة تتويج سيف بن ذي يزن بعـد جلاء الاحباش — انشد امية بن ابي الصلت لاميته التي اولها :

لِيطلب الثأر امثال ابن ذي يــزن   في البحر خيم للاعـــداء احـوالا

وكانت للاعشى وفادات الى اليمن وفي ديوانه قصائد قالها في مدح كبار رجال

اليمن فمن ذلك قوله في حجر بن زرعة ونختار من هذه القصيدة :

حللت على حجر بن زرعة بعدما ... برى الجسم مني مشفقات العواذل
يقلن لقد اضررت بالمال هفوة ... هديت فلم أحفل مقالة قائل

وللاعشى في الزعيم اليمني سلامة ذي فائش قصيدته التي اولها :

وذو فائش قد زرته في ممنع ... من النيق فيه للوعول موارد

وله فيه قصيدته التي أولها :

رايت صلامة ذا فائش ... اذا زاره الضيف حيا وبش

وله فيه قصيدته الدالية التي يقول فيها :

تؤم سلامة ذا فائش ... هم اليوم حسم لميعادهـا

ومن شعر الحرب الابيات التي تبادلها شاعر فارس من اليمن هو مسهر بن يزيد الحارثي مع فارس شاعر من الشمال وهو عامر بن الطفيل رئيس قبيلة عامر وكان مسهر بن يزيد الحارثي قد طعن عامر بن الطفيل في عينه وذلك في يوم « فيف الريح » وتفصيل هذه الموقعة مذكور في العقد الفريد (١) وابيات عامر بن الطفيل تقول :

لعمري وما عمري علي بهين ... لقد شان حر الوجه طعنة مسهر
اعاذل لو كان البداد لقوتلوا ... ولكن نزونا للعديد المجمهر
ولو كان جمع مثلنا لم تبزنا ... ولكن أتتنا أسرة ذات مفخر
اتونا ببهراء ومذحج كلها ... وأكلب طرا في لباس السنور

اما مسهر بن يزيد الحارثي فقد قال في تلك الوقعة التي انتصرت فيها اليمن :

رهصت بخرص الرمح مقلة عامر ... فأضحى نحيصا في الفوارس أعورا
وغادر فينا رمحه وسلاحه ... وادبر يدعو في الهوالك جعفرا
وكنا اذا قيسية ذهبت بنا ... جرى دمعها من عينها فتحدرا

عبد يغوث ويوم الكلاب

ومشهور قصيدة عبد يغوث بن الحارث بن وقاص من بني الحارث بن كعب وقائدهم في يوم الكلاب الثاني ، وكان النصر في هذا اليوم لتميم على اليمن وتفصيلات هذه الوقعة مذكورة في المصادر القديمة ومنها كتاب الاغاني للاصبهاني وكان عبد يغوث قد وقع أسيرا في أيدي بني تميم وقبل أن يقتل أسيرا كان قد قال قصيدته المشهورة التي يقول فيها :

الا لا تلوماني كفى اللوم ما بيا ... فما لكما في اللوم نفع ولا ليا
الم تعلما أن الملامة نفعها ... قليل وما لومي أخي من شماليا
أيا راكبا اما عرضت فبلغن ... نداماي من نجران الا تلاقيا
أبا كرب والايهمين كليهما ... وقيسا بأعلى حضرموت اليمانيا
جزى الله قومي بالكلاب ملامة ... صريحهم والاخرين المواليا
فلو شئت نجتني من الخيل نهدة ... ترى خلفها الحو الجياد تواليا

(١) العقد الفريد ص ٢٣٦ ج٥

ولكنني أحمي ذمـــار أبيـــكم / وكان الرماح يختطفـــن المحاميـــا
وتضحك منـــي شيخة عبشمية / كأن لم تر قبلـــي أسيرا يمانيـــا
وقد علمت عرسي مليـــكة انني / أنا الليث معـــدوا عليـــه وعاديا
أقول وقـــد شدوا لساني بنسعة / أمعشر تيم أطلقـــوا لـــي لسانيا
أمعشر تيم قـــد ملكتم فأسجحوا / فان أخاكم لم يكن مـــن بوائيـــا
فان تقتلوني تقتلوا بـــي سيـــدا / وان تطلقوني تحربوني بماليـــــا
وقد كنت نحار الجزور ومعمـــل / المطى وأمضي حيث لا حي ماضيـــا
وأنحر للشرب الـــكرام مطيتـــي / وأصدع بين القينتـــين ردائيا
كأني لم اركب جوادا ولم اقـــل / لخيلي كرى نفسي عـــن رجاليـــا
ولم أسبأ الزق الروي ولم اقـــل / لأيسار صدق أعظموا ضوء ناريـــا

هذه القصيدة هي من الشهرة في الادب بحيث لم تكد تخلو منها مجموعة مـــن مجموعات الشعر القديمة ، وقد تأثر بها كثير من الشعراء في مختلـــف العصور الاسلامية فنظم على هذا الروى والوزن مالك بن الريب التميمي قصيدته التي رثى بها نفسه وهو يحتضر في مروه متأثرا بلدغة افعى :

الا ليت شعري هل ابيتن ليلـــة / بجنب الغضى أزجي القلاص النواحيا

وقال سحيم مولى بني الحسحاس قصيدته اليائية التي أولها :

عميرة ودع ان تجهزت غاديـــا / كفى الشيب والاسلام للمرء ناهيا

وعارضها عمرو بن شاس بيائيته التي يقول فيها :

اذا نحن أدلجنا وأنت أمامنـــا / كفى لمطايانا بريحـــك هاديـــا

ولمجنون ليلى يائيته التي يقول فيها :

أعـــد الليالي ليلـــة بعد ليلـــه / وقد غشت عمرا لا أعد اللياليـــا

ولابي الطيب المتنبي قصيدة على روى ووزن قصيدة عبد يغوث يقول في أولها :

كفى بك داء أن تـــرى الموت شافيا / وحسب المنايـــا أن يكن أمانيـــا

وحتى شوقي له قصيدة يائية يقول في مطلعها :

مقادير من جفنيك حولن حاليـــا / فذقت الهوى من بعد ما كنت خاليا

عمرو بن براقة الهمداني

وعمرو بن براقة شاعر يمني أستشهد علي بـــن ابي طالب في وقعة صفيـــن التي دارت بين جيشه وجيش معاوية استشهد ببيته الذي يقول :

متى تجمع القلب الذكي وصارمـــا / وأنفا حميـــا تجتنبـــك المظـــالم

وكان من حديث هذا الشعر ما روته المصادر القديمة وفي مقدمتها كتـــاب « الامالي » وفحوى الخبر يقول :

اغار رجل من مراد يقال له حريم على ابل عمرو بن براقة فذهب بها فأتـــى عمرو سلمى وكانت بنت سيدهم وعن رأيها كانوا يصدرون وطلب رأيها في الامـــر فسجعت له ــ ولعلها كانت كاهنة ــ سجعا حذرته فيه من ان يتعرض لحـــريم بأي شر أو مقاومة لانهمنيع الجانب مرهوب الصولة ولكن عمر بن براقة اغار

على حريم واسترجع ابله وفي ذلك يقول :

تقول سليمى لا تعــرضى لتلفــة وليلك عن ليــل الصعاليك نائــم
وكيف ينام الليل من جــل مالــه جسام كلــون الملــح أبيض صارم
غموض اذا عض الكريهة لم يــدع له طمعــا طوع اليمــين ملازم
ألم تعلمي أن الصعالك نومهــم قليــل اذا نام الخلى المســالم
اذا الليل أدجى واكفهر نجومــه وصــاح من الافراط بوم جواثــم

(١) الامالي للقالي ج (١٢) ص ١٢٢

ومال بأصحاب الكرى غالباتــه فاني علــى أمر الغواية حــازم
كذبتم ــ وبيت الله ــ لا تأخذونها مراغمة مــا دام للسيف قائــم
تحالف أقوام عــلي ليسلموا وجروا عــلى الحرب اذ أنا سالم
فان حريمــا ان رجا ان أردهــا ويذهب مالي يابنــة القوم حالم
متى تجمع القلب الذكي وصارمــا وأنفا جميا تجتنبــك المظالم
متى تطلب المال المنــع بالقنــا تعش ماجدا أو تخترمك المخــارم
وكنت ذا قوم غزوني غزوتهم فهل أنــا في ذا يا لهمــدان ظــالم
فلا صلح حتى تقدع الخيل بالقنــا وتضرب بالبيض الخفاف الجماجــم
ولا أمن حتى تغشم الحرب جهرة عبيدة يوما والحــروب غواشــم
أمستبطىء عمرو بن نعمان غارتي وما يشبــه اليقظان من هو حالم
اذا جر مولانا علينــا جريــرة صبرنا لها ان كــرام دعائــم
وننصر مولانــا ونعلــم أنــه كما الناس مجروم علينــا وجارم

« التحليــل »

تمثل قصيدة عمرو بن براقة هذه الحروب الاهلية التي ناء بها كاهل اليمن قبل الاسلام وهي حروب لم تعرفها اليمن الا في عهد تقلص حضارتها وهجــرة ابنائها الى خارجها بعد أن فقدت مركزها التجاري نظرا لاكتشاف الرومان خطوط مواسمها البحرية ، كما ادى ظهور ملوك الطوائف في اليمن الى ضياع وحدتهــا بحيث طمعت أمم كثيرا في احتلالها كالرومان والفرس والاحباش وأزدادت الحروب الاهلية شرة وضراوة بعد الغزو الفارسي والحبشي اللذين حولا اليمن من مجتمع حضاري يبني السدود ويقيم العمران الى مجتمع عشائري يقاتل بعضه بعضــا ان لم يقاتل من يجاوره عملا بقول الشاعر العربي القطامي :

وأحيانا عــلى بكــر أخينــا اذا مــا لــم نجــد الا أخانــا

وفي قصيدة عمرو بن براقة الهمداني هذه ذكر للصعلكة والصعاليك مثل قوله في هذه القصيدة :

وليلك عن ليل الصعاليك نائم

ومثل قوله :

الم تعلمي ان الصعاليك نومهم قليل اذا نام الخلى المسالم .

وفي كتب التاريخ ما يشير الى أن هذا الشاعر من شعراء الصعاليك وانه كان رفيقا للشاعر العداء الشنفري يالازدى وتأبط شرا والسليك بن السلكــة

وحركة الصعاليك استهدفت فيما استهدفت الثورة على أعراف المجتمع القبلي الذي تقف على قمته طبقة المتمولين والذين يعج شعر الصعاليك بالوان من الحقد عليهم والثورة بهم :

الافوه الاودى

وهذا الشاعر عاش في اليمن واسمه صلاءة بن عمرو وينتهي نسبه الى اود بن الصعب بن سعد العشيرة ويقول صاحب الاغاني في ترجمته انه كان من كبار الشعراء القدماء في الجاهلية وكان يقال لابيه عمرو فارس الشوهاء وفي ذلك يقول الافوه الاودى :

أبي فارس الشوهاء عمرو بن مالك ... غداة الوغى اذ مال بالجد عاثر

ومن شعره الذي يمثل اخلاق الفروسية واعرافها قوله حين دفع ديات قتلاه من بني عامر وقد أخذ مطلع قصيدته هذه ــ كما روى صاحب الاغاني ــ كثير عزة ونسبه اليه قال الافوه الاودي :

نقاتل أقواما فتسبى نساؤهم ... ولم يرزو عز لنسوتنا حجلا
نقود ونأبى أن نقاد ولا نرى ... لقوم علينا في مكارمة فضلا
وأنا بطاء المشي عند نسائنا ... كما قيدت بالصيف نجدية بزلا
نظل غيارى عند كل ستيرة ... نقلب جيداً واضحاً وشوى عبلا
وانا لنعطي المال دون دمائنا ... ونأبى فما نستام دون دم عقلا

ومشهورة وسيارة قصيدة الافوه الاودى التي نختار منها هذه الابيات من بين ستة عشر بيتا رواها له صاحب الامالي (١)

والبيت لا يبتني الا له عمد ... ولا عماد اذا لم ترس أوتاد
فان تجمع أوتاد وأعمدة ... وساكن بلغوا الامر الذي كادوا
لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة اذا جهالهم سادوا
تهدى الامور بأهل الرأي ما صلحت ... فان تولت فبالاشرار تنقاد

امرؤ القيس بن حجر الكندي

اجمع نقاد الشعر العربي على انه اشعر شعراء الجاهلية قال عبد الله بن سلام في الطبقات(٢):

« سبق امرؤ القيس العرب الى اشياء ابتدعها ، استحسنتها العرب واتبعته فيها الشعراء منها استيقافه صحبه والبكاء في الديار ، ورقة التشبيب ، وقرب المأخذ ، وتشبيه النساء بالظباء والبيض ، وتشبيه الخيل بالعقبان والعصي ، وقيد

(١ ــ) الامالي ج٢ ص ٢٢٤
(٢) الطبقات ص ٤٦

الاوابد ، واجاد في التشبيه وفصل بين التشبيه وبين المعنى ، وكان احسن طبقته تشبيهـا » .

ومولد امرىء القيس ومنشؤه في اليمن ، وان عاش في ظل ابيه في شمال شبه الجزيرة جزءا من حياته وفي شعره التفاتات الى مواطن صباه في اليمن كقوله :

تطاول الليل علينـا دمـون
دمـون انـا معشر يمانـون
واننـا لاهلنـا محبـون

وكقوله :

كأني لم اسمر بدمون مـرة　　　ولم اشهد الغارات يوما بعندل

وفي شعر امرىء القيس مفردات انفردت بها اللهجة اليمنية ، مثل استعماله لفظ « سليط » بمعنى زيت في قوله :

يضيء سنـاه او مصابيح راهـب　　　اهان السليط في الذبال المفتـل

ولفظ سليط مستعمل في لهجة اليمن الى اليوم ، وهو اشهر من لفظ زيـت « المستعملة كثيرا في لهجة قريش وشاهده من القران قول الله تعالى في سورة النور يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار » .

وكاستعماله لفظ جزع بمعنى قطع وهو مستعمل في اليمن الى اليوم وان حرف فاصبح بمعنى ذهب ، واشهر منه في لهجة قريش لفظ قاطع قال امرؤ القيس :

فريقان منهم جازع بطن نخلـة　　　واخر منهم قاطـع نجد كبـكب

وشعر امرؤ القيس اسير واشهر من أن نقدمه في هذا الكتاب ، وقد سبق أن أشرنا في فصل سابق الى ما ترجم من شعره الى اللغات الاجنبية .

هذا وقد اهملنا ـ خشية التطويل ـ أن نعرض لشعراء اليمن قبل الاسلام الذي انفرد برواية شعرهم الهمداني في الاربعة الاجزاء الموجودة من كتابه الاكليل امثال عمرو بن زيد الخولاني وعمر بن يزيد العوفي الذي خاض مع سيف ابـن ذي يزن كثيرا من حروبه داخل اليمن على اننا نلفت النظر الى المحاولـة التي بذلها الشاعر أحمد الشامي في كتاب قصة الادب في اليمن والتي حاول فيها جلاء الغبار عن هذين الشاعرين ضمن شعراء اسلاميين اخرين انفرد برواية شعرهم الهمداني في الاجزاء الاربعة الموجودة من كتاب الاكليل .

عمرو بن زيد المغرق الاكبر :

من اقدم شعراء الجاهلية ويعرف بالمغرق لانه عمل على اجلاء بني حـي بن خولان الى مصر فركبوا البحر وغرق بعضهم وفي ذلك يقول حجر بن سعد بن عمرو بن زيد :

أبينا فلا نعطي العدو مقـادة　　　لنا السطوة الغلبـاء يوم التغالب
أليس أبونـا قـاد للحنو جمعـه　　　ففاز بعتـاب وثنـى بحاطب

ويوم « الحنو » وهو واد او ماء في ديار ربيعه من أيام العرب قـبل الاسلام شهده عمرو بن زيد وقتل فيه عتاب جد عمرو بن كلثوم التغلبي وقتل فيه حاطب

بن حلزة اليشكري سيد بكر وائل ؛ كما شهد الشاعر يوم خزازي وهو يوم كان فيه النصر لتغلب على اليمن برئاسة كليب وائل . وفي هذه الوقعة اسر عمرو بن زيد بغيض بن عنز بن اسلم فمن عليه بنفسه وفي ذلك يقول الحارث بن همام :

غنينا في تهامـــة قاطنيهـــا ليالي العد فـــي ال الجعيـــد
تدين لـــه القبائـــل مـــن معـــد كما دانت قضاعة لابـــن زيـــد

وفي ذلك يقول بغيض :

عمرو بن زيد يقود الخيل يقدمهـا له مخالب أظفـــار وأنيـــاب
يعطي الجزيل ويحمي دون عقوته وفي الحفـــائظ منـــان ووهـــاب
ما زال يحمي على صيد مقاولـــة منـــه هنالك فراس ووثـــاب

وفي يوم خزازي يقول عمرو بن زيد المغرق هذه القصيدة التي رويت في كثير من المصادر القديمة كالمؤتلف والمختلف والإكليل للهمداني ونختار منها قوله :

كانت لنا بخزازى وقعـــة عجب لما التقينا وحادي المـــوت يحديها
ملنا على وائل في وسط بلدتهـــا وذو الفخار كليب العـــز يحميها
قد فوضوه وســـاروا تحت رايته سارت اليـــه معد مـــن أقاصيها
وحمير قومنا سارت مقاولهـــا ومذ حـــج الغر سارت في تعابيها
والحي من صيد همدان لها شغف يغري الفري ويصمي من يناويها
وسار بعض الـــى بعض برايتـــه وقدمت لغوادينـــا غواديهـــا
حتى التقينا بأكناف المسيـــل وقد أبدى لعمرك ما في النفس خافيهـــا
ثم اصطلينا ونار الحرب ساطعـــة كأسد غاب تداعت مـــن نواحيها
وفاز جمع كليب عنـــد صولتـــه في حمير الشـــم اذ زالت نواحيها
نلنا ونالوا كذا الايام نعرفها لهـــا صـــروف عـــلى الايـــام تخفيهـــا

شعراء اليمن / القرن الأول للهجرة

الشعراء المخضرمون

عندما بزغ فجر الاسلام توالت وفود اليمن الى شمال الجزيرة معلنة اسلامها وعلى راس هذه الوفود شعراء افذاذ مثل عمرو بن معدي كرب الزبيدي رئيس وفد زبيد وقيس بن مكشوح على راس وفد مراد ويزيد بن عبد المدان على رأس وفد بني الحارث بن كعب وفروة بن مسيك المرادي ، ومالك بن نمط على رأس وفد همدان ، ووفد على النبي مسلما الشاعر اليمني امرؤ القيس بن عابس الكندي .

والملاحظ ان أغلب هؤلاء الشعراء قد قلت بل نضبت اشعارهم في عهد الاسلام شأن كثير من شعراء نزار اذا استثنينا من شعرائها الحطنية وكعب بن زهير وقليلا جدا من امثال هذين الشاعرين ، ويبدو أن نضوب قرائح هؤلاء الشعراء الذين عاشوا فترتي ما قبل الاسلام وبعده يرجع الى سببين :

الاول الانبهار الذي يحدث لاصحاب المواهب عند انفجار ثورة جديدة تكتسح التقاليد والمثل والعادات القديمة .

والسبب الاخر الانشغال بالحروب فقد شارك — على سبيل المثال — الشاعر عمرو بن معد عكوب في حرب المسلمين ضد الفرس بالعراق واستشهد في « نهوند » وقيل مات موتا طبيعيا عن سن عالية تجاوزت المائة على ما تذكر مصادر التاريخ .

وشارك امرؤ القيس بن عابس في حروب الردة في اليمن ، ومات ببيسان في الشام مصابا بطاعون عمواس المعروف .

ولا بد من تسليط شيء من الضوء على حياة وانتاج بعض هؤلاء الشعراء في فترتي الاسلام وما قبله للتعريف بهم لدى القارىء العزيز .

من كبار شعراء وفرسان الجاهلية والاسلام ، خاض حروبا كثيره مع كثير من القبائل يمنية وغير يمنية ، وارتد مع من ارتد من مذحج متضامنا مع ثورة الاسود العنسي ثم عاد الى الاسلام حيث وجهه ابو بكر الخليفة الاول مـــــددا لجيش القادسية ، وفي العراق ابلى عمرو بن معدي كرب الزبيدي في الجهاد بلاء حسنا وكان قاتل رستم قائد جيش الفرس في القادسية . وقيل ان قاتل رستم غيره :

ومن روائع شعر عمرو قصيدته الدالية المشهورة التي يقول فيها :

ليـــس الجمـــال بمئـــزر ... فاعلم وان رديت بردا
ان الجمــــال معــــادن ... ومناقب أورثـــن مجـــدا
أعـددت للحدثـان ســـا ... بغــــة وعـــداء علنـدا
نهـدا وذا شطب يقـــد ... البيض والابـــدان قـــدا
وعلمت أنـــي يـــوم ذاك ... منـــازل كعبـــا ونهـــدا
قوم اذا لبســـوا الحديـد ... تنمـــروا حلقـــا وقـــدا
كل امرىء يجـــري الـــى ... يـــوم الهيـــاج بما استعدا
لمـــا رأيـــت نساءنـــا ... يفحصن بالمعـــزاء شـــدا
وبـــدت لميـــس كأنهـــا ... بـــدر السمـــاء اذا تبـــدى
وبـــدت محاسنهـــا التـــي ... تخفى وكـــان الامـــر جـــدا
نازلت كبشهـــم ولـــم ... أر من نزال الكبش بـــدا
هـــم ينـــذرون دمـــي ... وأنذر ان لقيت بـــأن أشدا
كم من أخ لـــي صـــالح ... بوأتـــه بيـــدي لحـــدا
مـــا أن جزعت ولا هلعت ... ولا يـــرد بكـــاي زنـــدا
البستـــه أثوابـــه ... وخلقت يـــوم خلقت جلـــدا
ذهب الـــذين أحبهـــم ... وبقيت مثـــل السيف فـــردا

ومشهورة ابياته العينية التي قالها حين غزا الصمة بن بكر كبير قيس زبيد وسبى ريحانة اخت عمرو ولم يقو عمرو على تخليصها منه فقال من قصيدة لـــه مطولة نختار منها قوله :

أمن ريحانة الداعي السميـــــع ... يؤرقني وأصحابـــي هجـــوع
سباها الصمة الجشمى غصبـــا ... كأن بياض غرتهـــا صديـــع
وحالت دونها فرسان قيـــس ... تكشف عن سواعدهـــا الـــدروع
اذا لـــم تستطع شيئا فدعـــه ... وجـــاوزه الـــى ما تستطيـــع

وعمرو بعد ذلك يعترف بأنه فارس قد يفر من المعركـــة اذا كانت المعركـــة غير متكافئة فهو اذن كرار وفرار بحسب ما تتطلبه ظروف الحرب ومواقف النزال

ولقـــد أجمع رجلـــي بهـــا ... خيفـــة الموت وانـــي لغـــدور
ولقـــد أعطفهـــا كارهـــة ... حين للنفس مـــن الموت هريـــر
كـــل ما ذلـــك منـــي خلـــق ... وبكل انـــا في الروع جديـــر
وابـــن صبح سادرا يوعدنـــي ... ما له ما عشـــت في الناس مجير

وروى صاحب الاغاني في ترجمته عن عمرو ان الامام علي بن ابي طالب كان

اذا نظر الى ابن ملجم المرادي — قاتل علي ليلة ١٧ من رمضان اذا رآه استشهد بهذا البيت :

أريـــد حباءه ويريـــــد قتلـــــي   عذيرك من خليلك مـــــن مـــراد

وهذا البيت لعمرو بن معد يكرب من قصيدة قالها في ابي المرادي بعد ان اختلفا على اثر غزوة قاما بها معها وكان الخلاف من اجل الغنيمة وقد توعده ابي شرا فقال عمرو ونكتفي من هذه القصيدة بهذه الابيات :

أعـــــاذل شـــكتي بدنـــي ودمي	وكـــل مقلص سلس القيـــــاد
أعاذل انمـــا افنى شبابـــي	واقـــرح عاتقي حمـــل النجـاد
تمنانـــي ليلقانـــي ابـــــي	وددت واينمـــا منـــي ودادي
تمنانـــي وسابغتـــي ود لاص	كأن قتيرهـــا حلـــق الجـــراد
وسيفي كان مذ عهد ابن ضـــد	تخيره الفتـــي من عهـــد عاد
ولولا لاقيتني ومعـــي سلاحـــي	تكشف شحـــم قلبك عـــن سواد
أريـــد حباءه ويريــــــد قتلـــي	عذيرك مـــن خليلك مـــن مـــراد

ونحن نكتفي بهذا القدر من شعر عمرو قبل الاسلام لان له ديوانا مطبوعا صدر مشروحا ومحققا بعناية الباحث العراقي هاشم الطعان (١) واخباره واشعاره مبثوثة في كثير من كتب السير ومجاميع الشعر مثل سيرة ابن اسحاق وابـــن هشام وطبقات ابن سعد وفي الاغاني والامالي وكتب الحماسة وغيرها مـــن المصادر .

التحليـــــل

شعر عمرو الذي قاله قبل الاسلام يرسم صورا صادقة لحياته كفارس خاض غمرات الحروب وصارع مشاهير الفرسان ، فهو في قصيدته الداليـــة « ليس الجمال بمئزر » شاعر يفخر بمواقفه ذيادا عن حياض الحي ، ثم هـــو فـــي هذه القصيدة حزين النفس حين يتذكر رفاقه الذين قتلوا ، ورغم انـــه يدعـــى الصبر والجلد ازاء من فارقهم من الاحباب والرفاق الا انه يرسل نفثـــة مصدور حين يقول ان رفاقه الذين احبهم قد فارقوا الحياة وخلفوه كالسيـــف منفردا .

ولم يرو له بعد أسلامه الا قليل جدا من الشعر مثل قوله ناقدا نقدا صريحـــا الفوارق التي كانت موجودة بين اليمني والقرشي فيما يتعلق بالتساوي في انصبة غنائم الحرب وذلك حين قال :

نعطى السويـــة من طعن لـــه نفذ   ولا سويـــــة اذ تعطى الدنانـــير

وروى له في معركة القادسية هذه الابيات التي يذكر فيها قتله رستم قائـــد الفـــرس :

اذا قتلنا فلا يبكي لنـــــا أحـــــد	قالت قريش ألا تلـــك المقاديـــــر
ألم بسلمى قبـــل أن تظعنــــــا	ان لنـــا مـــن حبهـــا ديدنـــــا

(١)وصدر ديوان عمـــــرو بدمشق تحقيق وجمع مطاع الطرابيشي

قــد علمت سلمــى وجاراتهـــــا ... مــا قطر الفـــارس الا أنـــا
شـــــككت بالرمـــــح حيازيمـــه ... والخيــل تعدو زيمــــا بيننــا

امرؤ القيس بن عابس الكندي

وهذا شاعر مشهور من شعراء اليمن المخضرمين وهو قرابة امرىء القيس بن حجر الكندي ، وفد على النبي فأسلم ثم عاد الى اليمن وثبت على الاسلام ولم يرتد مع من ارتد من كندة .

جمع بعض اشعاره حسن السندوبي في ديوان امرىء القيس بن حجر ومعه اخبار المراقسه والنوابغ .

وكان شاعرنا ــ كما روى ابن سعد في الطبقات قد اختلف مع الرئيس اليمني الاشعث بن قيس حين ارتد ولامه على موقفه ذاك ، وكتب الى الخليفـــة الاول قصيدة يقول فيها :

ألا أبلـــغ أبـــــا بكر رســــولا ... وخص بهـــــا جميـــــع المسلمينا
فلست مجاورا أبـــــدا قبيـــــلا ... بمــــا قال الرســــول مكذبينـــا
دعوت عشيرتي للسلـــــم لمـــــا ... رأيتهــم تولـــــوا مدبرينـــــا
فقلت لهـــم أنيبـــوا بالقومــــي ... الى ما قـــــد أنـــاب المسلمونا

الى ان يقول منحيا باللائمة على الاشعث بن قيس :

وكان الاشعث الكندي رأســــا ... فقد اضحى بهـــا غلقـــا مدينـــا
فلا للمسلمــــين وفيت صبــــرا ... وقـــــد صبروا ولا للمشركينـــا
فضحت بني معاويـــة ولمــــــا ... تنــل في ذاك حجــــرا والسكونا
وكنت بهـــا أخا افــك وكــــذب ... ولم تــك في مقالــــك مستبينـــا

وأبيات امرىء القيس هذه تقريرية الطابع ليس عليها طلاوة شعره الذي قاله قبل الاسلام ومن أجود شعره قصيدته التي ينسبها بعض الرواة خطأ الى قريبه امرىء القيس بن حجر والتي نختار منها هذه الابيات :

تطــــاول ليلـــك بالاثمـــد ... ونـــام الخلي ولــم ترقـــد
وبـــات وباتت لــــه ليلـــة ... كليلـــة ذي العائر الارمـــد
وذلــك من نبـــأ جاءنــي ... وأنبئته عــــن أبــي الاســـود
ولـــو عن نثا غـــيره جاءني ... وجــرح اللســان كجــرح اليــد
بـــأي علاقتنـــا ترغبـــون ... أعن دم عمرو عـــلى مرتـــد
فان تدفنـــوا الداء لا تخفـــــه ... وان تبعثـــوا الحـــرب لا نقعـــد
وان تقتلونـــا نقتلـــــكم ... وان تقصـــدوا لـــدم نقصـــد
متــى عهدتـــا بطعـــان الكمــاة ... والمجد والحمـــد والســــؤدد
وبني القبـــاب ومــلء الجفـــان ... والنـــار والحطـــب المفـــأد
وأعـــددت الحــرب وثابـــة ... جـــواد المحثـــة كالمســـرود
سبوحـــا جموحـــا واحضارها ... كمعمعـــة السعف الموقـــد

على أن أروع ما قاله امرؤ القيس بن عابس الكندي من شعره قبــل الاسلام قصيدته اللامية التي وردت في اكثر مصادر الشعر القديم :

حـي الحمـول بجانب العـزل ... اذ لا يلائـم شكلهـا شكلي
ماذا يشـق عليك مـن ظعن ... الا صبـاك وقلـة العقـل
منيتنـا بغـد وبعـد غـد ... حتى بخلت كأسـوأ البخـل
يا رب غانيـة لهـوت بهـا ... ومشيـت متئـدا عـلى رسلي
لا أستقيـد عن دعـا لصبـا ... قسرا ولا اصطـاد بالختـل
وتنوفة حدبـاء مهلكـة ... جاوزتهـا بنجائب فتـل
متوسـدا عضبـا مضاربـه ... في متنـه كمدبـة النمـل
يدعـى صقيـلا وهو ليس له ... عهـد بتمويـه ولا صقـل

*   *

عفت الديـار فمـا بها أهلـي ... ولوت شموس بشاشـة البذل
نظرت اليك بعـين جازئـة ... حوراء حانيـة عـلى طفـل
فلهـا مقلدهـا ومقلتهـا ... ولهـا عليـه سراوة الفضـل
أقبـلت مقتصدا وراجعنـي ... حلمي وسـدد للنـدى فعلـي
والله أنجـح مـا طلبت بـه ... والبـر خير حقيبـة الرحـل
ومن الطريقـة جائـر وهـدى ... قصد السبيل ومنه ذو دخـل
اني لأصرم مـن يصارمنـي ... وأجـد وصل من ابتغـى وصلي
وأخـي اخـاء ذي محافظـة ... سهل الخليقـة ماجـد الاصل
حلو اذا مـا جئـت قـال الا ... في الرحب أنت ومنـزل السهل
نازعتـه كأس الصبوح ولـم ... أجهل مجـدة عشـرة الرجـل
اني بحبلـك واصـل حبلـي ... وبريش نبلـك رائش نبلـي
مـا لـم أجدك على هدى أثـر ... يقـرو مقصـك قائـف قبلـي
وشمائلي مـا قد علمت ومـا ... نبحت كلابـك طارقـا مثلي

التحليـل

اثبتت مجاميع الشعر القديم لامرىء القيس بن عابس الكندي مقاطـع شعرية غير هاته القصائد الثلاث ، ومن المؤكد ان قصيدته « تطاول ليلك بالاثمد » وحي الحمول بجانب العزل » من شعره الذي قاله قبل اسلام فهو في هـذه القصيدة شاعر فارس يتهدد ويوعد ويبرق ويرعد . وروح الثار ومثل المجتمـع القبلي تطل من خلال أبيات القصيدة كلها ، أما قصيدته « حي الحمول » فهـي غنائية الطابع في مقدمتها العاطفية تلك التي تعود شعراء الجاهلية تقديم قصائدهم بها ، وفي القصيدة وصف جميل لاخلاقه الشخصية واخلاق رفاقه وندمائه الذين يبادلهم حبا بحب وأكراما باكرام ، على أن في قصيدة امرىء القيس بن عابس بيتين جديرين بالنظر وهما :

والله أنجـح مـا طلبت بـه ... والبر خـير حقيبـة الرحـل
ومن الطريقة جائـر وهـدى ... قصد السبيل ومنـه ذو دخـل

ان هذين البيتين يشبهان ما جاء في القران من تعاليم فالبيت الاول القائم «والبر خير حقيبة الرحل » يشبه الاية الكريمة التي تقول « وتزودوا فان خير الـزاد التقوى » والبيت القائل « ومن الطريقة جائر وهدى قصد السبيل ومنه ذو دخل »

يشبه الاية الكريمة التي تقول « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر » ويظهر أن هذين البيتين مما أضافهما الشاعر الى قصيدته بعد اسلامه أو أنهما عمما اضافهما اليها الرواة .

فروة بن مسيك المرادي (١)

طبقات ابن سعد وتاريخ الطبري وسيرة ابن
هشام وشرح شواهد المغني للسيوطي

وفد هذا الزعيم اليمني الشاعر الى النبي عليه السلام عام الوفود مغاضبا قومه كندة فسأله النبي يافروة هل ساءك ما أصاب قومك « يوم الرزم » فقال يا رسول الله ومنذا يصيب قومه ما أصاب قومي يوم الرزم الا ساءه ويوم الرزم كان بين همدان ومراد قبيل الاسلام وكان النصر فيه لهمدان بقيادة الاجدع بن مالك جد مسروق الفقيه التابعي — وقد اقام فروة بن مسيك عند النبي ما أقام ثم استعمله على مرادوزبيد ومذجج كلها فعاد الى اليمن واقام فيها حتى وفاة النبي عليه السلام .

وفي يوم الرزم يقول فروة بن مسيك قصيدته المشهورة :

فان نغلب فغلابون قدما	وأن نهزم فغير مهزمينا
وما ان طبنا جبن ولكن	منايانا ودولة آخرينا
كذاك الدهر دولته سجال	تكر صروفه حينا فحينا
فبيناه يسر به ويرضى	ولو مكثت غضارته سنينا
اذ انقلبت به كرات دهر	فألفى بعد غبطته منونا
ومن يغبط بريب الدهر يوما	يجد ريب الزمان له خئونا
فأفنى ذلكم سروات قومي	كما أفنى القرون الأولينا
فلو خلد الزمان اذن خلدنا	ولو بقي الكرام اذن بقينا

الشعراء الاسلاميون

هده مجموعة من الشعراء اليمنيين هاجروا الى شمال شبه الجزيرة بعد انتشار الدعوة الجديدة ، والواقع أن اليمن أثناء انبثاق الدعوة الاسلامية صدرت الى شمال الجزيرة أدبا كثيرا لتستورد نظيره فقها وتشريعا ، فالطفيل الدورسي وهو يمني يعود الى اليمن داعيا اسلاميا لقبيلة دورس ويعود ومعه ابو هريرة الذي روى عن النبي أكثر من خمسة الاف حديث ، أخرجها له أصحاب المسانيد والصحاح والسنن والمصنفات أمثال مالك وابن حنبل

---

(١) اخباره وشعره وردت في طبقات ابن سعد وتاريخ الطبري وسيرة ابن هشام وشرح تواهد المغني للسيوطي

والبخاري ومسلم وأبو داود والسنائي وابن ماجه ، وتتناول احاديثه معظم ابواب الفقه في العقائد والعبادات والمعاملات والجهاد والسير والمناقب والتفسير والطلاق والدعوات الى إخر ذلك (١)

وقدم الى اليمن أو عاد اليها قاضيا شرعيا وعاملا كل من معاذ بن جبل وأبي موسى الاشعري وكلاهما يمني توليا اعمال الجند وزبيد ومعاذ بن جبل هو باني مسجد الجند التاريخي الموجود الى اليوم ، وقدم الى اليمن علي بن أبي طالب اكثر من مرة وكذلك قدم اليها ابان بن عثمان بن عفان وهو باني مسجد ابان الذي يحمل اسمه الى اليوم .

كما صدرت اليمن الى جانب الشعر الى شمال شبه الجزيرة فن التأليف جاء في كتاب الاعلام للزركلي[٢] في سياق ترجمة الاخبارى اليمني عبيد بن شرية ما يلي :

« راوية من المعمرين وهو أول من صنف الكتب من العرب قيل في ترجمته من الحكماء الخطباء في الجاهلية أدرك النبي عليه السلام ، واستحضره معاوية من صنعاء الى دمشق فسأله عن أخبار العرب الاقدمين فحدثه فأمر معاوية بتدوين اخباره فأملى كتابين احدهما سمي كتاب الملوك وأخبار الماضين طبع مع كتاب التيجان وملوك حمير تحت عنوان أخبار عبيد بن شرية في اخبار اليمن واشعارها وانسابها ، والثاني كتاب الامثال وعاش عبيد الى أيام عبد الملك بن مروان « ومثل هذا القو لورد في كتاب المعارف لابن قتيبة » .

ذلك تمهيد لا بد منه ونحن نستعرض حركة الشعر الذي قاله اليمنيون في المائة الاولى من سني الهجرة ، فهذه فترة حفلت بألوان من الصراع العقائدي والفكري ، صراع تباينت الوانه واشكاله ، فالردة وما خلفت من اثار ، والتناحر بين القبائل القيسية واليمنية ، والخلاف بل القتال الذي ثار غباره بين معسكري علي ومعاوية كل ذلك وسم نتاج الشعراء اليمنيين بطابع القلق والتوتر فهو شعر غاضب حانق لا يكاد يخرج من قتام معركة الا ليدخل في قتام معركة اخرى .

وليس غريبا أن نلاحظ ان الشعراء الذين غادروا اليمن الى مقر الدعوة الجديدة والى ما جاورها من البلاد التي امتدت سلطانها عليها كالعراق والشام ومصر وغيرها . هؤلاء الشعراء لاقوا من ارتفاع الذكر وبعد الصيت ما لم يلاقه الشعراء الذين بقوا داخل اليمن وام يغادروها .

وهذه نظرة نلقيها على شعر بعض شعراء اليمن الذين طغت أصواتهم على أصوات كثير من الشعراء اليمنيين لانهم عايشوا أحداثا لها علاقة

---

(١) ابو هريرة راوية الاسلام لمحمد عجاج الخطيب ص ١٧١
(٢) الاعلام للزركلي ج ٤ ص ٣٤١

بقضايا التاريخ وبخاصة في العهد الاموي أو الزبيري وفي مقدمة هؤلاء الشعراء الشاعر اليمني سراقة البارقي .

وسراقة بن مرداس البارقي هو سراقة البارقي الاصغر تمييزا له عن سراقة البارقي الاكبر . فهذا الثاني — نقصد البارقي الاكبر شاعر جاهلي روى الامدي[1] عنه انه اشترك في حرب مع قريش حين قتلت قريش أبا أزيهر الدوسي فقتلت به ازد اليمن جماعة من كبار رجال قريش وجعلت عليهم خرجا كل عام غير من قتلت منهم وفي ذلك يقول الشاعر الجاهلي سراقة الاكبر :

لقد علمت بنو أسد بأنا	تقحمنا المعاشر معلمينا
تركنا تسعة للطير منهم	بمكة للسباع مطرحينا
فلما أن قضينا الدين قالوا	نريد الصلح قلنا قد رضينا
وضعنا الخرج موظوفا عليهم	يؤدون الاتاوة صاغرينا
لنا في العيد دينار مسرى	به حز الحلاقم يتقونا
ولولا ذاك ما عدلت قريش	شمالا في البلاد ولا يمينا

وبعض المصادر تنسب هذه الابيات للشاعر اليمني الجاهلي معقر بن الحارث بن اوس البارقي .

أما سراقة بن مرداس البارقي الاصغر الذي نحن بصدده فهو سراقة بن مرداس بن اسماء بن خالد البارقي ،وبارق بطن من الازد سميت باسم سعد بن عدى بن حارثة الذي اكتسب اسم بارق لنزوله جبلا بالسرات .

ومجهولة حياة سراقة البارقي ولكنه يظهر أول ما يظهر في عام ٦٦ للهجرة محاربا للمختار الثقفي ثائرا عليه مع اعيان الكوفة . وقد استطاع المختار الثقفي أن يخمد الثورة ويلقي القبض على زعمائها ومن بينهم سراقة البارقي الذي يعتذر الى المختار بأبيات يقول في اولها :

الا أبلغ أبا اسحاق أنا	نزونا نزوة كانت علينا
نصرت على عدوك كل يوم	بكل كتيبة تنعى الحسينا

ويتخلص الشاعر من السجن بحيلة ظريفة لقد ادعى انه رأى الملائكة تحارب مع المختار ، وانهم هم الذين هزموا جيش مناوئيه ولم يهزمهم جيش المختار ، وزاد أن تكهن بأن المختار لا يستطيع قتله الان وانما يستطيع ذلك بعد أن يفتح دمشق وينقضها حجرا حجرا ، ويستمرىء المختار هذا الزعم لانه يوافق آراءه التي كان يشيعها بين الناس عن نفسه طمعا في الوصول الى الحكم تحت ستار الدعوة الى امامة محمد بن الحنفية ويطلب الى سراقة اعلان ما رآه الى الناس من على المنبر فيفعل سراقة ذلك ولكنه حين عفا عنه المختار اتصل بالزعيم اليمني عبد الرحمن بن مخنف قتيل الخوارج في احدى معارك ارض سابور ، لحق بعبد الرحمن عند مصعب بن الزبير بالبصرة ،وقال يهجو المختار مشيرا الى قصة الملائكة التي اخترعها ليتخلص من السجن

---

(١) المؤتلف والمختلف للامدى ص ١٣٤

أو القتـــل قـــال .

الا ابلـــغ ابـــا اسحاق انــــــي ... رايت البلـــق دهمـــا مصمتـــات
كفرت بوحيكم وجعلت نــــــذرا ... علي قتالــــكم حتـــى الممـــات
أرى عيني مـــا لـــم ترأيــــــاه ... كلانــــا عالـــم بالترهـــات
اذا قالوا أقول لهـــم كذبتـــم ... وان خرجـــوا لبست لهـم أداتي

وكان بشر بن مروان اخو عبد الملك واليا للكوفة قد استظرف سراقة وجعله أحد سماره وخلصائه ، وهو الذي اغراه بهجاء جرير وتفضيل الفرزدق عليـه فقال في ذلك قصيدته الرائية المطولة التي يقول فيها :

أبلـــغ تميمـــا غثهـــا وسمينها ... والحـــكم يقصـــد مـــرة ويجـــور
ان الفرزدق بـــــرزت حلباتـــــه ... عفوا وغودر فـــي الغبـــار جريـــر

وقد ناقضه جرير بقصيدته التي يقول فيها :

يا آل بارق لو تقـدم ناصـــــح ... للبارقــــي فانـــــه مغــــرور
كالسامري غداة ضـــل بقومـــه ... والعجـــل يعكف حولـــه ويخـــور

وللشاعر ديوان مطبوع صدر عام ١٩٤٧ بتحقيق وشرح حسين نصـــار وله عليـه مقدمة تكاد تكون دراسة مفصلة لشعره والاغراض التي دار حولها شعره وخاصة ناحية الوصف فيه ، وصاحب المقدمة يشير الى قصيدة البارقي البائية التي غالها في وصف الخيل ، ويبلغ عدد ابياتها خمسة وخمسين بيتا وهو ـــ حسين نصار ، يقدم في دراسته تلك مقارنة بين هذه القصيدة والقصائـد التي قالها في هذا الموضوع جماعة من شعراء العرب عرفوا بوصف الخيل وهم امرؤ القيس وعلقمة الفحل وطفيل الغنوى والنابغة الجعدي وسلامة بن جندل ويوجز خلاصة ما استنتـــج من المقارنة ان هؤلاء الشعراء قد يشاركون سراقة في كثير من خصائصه ولكنه في نظره خير من رسم صورة لفرس واحدة معطيـا ادق التفاصيل كاشفا عن أصغر الاجزاء في الفاظ مألوفة وأسلوب عذب ولذلك شاعت هذه القصيدة بين العرب في المجامع وجعلها القوم حديثهم في المجالس حتى قال عنها الحجاج « من أراد أن يبصر بالخيل فليرو قصيدة بارقة هذه » ولم ينسب الحجاج القصيدة الى البارقي وانما الى بارق كلها وكأنها مفخرة لقومه من أعظـم المفاخـر .

ومن مميزات شعره انه شعر ينبض بالروح اليمني ويتغنى اليمن حيا حيا :

وان الراس شيبــــه اطلاعـــي ... بـــلاد الحرب لابســـة قتامـــا
أعالج صعــــدة واقود مهـــرا ... طويـــل المتن يستـــوفي الحزاما
ولست بمحرز مالـــي بنـــذر ... ولو لـــم يبق لي أبـــدا سوامـــا
ولســــت أرشح الاطفال منهـــا ... ليدرك نسلهـــا عامـــا فعامـــا
ولكنـــي أقول لحالبيهـــــا .. ... أشيعـــا ان في مالـــي ذمامـــا
وأقرضهــــا ابن عمي ان أتـــاني ... وأقرى الضيـــف أعظمهـــا سناما
واخوان فجعـــت بهـــم فأضحى ... كمجروح غـــدا يشكو الكلامـــا
وقد أحمي الحقيقة كـــل يـــوم ... وتحمي الازد أنفـــي ان أرامـــا
ومذحـــج اذ تقر بهـــم عيونـــي ... رأيت قـــروم مذحجنـــا عظامـــا
وفي همـــدان ضرب جـــين تلقـــى ... يطـــير معاصمـــا ويبني هامـــا

وان أهتف بكنـــــدة يأت صـــف تطــل رماحهم ملكـــا هماـمـــا
وان تحضر بجيلة يـــوم بـــــأس تكشـــف عن مناكبـــي الزحامـــا
وداعي الاشعرين اذا دعاهـــــم منعنـــاه الجوامـــح أن يضامـــا
وحمير حـــين يبدؤهـــا كريـــب تكـــاد أنوفها تجلـــو الغمامـــا

وعلى هذا النحو يمضي الشاعر في تعداد البطون اليمنية وكأنه يعـد موسوعة انساب وهو أمر يشعر القارىء بأن العصبية القبلية قد احياها عصر الامويين احياء وغذاها تغذية بعدت بها كثيرا عن مثل الاسلام وقيمه الانسانية الرفيعـــة .

وضـــاح اليمـــن

عاش هذا الشاعر اليمني في عصر الدولة الاموية ، وهو عصر ازدهر فيه الادب ازدهارا تعددت فيه مواضيعه ، واختلفت فيه اتجاهاته ومدارسه ، فكان فيه شعراء السياسة والهجاء القبلي أمثال جرير والفرزدق والاخطل وعدى بن الرقاع والقطامي واضرابهم ، وشعراء البادية الذين فتنوا في وصف مظاهر الطبيعة امثال الراعي وذي الرمة وغيرهما ، وظهرت فيه مدرسة الشعـــراء العذريين الذين قصروا شعرهم على امراة واحدة وتغنوا بالعفاف والحب البريء امثال جميل بثينة وكثيرة عزة . ومدرسة الشعراء الاباحين الذين تغنوا بحبهم لاكثر من امراة ، ولم يتحرجوا عن التصريح بالحب المستجيب لاهواء الغريـــزه ونداء الجنس ، امثال عمر بن ابي ربيعة وابنقيس الرقيات والعرجي ، والاحوص ، وغيرهم من الشعـــراء .

وقد بلغ الادب في هذا العصر اوجا رفيعا من الترف الفني ، ادى اليـــه وساعد على انتشاره ، ما كانيغدقه الحكام الامويون على شباب قريش مـــن المال بغية صرفهم عن التطلـــع الى الحكم ، واغراق نفوسهم في موجة مـــن الحياة العابثـــة اللاهية ، على النحو الذي يعرفه كل قارىء لادب العصـــر الاموي الذي اجمع الباحثون على انه ارقى عصر لم تعرف عصور الادب عصرا مثله حفل بالادب الذي يخاطب العاطفة ،ويتحدث عن خوالج الشعور والوجدان .

وقد عاش وضاح اليمن حياة كادت تخلع عليه ثوبا اسطوريا ، احاطت بحياته الوانا من الغموض وكذلك كان موتـــه في ظروف غامضة لا تكاد كتب التراجم تلقى عليها الا اضواء باهتة لا تجلو سيرته واضحة ظاهرة السمات والمعالم كما عرفت سير كثير من زملائه الشعراء ، ولعل مرد هذا الغموض الى العصبيـــة القديمة التي كانت تثور بين القيســية واليمانية بحيث يجد شاعر الحجاز ما لا يجد شاعر اليمن من العناية بنقل اخباره وحفظ اثاره ، أضف الى ذلك ان اليمن كانت ــ في الغالب ــ شيعة لعلي ابن أبي طالب وعدوا للبيت الاموي ، فاذا أضفت الى ذلك أن قصة علاقة وضاح بأم البنين زوج الخليفة الاموي الوليد بن عبـد

الملك كانت قصة شائعة ومشهورة فقد امكنك أن تفهم سر تحفظ الرواة فيها حرصا على سمعة البيت الاموي حتى قيل أن قصة تلك العلاقة لم تكتب الا في العصر العباسي حين زال الحذر وامتنع المحظور . وعلى يد احد الشعوبيين المعادين للاسرة الاموية .

اما اسمه فعبد الرحمن بن اسماعيل بن عبد كلال بن داذ بن أبي جمد واختلف في نسبه فظن بعضهم أنه من سلالة الفرس الذين كانوا يسمون بالابناء والذين قدموا اليمن مع القائد الفارسي (وهرز) لنصرة سيف بن ذي يزن على الحبشة ، واحتج هذا البعض بوجود أسم (داذ) في نسبه ويقولون أن هذا الاسم فارسي ويخالفهم العلماء بالانساب فيقولون أن عبد كلال اسم يمان وابو جمد كنية يمانية والعجم لا تكتني . (١)

والمرجح انه يمني من خولان ينتهي نسبه الى حمير فقحطان ويدلنا على أن اسم داذ يمني قوله مفتخرا في بنات عمه :

من بنات الكريم « داذ » وفي ... كندة ينسبن من أباه اللعن

ويقول مفتخرا بجده أبي جمد

بنى لي اسماعيل مجدا مؤثلا ... وعبد كلال بعده وأبو جمد

اما وضاح أو وضاح اليمن فلقب غلب عليه في قصة ليس هنا محل ذكرها.

وتروى كتب الادب عن وضاح اليمن انه كان على جانب كبير من الوضاءة والصباحة واستواء التكوين ، وانه احد ثلاثة من العرب هم وضاح والمقنع الكندي — وابو زبيد الطائي — كانوا لا يدخلون اسواق العرب الا مقنعين خشية العين — كذا تقول المصادر — وقد كان جماله ذاك مشبها لجمال ابن ابي ربيعة الشاعر الغزل المشهور ولعل وسامة وضاح هي التي جعلته الى العاشق المتيم المدلل ، اقرب منه الى الفارس المغامر رغم انه يدعي في شعره الفروسية كما ينصف نفسه بوصفه لنفسه بالوسامة الفائقة والفروسية وذلك حين يقول :

اذ قالت الحسناء لصديقتنا ... رث الثياب وانه لمليح
لا تسألن عن الثياب فانني ... يوم اللقاء على الكماة مشيح
أرمي وأطعن ثم اتبع ضربه ... تدع النساء على الرجال تنوح

ويقول في موضع اخر في هذا المعنى :

ماذا تراعون من فتى غزل ... قد تيمته خمصانة رؤد
يهددوني كيما أخافهم ... هيهات اني يهدد الاسد

ويكرر وضاح هذا المعنى في قصيدة له اخرى يقول فيها :

سموت اليها بعدما نام بعلها ... وقد وسدته الكف في ليلة الصرد
أشارت بطرف العين أهلا ومرحبا ... ستعطى الذي تهوى على رغم من حسد
ألست ترى من حولنا من عدونا ... وكل غلام شامخ الانف قد مرد
فقلت لها اني امرؤ فاعلمنه ... اذا ما أخذت السيف لم أحفل العدد

والابيات السالفة تدل على تأثر وضاح بمدرسة امرىء القيس وهو نفس التأثر

---

(١) وقد يجوز ان يطلق اسم عجمي على عربي ولا يقدح ذلك في اصله العربي .

الذي تأثر به عمر بي ابي ربيعة ونظرة الى ابيات امرىء القيس التالية تدل على مقدار هذا التأثير قال امرؤ القيس :

سموت اليها بعدما نـام أهلهـا ... سمو حباب الماء حالا على حـال
فقالت سباك الله انك فاضحـي ... ألست ترى السمار والناس أحوالي
أيقتلني والمشـــر في مضاجعـي ... ومسنونة زرق كأنيـاب أغـوال

وفي حياة وضاح نساء عاش معهن حياة عاطفية لمسنا اثارها في شعره ويظهر ان اثنتين منهن كانتا اشد تأثيرا على نفسه .

فقد احب اول ما أحب امرأة يمنية هي روضة بنت عمرو من كندة ، وفي روضة هذه نظم وضاح شعرا كثيرا ، وكان قد خطبها فامتنع اهلها من تزويجها اياه ، لانه شبب بها وزوجت غيره ، وانتهت حياتها مع الزوج الجديد بمأساة تركت اثارها في نفس وضاح . . . لقد اصابها داء الجذام وعزلت مع المجذومين واستطـاع وضاح زيارتها واعطاها ـ كما تقول المصادر ـ صدرا من نفقته ، وروضة هي التي يصفها بقوله :

أعني على بيضاء تنكل عن بـرد ... وتمشي على هون كمشية ذي الحرد
وتلبس من بز العراق مناصفـا ... وأبراد عصب من مهلهله «الجند»

وله في روضة قصيدته الحوارية المشهورة التي يقول فيها :

قالت ألا لا تلجـن دارنـا ... ان أبانا رجـل غائـر
قلـت فاني طـالب غـرة ... منـه وسيفي صارم باتـر
قالت فـان القصـر من دوننـا ... قلت فانـي فوقـه ظاهـر
قالت فـان البحر مـن دوننـا ... قلت فانـي سـابح ماهر
قالت فحولـي أخـوة سبعـة ... قلت فانـي غالـب قاهـر
قالـت فليـث رابض بيننـا ... قلـت فانـي أسـد عاقر
قالت لقـد أعييتنـا حجـة ... فـأت اذا ما هجع السامر
واسقط علينـا كسقوط النـدى ... ليلـة لا نـاه ولا زاجـر

ويبدو أن موجة الفتح العربي وظروف الغزو التي لابسته يومذاك دفعـت بوضاح الى الشام في ايام الوليد بن عبد الملك ولكنه حتى وهو بالشام ظل يحـن وفي قصيدة له اخرى يصف « طيف الخيال » وكيف طرقه وهو بالشام قاطعا ابعاد المراحل والمسافات :

أبت بالشام نفسي ان تطيبـا ... تذكرت المنـازل والحبيبـا
تذكـرت المنازل مـن شعوب ... وحيـا أصبحوا قطعـوا شعوبا

الى روضة ويذكر مواطن صباه ومراتع صباباته باليمن وخص منها منـازل « شعوب » حوالي صنعاء التي لا تزال تحمل هذا الاسم الى اليوم :

زائر من قصور صنعـاء يطـوى ... كل أرض مخوفـة وجبـال
يقطع الحزن والمهامـه والبيـد ... ومن دونـه ثمـان ليـال
عاتب في المنـام أحبـب بعتباه ... الينـا وقولـه من مقال

وتبدأ حياة وضاح مرحلة جديدة اقترنت بعلاقته بأم البنين زوج الخليفة الاموي السادس الذي بويع بالخلافة عام ٨٦ للهجرة وقبل أن نعرض لاقوال الرواة التي رددوها حول هذه العلاقة التي انتهت بموت وضاح موتا غامضا غير طبيعي نحب أن نستقرىء شعر وضاح اليمن الذي يمكن أن يعطينا لمحات من حياته في تلك

ففي شعر وضاح ابيات مدح بها الوليد بن عبد الملك مثل قوله :

والق ابن مروان الذي مد هزه ... عرق المكارم والندى فاتله
واشك الذي لاقيته من دونه ... وانشر اليه داء قلبك كله

وهو يصرح في هذه الابيات بأنه يلقى صعوبات في الوصول اليه وأن باب الخليفة يغلق في وجهه كلما طلب الاذن :

فعلى ابن مروان السلام من امرىء ... أمسى يذوق من الرقاد أقله
شوقا اليك فما تنالك حاله ... واذا يحل الباب لم يؤذن له

أما ام البنين فقد وردت له فيها ابيات يصفها بالاحسان اليه والى كثير من امثاله من المغتربين والبؤساء :

واجبر بها الرجل الغريب بأرضها ... قد فارق الاخوال والاعماما
كم راغبين وراهبين وبؤس ... عصموا بقرب جنابها اعصاما
بجناب طاهرة الثنا محمودة ... لا يستطاع كلامها اعظاما

ولوضاح ابيات اخرى اشتملت على ثناء على الوليد ، وهو في ابياته تلك يؤكد بأن بقاءه في الشام لغرض الجهاد فقط ، وأنه قد تحول عن اتجاه نجم سهيل الذي يهدي الراكب الى اليمن وأصبح الان ميمما صوب « كواكب بنات نعش » وهي من الكواكب الشامية حيث كان الغزو نحو الروم .

يمانية تلم بنا فتبدي ... دقيق محاسن وتكن غيلا
دعينا ما أممت بنات نعش ... من الطيف الذي ينتاب ليلا
ولكن ان أردت فصبحينا ... اذا أمت ركائبنا سهيلا
فانك لو رأيت الخيل تعدو ... سراعا يتخذن النقع ذيلا
اذن لرأيت فوق الخيل أسدا ... تفيد مغانما وتفيث نيلا

ذلك قسم ــ ولكنه قسم ضئيل ــ من شعر وضاح يتحدث عن ام البنين بنت عبد العزيز بن مروان حديث اجلال واكبار ، ويثنى على الوليد بن عبد الملك الثناء المنتظر من شاعر يمتدح خليفة ولكن الذي لا ريب فيه ان وضاحا لم يكن شاعرا مداحا من طراز جرير والفرزدق والاخطل الذين امتدحوا عبد الملك بن مروان وأولاده بالقصائد المطولة التي سجل بعضها مآثر البيت الاموي فقد كان عهد الوليد بالذات عهدا حافلا بالفتوحات وحركة العمران والاصلاح الاجتماعي ففيه تم فتح السند على يد محمد بن القاسم ووصل قتيبة بن مسلم بفتوحه الى حدود الصين وكل هذه المآثر لم يتحد ثعنها شعر وضاح .

وانما كان الرجل شاعرا غزلا من صنف ابن أبي ربيعة . لم يكن ليختلف عنه الا في نوع الحياة فقد كان ابن ابي ربيعة شاعرا يعيش في خفض ويسار بحيث استطاع ان يقول للخليفة حين سأله لماذا لا تقدم الينا مادحا « اني امدح النساء ولا أمدح الرجال » ولم يكن وضاح على ما يبدو موسرا لذلك اتصل بالوليد ومن أجل ذلك ابتغى الوسيلة في الوصول اليه ولم تكن الوسيلة سوى زوج الوليد المترفة التي كانت تتعرض للشعراء تطلب اليهم أن يتغزلوا بها . وممن ذكرها في شعره عبد الله بن قيس الرقيات الذي له فيها قصيدته الهمزية التي يقول فيها :

بان الحبيب الذي به نثق ... واشتد دون الحبيبة القلق

وله فيها قصيدته القافية التي يقول في مطلعها :

أصحوت عن أم النبي وذكرها وعنائها .
قرشية كالشمس أشرق نورها ببهائها

أما قصة تعرضها لوضاح اليمن فقد رواها الشاعر كثير عزة على النحو الاتي قال (١)

حجت ام البنين بنت عبد العزيز بن مروان فأرسلت الي والى وضاح اليمن ان انسبا بي فهبت ذلك ونسبت بوصيفتها غاضرة فقلت :

شجا اظعان غاضرة الغوادي بغير مشورة عرضا فؤادي

وأما وضاح فنسب بها فبلغ ذلك الوليد فقتله .

كذلك كانت بداية صلته بأم البنين ويغلب على الظن أنها دعته الى الوصول الى الشام مادحا الخليفة ووعدته بأنها ستعمل عنده على اعانته وتقوية أمره ولكن شعره فيها شاع والشعر نمام طويل اللسان ولم يكن شاعرنا حذرا ولا محتاطا لنفسه ، أو يظهر ان نساء ذلك العصر لم يكن يعجبهن الغزل الا اذا اكد فيه الشاعر اسما وذاتا وصفات وهي ظاهرة دلت عليها كثير من الشواهد في ادب العصر الاموي ، وقد كان ان صرح وضاح اليمن بذكر ام البنين في غير تستر ولا مواربة :

علق قلبي ربيب بيت ملو ك ذات قرطين وعشة الكفل
تفتر عن منطق تظن به يجري رضابا كذائب العسل

بل انه تعدى ام البنين الى اخت الخليفة الوليد فاطمة بنت عبد الملك . وفاطمة هذه هي زوج عمر بن عبد العزيز التي قال فيها وضاح اليمن :

بنت الخليفة والخليفة جدها اخت الخليفة والخليفة بعلها
فرحت قوابلها بها وتباشرت وكذاك كانوا في المسرة أهلها

ومن شعر وضاح الذي اعجب الفقهاء قوله في ام البنين :

قال احد رواة الادب انشدت محمد بن المنكدر ــ وكان الاخير من الفقهاء الاعلام ــ انشدته قول وضاح :

ترجل وضاح واسبل بعدما تكهل حينا في الكهول وما احتلم
وعلق بيضاء العوارض طفلة مخضبة الاطراف طيبة النسم
اذا قلت يوما نوليني تبسمت وقالت معاذ الله من فعل ما حرم
فما نولت حتى تضرعت عندها واخبرتها ما رخص الله في اللمم

قال راوي الخبر فضحك ابن المنكدر عندما انشدته الابيات السالفة ، وقال ان كان وضاح الا مفتيا لنفسه .

وانتهت حياة وضاح في بلاط الوليد بن عبد الملك الذي سخط عليه لتشبيبه بزوجته وأخته ، ولم تجر عادة الخلفاء الامويين ان يعاقبوا بالقتل على ما يقال من شعر في نسائهم ، تغزل عبد الرحمن بن حسان بأبنة معاوية فلم يقتله ، واقصى عقوبة نالت الشعراء في عهدهم من أجل ذلك النفي . . نفي ابن ابي ربيعة الى ابين لانه فضح المخدرات بشعره ومن بينهن نساء من القصر ، ونفي الاحوص الى دهلك ــ بلدة بجانب مصوع ــ للسبب عينه ، ولم يعاقب ابن قيس الرقيات رغم

---

(١) الاغاني لابي الفرج الاصبهاني

انه قال في ام البنين اكثر من قصيدة . ولقي وضاح اليمن مصرعه لانه تجـــاوز على ما يظهرـــ مجرد القول البريء الى الفعل المريب .

وروت مصادر الادب مقتله على اختلاف في الرواية جد يسير : قيل ان الوليد استدعاه وامر بدفنه في بئر ، وقيل انه قتله قتلا بغير ما تبين لصورة القتـــل ، والرواية المشهورة انه كان عندها في القصر وان غلاما للوليد ابلغه ذلك فدخل الوليد لرعيها ولكنها كانت قد خبأته في صندوق ، وقد طلبها الوليد احد صناديقها فقبلت أن تعطيه أيا منها الا ذلك الصندوق الذي ادعت انه يضم حاجات لهـــا ثمينة خاصة بها ، واصر الوليد على اخذه هو بعينه فأذعنت ، وامر بدفنه في نفس المكان :

وحجت ام البنين في عام قابل بعد أن حذر الوليد من ان يتعرض لها اي شاعر، وكان حجها وهي صامتة لكأنها كانت تتمثل شبح وضاح اليمن يطالعها من وراء استار البيت العتيق مرددا قول الشاعر الاموي في امثالها من النساء المترفات :

من اللأ لم يحججـــن يطلبن توبـــة   ولكن ليقتلن البــــريء المغفـــلا

القرن الثاني للهجرة

الثقافة في اليمن

كان القرن الاول والثاني للهجرة ينبوعا ثرا من ينابيع تكوين الثقافة الاسلامية وقد تكونت عناصر هذه الثقافة من القرآن ، والحديث ، والانسا بمثل جمهرة النسب لمحمد بن السائب الكلبي ، والاخبار مثل كتاب التيجان لعبيد بن شرية والتيجان لوهب بن منبه ، ومن اشهر رجال القرن الثاني في اليمن في القضاء وعلم التاريخ :

وهب بن منبه

هو وهب بن منبه الابناوي الصنعاني الذماري ابو عبد الله مؤرخ كثير الاخبار عن الكتب القديمة عالم باساطير الاولين ولا سيما الاسرائيليات ، يعد في التابعين اصله من ابناء الفرس الذين بعث بهم كسرى الى اليمن ، وامه من حمير ولد ومات بصنعاء وولاه عمر بن عبد العزيز قضاءها ، واتهم بتأليف كتا بفي القدر ثم ندم عليه ومن كتبه « ذكر الملوك المتوجة من حمير واخبارهم وقصصهم وقبورهم واشعارهم رآه ابن خلكان في مجلد واحد ، وقال هو من الكتب المفيدة وله « قصص الانبياء » و « قصص الاخيار » ذكرهما صاحب كشف الظنون وتوفي عام ١١٤ (١)

ويذكر بروكلمان في كتابه تاريخ الادب العربي ج (٢) ص ٢٥٢ في سياق استعراض آثار وهب ابن منبه أن كتابه التيجان الذي طبع في حيدر آباد عام ١٣٤٧ انما هو في الواقع كتاب لابن هشام اعتمد فيه على اسرائيليات وهب كما يشير

(١) الاعلام للزركلي ج (٩) ص ١٥٠

(٢) ج ٢ ص ٢٥٢

بروكلمان الى كتاب له في الاسرائيليات نقل عنه كثيرا ابن قتيبة في عيون الاخبار .
ومن مشاهير هذا العصر ايضا همام بن منبه ترجم له خير الدين الزركلي (٣) في الجزء ٩ من الاعلام ص ٩٨ بقوله :
همام بن منبه بن كامل بن شيخ اليماني الصنعاني الابناوي وهو ابو عقبة صاحب اقدم تاليف في الحديث من ثقات التابعين كان يغزو وكان يشتري الكتب لاخيه وهب ولازم ابا هريرة فأخذ عنه نحو ١٤٠ حديثا وصنفها في رسالة الصحيفة الصحيحة اثبتها ابن حنبل مجموعة في مسنده ، وكانت وفاته بصنعاء في القرن الثاني للهجرة وبالذات عام ١٣١ الموافق عام ٧٤٩ م ، ومن اعلام هذه الفترة في علوم القران :

طلحة بن مصرف الهمداني

قال عنه ابن قتيبة في كتاب المعارف :(٤)
يكنى ابا عبد الله وكان قارىء اهل الكوفة فلما راى كثرة الناس عليه كره ذلك ومشى الى الاعمش فقرأ عليه فمال الناس الى الاعمش وتركولا طلحة ومات سنة اثنتي عشر ومائة .
ومن علماء القراءة ايضا في هذه الفترة من القرن الثاني :

يحي بن الحارث الذماري

كان قليل الحديث ولكنه كان عالما بالقراءة وكان قد قرأ على العالم اليمني عبدالله بن عامر اليحصبي .
ولمع في هذه الفترة عدد من الاسماء في علم الحديث ومنهم:

عبد الرزاق الصنعاني

الحديث والفقه

جاء في حاشية الاكليل بتحقيق الاستاذ محمد علي الاكوع هذه الترجمة عن هذا العلامة اليمني (١)
هو الامام الحافظ الحجة المرحول اليه ابو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري حافظ الدنيا ومحدث اليمن ومؤرخها احد ائمة الامصار المعدودين واحد

(٣) الاعلام للزركلي ج٩ص٩٨
(٤) ص٩٨ طبعة دار المعارف
(١) الاكليل ج ١ ص ٤١٩

الثقات المشهورين اليه انتهت زعامة اللعم وامامة الحديث والفتيا ، تفقه بمعمر بن راشد وأخذ عن همام بن منبه اخي وهب بن منبه وعن عبدالله بـ نعيسـى الجندي وسفيان الثوري وابن جريج ، واليه رحل اسحاق بن راهوية واحمد بن حنبل وعلي بن المديني ويحيي بن معين والشافعي قال بعض الحفاظ لم يرحل الى احد بعد النبي عليه الصلاة والسلام في طلب العلم كما رحل الى عبد الرزاق ولـه تصانيف منها مسنده المعروف عند المحدثين بمسند عبد الرزاق ولم يعثر عليه في هذا العصر . وكان احمد بن حنبل يقول اذا اختلف اصحاب معمر فالحديث لعبد الرزاق وكانت ولادته عام ١٢٦ هـ .

طاووس بن كيسان اليماني

من ابناء الفرس في اليمن نشأ بمدينة صنعاء وارتحل الى مكة والمدينة حيث سمع من عبد الله بن عمر وعبدالله بن عباس وأبي هريرة وكان انقطاعه الى ابن عباس حتى صار من خاصة تلاميذه .

وجاء في كتاب طبقات الزيدية نقلا عن قيس بن سعد كان طاووس في اليمـن كابن سيرين في البصرة .

و كتاب الاعلام لخير الدين الزركلي جاء في ترجمته ما يلي :

من أكابر التابعين تفقها في الدين ورواية للحديث وتقشفا في العيش وجراة على وعظ الخلفاء والملوك ، مولده ومنشؤه اليمن توفي حاجا بالمزدلفة او بمنـى وكان هشام بن عبد الملك حاجا في تلك السنة فصلى عليه .

وكان طاووس يأبى القرب من الملوك والامراء قال ابن عيينة :

متجنبو السلطان ثلاثة ابو ذر الغفاري وطاووس والثوري كانت وفاته عام ١٠٦ هـ

ونحن نكتفي بهذه الطائفة من اعلام اليمن في القرنين الاول والثاني ولمن شاء المزيد من الاطلاع على سير واخبار امثالهم الرجوع الى كثير من المصادر مثـل تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير الاعلام للذهبي وكتاب السلوك في طبقات العلماء والملوك للجندي وطبقات الفقهاء لابن سمرة وغيرها من المصادر .

الاوضاع السياسية في هذه الفترة

كانت اليمن خلال القرنين الاول والثاني ولاية اسلامية تحكم اما من مكة او من دمشق أو من بغداد خلال فترات الحكم التي تعاقبت عليها اسلامية وزبيرية واموية وعباسية .

وقد تخللت هذه الفترة عدة هزات سياسية خلفت وراءها اصداءها الصاخبة فمن هذه الحوادث :

حادثة الردة التي استطاع الخليفة الاول اخماد ثورتها نظرا لما أبدى من تسامحه ازاء كثير من الزعماء القائمين بها امثال الاشعث بن قيس وقيس بن مكشوح المرادي وعمرو بن معدي كرب الزبيدي وغيرهم .

ومن تلك الاحداث المأساة التي احدثها بسر بن ارطاة وكان معاوية بن ابي سفيان قد بعثه على رأس جيش كثيف لاستئصال شيعة علي بن ابي طالب باليمن قال الهمداني في الجزء العاشر من الاكليل ان بسر بن ارطاة نال من شيعة علي وضرب من الابناء على باب المصرع اثنتين وسبعين رقبة ، وبذلك سمي ذلك الموضع بالمصرع وعلى الجملة فقد احدث بسر بن ارطاة في اليمن مقتله عظيمة وقد بعث اليه علي بن ابي طالب بجيش ظفر باتباع معاوية بعد معارك دامية وهرب بسر من اليمن في جماعة من اتباعه .

وفي خلافة ابي جعفر المنصور وبالذات في عام ١٥٢ للهجرة تولى اليمن من قبل المنصور معن بن زائدة الشيباني فوضع السيف وسفك الدماء ، وقتل في حضرموت خمسة عشر الفا من اليمنيين ، ثم اتجه الى صنعاء وكانت له هناك ايام ووقائع فمنها يوم المنضج حدود شمال اليمن ومنها ايام صعدة مع القيل الشاعر القائد اليمني محمد ابن ابان الخنفري ، ويوم الكثيب قرب ابين ، وانتهت حياة معن بن زائدة على يد اليمنيين محمد بن عمر الحميري وأخيه اللذين تابعاه الى مقر عمله بسجستان وقتلاه غيلة .

ومثل اولئك فعل الداعية الشيعي ابراهيم بن موسى الجزار الذي قدم الى صعدة في نهاية القرن الثاني هو الذي دارت بينه وبين ابن ماهان والى المامون معارك انتهت بهزيمة ابراهيم الجزار .

ولم تخل اليمن في خلال هذه الفترة من انتفاضات وثورات في سبيل الاستقلال.

ففي سنة مائة وعشر هجرية قام القيل عباد الرعيني بثورة امتدت الى عدة نواح من اليمن وجرت بينه وبين والي اليمن ويسف بن عمر الثقفي معارك انتهت بهزيمة الثائر اليمني عباد الرعيني .

وفي أيام مروان بن محمد عام ١٢٩ ثار في حضرموت زعيم الخوارج عبدالله بن يحي الكندي وأبو حمزة المختار الازدي واستطاع تخليص حضرموت وصنعاء من عاملي مروان ، بل ان أبا حمزة الكندي سير المختار الازدي بجيش فاحتل مكة والمدينة فارسل مروان بجيش على رأسه عبد الملك بن عطيه فقاتل ابا حمزة وهزمه في وادي القرى وتتبعه من المدينة الى مكة حتى قبض عليه وقتله ثم اتجه ابن عطيه لقتال الثائر اليمني الخارجي عبد الله بن يحي الكندي فقتله واستولى على صنعاء وحضرموت .

وفي ايام هارون الرشيد وبالذات في عام ١٧٤ هـ ، ثار الهيصم بن عبد الرحمن الهمداني في جبل مسور حجة والتفت حوله الناس ، وحارب جنود بني العباس وهزمهم في مواطن كثيرة واستطاع بسط نفوذه على معظم الجبال الغربية والشمالية كما يقول الهمداني في الاكليل وقد امتدت سلطته الى تهامة الامر الذي دعا هارون الرشيد الى ارسال قائده حماد البربري على رأس جيش

جرار ، وقال له أسمعني أصوات أهل اليمن ، وقد تمكن حماد من اخماد الثورة فاخضع تهامه ووصل الى صنعاء ولكنه لم يتمكن من التغلب على الهيصم فطلب مزيدا من المدد واستمر الصراع حتى عام ١٨٨ حيث تغلب حماد على جبل مسور وانتهت المعارك بوقوع الهيصم في الاسر فبعثه حماد مع جماعة من رفاقه الى بغداد حيث ضربت أعناقهم .

ذلك وصف موجز للاحداث التي جرت في اليمن خلال قرنين ، وهي أحداث دلت على وقوع اليمن فريسة للصراع العقائدي الذي دارت رحاه بين الخلفاء زبيريين وامويين وعباسيين ومن ناواهم أو خرج عليهم من الاحزاب والفرق والجماعات الثائرة وكل هذه الاحداث تركت اثارها على الحركة الثقافية والادبية في اليمن الامر الذي طبع نتاج هذه الفترة بطابع القلق والتوتر وعدم الاستقرار .

اغراض النثر في هذه الفترة

نثر التأليف

حين نستعرض الوان الكلام المنثور الذي كتب في هذه الفترة نجده يتسم بطابعين :

الطابع العلمي ومن نماذجه قول عبيد بن شرية في كتابه الذي الفه في عهد معاوية بأمر منه حول اخبار حمير وملوكهم السابقين قال متحدثا عن قصة ذي نواس واصحاب الاخدود :

هذا الملك ذو نواس واسمه زرعة بن عمرو بن زرعة الاوسط بن حسان وهو صاحب الاخدود ، سمي يوسف لما تهود وقيل سمي ذا نواس لذؤابتين كانتا له تنوسان على رأسه وكان على دين اليهود فشكا اليه يهود نجران غلبة النصارى وذلك انه وقعت بين اليهود والنصارى فتنة بنجران فنهض ذو نواس بالجنود الى نجران فحضر الاخدود وأضرم النار فيه وخير النصارى بين الرجوع عن دينهم أو احراقهم بالنار فمنهم من رجع عن دينه ، ومنهم من لم يرجع فأحرقهم بالنار ، وفيهم نزلت هذه الايات قتل اصحاب الاخدود النار ذات الوقود اذ هم عليها قعود وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود الى قوله العزيز الحميد .

نثر الرسائل

ومن النثر الذي كتب في اليمن نثر الرسائل ويتسم بالطابع الادبي ومن نماذجه ما كتبه بشر بن أبي كبار البلوى الصنعاني الى ابراهيم بن عبد الله والي صنعاء لهارون الرشيد عام ١٨٢ وكان قد عزم على ان يولي بشرا بعض

نواحي اليمن ، ولبشر رسائل يتجلى فيها جمال الاسلوب الادبي وفيها تضمينات مستمدة من القران وقد وصفه في كتاب صفة جزيرة العرب أبو محمد الحسن الهمداني وصف بشرا بأنه من أبلغ الناس وأن بلاغته كانت تتهادى في البلاد وكان لـه فيها ماخذ لم يسبقه اليهاحد ولم يلحقه فيه وانه فيها أوحد وإثبت له عشر رسائل نختار منها قوله لوالي صنعاء :

« أما بعد فان راى الامير امتع الله به ان يعلم هشاما ما يريد من صلتي فانه لم يردني وآل قط بخير ولم يفتح لي باب صلة فتكون منه خالصة لا يريد بها الا وجه الله وحده ولا يرجو بها الا ثوابه الا عرض هشام من دونها فثقلها وكرهها وأدار القياس فيها وضرب لها الامثال والقى الحيلة فيها الى الكاتب والحاجب وقاسمها بالله اني لكما لمن الناصحين ومدحني بما لا يسمع به من أخلاقي وانتقصني فيما لا يطمع بغيره مني ليكون ما اظهر من المدحة مصدقا لما أسر من العيبة ثم زخرف ذلك بالموعظة وزينه بالنصيحة وقاربه بالمودةواغراه من ناحية الشفقة وشهد عليه اربع شهادات بالله انه لمن الصادقين والخامسة أن غضب الله عليه ان كان من الكاذبين فاذا الحاجب يزلقني ببصره واذا الكاتب يسلقني بلسانه واذا الخادم يعرض عني بجانبه واذا الوالي ينظرني نظر المغشى عليه من الموت فصارت وجوه النفع مردودة ، وابواب الطمع مسدودة، واصبح الخير الذي كنت ارجوه هشيما تذروه الرياح والصلة التي كنت أشرفت عليها صعيدا زلقا وأصبح ماؤها غورا فما اسطيع له طلبا فأسأل الذي جعل لكل نبي عدوا من المجرمين أن يكفيني شره ويصرف عني كيده فانه يراني هو وقبيله من حيث لا أراهم والسلام .

ولبشر أيضا ، أما بعد فان من الناس من تحمل حاجته أهون من فحش طلبه ومنهم من حمل عداوته أخف من ثقل صداقته وان الله خلق فلانا ليغسم الدنيا ويقذر به اهلها فهو على قذره فيها من حجج الله على اهلها فأسأل الذي فتن الارض بحياته وغم أهلها ببقائه ان يديل بطنها من ظهرها والسلام .

القرن الثاني

الشعر والشعراء اليمنيون

حين يحاول دارس ما وضع خطوط رئيسية لحركة الادب في داخل اليمن في القرون الاولى للاسلام ينبغي ان لا يلغي من حسابه هذه الهجرة الواسعة التي تقاطرت فيها جموع هائلة من الادباء والعلماء والمؤرخين ورجال الفقه واللغة الى خارج اليمن ، ومن هذه الجموع المستقر في مكة أو الكوفة أو البصرة وفي بغداد أو دمشق أو مصر ، ومنها السائر في ركب الفتوح المتد عبر خط عريض يبتدىء من العراق وسوريا وفلسطين ومصر الى المغرب فالاندلس فهذه البقاع كانت الهجرة مستمرة من اليمن اليها .

وسيطول الكلام لو تحدثنا عن هذه الهجرة واعلام اليمنيين الذين لمعت اسماؤهم خارج اليمن ومنهم الشاعر والمقرىء والمفسر والمحدث والنحوي واللغوي ، وليس من غرضنا أن نترجم الاعلام اليمنيين خارج اليمن وانما نحن نستعرض حركة الادب والادباء داخل اليمن واذا دخل في نطاق هذا الكتاب شخصية أو شخصيات عاشت خارج اليمن فترة أو فترات فعلى اساس أنها لم تنقطع عن اليمن مولدا او منشأ او وفاة .

مأساة القبلية في شعر هذه الفترة

بدأ القرن الثاني للهجرة بخلافة يزيد بن عبد الملك بن مروان الخليفة الاموي التاسع الذي اعتلى عرش الخلافة عام ١٠١ للهجرة خلفا لابن عمه عمر بن عبد العزيز ، وانتهى القرن الثاني بخلافة المأمون عبد الله بن الرشيد الخليفة العباسي الذي تولى الخلافة في محرم عام ١٩٨ هـ الموافق ٥ سبتمبر عام ٨١٣ م .

وقد ظل الادب العربي في عهد الامويين يدور حول محورين ، الاول المحور القبلي الذي شجعه ملوك أمية وغذوا فيه الحزازات القبلية بين الناس فكانت

نقائض جرير والفرزدق وعشرات الشعراء الذين دخلوا حلبة « النقائض »تمثل معارض ناطقة لادب المهاترة والقذع الذي عف عن مثله حتى ادباء الجاهلية الاولى

والمحور الثاني أدب العاطفة الذي قاله الشعراء الامويون اباحيين كابن قيس الرقيات وابن ابي ربيعة وموحدين موصوفين بحب امراة واحدة ككثير عزة، وعذريين متصوفة مثل قيس ليلى وجميل بثين وغيلان مي .

وفي اليمن ظل الشعر قبلي الطابع ـ خلال هذه الفترة ـ وان خلا من الفحش الذي تميز به ادب النقائض في شمال شبه الجزيرة .

ويكفي للدلالة على صحة مانقول أن نشير الى كثير من الحوادث والوقائع والتي جرت في اليمن والتي لا نجد لها اثرا فيما قدمه الهمداني من أقوال كبار شعراء هذا العهد كمحمد بن أبان الخنفري ، وعمرو بن يزيد السعدي وأحمد بن يزيد القشيبي العوسجي واحمد بن يزيد القشيبي الشيعي .

ان المأساة التي صنعها الحاكم العباسي لليمن من قبل ابي جعفر المنصور ونعني بـه معن بن زائده الذي قتل في حضرموت خمسة عشر الفا من اليمنيين، وقتل ما لا يحصى منهم في صنعاء وصعده أن هذه المأساة لا نعرف عنها من الشعر الذي قيل حولها الا ما روته مصادر التاريخ كقول محمد بن عمرو قاتل معن غيلـة :

خرجت له والقلب مني كأنـه	تجيش حواشيـه بنـار تضرم
حللت له وترى ولـم أك خائبـا	وكأن فـؤادي جمـرة تتجهـم

وعدد ابيات هذه القطعة اربعة لا غير .

وكقول عبد الرحمن بن محمد بن يوسف الحميري في معن بعد مقتله :

يا معن أصبحت في بيداء مظلمـة	من بعد ما كنت بين الخلق مختالا
تمشي السبنتي الى الهيجاء مدرعا	عليك من حلق المـاذي سربـالا
تبيـد قوما بلا جرم ولا تـرة	ارديت منهم كهولا ثـم أطفـالا
حتى أتاك ابن عمرو في أطامـره	قد جاشـم الصبر احوالا فأحوالا
حتى سقاك بها كأسـا معتقـة	من جرعة جعلت في الصدر أنكـالا
ما كان فعلك فعل الاكرمين لـ[illegible]	أبدعت باللوم أحداثـا وأمثـالا
لقد حللت ابن عمرو كـل أبهة	وسدت ما عشت أعماما وأخـوالا

وهما مقطوعتان لرجلين لا نعرف شيئا عن تاريخهما الشعري ولكنا حين نقرأ شعر احد كبار شعراء هذا العصر ونقصد به القيل الشاعر الفارس القائد محمد بن أبان الخنفري نعجب أن لا نقرأ له شعرا في مأساة معن بن زائدة رغم أن ابن ابان ماتل بن زائده وله معه أيام صعدة التي أشار اليها الهمداني فـي الاكليـل .

لقد كان المصدر الوحيد الذي ذكر شعر كبار شعراء هذا العصر هـو الاكليل لابي محمد الحسن الهمداني بالاجزاء الموجودة منه وهي الاول والثاني والثامن والعاشر واكثر ما مثل هذا الشعر الحروب القبلية الدامية التي اشتعلت نارها بين الاحياء اليمنية في صعدة وغيرها من مناطق شمال اليمن ، ولسنا نرتاب فـي ان الاجزاء المفقودة من الاكليل تشتمل على شعر كثير قاله شعراء

اليمن الى اواخر القرن الثالث واوائل القرن الرابع في الفترة المحددة لمولده ووفاته ، ـ تقصد مولد ووفاة الهمداني ـ وحتى ظهور هذه الاجزاء المفقودة من الاكليل سيظل الحكم على الشعر اليمني خلال هذه الفترة بأنه قبلي الطابع وهذا عرض سريع لاهم الشعراء في القرن الثاني .

محمد بن ابان الخنفري

ولد هذا الشاعر في سنة خمسين من خلافة معاوية اي بعد حوالي ثماني سنوات من تولي معاوية الخلافة ومات في ١٩٥ م انه توفي في خلافة الامين محمد بن هارون الرشيد ، وقد عمر محمد بن أبان طويلا وكانت وفاته عن سن عالية بلغت ١٢٥ عاما .. ومحمد بن ابان هو الذي قاوم الوالي العباسي معن بن زائدة والذي له معه الايام المشهورة في صعدة .

على أن النصوص التي أوردها ابو محمد الحسن الهمداني من شعر ابن ابان في الاكليل هذه النصوص كلها غارقة في الحروب القبلية التي خاضها مع أبناء عمه من حيي حرب بن سعد وغالب بن سعد ، اللذين عمل ابن ابان على اجلائهما الى عروان والعرج من أرض الحجاز ، وكانت هذه الحرب متوارثة منذ أواخر القرن الاول للهجرة ، اثار غبارها وشب نارها الشاعر عمرو بن يزيد السعدي المولود في منتصف القرن الاول للهجرة والمتوفي قتلا في أوائل القرن الثاني للهجرة .

وابن أبان شاعر عاصر فحول شعراء العصر الاموي امثال جرير والفرزدق والراعي ووضاح اليمن وعاصر فحول الشعر في العصر العباسي امثال مسلم بن الوليد ومروان بن ابي حفصة وابي نواس واشجع السلمي ، على انه من الملاحظ أن شعر محمد بن أبان وشعر غيره من الاعلام في اليمن قد خلا من التأثر بنزعات الشعوبية التي أتسم بها شعر اكثر المولدين من شعراء بغداد ، كما خلا شعر هذه الطائفة من الشعراء اليمنيين من مظاهر العبث والمجون والغزل المذكر التي اتصف بها شعراء المجون في العصر العباسي ، وشعر محمد بن ابان يتغنى بماضي اليمن الحضاري وليس في ذلك بدع فكثيرا ما اشار الهمداني في الاكليل الى سجل محمد بن ابان المتوارث من اقدم العصور والمشتمل على انساب حمير اقيالا وتبابعة وأحياء وبطونا ، الامر الذي يدل على أن الكتابة كانت معروفة ومتداولة من عصور ما قبل الاسلام الاولى . ومن شعر محمد بن أبان في هذا الموضوع قوله :

بنى لي العز آباء كرام	وشيده بنو عمي وخالي
سما بي الحارثان من آل زرع	الى شم منفنفة القلال
اذا سارت تعابيهم لجمع	حسبت الارض مادت بالجبال
واني في الارومة من ملوك	مساكنها المحافد من أزال
وفي صرواح كان لنا ملوك	وفي ريمان في الامم الخوالي

وفي صبر لنـــا شاد المعالـــي أبونـــا ذو المهابـة والجـلال
معاويـــة بن صيفي بـــن زرع رفيع البيـت محمود النـــوال

ويردد هذا المعنى في قوله من قصيدة نختار منها قوله :

وانا لمن ريحانة العرب أصلنـــا وطينتنا من تلـك أزكى وأطيب
وانا لقوم ما نرى القتـــل سبـــة على كل من يحمي الذمار ويغضب
ونحن ورثنا ملك هود وعلمـــه واورثناه بعـد قحطان يعـــرب
وجدي الذي وافى الركايا جياده وحامي عن العز الذي أس يشجب
ونحن نصبنا يوم غيمان عارضـا فباد ابن ذي شمر وقد كاد يغلب
ورحنا على أهل القبال بجمعنـا فضبحت لهم جمعـا مراد وأرحب

وقد أسلفنا القول عن الشاعر الفارس عمرو بن يزيد السعدي الذي أثار الحرب بين ابناء عمه ، من حيي سعد بن سعد والربيعة بن سعد وقد قتل ابـن يزيد هذا نتيجة بغية وعدوانه اللذين أديا الى قتل اخوته في تلك الفتنة القبليـة التي أرهقت منطقة صعدة وما جاورها من أعالي اليمن وسفك فيهـا دم غزير وذهبت فيها أرواح لا يكاد يقـع عليها الحصر ، وبمقتل شاعر الفتنة ابن يزيد ، تنتقل اعباؤها الى الشاعر اليمني عمرو بن زيد الغالبي خصم محمد بن ابـان اللدود ، وكان عمرو بن زيد الغالبي قد صعد القتال القبلي بين الحيين المذكورين رغم انه كان ينصح بن يزيد أن يوقف سيل الدم الجاري بينهما .

ويثور الشاعر القائد محمد بن ابان الخنفري حنقا لمقتل اخيه رفاعة بـن ابان في تلك الفتنة ويقاتل عمرو بن زيد الغالبي ويجلوه هو وقبيله الى عروان والعرج في الحجاز . وفي هذه المعارك يقول محمد بن ابان شعرا كثيرا منـه قصيدته اللامية المطولة والتي نختار منها قوله :

خليلي لم نقض اللبانة من جمـل ولم أر طول النأي عن ودها يسلي
قضاعية حلت بأسفـل بيشـــة أو الجزع من حوراء أو ثيج الرمل
منعمة ينهال بالخصر ردفهـــا كما انهال حقف الرمل بالدمث السهل
كلفت بها والشمل اذ ذاك جامـع ففرق ريب الدهر من شملها شملي
فدع عنك جملا اذ نآك مزارهـــا واوذن صب بالقطيعـــة والبخل
وقل في قبيـل ناصبونا عـــداوة ولا نظروا في جد قول ولا هـــزل
على غير ذحل أركبونا سيوفهـــم وشدوا علينا بالرمـــاح بلا تبل
وان ركبتنا مـــن عدو ظلامـه ردوا دوننا بالمشرفيـــة والنبـل
بهاليل مـــن فرعي ذؤابة مغرق لها المجد قدما والجسيم من الفضل
فلما رأينا البغي مال بسعدهـــا خفضنا ولم نظهر قبيحا من الفعل

ثم يعرج محمد ابن ابان في هذه القصيدة على خصمه الغالبي الذي جلاه الى الحجاز فيهجوه ويتوعده قائـلا :

فمن مبلغ عني ابن زيد رسالـــة يغلغلها سـيرا الى الخائن الفسل
هبلت الم تعلم بأنـــا حماتهـــا اذا قامت الحرب العوان على رجل
وقد قال قبلي عالـــم بزمانـــه زمانك ان الرذل للزمن الـــرذل
فان كنت تبني فوق ما شاد والد فدونك شيد بالعطاء وبالبـــذل
والا فسر مخزى لانكـــد منـزل نصيبك من حظ العلى خطوة الرجل
وان تلقني تلق أمر ذا حفيظـــة أخا نجدة لا بالدنـــى ولا الوكل

ولما طالت الغربة على الشاعر عمرو بن زيد الغالبي كاتب ابن خالته جرير بن حجر بشعر رقيق يشكو فيه ما يلاقي في المغترب من الام الفرقة والاغتراب عن ارض الوطن فرق له جرير واعاده ، ولكن محمد بن ابان يغضبه لرجوع بني غالب بن سعد ورئيسهم عمرو بن زيد ويقول في ذلك محذرا جرير بن حجر .

نراك جرير الخير تدني عدوبنا ... واسيافنا زالت بهن .غاصله
وتخبأه من خلفنا يشحذ المدى ... ليوم عصدب لا يزال يزاوله
فتصبح يوما قد جرت في حلوقنا ... ربائقة الوثقى وجرت سلاسله
وان له يوما علينا اذا دنا ... ونحن اذا ما ناء عنا نحاوله
أمن بعد عمرو وابن يعلى وثابت ... وبعد ابن زيد يغمد السيف ناصله
تؤمل منهم يابن عمرو سلامة ... وهيهات فر الخصم من لا يجاوله
ومن لا يصغ بالسمع منه لناصح ... فقد مزقت أشياعه وقبائله

ولمحمد بن ابان قصيدة حائية مطولة وردت في الجزء الثاني من الاكليل وصف فيها مشاعره لدى عودة بني حرب وابناء غالب من الحجاز الى اليمن يقول في مقدمتها متغنيا عاطفته :

خليلي مرا مصعدين فسلما ... على منزل بين السدير وفاضح
الما به ثم أشفعا لي واعتبا ... على طفلة غراء ليست بناكح
بها هام قلبي واستثارت صبابتي ... وشابت بها قبل المشيب مسائحي
وقولا لها أن الفراق مظنة ... بصرم خليل او بمدخل كاشح
واني لما انسى منها كمثل ما ... تناسته مني بالنوى والتنازح
كأني بها من بين ستر وكلة ... كبدر بدا من سانح نحو سائح
فأدنو اليها والركاب مناخة ... فأكرم بها من جاشم ومصافح

ويخلص محمد بن ابان في هذه القصيدة من الغزل الى قضية عودة الحيين العائدين الى اليمن من الحجاز فيقول واصفا ما مرت بينهما من وقائع ومعارك

فدع عنك من أمسى شحيطا محلها ... ببرك الغماد فوق هضبة بارح
وقل في بني حرب وابناء غالب ... ومن جلبو من آل حي ورازح
فناديت من حي الازون وخنفر ... ورهط بني سخط وبيت الاصابح
فجاءوا على قب تعادى كأنها ... يعاسيب في يوم من الدجن ساجح
ترامى الينا في الصباح جيادهم ... بكل كمي عاقد الانف كاشح

الى أن يقول في هذه القصيدة واصفا الحرب وصفا جميلا :

أولئك قومي حين أنسب معشري ... أصول بهم ما بين غاد ورائح
يجرون مران القنا حول سربهم ... مصابيح روع يا لها من مصابح
تراهم اذا ما الخيل عضت شكيمها ... وكفت جزار المشفرات النوابح
يسومونها قط القتيل اذا التوت ... بأحذية من نضحه ومراشح
كما كد متاح الدلاء بفرغة ... معطلة تهوى الى كف ماتح

ثم يوجه محمد بن ابان القول الى ابناء حيه مستنكرا عودة آل حرب وآل غالب الى اليمن وذلك حين يقول :

فمهلا بني قيس بن صيفي عندكم ... فرشت جناحي في نزول الجوائح
فكنتم اذا تنفون عني عارها ... ولم الف نحو السلم أول جانح

ولكنه يتحدث الينا في هذه القصيدة انه غير موجود في جبال صعدة ولـو كان موجودا لما عاد الحيان اليمنيان اللذان كان هو سبب جلائهما الى خارج اليمن قال محمد بن ابان في هذه القصيدة الحائية :

فلو كنت هنا في مناكب خنفـر لاضحت بنو سعد نـوى للمراضح
ولكنني أصبحت في دار غربـة أمد على المكروه كـف المسـامح
بني مالك ضيعتم المجـد بعدما خضبنا ببيض الهند سور المسالح
وليس يبين الرشد الا ضحى غـد فثم يرى فضل الشقيـق المناصح

ونحن على ثقة من أن الشاعر اليمني محمد بن ابان الخنفري لم يغـادر اليمن قط الى خارجها ولعل غربته هذه التي اشار اليها في هذه الابيات لا تخرج عن معنى النزوح والانتقال التي كانت تعمد اليه الاحياء اليمنية من هذه المنطقة الى تلك من مناطق اليمن الكبـير .

عمـرو بن الحصيـن

وفي رثاء عبد الله بن يحيى الكندي وأبي حمزة ومن قتل معهما من الاباضية قال عمرو ابن الحصين العنبري هذه الابيات :

هبـت قبيـل تبلـج الفجر هند تقول ودمعهـا يجـري
اذا أبصـرت عينـي وأدمعهـا تنهـل واكفـة عـلى النحر
اقـذى بعينـك لا يفارقهـا أم عائـر أم مالهـا تـذوي
أو ذكـر اخوان فجعـت بهـم سـلكوا سبيلهم عـلى قـدر
فأجبتهـا بـل ذكر مصرعهـم لا غـيره عبراتهـا يمـري
تا لله ما في الـدهر مثلهـم حتـى أكون رهينـة القبـر
أو في بذمتهـم اذا عقـدوا واعف عنـد العسـر واليسـر
متأهبـون لـكل صالحة ناهون من لاقـوا عـن النكر
صمـت اذا حضـروا مجالسهـم من غـير مـاعـي بهـم يزري
ألا تجيئهـم فانهمـو رجف القلوب بحضـرة الذكـر
لا ليلهـم ليـل فتلبسهـم فيـه غواشـي النوم بالسـكر
كم من أخ لـك قد فجعت به قوام ليلتـه الـى الفجـر
ظمآن وقـدة كـل هاجـرة تـراك لذتـه عـلى قـدر
ومبرا مـن كـل سيئـة عف الهـوى ذا مـرة مـر
والمصطلـى بالحرب يوقدها بحسامـه في فتيـة زهر
فتخالسـوا مهجات أنفسهم وعداتهم بقواضـب بتـر
وتوقـدت نـيران حربهـم ما بـين أعلـى البيـت والحجر
وتصرعـت عنهم فوارسهم لم يغمضـوا عينـا علـى وتر

عمرو بن زيد الغالبي

هذا هو الشاعر الذي صعد الحرب القبلية بين حيي الربيعة وسعد ، تلـك

الفتنة التي أهاجها رئيس « سعد » عمرو بن يزيد السعدى وكان شاعرنا في بادىء الامر غير راض عن تصرف ابن عمه عمرو بن يزيد السعدى ، نصحه أن لا يثير هذه الحرب التي تمزق أواصر القربى وتشق عصا الالفة بين الاشقاء قال ناصحا :

يا عمرو مهلا فان البغي متلفة — تردي الرئيس وتفني كل ما جمعا
لا تقطعن بالمدى منا أواصرنا — مهلا هديت فخير النصح ما نفعا
لسنا نحب نرى فينا مولولة — تبكي وتهتف اذ ما الفها نزعا
اني أرى الحرب قد ابدت نواجذها — فينا واصبح منها ضوءها لمعا

واستشهد له بأبيات قالها شاعر يمني هو جابر بن عمرو لابن اخيه سالم بن سالم البهراني :

وكنت كالعير غدا يبتغي — قرنا فلم يرجع بأذنين
مهلا من البغي واشياعه — فالبغي داء بين داءين
من يركب البغي يجد شخصه — عند التقاء الجمع شخصين
من يقصد البغي يعد خائبا — لاقط حب بين فخين
أخاف ان جئت الذي قلته — يأتك منه الغدر بالحين
فاترك طريق الغدر واجمع لما — يصلح يوما بين صنوين
لا تركب العوراء من قومنا — فتجن عارا بين الشين
انظر كليبا بعد دار العلى — اصبح رهنا بين طمرين

ولكن ابن عمه معرو بن زيد السعدى ركب راسه واشعل نار الفتنة التي قتل فيها حتى اخوته ثم خر هو نفسه في ساحتها صريعا .

ويواصل شاعرنا المترجم له مسيرة الحرب بعد ان كان ناصحا لابن عمه في أن يتجنبها ، ولكن الشاعر محمد بن ابان الخنفري ورهطه يوجهون الضربات الى شاعرنا وقبيله حتى يضطروهم الى الخروج من اليمن ، جاوروا — كما يقول الهمداني في الاكليل — في زبيد ثم في خثعم وقتا ثم في بني هلال ثمنزحوا الى عروان والعرج من ارض الحجاز .

وكل ما بأيدينا من النصوص الشعرية لهذا الشاعر هي تلك التي رواها صاحب الاكليل ، وهي نصوص بعضها يروي قصة هذه الحرب الاهلية الظالمة التي تساقى بها الاخوة كأس الردى ظالمين انفسهم ، ومن أمثلة ذلك قول شاعرنا عمر بن زيد الغالبي واصفا احدى تلك المعارك :

سلي تخبري يا هند هل عفت مشربي — وهل عافه قومي بجنب الاخاشب
عشية سرنا حاشدين وقد بدت — من الشمس عين أو توارت بحاجب
وقد حشدت فيها ذؤابة سعدها — وحيا عدي بالقنا والكتائب
صبحناهم بالموت في عقر دارهم — وقد لاح ضوء الفجر من كل جانب
فدسنا بني عوف بزور وكلكل — وملنا عليهم ميلة بالمناكب

والقسم الاخر من شعره قاله وهو مغترب وفي هذا الشعر نحس حرارة ولوعة واشتياقا الى الوطن ، ومحاولة لاستدرار عطف ابن خالته جرير بن حجر من اجل السماح له بالعودة الى الوطن قال عمرو بن زيد الغالبي في هذا المعنى هذه الابيات المختارة :

فأصبحت قد ودعت قومي ومعشري وحالفت هما ما أزال أصاوله
أقارع كيدا من سليم وعامر وحقدهم تغلى على مراجله
عدو يغض الطرف عني تمقتا ويخبر عما في الفؤاد تغافله
يبيت لي في كل يوم مكيدة ويطحن جسمي حاركاه وكاهله
ويبلغ مني قوله ما يسوءني ويعلم ان قد ساءني فأجامله
فيا ليت شعري هل أبيتن ليلة بحجر بني حي حوتني قوابله
أبى قومنا أن ينصفونا وجردوا لنا حد سيف أخذمتنا صياقله
فمهلا بني عمرو ربيعة سعدها فهذا لكم حول ويتلوه قابله
فقد شحذتها حي بكر بن وائل لا خوتها فاستقتل الجهل حامله
فبار جميع القوم وانهد عزهم وكان لهم نجد البلاد وساحله

وفي مقطوعة أخرى لشاعرنا يعاتب ابن خالته جرير بن حجر عتابا يختلط فيه الالم المرير بالرقة اللينة مضمنا قوله الرجاء في أن يعود وذلك حين يقول في هذه الابيات المنتقاة من المقطوعة :

يا خول هل يجمعنا الدار بعد نوى ام هل يعود زمان واصل الرحم
امسى جرير يجذ الحبل من عشر ما أن يراقب فيهم حرمة الذمم
امست منازلنا بالجو شاسعة ونحن أخوتكم في نبعة الكرم
لا قرب الله قرباكم فليس لكم عطف جميل بمحمود من الشيم
أنتم زعمتم بأعلى ذروة رفعت من سر خولان منسوبون بالكرم
ونحن في حي قيس يبرمون لنا سوء الحديث ونخشى زلة القدم
قطعتم حرمة من حقهن فما ترعون قربي ولا نصرا لمظلم

« التحليل »

غادر الشاعر عمرو بن زيد الغالبي اليمن مع حيه الى الحجاز ، وفي قصيدته اللامية الاولى يشكو مما يلقاه من قبيلتي عامر وسليم من عداوة وبغضاء وهما قبيلتان عدنانيتان والعداء بين القيسية واليمانية قديم لم تستطع تعاليم الاسلام ان تمحوه محوا كاملا لذلك كتبت القصائد الدوامغ وغير الدوامغ التي تهاجم بها قحطان عدنان او عدنان قحطان ، حتى قال ابو الطيب المتنبي وهو من أدباء القرن الرابع واصفا شبيب الخارجي الذي خرج على كافور الاخشيدي :

كأن رقاب الخلق قالت لسيفه رفيقك قيسي وانت يماني

أما المقطوعة الثانية الميمية فقد وجهها الشاعر الى ابن خالته جرير بن حجر يستميله ويستعطفه وقد نجح في ذلك فأعاده جرير بن حجر الى اليمن ، ولكن ولكن الشاعر عمرو بن زيد الغالبي لم يكد يستقر به المقام في اليمن حتى وصل اليها معن بن زائده الشيباني في عام ١٥٢ هـ واليا من قبل الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور ، الذي قتل في حضرموت خمسة عشر الف يمني وقتل في شمال اليمن عددا كبيرا وكان من قتلى معن شاعرنا هذا .. ورغم العداوة التي كانت بين هذا الشاعر وابن عمه محمد بن أبان الخنفري الذي كان يعارض جرير

بن حجر في أمر عودته رغم ذلك فقد استاء القيل الشاعر القائد محمد بن ابان لمقتل شاعرنا وقاوم معن بن زائده وخاض معه أيام صعدة المشهورة .

أحمد بن يزيد القشيبي العوسجي

ذكره الهمداني (١) فقال :

هو احمد بن يزيد بن عمرو بن ثابت بن الريان من بني عوسجة بن القشيب ، وكان احمد بن يزيد ساكنا بصعدة مع محمد بن أبان ، وكان تحته أخته الفارعة بنت أبان وعلى هذا الصهر دخل معه في حرب بني سعد بن سعد فأفرى فيهم فلما تداعت سعد والربيعة الى الصلح خشي على عقبه دوائر بني سعد بن سعد بن خولان فظعن الى أرض نجد ، فحالف جنبا ونهدا وزبيدا ثم تقدم فحل على الرياض من تنادح في اهل بيته وخدمه ومن خف معه من عوسجة الصغرى .

فلما أقام وتمادت أيامه اجتمعت عنز من كل أوب ثم اقبلت اليه فسألته عن نزوله في أحميتهم فأعلمهم انه متوجه الى الطائف وانه قد بعث روادا يردون ، وأنه منتظر لايابهم ، وسألهم الفسحة الى عودتهم فوقع ذلك عندهم مدافعة فلم يجيبوه الى الاقامة وكره أن يخف حتى وقعت ملاحاة ثم مواثبة ووثب كل الى سلاحه وبعث الصارخ في نهد وزبيد وجنب وكان منهم حلال بالقرب فاقتتلوا قتالا شديدا حتى تبالغوا المجهود ، فانهزمت عنز وقتل من اعيانها ووجوهها مقتلة عظيمة فارتحل من تنادح ونزل في رقبة جرش لتوطنها من يومئذ »

قال الهمداني وفي ذلك يقول أحمد بن يزيد القشيبي العوسجي :

لقد لففت عنز علينا واجلبت	ودبت الينا في كتائبها تسري
وساقت الينا من معد قبائلا	تبختر في الماذي في الحلق الخضر
فقالت معد فارحلوا من سيوفنا	وخلوا بلاد الاكرمين ذوي الفخر
فسارت الينا من زبيد عصابة	وقالوا لنا بالجد منهم وبالنصر
وجاءت بنو نهد بن زيد بعارض	من المزن داني الرعد منبجس القطر
يقودون شعثا في الازمة ضمرا	يبارون سرب القوم في وضح الفجر

وفيها يقول مخاطبا صهره القيل الشاعر محمد بن ابان الخنفري :

فمن مبلغ عني الشريف بن زرعة	وسادة قومي من سراة بني عمرو
بأنا رمينا عن قسي عداوة	فأيدنا الله المهيمن بالنصر
وما النصر الا الصبر مفتاح بابه	ومحتطم من حدث النفس بالنسر
فعش ناعما في غبطة وسعادة	فانا رميناهم بقاصمة الظهر

(١) الاكليل ج ٢ ص ١٦٣

ويلمع في هذه الفترة اسم الشاعر الحارث بن عمرو هذا الشاعر الـــذي استنكر الحرب القبلية التي تورط فيها ابناء قومه ، وكان قبل ذلك قد قـــال الشعر الذي ينصح فيه عمرو بن يزيد السعدى ان لا يثير ريح الفتنة التـــي تمزق أواصر الرحم ، ووشائج القربى ، قال الحارث بن عمرو يخاطب ابن عمه :

يا عمرو يا بن يزيد لا تكن بطـــرا ... فالحرب أردت زهيرا حينما جـــارا
لما مضى شاس جر الرمح معترضا ... وقام يبري بهـــا نابـــا وأظفـــارا
فصبحته جياد الخيـــل مبـــكرة ... فلم تبــق لــه غـــلا ولا ثـــارا

لقد ذكره في هذه الابيات وفي الابيات التي تلتها بما جرت الحرب فـــي الجاهلية على زهير رئيس عبس بعد مقتل ولده شاس ، وذكره بحرب البسوس التي اشتعلت نارها عشرات السنين بين بكر وتغلب .

ومن جمل ما قاله الحارث بن عمرو في هذا الموضوع قصيدته القافية التـــي يقول بها :

اذا مالنصح ضيعـــه المـوالـــي ... فلا تترك مواصلـــة الصديـــق
فرب أخ لنفسك لــــم تلــــده ... لـــك الام الالـــوف مـــع الشقيق
اذا عميت عليـــك السبـــل يومـــا ... ولم تظفر بقارعـــة الطريـــق
فسر بالقسط لا تتبـــع ســـواه ... فان القسط مقربـــة الرفيـــق
ولا تتبع أخـــا في جهـــولا ... يدلـــك للمهالـــك والمضيـــق
رأيت الحلم ينجـــي راكبيـــه ... ويردي ذا الغوايـــة والعقـــوق
ويفتـــح بالترفـــق كـــل بـــاب ... ويفسح بالتأنـــي كـــل ضيق
أحييـــه تحيـــة ذي حفـــاظ ... فيلقـــى بالتجنـــي والعقوق
يمني النفس منـــه بـــكل ســـوء ... ويقطع بالعقوق عـــرى الحقـــوق

ولما انهكت الحرب بني عمه عمرو بن يزيد السعدي وخر في ساحتهـــا صريعا قال الحارث بن عمرو :

نهيتك قدما يابن زيد عن التـــي ... ترد صدور القوم داميـــة الكلم
فأضمرت لي غشا وأبديت بغضة ... بلا ترة كانت لـــدي ولا جـــرم
فأخفرتني غيـــا ولم ترع حرمتي ... وقالت بنو سعد لك الراس بالجسم
فدونك فاجرعها ذعافـــا كأنهـــا ... من الصاب والذيفان تمزج بالسم

وكان الحارث بن عمرو قد اعتزل الفتنة ، وحين نزح احد الحيين المتقاتلين الى شمال شبه الجزيرة تخلف منه اناس او جموع ابت ان تهاجر وفضلت ان تبقى تحت كنف الحارث بن عمرو وفي ذلك يقول :

جرت لي في الملامة آل حـــرب ... ولجوا في القطيعـــة والتمادي
فقلت لهـــم وكان النصح منـــي ... دعوا قومـــا لهـــم عـــز ونادي
فلا تـــرة لديهم تدموهـــا ... وهم ركن لنـــا وارى الزنـــاد
فقادهم الفتى عمـــرو بن زيـــد ... وكل القـــوم أسرع في الفســـاد
وقالـــوا سبق آبـــاء كـــرام ... وعذب مياهه غـــير الثمـــاد

فأجلوأ مغرقــا وبنـــي شهـــاب وحلوا في الســهول وفي النجـــاد
ونحوا الخنفريــــن وآل عــوف بقصـــــوى طود أو برك الغمــاد
فمهلا يا آل سعـــد لا تلجــوا وقوموا بالجميـــل وبالســـداد
فخالف رأينــا منهـــم رجــال وقالوا أيــن ذاك مــن الرشـــاد
فعدن الى الجميل بفضل رأيــــي ولم أركن الـــى قول الاعـــادي
وقد خالفتمونى فاشربوهــــا مصردة تجن عـــلى الفـــؤاد

بكر بن مرداش :

ذكره الهمداني في الاكليل ضمن من ذكره من الكتاب والعلماء والشعراء وروى عنه هذه الحكاية :

« خبرني ابن مرزا الابناوى عن بعض من حدثه من أهل صنعاء عن أبيه قال : وافيت الحج فرأيت في الطواف فتى ظريفا خفيف الروح يعصب به جماعة حتى قضى طوافه وصلاته فقلت : من هذا فقيل : ابو نواس الحسن بن هانـــيء » فسلمت عليه وفاوضته وأخبرته بنفاق أشماره واخباره بصنعاء وسألته شيئـا منه فقال تطلبني مثل هذا وعندكم بكر بن مرداس قال : قلت وانه عندك بهـذه المنزلة فقال :اما هو القائل :

يـــا أخوتي ان الطبيب الـــــذي ترجـــون أن يبرئنـــــي مسقمـــي
ومـــــا الا نصحــــا ولكنــــه عن علـــم ما بي مـــن سقام عمـي
فسائلوه عـــن عقاقـــــيره وسائلوه مـــا الـــذي احتمـــي
فانمــــا الطـــب لمـــن داؤه مــــن مـرة أو بلغـــم أو دم
والحب لا يشفـــى بأيـــــارج ولا بتريـــاق ولا محجـــم
الا بشـم الحـــب أو ضمـــــه ومج ريـــق مـــن فم فــي فم
فيا شفـــاء النفس مـــن دائهــا داوي سقامي وارحمي ترحمـــي
فلو بعينيــــك اذا جنـــــني ليـــل واغفــت أعـــين النــــوم
طوفي علـــى بابكـم باكيــا لحر شجو فـــي الحشا مضـرم
لخلت انـــي طائف محــرم في ساحـــة البيــت الـــى زمزم
واستيقنت نفســك ان الهـــوى أشـــد مـــا يعـلق بالمسلــــم
فاعتقـــي عبـدك مما بـــه واكرمي وجهـــك ان تظلمــــي

وقال بكر أيضا على لسان اعرابيين وفدا على يزيد بن الوليد الى اليمن وذكر اللحية :

فقدنا لحانا مـــا اقــل غناءهــــا واضيع فيهـــــا الدهن يابن مطيع
دهنــــا ونفشناهمــــا لاميرنـــا كخافيتي نســر هوى لوقـــــوع
فما ساقتنا خـيرا سوى الطـول منهما وانهما غــم لكـــل ضجيـــج
فيا ليتنــــا كنـــا شياطين منهما نؤمل كالاعـــراب كـــل ربيــــع
فنسلب مالا لا نـــروع بعـــده مخافـــة عرى أو مخافـــة جـــوع

القرن الثالث للهجرة

الدول المستقلة في اليمن

كان القرن الثالث بداية تفكك الدولة العباسية التي انتقصت أطرافها بظهور ولايات مستقلة كدولة الاغالبة والادارسةفي المغرب، والدولة الصفاريةالتي أسسها يعقوب الصفار في بلاد العجم وما وراء النهر ، والدولة السامانية التي قضت على الدولة الصفارية في هذا القرن ، والدولة الطولونية التي نشأت في مصر أيام الخليفة المعتز كما ظهرت أيام العباسيين حركة الزنج والقرامطة وحركة بابك الخرمي وغيرها .

وفي اليمن بدأ القرن الثالث هـ بظهور دولة بني زياد التي تأسست عام ٢٠٢ للهجرة حين اختل الامن في البلاد اليمنية ، وخيف رسوخ التشيع فيها ، وقد اختار المأمون محمد بن ابراهيم بن زياد وهو أموى قدم على المأمون — كما يقول ابن خلدون — في وفد من وجوه أهل اليمن فضمن له حياطة اليمن من العلويين فولاه عليها . وبدأت هذه الدولة في تهامة التي اختط بها ابن زياد مدينة زبيد وجعلها قاعدة ملكه وامتد نفوذ ابن زياد الى حضرموت والشحر والجبال والجند وملحقاتها وصعدة ونجران وعدن . وكانت هذه الدولة ترفع الخراج والهدايا سنويا الى الخليفة العباسي ، ولما ضعف شأن الخلافة العباسية ايام المتوكل ومن تلاه من الخلفاء ، قطع حكام بني زياد الخراج والهدايا واكتفوا بذكر الخليفة العباسي في الخطبة فحسب .

وفي عام ٢٤٧ هـ كانت بداية استقلال يعفر بن عبد الرحيم بحكم صنعاء وشبام وكوكبان وكان أبوه عبد الرحيم بن ابراهيم واليا للمعتصم على صنعاء وما جاورها ، وقد خضعت الدولة اليعفرية لنفوذ بني زياد في أول الامر فكانت تدفع لهم الجزية ، ثم امتنعت عن ادائها .

وفي الربع الاخير من هذا القرن وفي ٢٨٠ هـ بالذات أسس الزيدية برئاسة امامهم يحيى بن الحسين الرسي دولتهم في صعدة وما حواليها ، وفي حوالي ٢٩٠ هـ ظهر الداعيان الاسماعيليان علي بن الفضل وابن حوشب ، واستطاع علي بن الفضل انتزاع صنعاء من ايدي اليعفريين وكانت الحروب متصلة بين الائمة والقرامطة وبني اليعفريين والائمة والقرامطة جميعا ، وبايجاز فقد كانت هذه الفترة فترة فتن واضطرابات نزفت فيها اليمن جراحا لا تلتأم ، ودفعت فيها ضحايا لا كاد يقع عليها الحسبان .

الصراع العقائدي

وبلغ الصراع العقائدي — في هذه الفترة — ذروته ، فان اليمنيين الذين اسهموا أكبر اسهام في نصرة الاسلام والعمل على نشره في ارجاء مختلفة من اسيا وافريقيا واوروبا مع حرمانهم من الحكم منذ بيعة السقيفة ، أصبحوا تواقين الى الاستقلال ، وخاصة عندما رأوا اختلال نظام الخلافة العباسية وتدخل العناصر الفارسية والتركية في شؤن الحكم فيها ، فكان رسوخ حركة التشيع في اعالي اليمن وظهور حركة الخوارج في هذه الفترة ، وظهور الحركة الاسماعيلية في الربع الاخير كل ذلك مما قسم اليمن الى معسكرات أدت الى تمزق وحدتها وحرمها أسباب الرخاء والاستقرار .

الحالة الثقافية

ورغم الاضطرابات التي سادت اثناء هذه الفترة ، رغم الحروب التي نشبت بين الدويلات المتنافسة على الحكم ، فقد كانت حركة الثقافة على جانب كبير من النمو والازدهار ، وقد تمثلت تلك الثقافة في مذاهب الفقه وعلم الاصول وعلم الكلام واهم مذاهب الفقه التي دخلت اليمن هي :

المذهب الشافعي

وهو اول مذهب ظهر في اليمن وكان الامام الشافعي قد زار اليمن في عهد الرشيد ، فكتب مطرف بن مازن الى الرشيد يشعره بأن الشافعي موال للعلويين وأنه سيفسد اليمن فبعث الرشيد الى حماد البربري واليه على اليمن يأمره بارساله اليه مقرنا في الاصفاد ففعل ذلك وأملى الشافعي مذهبه القديم في بغداد ، ومذهبه الجديد في مصر .

ومن اوائل الناشرين للمذهب الشافعي في اليمن — كما يقول ابن سمرة الجعدي في كتاب طبقات فقهاء اليمن ، موسى بن عمران المعافري في منطقة

الحجرية وعبد الله بن زرقان المرادي في منطقة ذي اشرق القريبة من مدينة اب . والمذهب الشافعي كما يقول احمد حسين شرف الدين في كتابه الفكر الاسلامي في اليمن هو المذهب الذي يعتنقه الى الان الكثير من أهل اليمن في تهامة واب وتعز والبيضاء وحضرموت وغيرها من مناطق جنوب اليمن ، وتقوم تعاليم الشافعية على الكتاب والسنة والقياس والاجما الى غير تلك من اصول الفقه التي اتخذ بها الشافعي موقفا وسطا بين أهل الحديث وأهل الرأي وليس هنا محل تفصيلها .

المذهب الزيدي

انتشر هذا المذهب في اليمن عام ٢٨٠ على يد الامام يحي بن الحسين الرسي ، ولا يختلف الزيدية عن أهل السنة — عدا في قضية توريث البنت — الا في فروع بسيطة من فروع الاحكام الفقهية ويوجد مثل هذا الخلاف حتى بين اهل السنة أنفسهم من شافعية وحنابلة وأحناف .

واذا استثنينا غلاة الشيعة الذين عد منهم عبد القاهر البغدادي في كتاب الفرق بين الفرق خمس عشرة فرقة كالمحمدية والباقرية والعمارية والاسماعيلية الى اخرها اذا استثنينا هذه الفرق فان فرق الزيدية وفرق الامامية هم كما قال البغدادي في كتابه هذا معدودون في فرق الامة (1)

واتباع مذهب الامام زيد لا يقولون بالتقية ولا يتبرؤان من ابي بكر وعمر ولا يقولون باختفاء ائمتهم وفي مذهب زيد جواز خلافة ، المفضول مع وجود الافضل نقل الدكتور أحمد أمين في كتابه فجر الاسلام قول زيد بن علي « كان علي افضل من أبي بكر ولكنمع هذا امامة ابي بكر وعمرو صحيحة ، وفي احد مصادر التاريخ القديم أن زيد بن علي قال لاتباعه حين ارادوا اكراهه على التبرؤ من الشيخين ابي بكر وعمر قال لهم ماذا أقول في رجلين كانا وزيري جدي ، ولذلك تخلى عن زيد اتباعه الذين سموا فيما بعد بالروافض .

ولكن الزيدية فيما بعد ابتداء من يحي بن الحسين الرسي تشددوا في مسألة حصر الامامة في أولاد فاطمة ، حتى جاء من المتأخرين الامام المنصور بالله عبد الله بن حمزة الذي كتب ارجوزته المشهورة التي يسأل فيها عن رجل جمع بين العلم والدين وكل المؤهلات التي تطلب في الحاكم ما راى الناس فيه اذا أراد الوصول الى كرسي الحكم وهو من غير الاسرة العلوية وينهي الامام المذكور قوله في هذه الارجوزه :

ما حكمه عند ثقاة الفضل	لما تناءى أصله عن أصلي
أما الذي عند جدودي فيه	فينزعون لسنه من فيه
ويؤتمون جهرة بنيه	اذ صار حق الغير يدعيه

(1) الفرق بين الفرق للبغدادي ص٢١

وينهي قوله في هذه الارجوزة بهذين البيتين الشوفينيين اللذين يعتمدان على العرق والسلالة أكثر من اعتمادهما على الفضل والشرف الانساني :

يا قوم ليس الدر قدرا كالبعر — ولا النضار الأبرزي كالحجر
كلا ولا الجوهر مثل للمدر — فحاذروا في قولكم مس سقر

المذهب الاسماعيلي

هذا المذهب هو الى بروتوكولات في نظام الحكم أكثر منه قربا الى مذهب في فقه الشريعة يضع القواعد والاحكام فيما يمس حياة المجتمع من مسائل الاعتقاد وقضايا البيوع والمعاملات الى غير تلك من الامور .

وقد كثرت المصادر التي وضعت في اليمن وغير اليمن حول الحركة الاسماعيلية التي ظهرت في اليمن في الربع الاخير من القرن الثالث على يد علي بن الفضل وابن حوشب ، واغلب — ان لم نقل كل هذه المصادر تهاجم حركة علي بن الفضل مثلما هاجمت المصادر التاريخية حركة القرامطة في العراق والبحرين .

وقد اشتملت المصادر التاريخية على النزر القليل من تعاليم القرامطة . ففي الفصل السادس عشر من كتاب الفرق بين الفرق — ص ٢٨٠ ، وهو الفصل الذي عقده مؤلفه عبد القاهر البغدادي حول الباطنية من ص ٢٨٢ الى ٣٠٨ ، وفيه عرض رسالة الرئيس القرمطي عبيد الله الملقب بالمهدي والد الخلفاء العبيديين الفاطميين ، الذي ادعى انه من ولد جعفر الصادق والذي بنى دولة في المغرب في أواخر القرن الثالث ومن فحوى هذه الرسالة لهذا الرئيس القرمطي يتبين لنا أن القرامطة « علمانيون » يؤمنون بالفلسفة ويقولون بقدم العالم وهذا نص هذه الرسالة التي بعثها الى داعيه سليمان بن الحسن .

« اني أوصيك بتشكيك الناس في القران والتوراة والزبور والانجيل وبدعوتهم الى أبطال الشرائع ، والى ابطال المعاد والنشور من القبور ، وابطال الملائكة في السماء وابطال الجن في الارض وأوصيك بأن تدعوهم الى القول بأنه قد كان قبل آدم بشر كثير فان ذلك عون لك على القول بقدم العالم .

ثم اورد البغدادي في هذا الفصل المراحل التي اتبعها القرامطة في قبول العضو المنتمي الى حركتهم وهي مقسمة الى مراتب هي مرتبة التفرس والتأسيس والتشكيك والتعليق والربط والتدليس والتأسيس والمواثيق بالايمان والعهود واخرها الخلع والسلخ . ثم شرح البغدادي معاني ومقاصد هذه المراتب ، وهي التي ترددت كثيرا في أكثر الكتب التي الفت حول حركة القرامطة في جميع الاقطار التي ظهروا فيها .

ورغم ان القرامطة يعتبرون من فرق الشيعة الا أن الشيعة ترفضهم بل تصفهم بالمروق والكفران ومن أهم من رد عليهم من علماء اليمن العلامة صالح بن مهدي المقبلي — نسبة الى قرية مقبلة بالفتح — وذلك في كتابيه « العلم

الشامخ » و (الابحاث المسددة) وقد أورد فقرات من اراء المقبلي في معتقدات الباطنية أحمد حسين شرف الدين وذلك في الجزء الاول من تاريخ الفكر الاسلامي في اليمن (١)

وتحظى حركة القرامطة في العصر الحديث باهتمام بعض الدارسين والباحثين الذين يحاولون دراستها ضمن دراسة الانتفاضات والثورات على الاقطاع في القرون الوسطى ، ويتحدث بعضهم عن الاصلاحات الاجتماعية التي قامت بها هذه الحركة ، ولسنا هنا بسبيل ترجيح هذه الاراء بعضها على بعض قدر ما نحن بسبيل استعراض المذاهب الفكرية والعقائدية التي انتشرت في اليمن في القرن الثالث للهجرة .

مذهب الخوارج

وهذا المذهب ظهر في اليمن في عام ١٢٩ هـ عندما أعلن عبد الله بن يحيي الكندي المعروف بطالب الحق ثورته على مروان بن محمد احد حلفاء بني أمية وقد تحدثنا عن ذلك فيما سبق من صفحات هذا الكتاب .

وتعاليم الخوارج تقول بأن دار مخاليفهم دار توحيد ولكن دار الحاكم دار بغي وهم يقولون بتكفير عثمان لانه سبب الفتنة وعلي لانه قبل التحكيم كما تنص تعاليم الخوارج على أن النسب القرشي ليس بشرط في الخلافة ، بل يكفي ان يكون الخليفة متصفا بالفضيلة والتقوى سائرا بموجب الكتاب والسنة ، ويقولون بخلق القران وبأبدية الثواب والعقاب ، وبعدم الغفران لصاحب الكبيرة ومن هنا يلتقي المعتزلة مع الخوارج في اراء كثيرة بلورها المعتزلة فيما بعد وسلطوا عليها ايماضات من النظر الفلسفي قامت عليه قواعد علم الكلام عند المعتزلة .

مذهب المعتزلة :

وظهر هذا المذهب اكثر ما ظهر في اليمن في نهاية القرن الثالث على يد الامام يحي بن الحسين الرسي الذي وصل الى صعدة عام ٢٨٠ واحتل صنعاء وما اليها ثم طرده اليعفريون منها فعاد الى صعدة وبها توفي عام ٢٩٨ وخلفه اعقابه.

والمذهب الزيدي معتزلي المنهج في مسائل الاعتقاد ويقول الدكتور أحمد امين في كتاب « فجر الاسلام » في صدد حديثه عن مذهب زيد بن علي « انه من أعدل المذاهب ولعل هذا راجع الى أن زيدا — امام الزيدية — قد اتصل بواصل بن عطاء رأس المعتزلة في البصرة واجتمع معه طويلا وتجاوب معه في معظم ارائه.

وأهم تعاليم المعتزلة تقول بحدوث العالم ، وان الانسان خلق لفعله

---

(١) تاريخ الفكر الاسلامي في اليمن احمد وحسين شرف الدين ج (١) ص ٧٩ .

بارادته ويقولون بخلق القرآن وبخلود صاحب الكبيرة في النار ويؤلون صفات الله الواردة في القرآن تأويلا مجازيا ولا يثبتون له صفة يشارك فيها الانسان ومن أجل ذلك يسمون غيرهم من المثبتين لصفات الله بالمشبهة او المجسمة وللمعتزلة آراء غير ذلك ليس هنا محل تفصيلها .

المذهب الاشعري

وهذا المذهب ظهر في اليمن في أواخر القرن الثالث وهو مذهب يقف موقفا وسطا بين اراء المعتزلة القائلين بحرية الانسان في خلق افعاله والمجبرة القائلين بأن الانسان مجبر على أفعاله وليس له فيها اختيار .

والاشاعرة يقولون بخلق الفعل بالقياس الى الله وبكسب الفعل بالقياس الى الانسان ، ويقولون بأزلية وقدم القرآن وأنه ليس مخلوقا ، ويثبتون أن العلم والقدرة والحياة والارادة والسمع والبصر والكلام صفات للخالق ازلية يؤلونها على ظاهرها كما اتت من غير تكييف ولا تشبيه وينسب مذهب الاشاعرة وهو مذهب اهل السنة غالبا الى ابي الحسن الاشعري صاحب كتاب مقولات الاسلاميين المتوفي عام ٣٢٥ للهجرة .

التآليف في هذه الفترة

في هذه الفترة انتهى علم الحديث الى محمد بن ابي عمر قاضي عدن الذي سمع منه كل من المحدثين الكبيرين مسلم والترمذي ، والف ابو قرة موسى بن طارق اللحجي الجامع المشهور السنن وله كما قال ابن سمرة في كتاب طبقات الفقهاء تواليف في الفقه انتزعها من فقه مالك وابي حنيفة ومعمر وابن جريج وسفيان وابن عيينه وكان موسى بن طارق اللحجي مشهورا بالفضل يتردد بين لحج وعدن ومكة وزبيد وفي كل واحدة من البلاد له رواية وأصحاب .

والف في هذه الفترة يحيى بن الحسيني الرسي مجموعة من الكتب من أهمها (الاحكام) المشتمل على فقه الزيدية والف ابنه المرتضى بن الهادي بعض المؤلفات من أهمها الاصول في العدل والتوحيد ، وكتاب الرد على الروافض وكتاب الرد على القرامطة .

والف الهمداني في الثلاثين الاخيرة من هذا القرن بعض كتبه التي سنعرض لها في غير هذا المقام لان الهمداني عاش الربع الاخير من القرن الثالث وأكثر قليلا من نصف قرن من القرن الرابع للهجرة ، ومن مؤلفاته الاكليل عشرة أجزاء أربعة منها مطبوعة وكتاب صفة جزيرة العرب ومن كتبه المفقودة كتاب الحيوان، كتاب القوى ، كتاب سراير الحكمة ، كتاب اليعسوب ، كتاب المسالك والممالك

باليمن ، كتاب الريح ، كتاب الايام ، كتاب الجوهرتين العتيقتين من البيضاء والصفراء أي الذهب والفضة وقد وجد من هذا الكتاب كما يقول الاستاذ محمد علي الاكوع في مقدمة الجزء الاول من الاكليل نسختان احداهما في خزانة ميلانو بايطاليا والاخرى بجامعة ابسالا بالسويد .

ألوان النثر

المعاهـــــدات :

والخطابة من فنون الكلام التي نشطت في هذا العصر ولا شـــك أن بـــين الدعاة الزيدية ودعاة القرامطة ومثل ذلـك حكام بني زياد وآل يعفر خطبــاء مصاقع اتخذوا الخطابة وسيلـــة من وسائل نشر الدعوة والتأثير على قلـــوب الجماهير ، وفي كتاب سيرة الهادي يحيى بن الحسين الذي رواه علي بن محمـــد العلوي ابن عم الهادي وصاحبه في هذا الكتاب نماذج كاملة من خطب الهادي ووثائق المعاهدات التي عقدها مع أهل الذمة وغيرها من القبائل المتقاتلة وفيهـــا كثير من الاشعار المنسوبة الـــى الهادي ، ومن أمثلة هذه الكلمات المعاهـــدة التي وضعها الامام يحيى بن الحسين الرسي والخاصة بممتلكات اهل الذمة التي اشتروها من المسلمين وتخلصوا بها من تبعة الزكاة اذ لا زكاة على أهل الذمة في النقد وفي عروض التجارة ، وفي الغنم والابـــل والبقر . وتقول بعـــــض فقرات هذه المعاهدات بين الهادي بن الحسين وأهل الذمة في نجران . (١)

ثم رأيت بعد ذلك أن اخيرهم بين التنحي عنها والتخلي منها أو أن اجـــري بينهم وبين المسلمين صلحا في ذلك يرجع بمنفعته عليهم الى أن يقول فأوقعنـــا بينهم صلحا بائنا من اللبس والشبه يملكون ما شاؤوا ويقيمون على ما أرادوا من أمـــوال المسلمين ويجب لاموالهم به الحياطة على المؤمنين وهو التسع فيما سقي سيحا أو بماء السماء ونصف التسع فيما سقى بالدوالي والسواني ، فرضـــي بذلك اهل الذمة واختاروه وحسن موقعه منهم ، فاقررنا على هذا الصلح فـــي أيديهم ما كانوا اشتروه من أموال المسلمين وأحزنا لهم شراء ما أحبوا مـــن

---

(١) سيرة الهادي يحي بن الحسين من ص ٧٦ الى ٨٠

اموالهم على تأدية هذا التسع مما سقى سيحا او بماء السماء ونصف التسع مما سقى بالدوالي والسواني وجعلنا لهم من بعد أداء ما سمينا من هذا الصلح على الحروث في النخيل والفواكه والقضوب وغير ذلك مما يجب فيه الزكاة على المؤمنين قليل ذلك وكثيره سواء الى اخر هذه المعاهدة الطويلة التي بلغت أربع صفحات من الكتاب المذكور .

الخطابة :

ومن كتاب البيعة الذي وجهه الامام يحيى بن الحسين الى اتباعه باليمن في الربع الاخير من القرن الثالث ويتمثل في هذا الخطاب الاسلوب الخطابي المتبع في هذا العهد ونختار منه هذه الفقرة :

أيها الناس ادعوكم الى ما أمرني الله أن أدعوكم اليه الى كتاب الله وسنة رسوله والى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر واشترط لكم أربعا على نفسي الحكم بكتاب الله وسنة نبيه عليه السلام والاثره لكم على نفسي فيما جعله الله بيني وبينكم ، أوثركم فلا اتفضل عليكم واقدمكم عند العطاء قبلي ، واتقدم امامكم عند لقاء عذوي وعدوكم بنفسي ، واشترط لنفسي عليكم اثنتين النصيحة لله سبحانه والي في السر والعلانية ، والطاعة لامرى على كل حالاتكم ما أطعت الله فان خالفت طاعة الله فلا طاعة لي عليكم .

الرسائل :

وكتبت في هذا العهد الرسائل السياسية التي كانت تتبادلها الاطراف المتعارضة من يعافرة وزيدية وقرامطة وفي كتاب سيرة الهادي اشارات الى الرسائل التي كان يتبادلها الزعيم اليمني الدعام مع يحيى بن الحسين ، وآخرين غير الدعام كانت الرسائل بينهم متبادلة .

ومن الرسائل الادبية التي كتبت في هذا العهد رسالة زعيم حي التراخم عيسى ابي العباس الى رئيس الدولة اليعفرية محمد بن يعفر وكان ابن يعفر كما ذكر الهمداني (١) قد قتل مجموعة من أعيان حي التراخم ووجوهم بعد قتلهم غلامة طريف بن ثابت ، وقد نزحت هذه القبيلة بعد هذا الحادث الى زبيد من أرض اليمن ثم نزحت الى مكة حيث استقرت فيها قرابة عشرين عاما .

ومن المنفى كتب عيسى ابو العباس الى محمد بن يعفر هذه الرسالة الاعتذارية التي يتمثل فيها الاسلوب الادبي الرفيع لما تضمنت من بلاغة عرض في حسن ايجاز وجودة تمثل واستشهاد :

---

(١) الاكاليل ج ٢ ص ٢٢٦ و٢٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم كتاب من اعترف بذنبه ، واستلاذ بربه وعلم أن لا ملجأ منه الا اليه ، فجعله الى النجاة ذريعة ، ودون بادرتك دريئة ، على انه قد فارق ما جمع ، ولم يكن فيه عن أمر الله ما امتنع ، وأصبح ما كان فيه بالامس كسراب بقيعة يسكع اليه في دهناء نائية المدى ، وما ذاك بملكي ، ولكن ما قدر نفذ ، وما حتم فلا مرتجع له ، وقد بان الحق لمتبعه ، والباطل لمرتكبه ، وقد كانت هناككذب فيها وصدق ، وزيد فيها ونقص فأستمعت فيها الاقاويل ، واثرت فيها الاباطيل ، ولم تعف عن الزلل ، ولم تجاوز الخطأ ولم تقل لعاثر لعا حتى قتلت الحر بالعبد ، واستحللت العظيم بالنزو وقطعت ما أمر الله به ان يوصل ، رويدا كان قد بلغت حيث ابلغت ، وحملت مثلما حملت ، ولكل أجل كتاب ، واذا اترع الاناء فاض ، ومن بر يوما بر به كل حاصد مما زرع وجان مما اغترس والسلام .

ورد عليه محمد بن يعفر بقوله :

بسم الله الرحمن الرحيم ، وذكرت اني لك ظالم فان يك ذلك كذلك فقد قال ربنا عز وجل في كتابه المنزل على نبيه المرسل صلى الله عليه وسلم «وكذلك نولي بعضا الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون » .

التوقيعات :

ومن التوقيعات المأثورة عن هذا العهد هذا التوقيع الذي أورده المؤرخ اليمني الاستاذ محمد علي الاكوع في حاشية الجزء الثاني من الاكليل (٢) ١٨٥ للملك اليعفري الخامس أسعد بن ابراهيم بن يعفر ، وقد وصف الهمداني في هذه الصفحة أسعد اليعفري بأن له تواقيع لا يجارى فيها ، والتوقيع المشار اليه موجه الى احد عمال أسعد بن يعفر ونصه يقول :

« صدر الكتاب اعذارا اليك وانذارا لك واستظهارا بالحجة عليك ، فان تنتقل عن قبيح سبيلك كانت الاقاله لك ، وان كانالتقصير مستوليا عليك اعتذرت قبل لحوق الفضيحة بك ، وان أصررت وامتذع الجهل عن الدخول في هذين المعنيين ، ونجم مثلها كنت المأخوذ بها والاحق بالعقوبة عليها لتذوق وبال ما جنيت وتصير انى عاقبة ما فيه تورطت وتراخيت ، فاختر لرائك واعمل لنفسك فالاعذار حجة عليك والانذار لك » .

الشعر والشعراء :

ولمع في هذه الفترة من المائة الثالثة مجموعة من كبار الشعراء امثال عبد الله بن محمد بن عباد مناهض الدولة اليعفرية ، والوافد على الخليفة

(٢) ص ١٨٥

العباسي الواثق هارون بن محمد المعتصم يطلب النصرة على اليعفريين في عام ٢٢٩ ، وابنه الشاعر احمد بن عبدالله بن عباد الذي قاتل الامام الرسي في مواطن كثيرة والذي وفد على الخليفة العباسي المعتضد يطلب النصرة على الامام يحيى بن الحسين الرسي كما لمع في هذه الفترة الشاعر عبد الخالق بن ابي الطلح الذي وصفه الهمداني بأنه هو وعبد الله بن عباد اشعر اهل اليمن في عصرهما وانه لا يعلم احدا في عصرهما يأتي بأطبع من شعرهما وسنحاول في الصفحات القادمة أن نستعرض أهم شعراء هذه الفترة متوخين الايجاز .

عبد الله بن محمد بن عباد :

كان هذا الشاعر كما ذكرنا مناهضا لدولة آل يعفر ، لاسباب قبلية بين حيه اكيل التي كان رئيسها وبين بني سعد الذين ناصرهم آل يعفر وقد فصل هذه الاسباب الهمداني في الجزء الاول من الاكليل .

وكان شاعرنا قد وفد على الخليفة العباسي الواثق كما أسلفنا يخبره بتغلب يعفر على عمال العباسيين في صنعاء فبعث معه الواثق احد عماله واسمه البشير أو الشار باميان كما يقول الهمداني ، ونصح عبد الله بن عباد البشير هذا خطة لم يوافق عليها فعاد عبد الله ابن عباد الى بغداد ليجد الخليفة العباسي العاشر المتوكل بن المعتصم قد بويع له خلفا للواثق وذلك في حدود عام ٢٣٢ ، فحكى عبد الله بن عباد حكاية مخالفة البشير له واكد له انه لا يستطيع ان ينال من ابن يعفر منالا فبعث المتوكل معه رجلا قد تولى اليمن عدة مرات ، بعث معه القائد جعفر بن دينار المعروف بالخياط ، والذي شهد حرب بابك الخرمي وابلى فيها بلاء حسنا وقد استطاع جعفر بن دينار أن يحمل يعفر بن عبد الرحيم على الطاعة لبني العباس ودفع الخراج الى آل زياد بتهامة الذين كان ولاؤهم في بداية الامر للخليفة العباسي .

وشعر عبد الله بن عباد يتغنى الروح العربية بما لها من مثل وقيم واخلاق واداب ومن قصيدة له على حرف الدال نختار قوله :

خليلي من جرم بن ريان أو نهد	ألا حييا هندا دنا البين من هند
وقولا لهند قبل أن تشحط النوى	بنا وبهند هل من البين من بد
أبي القلب الا حب هند وقومها	عدو وانا للعداوة والود
رأيت بني عمي الربيعة أجمعوا	بأن يجعلوني للعدا واضح الخد
وقالوا تسلم واحترز وانس ما مضى	ومن دون ما قالوا مصيري الى لحدي
اذا المال أدناني الى الضيم وفره	فعجله يا ربي لوارثه بعدي
فلا قرت العينان بالمال ساعة	ولا عشت الا عيشة البائس الفرد

ولعبد الله قصيدة دالية يذكر فيها ما يقاسي من مساءة العشيرة وكيد الخصوم والاضداد ومطلع هذه القصيدة :

تاوبني هدوءا طيف هند	على عشواء من خوف وبعد

أحمـد بن عبد اللـه بن عبـاد :

وهذا الشاعر هو ابن الشاعر المتقدم وهو الذي وفد على الخليفة العباسي المعتضد في حدود عام ٢٩٨ للهجرة ، وكانت وفادته اليه يطلب النصرة على الامام يحيى بن الحسين الرسي . وتقول مصادر الشيعة ان وفادة شاعرنا على المعتضد لم تكن ناجحة ، ويقول الهمداني[1] انه وفد على المعتضد في آخر أيامه فوجد المكتفي بن المعتضد قد بويع بالخلافة ، وان المكتفي كان قد بعث معه بالجيوش العظيمة ولكن كتابا جاءه بان يحيى بن الحسين قد اخرج من صنعاء ففتر المكتفي عن ذلك العزم .

وكان الشاعر-الزعيم احمد بن عبد الله بن عباد قبل سفره الى العراق مستنجدا قد خاض معارك طاحنة مع الامام يحيى بن الحسين حاربه في صعده وكاتب اهل نجران يحرضهم على الامام الرسي وقد فصل علي بن محمد العلوي كثيرا من الوقائع التي دارت بين أحمد بنو عباد والامام الرسي في كتابه سيرة الامام الهادي حيث اشار جامع السيرة الى شاعرنا عشرات المرات في هذا الكتاب .

ومن جيد شعر أحمد بن عباد قصيدته البائية المطولة التي قالها وهو في طريقه الى العراق مفارقا اليمن وهذه أبيات منها مختارة :

لعمرك ما زال المطايا نواجيا ... لهن رسيم دائم ووجيب
اذا جاوزت وعثا من الارض أرقلت ... وقابلها من بعد ذاك سهوب

وفيها يقول :

أرى أنجما يا صاحبي وانها ... وعيشكما من أرضنا لقريب
غرائب في أرض العراق كمثلنا ... وقد يؤنس المرء الغريب غريب
ستسليكما ان فرج الله كربة ... تقر بها أعياننا وتثوب
ويضحى الذي واسيتماه قد ارتضى ... ويخفض عيش بعدها ويطيب
فما العسر الا اليسر يأتيك بعده ... ولا الضيق الا بالرخاء مشوب
وكنا جميعا أهل دار وطينة ... وبعض لبعض صاحب وحبيب
علام اجترائم بالقبيح وبعضنا ... لبعض أكيل دهره وشريب
وكنا نراعي غيبكم فكأنما ... علينا لكم في الغائبين رقيب
عفا الله عنكم كل شاة برجلها ... على نفسه يخطي امرؤ ويصيب
وانا لنجزي حملنا وتقله ... كواهل منا ما لهن ندوب
وما زال فينا الدهر نفس أبية ... ورمح يعاف الغمد فهو صليب

ومن شعر أحمد بن عباد أيضا قصيدته العينية وعدد أبياتها ٤٥ بيتا وفيها يقول وهو في العراق :

هل العين امست والكرى لا يطيعها ... ففيم تلوم النفس أو ما صنيعها
واني وان كان العراق محلة ... من الارض مأمون ظمأها وجوعها
يمر بها نهر الفرات ودجلة ... شعائب ما تدري واين فروعها
لمستغرق شوقا اذا ما تألقت ... بوارق أرضي واستبان لميعها

(١) الاكليل ج (١) ص ٢٥١

أقول وباب الهم ثم مضاجعا ... يسامرني والعين نزر هجوعها
ألا ليت شعري عن حمام عهدتها ... تجاوب في حرف الرجاة سجيعها
وعن قاطنات من ظباء رواتع ... باكناف دماج يطيب رتوعها

وفيها يقول معبرا عن محنته التي لا يستنجد عند مثلها بغير الصبر والثبات والاعتداد بكرامة النفس واصالة الشخصية عند اشتداد الازمات :

لنا أنفس لن يبلغ الضر جهدها ... ولم تستكن للهم وهو ضجيعها
نصارع أياما ومنها صريعنا ... اذا ما استطعناه ومنا صريعها
خلائق من آبائنا عرفت لهم ... اذا نائبات الدهر هب فظيعها
سلي عقب الايام عنا فكلها ... حلبنا فذقنا ما تضم ضروعها
فما حملتنا فوق [illegible] ... ولو آدنا الا ونحن نطيعها

شاعر المأساة احمد بن يزيد القشيبي :

هذا الشاعر هو [illegible] زيد القشيبي العوسجي الذي قدمناه في الفعل المتقدم ضمن شعراء القرن الثاني .

لقد عاش هذا الشاعر مأساة صنعها ومثل فصولها الرهيبة أكبر طاغية سفاح هو ابراهيم بن موسى بن جعفر الصادق الملقب بالجزار لكثرة ما سفك من الدماء وابراهيم هذا اخو زيد بن موسى بن جعفر الذي كان يسمى زيد النار وكان زيد النار قد خرج على المأمون في البصرة التي احرق من دورها وأهلها ما جعله خليقا بلقب زيد النار .

أما ابراهيم بن موسى فقد كان لائذا بمكة ولما رأى انتقاض الامور على المأمون وصل الى اليمن عام مائتين داعيا لابن طباطبا الذي كان موجوداً بالكوفة وفي اليمن وضع الجزار السيف في أبناء اليمن وفي جنود بني العباس حتى بلغ قتلاه من جنود بني العباس وحدهم ١٥ الفا كما روى المسعودي في كتاب مروج الذهب (١)

وكان دعاة الشيعة يميلون ــ غالبا ــ الى أعالي جبال اليمن وبواديها اكثر مما يميلون الى سهولها وحواضرها فقد كانوا أولا حذرين من تعقب ولاة بني العباس لهم ومن أجل ذلك يحبون الجهات التي هي اشد وعورة وأكثر تحصينا ، ثم هم بعد ذلكيميلون الى البوادي حيث النعرات القبلية والخصومات الطائفية ، فهم يستغلون هذه النعرات والخصومات لصالحهم فيضربون حيا بحي وقبيلا بقبيل ويدخلون مصلحين بني هذا القبيل وذاك اذا ضمنوا ولاء الطرفين ومناصرتهم فان يكن الامر بخلاف ذلك فانهم يشعلون بني الطرفين نار العداوة والبغضاء ، حتى يصفى احد الطرفين للاخر فان لم يتم ذلك فانهم يقومون بالتصفية النهائية للفريق المعادي لهم أو للفريقين معا اذا لم يكن أحدهما لهم مواليا ونصيرا.

وشاعرنا هذا ممن اصطلى بنار المناصرة لدعاة الشيعة في اوائل القرن

---

(١) مروج الذهب ج٤ ص٣٢

الثالث ، فقد روى ابو الحسن الهمداني ما فحواه :(1)

عندما قدم الى صعدة ابراهيم بن موسى الجزار على المائتن اسرعت اليه قبيلة سعد ، وكان بين هذه القبيلة وبين خنفر واكيل وشهاب — وهم قبيل شاعرنا — عداء قدم ، فلقيه اكيل واحلافها بالسلم ، فاقام الجزار بصعدة حتى تهيأ له المخرج الى صنعاء فسألهم ان يخرج معهم من وجوههم من امكنهم فخرج معه من ال خنفر واكيل وشهاب مائة وخمسة رجال فلما صار منزل محمد العمري وهو عراقي نزل باليمن ونال فيها صهرا ورئاسة ، لما صاروا في منزل هذا الرجل امر بهم فقيدوا وسار بهم الى صنعاء ومن بينهم شاعرنا هذا الذي استطاع بمساعدة بعض العلويين ان ينفلت من اسر الجزار في بلدة ريدة ، ووصل بقية الاسرى الى صنعاء فقتلوا جميعا فثار بابراهيم الجزار شاعرنا هذا احمد بن يزيد وانضم مع كثير من اليمنيين الى الاحول بن ماهان القائد الذي بعثه المأمون لطرد ابراهيم الجزار من اليمن حيث طرد هذا السفاح بعدها من اليمن شر طردة .

واوضح من كلام الهمداني أن سعاية ال سعد قد اثرت في مقتل هذه الجماعة بل هذه النخبة المتازة من رجال اليمن ، فقد كان هذا الحي نازحا في الحجاز منذ حرب سعد والربيعة التي عرضنا لها في الفصل الذي سبق هذا الفصل من هذا الكتاب .

ولسنا نود التعرض لمسألة تشيع هذا الشاعر ، فقد ذكر الهمداني في سياق حديثه عن شاعرنا أحمد بن يزيد القشيبي انه كان متشيعا يذهب مذهب ال مفرغ وال مفرغ ليسوا شيعة علي فقد كان يزيد بن مفرغ يمنيا من حمير يتعصب لقحطان وهجاؤه لمعاوية وال زياد كان هجاء سياسيا لا يصدر عن تشيع ، ومثل ذلك نقول فيما ارتأه الشاعر احمد الشامي حين وصف شاعرنا ، بانه شاعر يذهب مذهب الكميت والسيد الحميري في التشيع .

وما بين ايدينا من شعر هذا الشاعر قصيدتان الاولى قصيدته البائية في المائة والخمسة القتلى الذين حصدت رؤوسهم سيوف الداعية العلوي ابراهيم بن موسى الجزار والتي يقول فيها :

فيا أسفا من بعد صيد غطارف	جسام المعالي ليس زندهم يكبو
بكل غداة تستفاض جيادهم	من الماء قرنا بعد قرن له سكب

وهو يخاطب ابراهيم الجزار بقوله :

سمعت بهم قول الاعادي فاصبحوا	وكلهم في شخب أو داجة يحبو
ولو أنهم خافوا الذي نلت منهم	لضاقت بك الارض العريضة والرحب

وهو وان قال فيه هذين البيتين اللذين نلمس فيهما كياسة التعبير السياسي أكثر مما نلمس حرارة التشيع .

فمهلا لك الخيرات لا نبر عظمها	فشعبكم من يوم كان لنا شعب
ونحن لكم حصن حصين وشيعة	فأصغيت أذنا للوشاة وقد دبوا

(1) الأكليل ج2 ص131

الا انه يقول فيه في أحد أبيات هذه القصيدة :

ولكن ابراهيم ملنـــا بعدلـــه وقد نيربت منـه الخيانة والكذب

و فيقصيدته العينية المطولة يجامل شاعرنا في عتابه ابراهيم الجزار مجاملة لا تخلو من تبكيت هو اشبه بالهجاء مثل قوله :

تناسلك السادات مـن طرفيهـم فلا محسن يوما الينـا ولا مرعي
تناولت منا كـل قيـل متــوج وارديت منا كل أروع كالجــذع
توعبت واستوعبت جدع أنوفنـا وقد يقبح الوجه الجميل من الجدع

الى أن يقول في هذه القصيدة مذكرا ابراهيم الجزار بعظمة من قتلهم غدرا من كبار رجالات اليمن :

كأن بعيني الحمول سوالــكا تشيح بأنمــاط مرقمة بقــع
عليهن من نسل الملوك ولائـد وولدان ســادات تبوع بالـذرع
مصابيح ارض اطفئوا ثـم غيبوا سلالة اقوال مغاوير فـي الردع
بقية ميمون بن حجر بن زرعــة فيا نبعة خضراء سامقـة الفرع
بهم كان يستسقى الغمام وتتقــى بهم عثرات الدهر في السهل والتلع

وكانت لشاعرنا احمد بن يزيد مكانة عظيمة لدى مؤسس الدولة اليعفرية الاول يعفر بن عبد الرحيم ، الذي له فيه قصيدة وجه فيها اللوم الى يعفـر حين سجن الزعيم اليمني عباد بن الغمر وأولاده حتى مات عباد بن الغمر في السجن .

وكان الذي بين يعفر وعباد ليس عامرا وحين قاتل يعفر والي اليمن مـن قبل العباسيين عبد الرحيم بن جعفر بن سليمان في الربع الاول من القرن الثالث أسر يعفر جعفر ابن الوالي العباسي عبد الرحيم بن جعفر بن سليمــان ، واشترط يعفر عليه تسليم عباد بن الغمر نظير اطلاق ابنه فسلمه الوالـي العباسي عباد بن الغمر واولاده فأودعهم يعفر السجن ومات عباد في السجن فقال الشاعر أحمد بن يزيد القشيبي معاتبا ولائما يعفر بن عبد الرحيـم مذكرا اياه بما حدث ويحدث من هؤلاء الولاة الذين يأتون الى اليمن طامعين في الحكم ممزقين وحدتها ، مفرقين بين أبنائها مغرين بينهم على أن يقتل بعضهم بعضا قال شاعرنا :

تكأت بعباد بـن غمر جراحنـا وضعضعت مناعزتـا فتهدمـا
أيعفر ياذا الجود جـزت لحومنا سباع العدا فاذكر لنـا ما تقدمـا
ولا تعر من سيد الجناح قوادمـا بها نهضت علوا وخلفـا ومقدمـا
أيعفر فاصفح عن أخيك فانمـا أخو المرء في عصيانه من تندمـا
وقم في رجال من ذوي يمن لهـا وقارع عليها من طغى وتعظمـا
أيعفر ان المـرء زين ابن عمـه فلا تجذمن منـا بنانا ومعصمـا

ويلتفت شاعرنا في هذه القصيدة الى الوالي العباسي الذي قاتله يعفـر فأسر ولده واضطره الى تسليم الزعيم اليمني عباد بن الغمر اليه — الـى يعفر — خافرا ذمامه يذكره بلؤم هذا الوالي وسوء نظرته الى أبناء اليمـن الذين لا يرى فيهم أكثر من أنهم نوع من أنواع الفيء ومظهر من مظاهر الغنيمة التي تعود أن يسوقها الى الخليفة العباسي نظير بقائه في اليمن جابيا للخراج .

وما زال ذا ضغن علينا ابن جعفر ... يرانا له فيئا حلالا ومغنما
أيعفر قد أمسى ابن عمرو مصفدا ... واصبح رهنا في يديك مسلما
فقلد بني قحطان فيه صنيعة ... وضمنهم من بعدها ما تنجما

عبد الخالق بن أبي الطلح الشهابي :

وصفه الهمداني في الاكليل بأنه وعبد الله بن محمد بن عباد أشعر أهل اليمن في عصرهما . وقال لا نعلم أحدا في عصرهما يأتي بأطبع من شعرهما ، وقال عنه انه كان يهجو الابناء في أيام حربهم وانه هو الذي استنجد عليهم محمد بن يعفر في قصيدته . يقصد قصيدته الهمزية التي حرض فيها اليمن على الابناء .

والهمداني يثبت لهذا الشاعر في الجزء الاول من الاكاليل ثلاث قصائد الاولى قصيدته في وصف الشباب ومدح ابن يعفر وعدد ابيات هذه القصيدة ١٣١ بيتا ومطلع هذه القصيدة :

ما بكاء امرئ بدمنة دار ... بعدما لاح شيبه في العذار

والقصيدة الثانية قصيدته التي يحرض فيها ابن يعفر على الابناء وعدد أبياتها ١٣٥ بيتا ، ومطلعها :

ما باؤكم فحتى م الاباء ... وفيم الهجر أو فيم الجفاء

والقصيدة الثالثة هي اللامية التي يهجو بها الابناء ويذكر الفتنة التي دخل فيها قاضي صنعاء الابناوي هشام بن يوسف وسنعرض لذكر هذه القضية عند تحليل هذه القصيدة . أما عدد ابياتها فـ ٧٥ ومطلعها :

أهاجك باللوى طلل محيل ... وسفع كالحمام به مثول

وأثبت له صاحب الاكليل مقطوعة يفتخر فيها بقحطان وعدد ابياتها سبعة ، كما أثبت له قصيدة يهاجم بها العمريين نسبة الى عمر بن الخطاب .

وكان أول النازلين منهم باليمن عمر بن ابراهيم الواصل اليها في عهد المأمون وكان قد اصهر الى اليمنيين ونال عندهم مكانة رئاسية ، وولده محمد هو الذي تأمر مع ابراهيم بن موسى الجزار على قتل مائة وخمسة من ال خنفر واكيل وشهاب ومن اجل ذلك هاجمه شاعرنا عبد الخالق بن ابي الطلح بقصيدته الرائية وعدد أبياتها ١٤ بيتا :

أنا ابن الذي ادعى قضاع خئولة ... وكندة أعماما فيا لك من فخر

كما أورد له بيتين في هجاء الابناء يقول فيهما :

وأنا الخبير بأنهم لم يخلقوا ... الا لبيع بضائع وشراء
ومعاصر ومجازر ومدابغ ... تؤذي مجاورها ونسج ملاء

ويقول مؤلف الاكليل ان هذين البيتين من قصيدة هي مئون من الابيات على رسم ما فعله شاعر اليمن دعبل الخزاعي :

والملاحظ على شعر عبد الخالق بن ابي الطلح الشهابي هذا التطويل المفرط في القصائد ، وهو تطويل لم تعرفه في الشعر العربي الا في قليل من

قصائد ابن الرومي ، فهل كانت هذه الظاهرة جديدة في الشعر اليمني ؟ ان قصائد معاصرية من الشعراء في اليمن كالشاعر عبد الله بن عباد وابنه أحمد بن عبد الله بن عباد وقصائد الشاعر أحمد بن يزيد القشيبي ، وكذلك القصائد التي أثبتها كاتب سيرة الهادي يحي بن الحسين الرسي كل هذه القصائد وقصائد الشعراء الذين سبقوهم لا تحمل من طول النفس ما تحمله قصائد عبد الخالق الشهابي ، وعلى اية حال فنحن أمام شاعر جدير بان نقف امام قصائده وقفة طويلة لانها تمثل وجه الدولة اليعفرية ، تمثل وجه دولة ناشئة هي من اليمن وفي اليمن ، هي دولة تنتمي الى اقيال اليمن وتبابعة حمير ، وقد قاومن ولادة بني العباس في صنعاء حتى استطاعت ان تنتزع الحكم منهم عنوة ، وقاومت دولة بني زياد التي وفد حكامها من خارج اليمن بغية ابقاء اليمن خاضعة لنفوذ بني العباس بعيدة عن نفوذ العلويين ، وقاومت دولة بني يعفر الائمة الذين حصرتهم في اعالي جبال صعدة ، وقاومت بل صفت حركة القرامطة الذين لم يستطع اخماد ثورتهم الا الائمة بنفوذهم الروحي ، ولا ال زياد الذين يمتلكون من الاستقرار وازدهار الاقتصاد وتأييد الخلافة العباسية — ولو بمجرد الاسم ، ما لا يمتلك اليعفريون .

نحن أذن امام عبد الخالق بن ابي الطلح الشهابي شاعر الدولة اليعفرية الذي يمثل شعره مختلف التيارا تالسياسية في اليمن خلا لالقرن الثالث للهجرة وسنحاول ان نقف أمام هذه القصائد الثلاث مستعرضين او محللين ما تضمنته كل قصيدة من قضايا وأحداث ونبدأ ذلك بقصيدته الرائية التي قالها في محمد بن يعفر .

هذه القصيدة قالها في رئيس الدولة اليعفرية الثاني محمد بن يعفر وكانت بداية حكمه عام ٢٥٩ وانتهى حكمه عام ٢٧٩ ومعنى ذلك ان هذه القصيدة نظمت في وقت لم يكن فيه الامام يحي بن الحسين الرسي قد ظهر فقد كان ظهوره بعد عام من انتهاء حكم محمد بن يعفر ، وبعد ذلك بحوالي عشرة اعوام ظهرت حركة القرامطة . وقد قال الشاعر هذه القصيدة وهو في الخمسين من العمر بدليل قوله :

عد خمسين ثم عاد بديا	يشفع الدمع بالدموع الغزار
وابن خمسين جاهل ان تصابى	بعد خمسين أو بكى في الديار

وقد اشتملت مقدمة هذه القصيدة على ابيات قالها الشاعر في بكاء الشباب ومن مختارات ابيا تهذه المقدمة قوله :

ما بكاء امرىء بدمنة دار	بعدما لاح شيبه في العذار
لا وذاكم الا السفاهة حلم	وادكارا وليس حين ادكار
عد خمسين ثم عاد بديا	يشفع الدمع بالدموع الغزار
واذا عاج بالمنازل يوما	هيجته ملاعب وأوارى
حق للشيب ان يوقره المرء	وضيف المشيب اهل الوقار
صبغة غيرها أحب الى العاطل	طل من حليها وأهل الوقار
لا تريد الفتاة غير ابن عم	ليس عم الفتاة منها بجار
هن ميل الى الشباب وزور	عن بياض المشيب اي ازورار

يتبرجن للشبـــاب ويعرضـــن باعـــدى مقالـــة للكبـــار
عيرتني بالشيـب لمـــا رأتـــه أم عمرو • والشيب ليس بعـــار
قالـت اربـع فقد عراك عـــن اللهو وأيامـــه عليـــك القصار
ولقد قالـت الخليـل سليمـــى ذاك في قيلهـا وكنـــت أمـــارى
وأفـول الشبـاب دار مقيـــم داره ما بقيـــت دار قـــرار
فـاذا نضرة الشبـاب كشـىء رده المستعيـــر للمستعـــار
فارعوى باطلـــي واقصر جهلي وتزاجرت حين اعيـا ازدجـاري

الهادي يحي بن الحسين

ومن الشعر الذي قاله الامام الهادي يحي بن الحسين الرسي المتوفي عام ٢٩٨ هذه القصيدة التي تمثل مطامح الاسرة العلوية الى الحكم وتصف ما كانـوا يعانون من تشقق الصف وتفرق الكلمة :

نفى النوم عن عيني هم مضاجـع وخطب جليل فهـو للنوم مانـع
وأرقنـي ان لا صديـــق ولا اخ يشاركني فيمـــا تجن الاضالـع
أفكر فـي الدنيـــا وتافه شأنها كما طال فكـري والعيون هواجع
سبتهم بحسن الذوق من شهواتها فكل لهـا الف محـــب مطـاوع
يوفـر ما قد نال مـن فضلاتهـا ويذخر للوراث مـا هـو جامـع
ويبخل عـن تقديـم خير لنفسه ويجزع عـن اخراجـه ويمانـع
ويمنعه التسويف عن باب رشده ويعجـــل فيمـــا ضره ويسارع
ويدخـره حتى يكـون كأنـــه الى مـا لـه بعد المنية راجـع
اليس عظيمـــا ان يسالم مبطـل ظلوم لاهل الحق ؟ فالحق خاضع
قتيل ، قليـل اهله ، ومضيـــع فساحتـه قفر ، قواء ، بلاقـــع
وعطلـه انصـاره وحماتـــــه فقد درست أعلامـه والشرائـع
وآل رسـول الله قد شغلتـهـم عيون ، وأموال لهـم ، وزرائـع
وحقد ، واحياء الضغائـن بينهـم ولم يجمعوا فيـه ، ومـل المطاوع
ارى الطالبين الاسود تخاذلـــوا فمنهم مدان للعـدى ، ومصانـع
ولم يطلبوا ارث النبوة بالقنـــا ولم يمنعوه والرمـــاح شوارع
ارى حقهـم مستودعا عند غيرهم ولا بد يومـا ان تـرد الودائـع
هلموا الى ما يورث الفخر والسنا فما عز قـوم أمرهـم متنـازع
فلو عضدتني عصبـــة طالبية لها شيـم محمـودة ودسائـــع
وصبر على البلوى اذا نزلت لهـا جحاجح في أسياقهـا السـم ناقع
اذا ملكوا الدنيـا وذل عدوهـم ولم ير في روضاتهم وهو راتـــع
هل الملك ، الا العز والنهي والغنا وافضلكم مـن هذبتـه الطبايع ؟
ومن لم يزل يحمي وينقـم ثـاره ومن هو في الحالات يقظان هاجع
يقلب بطـن الامـر فيه لظهـره ويمضي اذا ما أمكنته المقاطـــع
ونحن بقايا المرهفات وسؤرهـــا اذا كان يوم ثائـر النقـع ساطع
يموت الفتى منا بكـل مهنـد وأسمر مسنون الشبا وهو دارع
فتلـك منايانـا وأنـــا لمعشر من الناس في الدنيا النجوم الطوالع

نهضت فلم أعجل وقلـــت مواعظا	ذخائر علم ان دعاهـــن سامــــع
فكم قائل في نفســــه وضميـــره	ايا واعظا في ذا ، كلامك ضائـــع
فكيف غناء الكـــف عند اجتهادهـــا	اذا لم تعنها بالفعـــال الاصابـــع

وللشاعر الشيعي ابراهيم ابن الجدوية الصنعاني من شعراء القرن الثالـــث الهجري يمتدح اعلام اليمن في ذلك العصر :

تعاتبني حسينـــة فـــي مقامـــي	بأرض العشتين فقلـــت خبـــث
أفـــي قـــوم احلوني ، وحلـــوا	على ظهـــــر الثريـــا اليوم لمـــت
بقربهم علـــوت الناس ، حتـــى	رأيـــت الناس والثقليـــن تحتـــي
وان شهدوا الحروب فاسد غـــاب	غضـــــاب دون أشبلهـــا بحبث
وان طلبوا المكارم ادركوهـــــا	بكــــل مقدم العرنيـــن صلـــت
فقد طابـــت مغارسهم وطابـــوا	وزادوا في المدائح فوق نعتـــي
سل الدنيـــا ومن اضحى عليهـــا	تنبئـــك اليقين اذا سألـــــت
أحقا يا سماء رأيـــت قومـــــا	مشوا من تحت ظلك مذ رفعـــت ؟
وهل يا أرض كان لهم نظيــــــر	على أكتاف ظهرك مـــذ سطحت ؟
ويا شمس النهار عليـــك أولـــى	يمين الله ربك هـــل طلعـــت ؟
على قـــوم كمثلهـــم ، لجـــــار	غريـــب او لمرملـــة ، ومشتـــي ؟
وللحرب العوان اذا ازبـــــأرت	نواصي الخيل من شقر وكمـــت
أرينـــي خامسا لهـــم ، وأنـــي	تنالين السمــــاء ، ولـــو حرصت
كمثل «أبي فطيمة» ، أو « كزيد »	او « ابراهيم » أو « حسن » وبت
الحمد لله الــــذي بحمــــــده	مـــــن علـــى عبـــاده بعبـــده
ألا حييـــث عنـــا يـــــا مدينـــا	وهـــل قـــوم تقـــول مسلمينـــا
أقلـــى من ملامك ياظعينـــــــا	كفاك اللـــوم مـــــر الاربعينـــا
الا يـــــا دار لـــولا تنطقينـــــا	فـــأنا سائلـــون ومخبرونـــا

القرن الرابع للهجرة

الحالة السياسية :

كان بداية القرن الرابع للهجرة ، نهاية لحكم القرامطة الذين حاربهم كل من الائمة في صعده وال يعفر في صنعاء وال زياد في تهامه وكان لليعفريين الحظ الاكبر في اخماد ثورتهم ، التي استمرت من اواخر الربع الاخير من القرن الثالث الى ٣٠٣ من بداية القرن الرابع . وكان أسعد بن يعفر بن ابراهيم هو الذي استطلاع احتلال مذيخرة مقر دعوة علي بن الفضل في رجب عام ٤٠ هـ. وعلى كثرة تتبع اليعفريين لاتباع القرامطة بغية استئصالهم فقد ظل بعض منهم متخفين وظلت دعوتهم مستورة حتى بداية القرن الخامس حين أحيا دعوتهم في تأويل الصليحيون مع فارق بين القرامطة والصليحيين هو أن القرامطة يؤمنون بالباطن فيتأويل نصوص الشريعة على حين يؤمن الصليحيون بالباطن والظاهر معا .

وأذن فقد شهد القرن الرابع دويلات في اليمن ، اليعافرة في صنعاء والائمة الزيدية في صعدة ، وال زياد في تهامة ، وما جاورها وبني معن في عدنوحضرموت وماصاقبهما ولم تكن العلاقات بين هذه الدويلات علي شيء من الوفاق فقد.كانت الحروب بينها تشن ، وكانت صنعاء مرة ايدي الائمة واخرى في أيدي ال يعفر وثالثه في أيدي بعض الرؤساء الثائرين من همدان او خولان ، والى جانب ذلك كله لم يكن الحكم خالصا لهذه الدول الثلاث فقد كان يزاحم كلا من الائمة واليعفريين سلاطين مقاطعات مستقلة تحال المناخي فيمذيخرة والجند والعدين وا ل الضحاك في بلاد حاشد وال الكرندى في بلاد المعافر وعلى العموم فقد كانت الاوضاع السياسية فيهذه الفترة تتسم بطابع القلق والاضطراب وعدم الاستقرار .

الحالة الاقتصادية :

في ظل سياسة قلقة مضطربة غير مستقرة لا يمكن أن يزدهر اقتصاد ثابت متين مكين يساعد على خلق مظهر من الحياة المتحضرة المتطورة هذا اذا استثنينا أن استقلال اليمن بالحكم لم يبدأ الا من بداية القرن الثالث حين ظهرت دولة بني زياد والا فقد كانت اليمن قبل ذلك مصدرا من مصادر دخل الدولة العربية تعاقب عليها الحكام والولاة من قبل الخلفاء اسلاميين وزبيريين وأمويين وعباسيين ، وكان هم اكثر أولئك الولاة رفع مقدار الجباية اكثر من همهم في نشر الرخاء الاقتصادي . وقد كان سرعة تعاقب أولئك الولاة على الحكم — عملا بحيطة الخلفاء وحذرهم أن يكون طول بقائهم في الحكم مدعاة لاثارة طمعهم في الاستقلال بحكم اليمن . كان سرعة تعاقب اولئك الولاة من الامور التي دفعت بهم الى التكثر من جمع المال نتيجة احساسهم بقصر المدة التي سيقضونها في الحكم ، فالوالي اذن جاب نشيط في جمع المال ينتقي به عزل من ولاه ، وهو بعد حريص على ان لا ينسى نصيبه من الدنيا تأمينا لمستقبله بعد انقضاء فترة ولايته.

ولكن رغم ذلك كله فقد تحدثت مصادر التاريخ القديم عن شيء من الرخاء الاقتصادي في اليمن بعد استقلالها . فقد تحدث المؤرخ عمارة اليمني في كتابه تاريخ اليمن تحدث في اندهاش عظيم عن دخل الدولة الزيادية في عهد ضعفها وتدهورها وبالذات في عام ستة وستين وثلاث مائة ونصف دخلها بأنه بلغ الف الف من الدنانير خارجا عن الضرائب على المراكب الهندئية المحملة بالاعواد المختلفة ، والمسك والكافور والعنبر والصندل والصيني وخارجا عن ضرائب العنبر على السواحل بباب المندب وعدن وأبين والشحر وخارجا عن ضرائب عن مغائص اللؤلؤ وضرائبا على صاحب مدينة دهلك كما تحدث عمارة عن الاثار العمرانية لابن زياد الحاكم الاول لهذه الدولة الذي اختط مدينة زبيد ، وعن اثار الحسين بن سلامة الذي وزر لولد ابي الجيش ابن زياد في الثلث الاخير من القرن الرابع والذي اعاد للدولة الزيادية هيبتها وكانت قد انتقصت اطرافها ، والحسين بن سلامة هو الذي اختط مدينة الكدراء في وادي سهام ومدينة المعقر في وادي زوال ، ولهذا الرجل عدد من الاصلاحات العظيمة كبناء الجوامع وأصلاح الطرق وحفر الابار وانشاء البريد الى غير تلك من الاعمال .

ورغم ان عمارة اشار الى ضالة دخل الدولة اليعفرية التي كانت مواردها في عهد اسعد بن أبي يعفر لا تتعدى أربع مائة الف دينار في السنة يصرف معظمها في سبيل البر لوافديه وقاصديه الا أن المسعودي في كتاب مروج الذهب قد تحدث عن كثافة دخل الدولة اليعفرية التي كانت تعتمد على الزراعة وبخاصة الورس والزعفران وعلى بعض المعادن كالجزع والعقيق ونحوهما من الاحجار الكريمة .

ومثل ذلك يقال في موارد الائمة في صعدة التي كانت تعتمد على الزراعة فقد

كان لهم بيت مال خاص بالمسلمين وفي نسخة العهد التي نسخها الهادي يحيى بن الحسين تفصيل للكيفية التي كانت تجمع بها الاموال من المزارعين على ثمرات الارض ومن التجار على عروض التجارة .

وكيفما كا نالامر فان الذي لا شك فيه ان دخول هذه الدويلات كانت تتمثل في وحدات اقتصادية مبعثرة لمتكن فيها اليمن كل اليمن ذا تكيان اقتصادي موحد وقد استنزفت هذه الوحدات الاقتصادية المبعثرة الحروب ومشاكل الخلافات بين الحكام واضطراب ميزان الزراعة والتجارة نظرا لهذه الحروب وهذه الخلافات .

الحالة الثقافية :

ظلت الكوفة والبصرة ومكة وبغداد مركزا مهما من مراكز الحركة الثقافية في عهدي الخلافة الاموية والعباسية ففي الكوفة والبصرة نشأت علوم اللسان ممثلة في مدرستي النحو البصرية والكوفية . ونشأ علم عروض الشعر . ورواية الشعر . ونشأ فقه الشريعة من رواية للحديث وقراءة للقران . واتصف العصر العباسي وخاصة عصر المامون بانه العصر الذهبي لانه العصر الذي امتزجت فيه الثقافة العربية بثقافة فارس والهند والرومان واليونان .

وكانت الهجرة الى هذه المراكز المذكورة طبيعية بالقياس الى من يريد لنفسه تعلما وعلما وبالقياس الى من لديه ثقافة واسعة يريد لها الذيوع والانتشار ويبتغي لنفسه علو الذكر ونباهة الشان . ولذلك امت هذه المراكز كثير من الشخصيات العظيمة من سائر البلاد الافريقية والاسيوية .

وبالنسبة الى اليمن فقد لمع في هذه المراكز شخصيات كبيرة من ابناء المهاجرين اليمنيين امثال عامر الشعبي ومسروق الهمداني وابراهيم النخعي المذحجي وعمر بن ميمون المذحجي وغيرهم من فقهاء العراق . ومن فقهاء الشام ابو عمر الاوزاعي الحميري وأبو محمد عبد الله بن يوسف الكلاعي وكالامام مالك بن انس الاصبحي صاحب السنن وغير هؤلاء كثيرون .

على أن الهجرة من اليمن الى امثال هذه المراكز كانت طبيعية وخاصة في عهد ما بعد استقلال اليمن حين اشتعلت نار الحروب بين الدويلات المستقلة فيها . ومن اعلام القرن الرابع الذين هاجروا فترة من حياتهم الى مكة ابو حسن الهمداني مؤلف الاكليل .

العلم والتعليم :

كانت للعلم والتعليم مراكز مهمة في اليمن . ففي صعدة مراكز لعلوم الزيدية وفي مذيخرة مراكز لثقافة الاسماعيليين . وفي الجند وفي زبيد مراكز لثقافة اهل

السنة ومثل ذلك قل في صنعاء التي لمع فيها الرازي مؤلف كتاب تاريخ صنعاء والهمداني صاحب كتاب صفة جزيرة العرب وغيره من المؤلفات الخالدة ، وفي حضرموت مراكز للعلم والتعليم من أشهرها تريم وشبام وغيرها من المراكز التي اصطدمت فيها ثقافة أهل السنة بثقافة الخوارج الاباضيين واستطاعت ثقافة أهل السنة التغلب على ثقافة الخوارج بحيث حصرتها في عمان ، واختفت نصوص التاريخ الثقافي الاباضي آختفاء لا تكاد تسمع له في تاريخ الثقافة في هذا القطر اليمني حسا ولا ركزا .

وقد كان الجامع هو المدرسة شأنه في ذلك شأن الجامع في الكوفة وفي البصرة وفي بغداد وكانت طريقة التعليم فيه تعتمد طريقة السماع تتخلله الامالي في رواية قصص الادب وقصائد الشعر ومسائل اللغة من نحو وتصريف وبلاغة ،ا لى حلقات أخرى يدرس فيها علم القرآن والحديث وفقه الشريعة ، وفي كتاب طبقات الفقهاء لابن سمرة بيان كامل كما يقول حاجي خليفة — في كتاب معجم المؤلفين — عن علماء اليمن وفقائها منذ دخول الاسلام في البلاد الى ما بعد عام ٨٥٠ هـ .

عالم الشعر والنثر :

ويبدو ان عالم الشعر والنثر في هذه الفترة من اصعب بالامر فيه تحديد معالمه وابراز ملامحه وسماته . لقد أشار الهمداني في الاكليل الى بعض الشخصيات الادبية التي لمعت في القرن الرابع ولكنها مجرد اشارات خاطفة لا تعطي الدارس صورة ولو محدودة الجهات عن حياة تلك الشخصيات ، ومن عجب ان القارىء لادب المائة الرابعة من الهجرة ، يقرأ شعرا كثيرا قاله الامام يحيى بن الحسين الرسي وقاله بعض أقاربه ويقرا المعاهدات والخطب ورسائل التولية التي كتبها الامام الى ولاته في النواحي التي خفق عليها لواء حكمه الامر الذي يشعر أمامه الدارس أن العلويين قد قاسوا كثيرا وعانوا طويلا من اضطهاد الامويين والعباسيين لهم فكانت تحركاتهم على استتارها وتخفيها هنا أو هناك في هذه المنطقة او تلك من مناطق شبه الجزيرة او اسيا أو افريقيا . كانت تحركاتهم تلك تعتمد على الاعداد والتخطيط وتجهيز البيانات الوثائقية . على نقيض غيرهم من اصحاب الدعوات السياسية . اذ لم يظهر الى اليوم كتاب خاص ارخ للدولة اليعفرية في صنعاء او آخر مثله ارخ للدولة الزيادية في تهامة ولم نقرأ اي اثر ارخ لحركة الخوارج في حضرموت تاريخا معاصرلاحداثه.

ولعلنا لا نبالغ اذا قلنا ان الهمداني من أوائل من كتبوا الجغرافيا المحلية، لقد كانت الجغرافيا منذ عهد بطليموس تعتمد على وصف الاقاليم السبعة التي قسموا كل واحد منها في طوله — كما ذكر ابن خلدون[1] من المغرب الى المشرق

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥١

بعشرة أجزاء متساوية ويذكرون ما اشتمل عليـــه كل جزء منها مـــن البلـــدان والامصار والجبال والانهار والمسافات بينها في المسالك كما وقـــع ذلك في كتاب « نزهة المشتاق » الذي الفه في منتصف القرن السادس العلوي الادريسي لملك صقلية من الافرنج والذي جمع لـــه كتبا جمة للمسعودي ــ معاصر الهمداني ــ وابن حوقل والقدري وابن اسحاق المنجم وبطليموس وغيرهم وكـــل هـــــذه الكتب تنصب على المعمـــور من الارض كلا لاجزاء كما هو مبين في هذه الكتب.

والهمداني لم يغفـــل في كتاب صفة جزيرة العرب هذا الجانب الهـــام من العلم بجغرافيا المعمور من الارض فقد لخص ما قاله قدماء اليونان فيما يقرب من ٤٤ صفحة من الصفحات الاولى من كتاب صفة جزيرة العرب واشار فـــي آخر صفحة من هذه الصفحات الاربع والاربعين بقوله تم الكتاب الاول من صفة البـــلاد ، ثم دخل بعدها في جغرافيا شبه الجزيرة العربية .

ومما جاء في كتابه حول قسمة الاقاليم لبطليموس اليوناني قوله :(١)

« واما بطليموس وقدماء اليونانيين فانهم رأوا ان طباع الاقاليم وجبلتها لا تكون الا طرائق من المشرق الى المغرب متجاورة بعضها الى بعض . من خـــط الاستواء الى حيث يقـــع القطب الشمالي خمسين درجة وهو ضعف الميل وزيادة جزئين وكسر ، وقد حد في قانونه عرض كل اقليم منها وساعات نهاره الاطول ثم يرسم الهمداني خارطة مبسطة للكرة الارضية التي يصفها بقوله « اعلـــــم ان الارض ليست بمنسطحة ولا ببساط مستوى الوسط والاطراف ولكنها مقببـــــة وذلك التقبيب لا يبين مع السعة وانما يبين تقبيبها بقياساتها الى اجزاء الفلـــك فيقطع منها افق كـــل قوم على خلاف ما يقطع عليه افق الاخرين طولا وعرضا في جميع العمران ولذلك يظهر على اهل الجنوب كواكب لا يراها اهل الشمـــــال ويظهر على اهل الشمال ما لا يراه اهل الجنوب ويكون عند هؤلاء نجوم ابديـــة الظهور والمسير حول القطب وهي عند اولئـــك تظهر وتغيب كما يكون عنـــد اولئك نجوم ابدية الظهور وهي عند هؤلاء تظهر وتغيب وسأضع لك مـــن ذلك مقياسا بينا للعامـــة ، من ذلـــك مقياسا بينا للعامة . من ذلـــك أن ارتفـــاع سهيل بصنعاء وما سامتها اذا حلق ، زيادة على عشرين درجة وارتفاعه بالحجاز قرابة العشر وهو بالعراق لا يرى الا على خط الافـــق ولا يـــرى سهيل بارض الشمال ، وهناك لا تغيـــب بنات نعش وهي تغيب على المواضع التي يرى فيها سهيل ، ثم يتطرق الهمداني بعد هذا الشرح المبسط الى ذكر الاقاليم السبعـــة بمـــا لطبيعتها من اجزاء وتفاصيل » .

وفي معرفة أطوال مدن العرب المشهورة وعروضها يقول :(٢)

طول عدن من المشرق مائة وسبع عشرة درجة وطلوع الشمس عليهـــا بعد طلوعها على القبة بساعة واربعة اخماس ساعة وارتفاع القطب الشمالي

---

(١) صفة جزيرة العرب للهمداني ص ٦

(٢) نفس المصدر السابق ص ٤٤

وانخفاض القطب الجنوبي عليها وهو العرض اثنتا عشرة درجة بالتقريب .طول الجند ازيد من طول عدن بنصف درجة وعرضها ثلاث عشرة درجة ظفار وصنعاء في الطول شيء واحد ، وطول كل واحدة منهما من المشرق مائة وثماني عشرة درجة تطلع عليهما الشمس بعد طلوعها على القبة (١) يقصد بالقبة السماء فهو توصف بالقبة الزرقاء ــ بساعة ونصف وخمس وسدس من ساعة ، وعرض صنعاء على ما وجده أهلها أربع عشرة درجة ونصف وعرض ظفار ثلاث عشر درجة ونصف وعرض مأرب أربع عشرة درجة ولثلثا درجة وطولها من المشرق مائة وسبع عشرة درجة تطلع الشمس عليها كما تطلع على عدن .

الهمداني : حايته مؤلفاته

وقفنا على هذا الشاعر المؤلف العبقري وحده دراسة الحركة الادبية والثقافية في القرن الرابع للهجرة لانه وحده دون غيره وجه المائةالرابعة الثقافي المشرق ، والموسوعة التي جمعت الوانا مختلفة من معارف عصره بالاضافة الى كونه وارثا ثريا لثقافة و آداب وتاريخ اليمن القديم ، فهو قارىء فهيم لخط المسند ترجم بعض النقوش ترجمةاعتمدها علماء الاثار والنقوش المعاصرون، واستفاد كثير منهم من شرحه لبعض صيغ الجموع والافعال التي استفاد منهما أهل الاستشراق . وهو بعد ذلك كله اخباري وعالم انساب لم يكتف بالاخذ عمن سبقه من الاخباريين القدماء كابن الكلبي وعبيد بن شرية وابن اسحاق وغيرهم وانما تابع من لحقهم من علماء هذا الفن فقد وقف على سجل محمد بن أبان الخنفري وسجل آل عباد المتوارثين في انساب حمير . وفي مؤلفاته إشارات الى اخباريين معاصرين روى عنهم مثل ابي نصر اليهري والاوساني ، واحمد بن محمد الاغر الشهابي والابرهي الحميري المداني الحارثي وسلمة الخيواني وغير هؤلاء .

ولد في صنعاء ولم يعرف تاريخ مولده والمرجح ان ولادته كانت في الثلث الاخير من القرن الثالث . وتوفي في حدود عام ٣٥٥ للهجرة . وقد انحدر من اسرة متوسطة الحال كانت تسكن في المراشي واحد اودية الجوف . وكانت الاسرة تتجر بالابل ويظهر ان الجفاف دفع بالاسرة الى التحول الى وادي الخادر قرب صنعاء . ثم كانت نقلة الاسرة الثانية الى صنعاء وعلى راس الاسرة يعقوب الجد الادنى للمؤلف .

وفي صنعاء درس الهمداني معارف عصره . وعلى الرغم من ان عصر الهمداني السياسي كان عصر بدأت فيه تدب عوامل الانحلال في جسم الخلافة العباسية التي انقسمت الى دويلات وامارات طوائف . مثل البويهيين في فارس

---

(١) يقصد بالقبل السماء

والحمدانيين في سوريا وآل الاخشيد في مصر والفاطميين في افريقيا والامويين في الاندلس نقول على الرغم من ذلك كله فقد ازدهر هذا العصر بنهضة ادبية عظيمة هي اثر من اثار النهضة العلمية والثقافية التي رسخت قواعدها منذ العصر العباسي الاول . ومن كبار شعراء ؛ ومؤلفي هذا العصر الذين عاصرهم الهمداني الشاعر ابو الطيب المتنبي وابو فراس الهمداني . والعالمان اللغويان ابن خالويه والحاتمي والصاحب بن عباد وابن العميد ؛ وابو الفرج الاصفهاني صاحب الاغاني والمسعودي صاحب كتاب مروج الذهب وكثير غير هؤلاء من كبار العلماء والادباء والشعراء والكتاب .

ولم تكن حياة الهمداني حياة هدوء واستقرار وانما كانت حياة قلق واضطراب . وخاصة في بداية ايام بالشباب لقد سجنه الامام الرسي في صعدة وسجنه اليعفريون في صنعاء ، ولكنه استطاع تأليب قبائل خولان على الامام الناصر احمد الرسي رغم أن هذه القبائل كانت هي التي استدعت الامام يحيى بن الحسين من مكة الى صعدة لتولي الحكم في ذلك الجزء من اليمن ،وفي ظل الزعيم ابي جعفر أحمد بن محمد الضحاك الحاشدي عاش ابو الحسن الهمداني حقبة من الزمن شهد فيها مائة وستا من الوقائع التي دارت بين هذا الزعيم وبين الامام الهادي وابنيه ، وسجل الهمداني هذه الوقائع في شعره ومؤلفه الاكليل .

ولم يخرج — كما يظهر — من شبه الجزيرة فقد عاش ايام حياته متنقلا بين صنعاء و «ريدة» عاصمة البون ودار حكم آل الضحاك ، وصعدة التي قضى فيها بقية ايامه ، وحدث اثناء ذلك أن هاجر الى مكة فترة من الزمن ، ثم عاد الى اليمن ، على أن الذي لا ريب فيه انه طوف في انحاء اليمن بكل مقاطعاتها وانحائها وكان من ثمرات هذا التطواف تأليفه لكتاب صفة جزيرة العرب والاكليل اللذين ضمن الاول منهما وصفه الجغرافي الدقيق لمناطق شبه الجزيرة وضمن الثاني انساب البطون والاحياء اليمنية .

وقد عرف أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني بنزعته القحطانية التي تعود الائمة دائما ان يفسروها بظاهرة الانحراف عن اهل البيت ولعل لهذا السبب أثرا في سجن الهمداني ، يضاف الى ذلك مشاركته الفعلية في مقاتلة الائمة متعاونا مع أسرة الضحاك الذي قاوم الائمة واستطاع احتلال صنعاء من أيدي اليعفريين فترة من الزمن بمعونة آل الدعام الذين اشاد بهم مؤرخنا ايضا ، والذي يهمنا من ذكر الامارات المستقلة في اليمن خلال القرن الرابع ان نقدم هذه الصورة الموجزة عن الاسرة التي عاش في ظلها ابو محمد الحسن بن أحمد الهمداني ونقصد بها أسرة آل الضحاك التي جاء عنها في كتاب اليمن الانسان والحضارة للقاضي العلامة عبد الله الشماحي [1]

---

(١) ص ١١١

« كانت الرئاسة على همدان من اواخر القرن الثالث لمحمد بن الضحاك بن العباس الهمداني ثم من بعده لابي جعفر احمد بن محمد بن الضحاك ، ثم لابي حاشد ابن العباس بن الضحاك ، ثم ليحيى بن ابي حاشد ثم لابي حاشد الذي قتله فيما بعد — علي بن محمد الصليحي سنة ٤٥٣ هـ — مع الف من همدان بمعركة قرية صرف بيازل من بني مطر ، وكانت عاصمة آل الضحاك «ريده» ونازعوا الرسيين واليعفريين وقتلوا الامام المختار بن الناصر الرسي عام ٣٤٥ «بريده» كما نازعهم ابو الفتوح الخولاني الحميري ، وكان لسان اليمن ابو محمد الحسن بن أحمد من المعتزين بهم ومن محاسنهم ومفخرة عصرهم اشاد بهم وبالدعام » .

ومما ورد في المقدمة التي كتبها الاستاذ محب الدين الخطيب بين يدي كتاب الاكليل الجزء العاشر الذي حققه وعلق على حواشيه هذه الكلمة التي تحدثت بايجاز عن ثقافة الهمداني ومستواه العلمي المرموق .

« كان الحسن بن احمد الهمداني اليمني حكيما عالما بالانساب والفلك والفلسفة والادب طاف القطر اليمني والف كتاب صفة جزيرة العرب المطبوع بمدينة « ليدن » والف « سرائر الحكمة » واليعسوب في القسي والرمي والسهام « والزيج » و « المسالك والممالك » و«عجائب اليمن» والف في معارف حمير واثارها كتابة الاكليل في عشرة اجزاء وهو من اهم ما كتب عن التاريخ اليمني القديم وعن انساب القبائل اليمنية ، وتتميز مؤلفات الحسن بن احمد بالدقة والتحري على صحة الاقوال ، وفيها دلالة على اطلاعه الواسع وعلمه بالتاريخ العربي والفلسفة ، ويعتمد على مصادر اثبت التاريخ بعد كشف النقوش بالقلم المسند الحميري صحتها حتى اصبحت مؤلفاته موضع احترام واعجاب لدى المطلعين من أبناء الغرب ، وكتابه الاكليل اشهر مؤلفاته بل من اشهر المؤلفات وقد ضربت الاكباد غير ما مرة للعثور عليه ونشره » .

وقد استطاع الاب انستاس الكرملي صاحب مجلة لغة العرب طبع الجزء الثامن منه ببغداد كما نشر غيره مقتطفات من بعض الاجزاء .

ومفقودة الى اليوم كل مؤلفات هذا المؤرخ اليمني الكبير ما عدا اربعة أجزاء من الاكليل طبعت وهي الاجزاء الاول والثاني والثامن والعاشر .

الاكليل وطبيعة تأليفه

في الاستعراض الذي قدمه الاستاذ الخطيب محقق الجزء العاشر من الاكليل اشار الى اجزائه العشرة التي اشتملت على ما يأتي :

الجزء الاول — مختصر من المبتدأ واصول الانساب .

الجزء الثاني — في نسب ولد الهميسع بن حمير .

الجزء الثالث — في فضائل قحطان .

الجزء الرابع — في السيرة القديمة الى عهد أسعد تبع ابيكرب .
الجزء الخامس — في السيرة الوسطى من أول أيام اسعدتبع الى ذي نواس .
الجزء السادس — في السيرة الاخيرة الى ظهور الاسلام .
الجزء السابع — في التنبيه على الاخبار الباطلة والحكايات المستحيلة .
الجزء الثامن — في ذكر قصور حمير ومحافدها ومدنها ودفائنها وما حفظ من شعر علقمة بن ذي جدن .
الجزء التاسع — في امثال حمير وحكمها . واللسان الحميري . وحروف المسند
الجزء العاشر — في معارف همدان وانسابها وعيون اخبارها — انتهى .

وما بين أيدينا من كتب الاكليل المطبوعة تكشف عن اسلوبه الذي جمع بين العلم والادب والتاريخ . فهو من جهة علم الانساب يعتمد على السجلات والزبر القديمة مضيفا اليها ما جد من شجرات الانساب وسلاسلها الى الزمن الذي عاش فيه . وهو أثناء ذلك يشير الى الشخصيات المشهورة في الفروسية او العلم أو الفقه أو الادب يشير الى كل ذلك منذ عصور ما قبل الاسلام الى عصره مما يدل على تمكنه واطلاعه الواسع على التاريخ . وهو مترجم لنقوش المسند وثقة كبار علماء النقوش المعاصرين وعدوه مرجعا فيها ، وهو مؤرخ للوقائع التي دارت في اليمن معاصرا لها وناقلا لها من أفواه الرجال ومن المصادر الوثائقية المكتوبة . ورغم أن الهمداني اشار الى كثير من الشخصيات الادبية منذ عصر ما قبل الاسلام الى عصره اشارات خاطفة لا تعطي القارىء المعاصر صورة واضحة عن حياة أصحابها ترجمة وواقعا معيشا ، الا أن الهمداني قد قدم لنا بعض الصور عن بعض الادباء والشعراء اليمنيين الذين لم يرد لهم ذكر في مجاميع الشعر القديمة التي الفت خارج اليمن ، واليه يرجع الفضل في الفصلين اللذين قدمناهما عن أدباء اليمن في القرنين الثاني والثالث للهجرة من فصول هذا الكتاب .

صفة جزيرة العرب

طبع هذا الكتاب طبعتين الاولى في عام ١٩٥٣ حين قام بنشر هذا الكتاب وتحقيقه ومراجعته وتصحيحه محمد بن عبد الله بن بلهيد النجدي ، وكان اهتمام المحقق المذكور منصبا على ما ذكره من وصف للديار الحجازية لذلك كان يورد النماذج من كلام الهمداني معقبا على اقواله في وصف القرى والمدن والاودية والجبال والطرق والمنازل تعقيبا ظهر فيه كثير من التطابق بين صفات واسماء هذه الامكنة أيام الهمداني وصفاتها واسمائها اليوم .

والطبعة الثانية لهذا الكتاب تمت بعناية الاستاذ محمد علي الاكوع الذي بذل من الجهد في تصحيح هذا الكتاب ومراجعته وتحقيقه ما يستحق عليه الاعجاب ، وميزة الطبعة التي حققها الاستاذ محمد علي الاكوع انه زار اكثر

المناطق التي ذكرها الهمداني زيارة ذات طابع ميداني اشار فيها الى ما بقي وما اندثر من اسماء المواقع والامكنة التي ورد ذكرها في كتاب صفة جزيرة العرب ، وكثير من اسماء المدن والمواقع اليمنية تحمل اسماءها الى اليوم منذ عصور الحضار اليمنية القديمة .

وكل ما عرفنا من تاريخ اليعفريين نتف متفرقة ذكرها الهمداني في الاكليل عن بعض اخبارهم ، أما الدولة الزيادية فلم نقرأ عنها الا ما كتبه بعض المتأخرين كعمارة اليمني والجندي والخزرجي وابن خلدون .

أما تاريخ الاباضيين في حضرموت فلم يعرف عنه الا من خلال ديوان شعر ظهر مؤخرا بتحقيق الباروني الذي حقق ديوان ابي اسحق الهمداني أحد حكام الاباضيين الذين قاوموا الصليحيين والشك قائم في شخصية أبي اسحاق هذا وحياته وشعره .

طبيعة هذا الكتاب

وكتاب صفة جزيرة العرب قد أضاف الى جانب مزيته الجغرافية أكثر من قيمة أدبية واجتماعية .

ومن مزاياه الاجتماعية أنه عدد أصناف البطون والقبائل اليمنية وقبائل شبه الجزيرة أثناء ذكره للمواقع والمنازل والديار ، كما ذكر بعض الثروات الاقتصادية التي كانت تستخرج من الارض كمعدن الذهب والعقيق والجزع ، وأشار الى المواضع التي كانت تصنع فيها السيوف والرماح وغيرها من الات الحرب . والمواضع التي تصنع فيها أو تنسب اليها صناعة الملابس .

ومن مزاياه الادبية أنه كتاب احس فيه الهمداني — كما أحس قبله كتاب الاكليل — بجفاف الموضوع العلمي ، فأدخل فيه عنصر الادب ، فالهمداني حين يذكر كثيرا من المنازل والديار لا ينسى أن يستشهد بما قاله الشعراء في وصفها ، لقد استشهد في هذا الكتاب بأقوال عشرات الشعراء من الجاهلية والاسلام وهو أمر يدل على أنه كان عالما واسع الاطلاع على تاريخ الشعر لا في اليمن وحدها وانما في شبه الجزيرة كلها ، ولم يغفل وهو في صدد ذكر بعض المواضع والديار اليمنية أن يشير الى بعض من اشتهر من مواليد تلك الديار بالعلم والادب ، كما فعل في ذكر علماء وادباء صنعاء الذين عد منهم من الخطباء مطرف بن مازن ، وابراهيم بن محمد بن يعفر ومن العلماء وهب بن منبه . أخويه همام ومعقل ومن العلماء عبد الرزاق وعبد الرحمن بن داود وابن الشرود وهشام بن يوسف ومن أصحاب النجوم دودان ، وأبا عصمه ، وأبا جندة . وابن عاصم وابن المنيذر وابن عبد الله وغيرهم وأشار الى شعراء سبقوه كعاقمة ذي جدن ووضاح اليمن وبكر بن مرداس ، وشعراء عاصرهم كأبي السمط الفيروزي وموطل . وعبد الخالق الشهابي ، وابن أبي البلس وابراهيم بن الجدوية ، والاخير شاعر شيعي من الابناء .

وأورد الهمداني بعض نصوص أدبية لها أهمية كبيرة بالقياس الى الدارس لحركة النثر والشعر في القرن الثالث للهجرة .

فمن هذه النصوص . النصوص النثرية التي أثبتها لكاتب الرسائل البليغ بشر بن أبي كبار البلوى . وهي مجموعة مكونة من عشر رسائل ، وميزة هذه الرسائل انها تمثل أدب الرسائل في اليمن للقرن الثاني هجري على ندرة النصوص اليمنية لهذه الفترة . وقد اثبتنا رسالتين منها في الفصل الخاص بالقرن الثالث هـ من فصول هذا الكتاب .

والقسم الثاني والخاص بالشعر الارجوزة التي أثبتها صاحب كتاب صفة جزيرة العرب للشاعر أحمد بن عيسى الرداعي والتي وصف بها رحلته الى الحج ذاكرا أسماء المواقع والامكنة التي مر بها ، ويقول صاحب الكتاب نفسه انه لا يعلم أحدا وصف من جزيرة العرب مسافة أربعة وعشرين يوما بشعر طبيعي يشتمل على وصف الابل والفلوات سوى أحمد بن عيسى الرداعي في هذه الارجوزة .

وأضاف الهمداني الى ذلك قوله بأن هذه القصيدة كانت منظورة من قبل الابناء بعين الحسد حتى لقد بذلوا من الجهود في تحريفها ما جعل صاحب الكتاب يتقصى المصادر الصحيحة ويتلمسها من مكانها حتى حصل عليها صحيحة خالية من التحريف . كما اشار الى أن الابناء — وهم ابناء فارس الذين ولدوا باليمن — قد قال شاعر منهم هو أبو يوسف بن ابي فضالة الابناوي أرجوزة مماثلة لارجوزة الرداعي تصف طريقة من صنعاء ، ولكنها أرجوزة كانت من الضعف بحيث لم تجد لها لا في أوراق الكتب ولا في ذاكرة الناس مكانا .

وتأتي اهمية هذه الارجوزة بالاضافة الى اهمية النصوص النثرية التي أسلفنا ذكرها من جهتين .

الاولى ان هذه الارجوزة وأمثالها — ان كان لها أمثال — فن جديد ابتدع في اليمن ولم يعرف في شمال شبه الجزيرة ، فان اعلام الرجز في العصر الاموي أمثال الاغلب العجلي وابي النجم العجلي والعجاج وابنه رؤبة — والاخير من مخضرمي الدولتين الاموية والعباسية ، هؤلاء الرجاز وقف أغلبهم اراجيزهم على غريب اللغة يصطادون شواردها ويقيدون أوابدها ليتلقفها منهم علماء اللغة الذين يضمنون لهم جوائز الخلفاء ان لم يقدموا اليهم المكافات المالية شخصيا ، وقد سخر الرجاز اراجيزهم للمديح أيضا فجالسوا الخلفاء ونالوا هباتهم المالية جزاء مدحهم اياهم ، هذا بالنسبة الى اعلام الرجز في العصر الاموي كان الراجز رؤبة بن العجاج مداحا للخلفاء ومثله كان العماني الراجز الذي قال في المهدي العباسي ارجوزته المشهورة التي أولها :

الحمد لله الذي بحمده ... من على عباده بعبده

وقال في هارون الرشيد ارجوزته المشهورة التي أولها :

لما اتانا خبر كالشهد ..

وطرق شعر الرجز في العصر العباسي ابو نواس الذي له ديوان خاص بالرجز

الذي قيل في وصف الصيد والقنص ــ الطرديات ، كما قاله شعراء كثيرون في العصر العباسي الاول كبشار صاحب الارجوزة المشهورة يا منزل الحي وابي العتاهية صاحب أرجوزة الامثال وغير هؤلاء من الشعراء في العصرين العباسيين الاول والثاني ، ولم نشر الى ذلك اللون من الرجز الذي قيل في الاغراض التعليمية كأرجوزة أبان اللاحقي التي ضمنها قصة كليلة ودمنة ، ولا الى ارجوزة ابن المعتز التي ضمنها تاريخ أحد أقاربه من خلفاء بني العباس لم نشر الى امثال هذا اللون من الرجز لانه فقد جماليات الشعر بتسخيره لاى من أغراض التاريخ أو التعليم .

وتبقى لارجوزة أحمد بن عيسى الرداعي قيمة أدبية أخرى تضاف الى القيمة التي أسلفنا ذكرها ، وهي أنها أرجوزة تمثل النموذج الاعلى للغة التي يحرص فيها الراجز على اظهار علمه بغريب اللغة ، فلو أن قائل هذه الارجوزة قد ادقاها في البصرة أو الكوفة لفتح لها علماء اللغة صدورهم ولذكرت ضمن أراجيز العماني ورؤبة وغيرهم من كبار الرجاز في القرن الثالث للهجرة هذا بالاضافة الى استعمال الشاعر لبعض الالفاظ التي انفردت بها اللهجة اليمنية مثل قوله ثم انده العيس بزجر ماض ولفظ (انده) مستعمل الى اليوم يقال ينده فلان لفلان اي يدعوه . ومثل قوله تؤم في السير نقيل الادمة والنقيل اسم للجبل في اللهجة اليمنية مستعمل الى اليوم . وكم كنا نود لو اورد صاحب كتاب « صفة جزيرة العرب » شيئا من شعر احمد بن عيسى الرداعي ، فقد وصفه بأنه مجيد للشعر وليس براجز فحسب .

شعر أبي محمد الهمداني

ذكر القفطي نقلا عن المؤرخ اليمني علي بن الحسن الخزرجي ، أن لابي محمد الحسن بن أحمد الهمداني ستة دواوين مجلدة ، ولم يظهر الى اليوم له أي ديوان مخطوط ، على أن الذي لا ريب فيه أنه كان الى جانب انه عالم بالتاريخ والفلسفة والفلك ، والجغرافيا والادب فقد كان ايضا شاعرا مجيدا اشتهرت له قصيدته الدامغة التي يرد بها على قصيدة الكميت التي هجا بها قحطان ومطلعها :

الا حييت عنا يا مدينا   وهل قوم تقول مسلمينا

ورد على هذه القصيدة الشاعر اليمني دعبل الخزاعي بقصيدته الدامغة التي أولها :

أقلي من ملامك يا ظعينا   كفاك اللوم مر الاربعينا

ورد عليها الحسن الهمداني بقصيدته الدامغة التي أولها :

الا يا دار لولا تنطقينا   فانا سائلون ومخبرونا

وروى الهمداني في الاكليل بعض أشعاره التي قالها في الاحداث التي وقعت في اليمن ، وشعره في السجن ومدحه ورثاءه لبعض الشخصيات اليمنية

ورثاءه الذي قاله في أخيه ابراهيم محمد ابن أخيه ، ومالك ابنه الذي رثاه ببعض القصائد .

فمن شعره الذي يصف به الارض اليمنية ما المع فيه[1] الى المكاتبات التي دارت بينه وبين بعض أدباء العراق الذين كتبوا اليه يصفون بغداد فأجابهم بقوله واصفا اليمن :

أرض تخيرها سام وأوطنها ... وأس غمدان فيها بعدما احتفرا
ام العيون فلا عين تقدمها ... ولا علا حجر من قبلها حجرا

ووصفها أيضا بقوله :

ما زال سام يرود الارض مطلبا ... للطيب خير بقاع الارض يبنيها
حتى تبوأ غمدانا وشيدها ... عشرين سقفا يناغي النجم عاليها
فان تكن جنة الفردوس عالية ... فوق السماء فغمدان يحاذيها
وان تكن فوق وجه الارض قد خلقت ... فذاك بالقرب منها أو يصاليها

ومن شعره ما كتبه وهو في السجن الى زيد بن ابي العباس وهو من زعماء ال فطيمة — الخولانيين — يحرضه ويطلب نصرته ضد الامام الناصر الرسي ، قال :

يا زيد زيد الخير يا بن محمد ... ما كنت لاسمك اذا عرفت بناس
بل كنت أول من هتفت به الى ... احياء نفسي ساعة الابلاس
فابدر الى نقذ الغريق فانه ... الا تحت يعوم عسوم الغاس
وليلحقني منك نصرة مالك ... في جاره المزني أو جساس
وأطلب بطائلتي طلاب مهلهل ... وزهير عبس ثأره في شاس

وقد اتت هذه القصيدة ثمراتها لان القوم الذين ناصروا الامام يحي بن الحسين الرسي وأولاده من بعده عادوا فانشقوا عليهم بسبب سجن شاعرنا المؤرخ وكان ان قتل زيد بن ابي العباس هذا في معركة وقف فيها موقفا بطوليا فرثاه شاعرنا بقصيدة له دالية يقول في أولها :

لا رمت يعرب بسهم سديد ... بعد زيد اخي الفعال الحميد

وكان عبد الله بن يحي بن عبد الله رئيس اكيل واحد من عمل على فك سراح الهمداني من سجن ابناء الامام الرسي وفيه يقول شاعرنا في ابيات مختارة :

يا باعث الخيل من معاجمها ... من بعدما لجلجت كراكرها
منطويات على ثمائلها ... تقلق من ضمزها ظفائرها
يحي بن عبد الاله مقلة ... خولان وانسانها وناظرها
فانه في الاروم عائلها ... وانه في الهضوم ناصرها
ان قوبل الناس فهو أولها ... أو دوبر الناس فهو دابرها
فهو اذا صال رمح عصبته ... وجنة ان دارت دوائرها
منتجب الناجلين فاضلهم ... منتخب الامهات طاهرها
يرسيه في المجد عرق « مغرقها » ... وتلتقي فوقه عناصرها
فجاء في صفوة كجوهرة ... ينظر من بطن تلك سائرها

(1) الاكليل ص ١٢ ج ٨

من يطلب الفخر من قضاع وقـــد   افضت الى فخره مفاخرهـــا

الى أن يقول في هذه القصيدة الرضينة المعاني المتماسكة الابيات :

بلوت منــه خلائقــا حمـــدت   يعدم في الناس مـــن يكاثرهـــا
اني لمثن مشاكر لـــك مـــا   أوليــت من منــة وذاكرهـــا
فلا تظـــن الزمـــان اخلقهـــا   أو انني للطـــوال كافرهـــا
كان يجـازي بنعمـــة سلفـت   مـــن هـــو في العاليـــن ناشرها

القرن الخامس للهجرة :

شهد القرن الخامس للهجرة احداثا جديدة أدت الى ظهور دول جديدة حكمت اليمن حكما اقطاعيا عشائريا في اغلب وجوهه واشكاله ففي عام ٤١٢ ظهرت دولة بني نجاح التي قامت على انقاض دولة بني زياد ، ورئيس دولة ال نجاح هو نجاح مولى من موالي الحسين بن سلامة النوبي ، ونجاح مولى حبشـــي استطاع بعد موت الحسين بن سلامة التغلب على منافسه نفيس ، وعلـــى مولاء مرجان الذي وكل اليه ابن سلامة رعاية الملك الزيادي الطفل ، حيث تمكن من قتل كلا الرجلين مرجان ونفيس واعلن نفسه ملكا على تهامة التـــي دانت له بالطاعة وقد شجع نجاح مذهب اهل السنة وكان هو نفسه شافعي المذهب ، وانتهت هذه الدولة في حدود عام ٥٥٤ هـ .

وفي عام ٤٢٩ هـ ظهرت الدولة الصليحية برئاسة الزعيم اليمني الفاطمي على بن محمد الصليحي ، واستمرت هذه الدولة في الحكم الى عام ٥٣٢ هـ .

وفي حدود عام ٤٧٠ غزا المكرم بن علي الصليحي عدن واخرج منها بنـــي معن ، وولى العباس والمسعود ابني المكرم على أن يدفع كل منهما خمسيـــن الف دينار ، وبذلك بدات دولة بني زريع وانتهى حكمهم على أيدي الايوبيـــين في عام ٥٦٩ .

وفي أواخر هذا القرن اى في عام ٤٩٢ هـ ابتدات دولة ال حاتم في صنعاء وقد كان ظهورها بعد وهن الدولة الصليحية ، وانتهى حكم ال حاتم علـــى أيدي الايوبيين عام ٥٦٩ .

وقبل أن نخوض في شئون هذه الدول المختلفة يحسن بنا أن نستعرضـــ الاوضـاع السياسية السائدة قبل ظهور هذه الدول . ولسنا نرى كلمة هـــي اسد وأصوب واصدق في تصوير تلك الاوضـاع من قول يحي بن الحسين صاحب كتاب ابناء الزمن وهو يؤرخ للاحداث الجارية من اوائل القرن الخامس الـــى حوالي منتصفه ، وذلك حين يقول :

« في عام ٤٠٥ — ٤٤٨ هـ عم الخراب والدمار مدن اليمن لكثرة الخـــلاف والمنازعات القبلية وعدم توحيد الكلمة . وأظلم اليمن . وكثر دماره وخرابه ، وفسدت احواله . وكانت صنعاء وما جاورها كالخرقة الحمراء تتخطفهـــا الحداة . لها في كل سنة او شهر سلطان يتغلب عليها ويسيطر على . زمـــام

أمورها حتى ضعفت ، وتلاشى أهلها ، وتفرقوا الى كل ناحية وقرية ، وضعف مركزها بعد أن كان يوجد بها مائة الف دار تسكن في عهد الرشيد ، الا أن صنعاء تراجعت بعض الشيء زمن الصليحيين وأعيد اليها مركزها عندما استقر لهم ملك اليمن » .

وفي تاريخ الخزرجي تعداد للولايات التي تناثرت في اليمن في هذه الفترة قال :

« تغلبت همدان على صنعاء ، وتغلب بنو معن على عدن ولحج وابين والشحر وحضرموت وبنو الكرندي وهم قوم من حمير على السمدان وغيره من الحصون في شبر والجند ، وال عبد الله الحسين بن التبعي على حصن حب وهو نظير التعكر وملحقاتها الى السحول ، واسرة عبد الواحد علي برع في تهامة « انتهى بشيء من التصرف » .

ويظهر من كل ما تقدم ان هذه الفترة من بعد منتصف القرن الرابع الى اوائل القرن الخامس — على وجه التقريب ، قد تميزت بالاضطراب والانحلال والتفكك الذي لم يكد يقضي عليه الا ظهور الدولة الصليحية التي تهيأ فيها لرئيسها الكبير علي بن محمد الصليحي ضرب هذه الولايات المجزأة من اعالي جبال صعدة الى عدن وحضرموت بل والى الحجاز ، وانها لفترة من تاريخ اليمن مشرقة الغرة وضئة المحيا ولكنها فترة لم يطل أمدها اذ انها انتهت بوفاة الملكة أروى في حدود عام ٥٣٢ .

الجو الثقافي

ازدهرت الحياة الثقافية في هذا القرن ازدهارا عظيما ومن بين مثقفي وأدباء هذا العصر أكثر الشخصيات من كبار رجال الدولة .

كان علي بن محمد الصليحي على جانب كبير من الالمام بالثقافة الاسماعيلية وكان — كما وصفه عمارة — عالما وفقيها مستبصرا في علم التأويل ، ومتذوقا للشعر له فيه مشاركة وتنسب اليه بعض أبيات منها قوله :

أنكحت بيض الهند سمر رماحهم	فرؤوسهم عوض النثار نثار
وكذا العلى لا يستباح نكاحها	الا بحيث تطلق الاعمار

وكان جياش الملك النجاحي وقاتل الملك علي بن محمد الصليحي في موقعة أم الدهيم شاعرا ومؤلفا ، الف كتابا في تاريخ اليمن اعتمد عليه عمارة اليمني في كتاب جياش ولم يبق منه الا ما أورده عمارة من « المفيد في تاريخ زبيد » وقد فقد كتاب جياش ولم يبق منه الا ما اورده عمارة من فقرات تتصل بمقتل على الصليحي ، وعودة دولة بني نجاح ، ويتحدث الجندي والخزرجي والديبع في تواريخهم عن أشعار جياش التي تملؤ مجلدا كبيرا كما يوردون له رسالة مسجوعة مطولة كتبها لمؤدب ولده ويستحسنون من شعره قوله في الحكمة :

اذا كان حلم المرء عون عـــدوه عليه فان الجهل أولـــى وأروح (١)
وفي الصفح ضعف والعقوبة قـــوة اذا كنت تعفو عن قليل وتصفـــح

وكان الشاعر عمارة اليمني يعجب بقول جياش في وصف المرأة :

كثيب نقا من فوقه خوط بانـــة بأعلاه بدر فوقـــه ليل ســـاهر

وكان الداعي سبأ بن أحمد بن المظفر الصليحي صاحب حصن أشيح والذي ورد سجل الخليفة الفاطمي بمصر بزواجه من الملكة أروى بعد وفاة زوجها المكرم احمد بن الصليحي ، كان سبأ هذا شاعرا اديبا عالما بالمذهب الاسماعيلي خبيرا بأقوال الحكماء قائلا للشعر يثيب بالمدح ويثيب على المدح قال فيه شاعـــر اليمن الكبير الحسين بن القم :

اذا كان حلم المرء عون عدوه عليه فان الجهل أعفى وأروح

ولما مدحت الهزبري ابن احمـــد اجاز وكافاني عـــلى المدح بالمدح
فعوضني شعرا بشعري وزادنـــي عطاء فهذا رأس مالي وذا ربحـــي
شققت اليـــه الناس حتى لقيته فكنت كمن شق الظلام الى الصبح

ولمعت في هذا القرن طائفة من كبار الادباء والشعراء الذين تولوا كبـــار المناصب .

فمنهم ابو عبد الله الحسين بن علي بن القم كان والده صاحب ديوان الخراج بتهامة من قبل علي الصليحي ، وقد ولد الحسين بزبيد وتأدب فيها ، وعمـــل كاتبا للملكة الحرة بنت أحمد ، ورئيسا لديوان الانشاء ، وله كتاب « مجموع الرسائل » وديوان شعر مخطوط .

ومنهم القاضي أبو محمد الحسن بن ابي عقامة الملقب بمؤتمن الدين وقد كان عالما مجتهدا مشاركا في كثير من العلوم ومن مصنفاته كتاب « جوهر الاخبار » وكتاب في الفرائض والحساب واخر في المساحة وقد ولى القضاء الاكبر فـــي عهد الصليحيين ثم في عهد جياش بن نجاح الحبشي وكان الامير أسعد بـــن شهاب الصليحي يثني عليه مع مخالفته له في المذهب فابن شهاب اسماعيلي المذهب والقاضي الحسن سني المذهب ، وقال ابن شهاب فيه قـــام الحسن بأمور الشريعة قياما يؤمن عيبه ويحمد غيبه وكان جياش يجله ويكرمه وهـــو الذي لقبه بمؤتمن الدين ، وكان شاعرا فصيحا وكاتبا مترسلا وقـــد قتلـــه جياش لانه حين اراد الاصهار الى أسرة بارزة في اليمن نصح القاضي الحسن تلك الاسرة أن لا يزوجوا جياشا ، واستطاع جياش بماله وسلطته أن يبني بها . وأفضت اليه الزوجة بما صنعه القاضي في أمر زواجها فقتله ، وفـــي ذلك يقول الحسين بن القم مخاطبا جياشا بأبياته التي أولها :

أخطأت يا جياش في قتل الحسن فقأت والله بـــه عيني الزمـــن

ومنهم بل من ابرزهم الشاعران الاخوان الخطاب وسليمان ابنا الحسن بن ابي الحفاظ الحجوري وكان الخطاب ــ كما يقال ــ اخا للملكه أروى من الرضاع

---

(١) لعل هذا البيت ضمنه جياش بيته الثاني فقد ورد في الجزء السادس من كتاب نهاية الادب للنويري قوله انشـــد المبروح الحليم

وهو من دعاة الفاطميين الاوائل ، على حين كان أخوه سليمان نصيرا لال نجاح لجأ اليهم بعد قتل اخيه الخطاب لاخيه احمد الاصفر سنا في حادث مأساوي سوف يأتي ذكره فيما بعد .

وقد وصف القدماء هذين الشاعرين بأنهما كانا مقولي حمير واشعارهما مجموعة في ديوان مشترك اصدره الاستاذ محمد العقيلي في أواخر الستينات من هذا القرن .

كماحفل هذا القرن بأدباء وشعراء اخرين امثال عبد الله بن يعلى الصليحي الذي يصف مدينة ذي جهلة بقوله :

ما مصر ما بغداد ما طبرية كمدينة قد حفها نهران

« خدد » له شام و «حب» مشرق و « التعكر » السامي الرفيع يمان

وكالشاعر عمرو بن يحي الهيثمي شاعر الدولة الصليحية له في ال الصليحي قصائد كثيرة وغير هؤلاء شعراء وعلماء اخرون ، وفي هذا العصر الف مالك الحمادي كتابه « اخبار القرامطة وهو يعد الصليحيين منهم ويزعم الحمادي انه دخل مذهبهم — ممتحنا — وانه توصل الى الحقائق التي أوردها عنهم في كتابه الذي امتلأ بذكر مثالبهم » . « كشف اسرار الباطنية » .

الخطابة او المنشور السياسي :

ازدهرت الخطابة في هذا العصر نظرا لحاجة الحاكم والداعي والزعيم اليها لتوضيح مقاصده واغراضه وللتأثير على جماهير الشعب من خلالها ، وهذا المنشور الذي كتبه علي بن محمد الصليحي الى أهل حراز بعد استيلائه على جبل مسار هو خطاب ناطق يمثل أسلوب الصليحي في الخطابه ويرسم الوانا من ثقافته الدينية الواسعة . ونختار منهقوله :

« أما بعد يا أهل حراز الهمكم الله رشدكم ، وجعل الجنة قصدكم ، فلم أطلع الى حصن « مسار » متجبرا باغيا ، ولا متكبرا على العباد عاتيا ، ولا أطلب الدنيا وحطامها ، ولا طالبا أملك غوغاءها وطغامها ، لان لي بحمد الله ورعا يحجزني عما تطمع النفوس اليه ، ودينا اعتمد عليه ، وانما قيامي بالحق الذي أمر الله عز وجل به ، والعدل الذي انزله في محكم كتابه ، أحكم فيه بحكم أوليائه وسنن انبيائه ، وأدعو الى حجته الذي في أرضه والقائم بفرضه ، لست من أهل البدع ولا من ذوي الزور الشنع الذين يعملون في الدين بارائهم ويحكمون بأهوائهم ، بل أنا متمسك بحبل الله المتين عامل بما شرع الله في الدين وداعي أمين المؤمنين ، عليه صلوات رب العالمين ، لا أقول الا سددا ولا أكره في الدين أحدا فمن أهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل غليها وما الله يريد ظلما للعباد .

واعلموا يا أهل حراز اني بكم رؤوف ، وعلى جماعتكم عطوف ، للذي يجب علي من رعايتكم وحياطتكم ، ويلزمني من عشرتكم وقرابتكم ، اعرف لذي الحق

حقه ، ولا أظلم سابقا سبقه ، وانصف المظلوم ، واقمع الظالم الغشوم ، وأبث فيكم العدل واشملكم بالفضل ، فاستديموا ذلك بالشكر ، ولا تصغوا اهل الكفر فيحملونكم من ذلك على البغي والعدوان ، والخلاف والعصيان وكفر الانعـــام والاحسان فتستوجبوا بذلك تغيير الانعام وتعجيل الانتقام .

وكتابي هذا حجة عليكم ومعذرة اليكم والسلام على من اتبع الهدى وتجنب أمور الردى ، والحمد لله على ما أعاد وأبدى وصلواته على من أرشد به من الضلالة وهدى سيدنا محمد النبي واله الائمة الشهداء وسلم تسليما حسبنـــا الله ونعم الوكيل .

ومن هذا النمط البليغ من القول المحكم ما خطب به المكرم بن علي الصليحي جيشه المكون من عشرة الاف وهو في طريقه الى زبيد لاستنقاذ امه من اســر بني نجاح .

« اننا لم ننزل لغرض من الدنيا نصيبه ، ولا مال نخزنه ، ولا لشيء ذهـب به من متاع الدنيا سوى ادراكنا تأرنا من هؤلاء العبيد واستنقاذ حريمنــا لا لقصد اضرار بأحد من الناس ، ولا لتغيير شيء مما يملكون ، ولا تعد علـــى زروعهم ومواشيهم ونحن في طريقنا . وقد رجوت أن تكون سيرتكم جميلــة ولكم حسن الاحدوثة وحميد العاقبة ، ولا تعتدوا على أحد في طريقكم الا مـــن وتركم ونال منكم .

وسنلاحظ الفارق بين أسلوب علي الصليحي وأسلوب ولده المكرم فالاول يعتمد النثر المسجوع والثاني يعتمد النثر المرسل .

النثــر

ليست هذه قصة مسرحية وانما هي فقرات مما أورده عمارة من كتـــاب تاريخ زبيد الذي ألفه جياش بن نجاح وفيها يروي بأسلوب تخامره فيه خفة المرح ونشوة النصر بمقتل علي بن محمد الصليحي الذي تم على يده وأخيه سعيـد الاحول في وقعة المهجم أو أم الدهيم ، والناحية التي نحب أن نلفت اليها النظر في هذا المقال ناحية تتصل بنظام الرق أو فيما نسميه في العصر الحديث بالنظام العبودي . فان جياشا هو ابن نجاح الذي كان عبد للحسين بن سلامـــة النوبي ، والاخير أيضا من عبيد ال زياد أيضا ، فماذا تم لهذه الفئة المسترة حين تولت الحكم هل ثارت على وضعها غير الانساني وهل عملت على تحرير طبقتها من نير الرق وهل رفعت من مستوى وضعها الاجتماعي المتدني ، كـلا فان هؤلاء الحكام الذين كانوا في الاصل رقيقا استرقوا غيرهم حين أصبحوا حكاما ومثل ذلك فعل المماليك في مصر والشام .

ونجاح في هذا المقال يتحدث أنه اشترى جارية من الهند ويسأل عنـــد عودته من الهند عن ممتلكاته وعبيده ، وعلى أية حال فان الذي يهمنا في هذا الفصل استعراض حركة النثر في هذا القرن وهذه هي فقرات من كتاب جياش

المشار اليه انفا .

قال جياش : ثم تنكرت ودخلت الى عدن ومعي الوزير خلف بن ابي طاهر ودخلنا الهند سنة احدى وستين واربع مائة فأقمنا بها ستة اشهر ثم رجعنا الى اليمن في تلك السنة بعينها ، ومن اعجب ما رايت في الهند ان انسانا قدم من سرنديب ، ولم يبق احد الا فرح بها ، وزعموا أنه عارف بأخبار المستقبلات ، فسألناه عن حالنا فبشرنا بأمور لم يخرم من قوله منها شيء واشتريت جارية هندية فعلقت مني بالهند دخلت بها اليمن وهي في خمسة اشهر ، وحين وصلنا الى عدن قدمت الوزير خلف الى زبيد على طريق الساحل وأمرته أن يشيع موتي في الهند وأن يستأمن لنفسه ، ويكشف لي عن حقيقة أحوالنا ومن بقي من قومنا في الحبشة ، وصعدت الى ذي جبلة فكشفت أحوال المكرم بن علي ، وما هو عليه من العكوف على لذاته ، واضطراب جسمه وتفويض الامر الى زوجته الحرة الملكة السيدة بنت أحمد ، ثم انحدرت من الجبال الى زبيد ، فاجتمعت بالوزير خلف ، وأخبرنني عن أحوال طابت بها نفسي ، عن اوليائنا وبني عمنا وعبيدنا وانهم في البلاد كثيرون وانما يعدمون راسا يثورون معه ، وجريت على عادة الهند ، فأخرجت شعر وجهي ، وطولت اظفاري وشعري ، وسترت عيني الواحدة بخرقة سوداء ، وكنت قريبا من الدار السلطانية واذا افترقت الناس من الصباح قصدت مصطبة ابن القم وهو وزير من قبل المكرم بن علي فسمعته يقول يوما والله لو وجدت كلبا من بني نجاح لملكته زبيد، وذلك لشر حدث بينه وبين الوالي أسعد بن عراف .

وخرج الحسين بن علي القمي الشاعر وهو يومئذ رأس طبقة أهل زبيد في الشطرنج فقال لي يا هندي اتحسن لعب الشطرنج فقلت نعم فتلاعبنا فغلبته فكاد ان يسطو علي ثم دخل على أبيه فقال له غلبت في الشطرنج ، فقال له والده ما هنا من يغلبك الا جياش بن نجاح وقد مات في الهند . ثم خرج علي والد الحسين وهو طبقة عالية — يقصد في لعب الشطرنج — فلعبت معه فكرهت أن أغلبه فخرج الدست مائعا فاغتبط بي وخلطني بنفسه وكان في كل يوم وليلة يقول عجل الله علينا بكم يا ال نجاح فاذا كان الليل اجتمعت أنا والوزير خلف نفترق في النهار ، وأنا في أثناء ذلك اكاتب الحبشة المتفرقين في الاعمال وامرهم بالاستعداد الى اخر ما قال .

الشعر :

في هذا القرن ظهر فيه ما يمكن ان نسميه بالشعر الرسمي كشعر المديح الذي قاله عمرو بن يحي الهيثمي في حاكمي الدولة الصليحية وكذلك ما قاله فيهم الخطاب الحجوري والحسين بن علي القم وغيرهم من الشعراء على أن من الانصاف أن يقال أن هذا الشعر على قلته بالقياس الى ما قيل من شعر المديح في البلاطين الاموي والعباسي قد صدر بعضه عن حرارة اخلاص

وايمان من شعراء ملتزمين للمذهب الاسماعيلي ولسنا نرى حرجا في القول ان شعر المديح ليس محرما في الادب اذا كان الشاعر مقتنعا بأنه يجسد بمدح الحاكم القائد رمزا للبطولة الشعبية . وانما يكون شعر المديح واطئا ذليلا وخانعا مهينا اذا صدر عن طبيعة ارتزاق تنسب الى شخصية الحاكم صفات ليس فيه وتعيره محاسن ليست موجودة في خلائقه .

ومع ذلك فان اغلب شعراء هذا القرن لم يقفوا شعرهم على فن المديح فحسب ، وانما قالوا الشعر في أغراض كثيرة ، في العاطفة والوجدان وفي الوصف للمنازل والديار ، وفي التعبير عن مشاعرهم الذاتية المختلفة ، وشعر الذات هو من المجتمع واليه لان الشاعر يستمد شعره من وضعه فيه صعودا او هبوطا وتقدما او تخلفا .

الشعراء :

الخطاب بن الحسن الحجوري

عاش هذا الشاعر في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس للهجرة وكان مولده في مدينة الجريب وهي بلدة كانت سوقا لاهل تهامه ومكة وعثر وجميع بلدان همدان ، وكانت هذه المنطقة في الاصل اقطاعية يتوارثها حي حبور وهو حي ينتسب الى قحطان ، وقد ظلت هذه المنطقة تخضع من الناحية السياسية لمن يتغلب على اليمن وينفرد بالحكم في حال ضعف السلطة .

وعاصر هذا الشاعر الملكة « اروى » الصليحية التي تقول الاخبار انه كان أخاها من الرضاع ، ولا نعلم كيف رضع الشاعر الخطاب مع أروى ولكننا نعلم أن الصليحيين كانوا يحرصون على أن تكون هذه المنطقة موالية لهم ، وكذلك كان يفعل بنو نجاح الذين يحكمون تهامه والذين استطاعوا ان يستميلوا الى جانبهم الشاعر سليمان اخا الخطاب ، فكان سليمان شاعرا سني العقيدة يقف شعره على امتداح الحكام النجاحيين ويناصب الصليحيين العداء وكان الخطاب شاعرا فاطمي العقيدة يدعو في شعره الى الثورة على ال نجاح ويسميهم العبيد ، ومن أجل اخلاص الخطاب للمبادىء الفاطمية اقدم على قتل أخيه الاصغر « أحمد » ثم ثنى بقتل أخيه سليمان الذي كفل الخطاب بعد موت ابيه ، وهذبه وعلمه وراش جناحه حتى حلق وحلق في سماء الادب والفروسية .

وهكذا اصطبغت حياة هذا الشاعر بلون دموي يدل على ما كان يحيط بالوسط السياسي انذاك من أهواء ومطامع تمزق أواصر الرحم ، وتقطع وشائج القربى ، وليس ببعيد عن ذاكرة التاريخ قتل المأمون لاخيه الامين ، وفي العهد القريب قتل الامام أحمد لاخوانه الذين ثاروا عليه في سبيل الحكم والحكم وحده .

عاش الخطاب في عصر ثقافي سادته من ناحية عقائدية ثقافتان متعارضتان ثقافة شيعية تقوم على قواعد من علم الظاهر والباطن ، ومعروف ما كـان يتبع الشيعة من طرق وأنظمة لنشر تعاليمهم ، وقد كان لاساليب الحكـم الاموي والعباسي في تتبع تعاليم الشيعة ومطاردتهم اثر في لجؤ طائفـة العلويين الى اتخاذ طريقة التستر والكتمان في اعلان مباديهم ونشر تعاليمهم حتى لقد أدى بهم الامر الى التعاون مع العناصر الثائرة على الحكم العربـي من أبناء الفرس . ومن هنا وصف كثير من المؤرخين حركة الفاطميين بأنهـا تميل الى مذاهب القرامطة وغيرها من النحل التي نبعت من أصول ومصادر فارسية ، تستهدف من نصرتها لال البيت ضرب الحكم العربي واعادة الحكم الفارسي الذي قضى عليه الحكم العربي قضاء مبرما .

اما الثقافة التي كانت تقف في وجه هذا التيار فثقافة أهل السنة التي كانت ترعى لعلي بن ابي طالب فضله وحسن بلائه في الاسلام ، ولا ترى في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان اي مطعن يضر بمعنى الاسلام ويسيء الى أهدافه فـي الحكم الذي لا يجعل الخلافة ملكا عضوضا وارثا تتعاقب عليه أسرة بعـد أسرة وقبيل بعد قبيل .

تلك سمات الثقافة العقائدية السائدة في عصر الخطاب ، اما الثقافـة الادبية فقد كانت امتدادا للثقافة العربية ابتداء من عصر المتنبي الى العصر الجاهلي . ففي شعر الخطاب اثار من شعر المتنبي والبحتري وأبي تمام ، وفيه أيضا اثار من شعر فرسان الجاهلية .

أسلفنا القول أن الخطاب نشأ في حجر اخيه سليمان الذي قامبتربيته وكفله بعد مـوت أبيه الحسن الحجوري ، والمؤرخون اليمنيون يتحدثون باعجابعن المكانة العلمية والادبية التي كان يتمتع بها الخطاب وأخوه سليمان بالاضافـة الى مكانـة الجاه والسلطـة .

جاء في كتاب المفيد لعمارة ونقله عنه بامخرمة أن سليمان والخطاب من شعراء اليمن المجيدين ، وقال مصدر قديم آخر أنهما كانا لشهرتهما العلمية ينعتان بمفوهي حمير ، وكان الخطاب ــ كما ذكرت بعض المصادر ــ مجازا في اربع مائة كتاب في حين كان أخوه سليمان مجازا في ٦٠٠ كتاب . وللخطاب كتاب « شرح رسالة النفس » أودعه معارفه في علم الباطن .

وازدانت أيام الخطاب في فترة صباه باشراقة من الصفاء والوئام زانت علاقاته مع اخيه الاكبر الذي بسط عليه جناح عطفه ورعايته ، فامتدح الخطاب أخاه ببضع قصائد ذاكرا يده البيضاء التي اسبغت عليه ثياب فضله ونعماه ، قال الخطاب في ذلـك :

أألخشى زماني ما حييـت وجنتي   رضاك ولى ميمـون وجهك مسفر

ومن امثلة ذلـك قول الخطاب :

عجم الزمـان قناتهـا فاذا بهـا   لم تاتطـر للغمز منـه ثقافهـا

وفي هذا البيت نظر الى القاموس اللفظي الذي استعمله المتنبـي فـي شعـره كقـوله :

ولربمـــا اطـــــر القنـــاة بفارس　　وثنـــى فقومهـــا بآخـــر منهـــم

ومن امثلة ذلك ايضا قول الخطاب :

وراى عشوزنـــه العزيمة مـــرة　　تأبى الهوينـــــا جملـــة وتعافها

وفيه نظر آلى قاموس الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم الذي يقـــول واصفـــا صلابة قناتـــه :

اذا عض الثقاف بهـــا اشمـــازت　　وولتـــــه عشوزنـــــه زبونـــــا

وقال الخطاب وينسب هذا البيت لاخيه سليمان :

لعمري وما عمري علي بهــــين　　لقــد صدقتنـــي في المواعيد هاشم

وفيه نظر الى قول الشاعر الجاهلي عامر بن الطفيل :

لعمري وما عمري علي بهــــين　　لقد شان حر الوجه طعنة مسهر

وقال الخطاب يمـــدح سليمـــان :

امالكنا قول المنيـب تعطفـــــا　　علينـــا ولطفا انت باللطـــف اجدر

ولسنا نـــرى ان الذي صار هالكا　　سلام عليـــــه الدهر يمسي ويبكر

ســـواك ابـــا يحنـــو علينا وكافلا　　ومـــا أنت صنو انت عن ذاك اكبر

وهو يشيد بمآثر اخيه سليمان في قصيدة اخرى فيقول :

نضاني على الاعداء سيفا فلم ازل　　اذب واحمى دونـــه واكافــــــح

ونوه باسمـــى وارتضاني مؤازرا　　نصيحا اذا غش النصيح المناصح

وكان الخطاب شاعرا فارسا بل هو من كبار قادة الفرسان ، كــــان يخرج في موكب قوامه خمسمائة فارس ، وكانت منطقة الجريب التي يحكمهـــا خاضعة له ، ساعده على بسط نفوذه ونشر سلطانه عليها الصليحيون الذيـــن يعتنق مذهبهم ، وكانت له مواقف مشهورة في الحروب التيخاضها ضد ال نجاح في تهامه ، وشعره في هذا الموضوع كثير يضج بالتهديد والوعيد ويحرض القبائل اليمنية على الثورة بالنجاحيين ، ويصف وقائع خاضا مع جيوشهم وصفا يضفى على شعره مظهرا من مظاهر أدب الحروب الذي كتـــب في اليمن ومن امثلـــة ذلـــك قولـــه في الحماس :

أأغضي جفوفي للعداة على القذى　　حذار الردى اني لغـــير يمـــــان

ابى الله والبيض الرقاق وهمتى　　وعزمـــي واقدامـــي وثبت جناني

وغلب كاســـاد الشرى ضمنت لها　　فوارسها في الروع أي ضمـــــان

بأيمانهـــا كاس المنـــون كأنهـــــا　　بـــروق تضيء الافق باللمعـــــان

بهـــا نلـــت امالي وأصبحت جادعا　　انوف ذوي البغضاء والشنـــــان

ويقول في موضـــع اخــــر ،

أيذهـــب عمـــري لم انل فيه راحة　　ولم استفد الا ضنى ولغوبـــــــا

ولم اجلب الخيل العتاق جوالبـــا　　شبابـــا يروون الرمـــاح وشيبـــا

ولـــم اشف من ارض العدو بغارة　　غليـــلا ولم اجر الدمـــاء صبيبـــا

ولـــم ابـــق ما بين العقيق واحور　　نوائـــب يبقـــى ذكرهـــا وخطوبا

وكانت دولة بني نجاح حبشية الاصل وكان الخطاب معتمدا علـــــى الصليحيين وقاوم هذه الدولة وحرض على استئصال شأفتها مـــــن الارض اليمنية وفي هذا المعنى يقول الخطاب :

هل اتاكم فعل العبيد وما جاء — والينا من الفعال النكير
جلبتهم لحينها عصبة منا — ضلالا لحينهم والدبور
فانتقمنا منهم وثرنا عليهم — ثورة ليس امرها باليسير
وطردناهم فهم بين مقتول — صريع ممزق واسير
وسقيناهم زعافا من السم — خمورا ما ذوقها بالخمور

وهو يشير في هذه القصيدة الى ان النجاحيين عملوا على تجميع فلول قواتهم بعد هذ المعركة مستعدين لمعركة اخرى .

ثم ثاروا واستنهضوا كل منحل — بوادي تهامه للنفور

ويوجه الخطاب النداء في ختام هذه القصيدة الى ابناء عمه من احياء همدان وحجور أن يستعدوا لغارة اخرى يشنها عليهم الاعداء وشيكا .

أيها الراكب المغذ على وجناء — تنقض كانقضاض الصقور
اقر قومي عني سلاما كنشر — المسك طيبا قد شيب بالكافور
نصرتي الشم من غطاريف — همدان بن زيد ومولـه بن حجور
ثم قل لي لهم مقال مهيب — بهم ملمع بحث المسير
فاجيبوا صوتي ولبوا ندائي — ليس في خذاكم لنا من عذير
لا يكن اعبد بهما ضرب الموج — بها امس من اقاصي البحور
وعلوج خزم من الحبش احمى — منكم عند دعوة المستجير

وكان الخطاب كما اسلفنا متشبعا بتعاليم الاسماعيلية الذين تربى في احضان بيئتهم الفكرية ورضع تعاليمهم ومبادئهم مع اللبن الذي رضعه مع اروى حين كان طفلا ، وعكس ذلك كان اخوه سليمان الذي كان سني العقيدة متعاطفا مع دولة بني نجاح ، وقد زاده ميلا الى هذه الدولة وعطفا عليها اطلاق الصليحيين لاخيه الخطاب عنان التحكم في منطقة الجريب بحيث عمل الخطاب على تجريد اخيه سليمان من جميع مظاهر السلطة وكانت للخطاب اخت تشاركه في الولاء للفاطميين واخ يسمى احمد يشارك سليمان الولاء لال نجاح ، وقد بلغ الامر باحمد اخي الخطاب الى قتل اخته انتقاما لميلها الى المذهب الفاطمي ، وقد احتضن القاتل اخوه سليمان فاغضب هذا العمل الخطاب ، وطرد اخاه سليمان وشرد اطفاله ونساءه فلجأ سليمان في بادىء الامر الى بني افلح اتباع ال نجاح ثم اعلن ولاءه للنجاحيين .

واعانه النجاحيون بالجيش تلو الاخر على استرداد منطقته المسلوبة ولكنه لم يظفر بطائل ، وقد استطاع الخطاب ان يقتل اخاه احمد اخذا بثأر اخته المقتولة ، وفي ذلك يقوم سليمان :

ذرفت دموع العين في الخدين — وتعلق الارق الطويل بعيني
وفقدت سيد يعرب وهمامها — رحب الفنا مستشرف الجدين

ويجيبه الخطاب بقصيدة من الروى والقافية مبررا فعلته تلك :

الحق ابلج واضح النورين — واللـل لا يرضى بذي كفرين
طهرته بالسيف يوم تتلذذه — ونفيت عنه أخبث القولين
وتقول اني قد أثمت بقتله — ولقتله من أعظم الاجرين

ومن قصائد الخطاب وسليمان التي تبادلاها نقف على التهم التي وجهها

كل منهما الى اخيه ، فالخطاب في نظر سليمان شاب طائش العقل ارعن التصرف شجعه الصليحيون على قتل اخيه واصطفاء امواله وانزال الخراب والدمار بالمنطقة التي حكمها وسليمان في نظر الخطاب خارج اثيم يميل الى قوم ليسومن جنس يمني جلبوا محمولين على سفن من البحار ليطمسوا معالم حمير وقحطان بل هم امتداد للغزو الحبشي الذي ابتدأ بقيادة ابرهه وانتهى بعام الفيل .

وفي احدى المعارك التي دارت بين الاخوين استطاع الخطاب ان يقتل سليمان وصفا له الجو ليقول قصائده في مدح الملكة اروى التي كان يرى فيها البانية لامجاد اليمن والعاملة على تخليصها من براثن كل دخيل مغير وواغل مستبيح .

كتب الشاعر الخطاب اربع قصائد عصماء في مدح الملكة (اروى) وقصيدة خامسة في رثائها ، وهو في مدحه اياها يعرض بالدور الذي قام به في نصرتها والذي ضحى من اجلها بكل غال ونفيس .

امولاتنا حقت لديك نصيحة ... حقيقة اعلام بغير تماری
وما كان من كشف القناع بمذهبي ... واني لم اخش العدا فأداری
خطبت لمولانا واظهرت سكة ... عليها اسمه طارت بكل مطار
لدى معشر حبل الضلالة عندهم ... مغار وحبل الدين غير مغار
ضربتهم بعضا ببعض كأنما ... أصك حجارا منهم بحجار
وفارقت اولادي واهلي وما احتوت ... عليه يدي من فضة ونضار
احاول وجه الله لا شيء غيره ... احاول في سري به وجهاري

وفي قصيدة اخرى يصف الملكة اروى بانها :

تعاف فضول العيش نفس ابية ... لها وهي نحو المكرمات تطلع
وتهجر طيب النوم والناس نوم ... فتسجد طول الليل دابا وتركع
تلذ صيام الدهر غير مطيقة ... ولكنه زهد بها وتورع

ولا ينسى الخطاب ان يشعرها بان اعداءها واعداءه بني نجاح يتربصون به الدوائر ويعدون العدة للايقاع به وتوجيه الشر اليه ويشير الى اعدائه بالذات في منطقة حيس وينبع في تهامه :

تكنفني الاعداء من كل جانب ... وقاموا بلا ريث على وأجمعوا
وسار لحربي عامدا ومساءتي ... هنالك من تحويه حيس وينبع
فداسوا بلادي واستباحوا عشائري ... وكل الى مما ساءني متسرع

ومدحها بقصيدة اخرى يقول فيها :

اما علاك فانها مشهورة ... لاحت أدلتها وطال منارها
انتم بنو الاصلاح جوهر يعرب ... وسواكم اصدافها ومحارها
ولانت يا ابنه احمد ينميك من ... تلك اللآلىء الفائقات كبارها
انقدتم اليمن الذي كانت به ... ظلم الضلاله طافيا تيارها

ولم يخل شعر الخطاب الذي امتلأ ديوانه بقصائد الثورة والتحريض على القتال من قصائد او أبيات قالها في موضوع العاطفة . على ان هذا اللون من الشعر في ديوان الخطاب لانجده وافرا وفرته في ديوان اخيه سليمان ،ويبدو ان خروج سليمان من بلده ، والتجائه الى تهامه ، كل ذلك احدث في

نفسه رقة وحبينا دفعاه الى قول شعر الغزل وصف مرابع هواه ومراتع صباه، بخلاف الخطاب الذي استغرق الحماس والتحريض والوعيد اكثر شعره بحيث لم يلتفت الى شعر الحب الا لماما ومن ذلك قصيدته الرائية لتي تشبه في الروي والقافية قصيدة البي الطيب المتنبي التي أولها :

اريقك ام مـاء الغمامة ام خمر ... بفى برود وهو في كبدي جمـر

أما قصيدته فقد جاء فيهـا :

اوجه تحلى من ثيابك ام بـدر ... وليـل على متنيك ذلك ام شعر ؟

وايمـاض بـرق ام شفار صوارم ... بدت لم سها ممن لحاظك ام سحر ؟

وتيـا لثـاة ام لطيمـة تاجـر ... وذيا رضاب ما ترشفت ام خمر

وتركيب بيت الخطاب الاخير يشبه تركيب بيت ابي الطيب المتنبي الـذي يقـول :

قلب عـن اللهو واللذات وسنان ... وفي طلاب العلى والمجد يقظـان

وناظـر سلبتـه النـوم همتـه ... فما تلاقي له في النـوم أجفـان

ينام كلي خلي القلـب من همـم ... وليس يطرق منـه النوم انسان(١)

وكلتـه بنجوم الليـل يرقبهـا ... في أفقهن ضبابـات وأحزان

وهمـه تستقـل الارض قاطبـة ... ملكا ولو أنهـا در وعقيـان

سعت لتدرك أغراضا فما عجزت ... من نيلهن ولا لانت وان لانـوا

تطالب الغرض الاقصى وليس لها ... على الـذي طلبت من ذاك أعوان

همت فطارت فلما حلقت وقعت ... بها القـوادم لمـا حان امكـان

كذاك مـن طار في اقطاره ابـدا ... بغيره فالذي قـد زاد نقصـان

سينهض العزم بي للمجد نهضة ذي ... عزم بعز اذا اخوانـه هانـوا

الرتضي الذل خدنا صاحبا ويرى ... مني لضـدي اقرار واذعـان

وفي يدي مرهف الحدين ذو شطب ... وتحت سرجي اقب البطن سرحان

وسيف عزمي ماضي الغرب ما فتئت ... تفتر عنه المنايـا وهو غرثـان

ساقطع الشك منها باليقين ولـو ... ان البسيطة أسيـاف ومـران

مالي بأرضي مـن الف أحن لـه ... بالاهل أهـل وبالجيران جـيران

بكل أرض نبت بـي ناقتي بـدل ... مما سواها وبالاوطـان أوطـان

حتى متى تتلظي فـي الحشا همم ... كأنهن مـن الاحراق نـيران

وما يمر من الايـام ليس لـه ... الى البريـة طول الدهر رجعـان

وله هذه المناجاة الرقيقة التي يبدو انه قالها في اواخر ايامه ونختار منها قولـه :

يـا من رضيـت مسلمـا ... لقضائـه ورضيت حكمه

وعلمـت ان جميـع ما ... يأتي بـه عـدل وحكمـه

مولاي كـم مـن نعمـه ... أوليتني فـي زي نقمـه

فافرج بيمنـك عن وليـك ... مسرعـا مـا قد اغمـه

وارحم تضرعـه ونفـس ... كربـه عنـه وغمـه

وانصره نصـرا يستقيـد ... من العدا عاصي الازمـه

سليمان الحجوري :

وكما استعرضنا حياة الخطاب وشعره نستعرض الان حياة اخيه سليمان شاعر الدولة النجاحية فقد كان كلا الاخوين يجمع الى السلطة العظيمة والجاه الباذخ ، عظمة الشأن في مجال الفن والادب والعلم ولئن اختلفا في عالم الثقافة العقائدية فانهما في دنيا الادب يغترفان من منبع واحد وكلا الشاعرين ضم ديواناهما اشتاتا متفرقة من تاريخ اليمن السياسي واشتمل شعرهما على سجل عام لحوادث معينة ، ومواقع بلدان ، وشخصيات شاركت في دفع تلك الاحداث مؤثرة ومتأثرة ، ومنتصرة ومنكسرة بحسب الظروف الاحوال .

وسليمان بن حسن الحجوري ، وريث أبيه الحسن في امتلاك منطقة الجريب وكان ابوه الحسن رجلا حصيف الرأي ، عظيم الحنكة ، استطاع أن يستقل بمنطقته محايدا بين المعسكرين المتنازعين النجاحيين في تهامه ، والصليحيين في بقية أجزاء اليمن ... ولم يمت الولد حتى اخذ لولده سليمان البيعة من القبائل المنضوية تحت لوائه ، وكان سليمان في حياة ابيه قد نضج وثقف عقله ، واستحصد شعره بحيث قال في ابيه شعرا يمدحه .. ومما قاله فيه هده الابيات التي تصف ضبطه لحدود منطقته :

ودارت أياديك النضيرة وانثنت	الى مصر لا يثنى لهن عنان
رددت اليهـا مال يحي بن أحمد	وقد فات مجهول وشط مكان
ومال الفتى البصري أبلغت أهله	وقد مسهم ضربهم وهوان
فنالوا وأثروا بعد جهد وفاقه	فهم بعد اهضام الكشوح بطان
وقدما على عهد الجليل تسربلت	سرابيل فضل من يديك (عمان)

وكان سليمان من ناحية عقائدية ، سني المذهب ، ويغلب على الظن انه ورث الميل الى مذهب السنة من ابيه ، بعكس اخيه الخطاب الذي كان شيعي العقيدة والى هذا الخلاف المذهبي يرجع سر الخلاف بين الاخوين ذلك الخلاف الذي جر على هذه الاسرة من الحروب وضحاياها ما تشيب له النواصي .

أما ثقافته الادبية فقد كانت هي الثقافة السائدة في المجتمع اليمني والتي كانت لا تخرج عن كونها امتدادا للثقافة العربية ابتداء من عصر المتنبي وابي تمام الى العصر الجاهلي .

والملامح الدالة على ذلك في شعر كلا الاخوين كثيرة لا تقع تحت حصر ومن امثلة ذلك هذه الابيات التي يضمن بها الشاعر قول زهير بن ابي سلمى في بيته المشهور :

وهل ينبت الخطى الا وشيجه	وينبت الا في مغارسه النخل

قال شاعرنا :

الا انما الانسان أهل لفعله	وكل لما يأتيه من فعله أهل
فكيف غدا قول أبي سلمى مكذبا	لما جئته وهو الصدق والعدل

« وهل ينبت الخطى الا وشيجه وينبت الا في مغارسه النخل »

ويقول سليمان :

خلقت برا الوفا لو يفارقني شيبي بكيت عليه حين ينتقل

وهو ماخوذ من قول ابو الطيب المتنبي :

خلقت وفيا لو رحلت الى الصبا لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

وله قصيدة نونية عارض بها الشاعر الاندلسي ابن دارج القسطلي وضمن قصيدته كثيرا من ابيات ابن دراج ، وابن دراج من شعراء القرن الرابع للهجرة وجد في ايام المنصور محمد بن ابي عامر المعافري ، ومطلع قصيدة سليمان :

تألق برق مستطير كأنما تألق منه في المخيلة نيران

ومن ابيات قصيدة ابن دراج قوله :

اذا الغصن امذاالدعص ام أنتفتنه وذيا الذي قبلته البراق ام ثغر ؟

ويمضي الخطاب في قصيدته قائلا :

ونهدان ام رمانتان طباهما صوائع ما لا تصنع اللدن السمر
فاذكت ضراما فيالجوانح ما انطفى وابكت جفونا ما يجف لها قطر
فما فعل مشحوذ الصوارم والقنا باعظم مما يفعل البين والهجر

وهو ينبه حبيبته الى ان تحاذره وتتقيه فانه رجل محب ليس من طراز سائر الرجال المحبين :

توقى جماحي ان جمحت فانني فتى ليس من تحت المذلة لي صبر
وخافي ازوراري انقصدت وحاذري فلي خلق سهل ولي خلق وعر
وما انا الا من علمت قديمه وان كان قد اغنى عن الخبر الخبر
أصيد أسود الغاب وهي ضراغم وتصطادني الخرعوبة الرشأ البكر
ويهزم باسمي الجيش وهو عرمرم ويهزمني ما صانت الحجب والستر
ارد يدي والطرف عن كل محرم واوردها والطرق حيث القنا حمر
واحلوا مذاقا للولي ومطعما خلا ان طعمي في مذاق العدا مر

ولقي الخطاب نفس المصير الذي اذاقه اخاه احمد الذي دعاه الى طعامه واوجر في جسمه حربة مسمومة أسمها المريحة ، ونفس مصير اخيه سليمان الذي قتله ايضا .

لقد شعر الخطاب بعد قتله اخويه بفداحة الذنب فضم اليه اولاد اخيه سليمان وآواهم وقام بامرهم ورباهم فما هو الا ان اشتدت سواعدهم وسمعوا الناس يتذاكرون مقتل ابيهم حتى استيقظت في انفسهم روح الثأر فدخلوا على عمهم وهو مضطجع فشدوا عليه واستلوا روحه من بين جنبيه وحق ان يستشهد احد الادباء المعاصرين في حقه بقول الشاعر القديم في مقتل ابي مسلم الخراساني :

زعمت ان الذين لا ينقضي فاستوف بالكيل ابا مسلم
واشرب بكأس كنت تسقي بها امر في الحلق من العلقم
اليك شحنا الفلك تهوي كانها وقد ذعرتمنمغربالشمس غربان

كان شاعرنا النجل الاكبر القاضي الحسن الحجوري ، وقبل موت الوالد

كان قد اخذ البيعة لولده من القبائل المنضوية تحت لوائه — كما اسلفنا — وحين قضى الوالد نحبه آل الامر الى سليمان الذي كفل اخويه الخطاب واحمد واختا لهما . ولكن الاخبار تقول ان الخطاب رضع من الملكة اروى ولسنا نعلم اكان من ام اخرى غير ام الخطاب تزوجها الاب تقربا الى الصليحيين ان سليمان ينفي ذلك في شعره ويؤكد انهما من ام واحدة :

وكنت مع هذا ابن مهجة أمه ومهما شجاها ساءني وشجاني

ولكن مهما يكن القول في مسألة الرضاع . فان الاخبار متفقة على ان الخطاب كان فاطمي الهوى . وان اختا له كانت تشاركه في هذا الميل . وكان احمد الاخ الاصغر يشارك سليمان ميله الى الدولة الكبرى التي تحتضن مبادئه ومعتقداته ، فاتجه سليمان بعواطفه نحو آل نجاح في تهامه . واتجه الخطاب بعواطفه نحو الصليحيين في (ذي جبله) وعملت كل من الدولتين على توسيع شقة الخلاف بين الطرف المؤيد لها والطرف المعارض حتى انتهى الامر بان اقدم اخو سليمان على قتل اخته الفاطمية الميل . واغضب الامر الخطاب فعمل على استدعاء اخيه القاتل الى طعامه الذي لم يكد يستقر حظه منه في امعائه حتى طعنه بحربته فارداه قتيلاً .

ووكل سليمان الى اخيه الخطاب كثيرا من المهام المتعلقة بادارة شؤون المنطقة عندما بلغ مبلغ الرجال وكان في صغره قد عنى بتربيته وتهذيبه وهو أمر اعترف به الخطاب ايام صفائه مع اخيه بحيث امتدحه ببعض قصائد ذكر فيها ماله عليه من اياد بيض . ولكن ايام الصفاء لم تطل فقد تدخل من يهمهم افساد العلاقات الطيبة بين الاخوين ، فكأوا اناء المحبة والود بينهما وبدأت الروابط القوية تتفكك شيئا فشيئا .

وقد بدا الخطاب يطلب الى اخيه ان ينيبه في قضاء اعمال الحكم ، ولم يمانع اخوه حتى اذا تم للخطاب قبضه على الامور بيد من حديد طرد اخاه شر مطرد واضطره الى مغادرة المنطقة فاقد الاهل سليب المال كاسف البال سيء الحال .

ويحدثنا سليمان في شعره ان اباه كان قد حذره من غدر أخيه أيام حياته فقد لاحظ الوالد ميل الولد الصغير الى الفاطميين ، وتطلعاته الى السلطة بحيث لا يمكن أن يقف في طريقه شيء في سبيل الوصول اليها :

حفظت وصاة الشيخ فيه لانه غداة دنا منه الحمام دعاني
فقلدني في حفظ من كان يعبده امانة من يعنو له الثقلان
وقد كان ادرى قدس الله روحه بما فيه من خبث ومن شنآن
وحذرني من غدره غير مرة وقال اراه فيه رأي عيان
وكنت مع هذا ابن مهجة أمه ومهما شجاها ساءني وشجاني

وحذره من اخيه رجل اخر هو غانم بن حمزه السليماني وكان غانم هذا احد اتباع بني نجاح وقد نصر الخطاب عندما رفض سليمان الفتك به ثم تخلى عن نصرته عندما لجأ سليمان اليه فيما بعد :

ومن بعد هذا ان غانـم حثنـي على الفتك فيـه والعظيم بداني
فنزهت نفسي عن قبولي قولـه وقلت حسامي للعدا وسنانـي

وشد سليمان الرحال من منطقة الجريب وولى وجهه شطر تهامه ولـم يتصل ببني نجاح راسا وانما اتصل اولا بتابـع كبير لهم هو غانـم بن حمـزه الذي نظم فيـه عدة قصائـد يمتدحه فيها ويطالب منه امداداه بالقوى التـي تعينه على استرجاع منطقته . ثم اتصل بعد ذلـك بحكام بني نجاح وعلـى راسهم الوزير من الله الفاتكي والوزير مفلح الفاتكي ومنصور بن مفلح الفاتكي، وفي ظلال هؤلاء الحكام عاش سليمان موسعا عليه وعلى اتباعه في العطاء ، موصولا بمدد بعد مدد من المال والرجال والسلاح ليهاجم البلد الذي شـرده واخرجه من بين اهلـه وذويه حائرا طريدا . وفي بني افلح يقول شاعرنا :

وهل كان كالسادات من آل أفلح لمن قام قبلي ناصر سالف الدهـر
فقوموا بني عمي بما قد وعدتمـو فاحيوا حياتي فيكم مفخر العصـر

وهو يستعمل النزعة القحطانية سلاحا فعالا في المعركة مع الفاطميـين وهو نفس السلاح الذي استعمله نشوان الحميري في معاركه الكلامية مـع الائمة . قال سليمان في ذلك مخاطبا بني افلـح :

اذا كنتم أنصار عزي ودولتـي وأصلكم أصلي وبحركم بحـري
فهذا أوان النصر فاحتفلوا لـه ولا تقبضوا غير السريجية البتـر
فأنتم بنو الاملاك قحطان أنتـم وسادات ما بين الحجاز الى الشحر

وهو يستخدم النزعة القحطانية لاثارة حفائظ القبائل التي يستنهضـها للثورة على الصليحيـين :

أقر السلام على ذؤابـه مشعل والشم من (زعل) وصيد (بني علي)
بحبوحة العرب الذين علاهـم أرست على فلك السماك الاعـزل
هل نمت يا قحطان عن نيل العلا والمجد كالمستوسن المستثقـل

وهو يبلغ هذه الاحياء ان ينتظروه قادما اليهم في جيش لجب يحجب سواده شعاع الشمـس :

ابلغهم اني عـلى الحال الـذي عرفوه لم ارجع ولـم أتبـدل
وبأنني عمـا قريب نحوهـم في أرعن لجيب بعيـد القسطل
فليجمعـوا أطرافهم ويشمـروا للحرب تشميـراً خـلاف الاول

وللشاعر سليمان بن الحسن الحجوري ، شعر قاله في وصف منطقـه الجريب فيه نكهة يمنيه تأخذ بالالباب ، فمن ذلك قصيدته البائية التي اكثـر فيها من وصـف ما تخرج ارض الجريب من متنوع الثمرات بحيث ينطبـق على هذه القصيدة الوصف الذي قاله احد الادباء القدماء في قصيدة ابن الرومي التي قالها في ابي الصقر الشيباني . . لقد وصف ذلك الاديب قصيدة ابن الرومي بأنهـا (سوق البطيخ) لكثرة ما أورد فيها من أسماء الثمـرات والفواكه وشبيه بمقدمة قصيدة ابن الرومي قصيدة شاعرنا اليمني التي تقول مقدمتها :

اذا الله عم الارض منه برحمـة فلا فات أرضـا بالجريب نصيبها
بلاد تساوى بردها وحرورهـا ونيسان كانـون بهـا وابيبهـا
غزيرة أنهـار تفيض مياههـا وغير حرور حيث كـان قليبهـا

وأعذب أرض الله مـــاء لشارب وخص بهـــا بردا وطيبا جريبها
رأيت بها الاعناب والخوخ عاقدا مع التـين والتفاح يرضيك طيبها
ومن حلو رمان وتـين ومشـمش وأصناف ارطـــاب كثير ضروبها
وموز واترنيـــج وليم جميع ما أسميـه موجـود يراه طلوبهـا
وأصفر كمثري وانجـــاص حمرة كحمرة لون الشمس حان مغيبهـا

ويبدأ الشعر الجميل في هذه القصيدة في قوله :

تذكرتها ذكر البغـي شبابهـــا وقد حان عما تبتغيـــه مشيبها
وذكرنيهـــا جـذوة في سحابـة من البرق يعلو مستطيرا لهيبهـا
فيا ليلة ما كان أطولهـــا عـلى أخي مقلة تجري بدارا غروبهـا

ولكن هذا الحب للوطن لا يمحو اساءة الخطاب اليه فلا بد ان يأتـــي ذكره في هـذه القصيدة لانه سبب ابعاده وتشريده :

والفوا صبيـــا لا دراية عنـده بضغن وأحقاد طوتهـــا قلوبهـا
ولو أنني حاذرت منه الذي أتـى تباعد عنـه عند ذاك قريبهـــا
ولكنني قلت الاخ الجامع الـــذي عناصره لا يخلف الدهـر طيبهـا
وربيته مستقصيـــا في كرامتـي له وهو مخضر القنـــاة رطيبها
وأدبته حتى غـدا بـين قومـه يشير اليـــه الكل هذا أديبهـا

وهو يفاخر بأنه هو الذي هاجم الجريب موطنه ومسقط راسه فأهلك الزرع والضرع ، وتركها خاوية على عروشها ينعب فيها البوم وينعق فـــي سمائها الغراب ، فليس فيها لاخيه منتفع بعد :

وان كنت لم اترك له نفع درهـم ولا غلـة من زرع ارض يصيبهـا
ومن أسفل (المرباج)شاما ومصعدا الى (العرق) قفرا دورها ودروبها
شننت عليها غارة بعد غـــارة الى أن جرت شرقا وغربا نهوبها
وأعملت في سكانها القتل كي يروا بأني حاميهـــا واني أديبهـــا

ولكنه يشعر بالاسف لما احدث في هذه الارض من خراب ودمار ، الا انــه شعور عابر لا يطفىء ما في نفسه المضطرمة بالحقد والموجدة على البلد الذي نفاه الى موضع اضطره الى مدح حاكميه وهو ليس بشاعر مرتزق مداح ، وكلفه ان يستمد النصـر من حكام كانوا يلجأون الى ابيـه واليه طالبـين العـون والنصـر :

ولما رأيت السيف أفنى رجالهـــا شجاني فناها ضيعة وذهوبهـــا
وذكرت نفسي العفو عنها وانني لصافح اجرام الجنـــاة وهوبها

وعلى الرغم من الحياة الشاقة التي عاشها سليمان في اكناف دولـــة بني نجاح فأن في شعره انفاسا عطرة من شعر الوجدان الذي قاله في عاطفـة متأججة وقلب متبول ، ويظهر ان بيئة بني نجاح كانت احفل بمظاهر اللهووالعبث .. فقد كانت هناك قيان مغنيات ومجالس طرب .. وتفصح مقطوعة شاعرنا الاتية عن شيء من هذه الحياة التي لا يكاد يخلو منها المجتمع اليمني في ظـل كـل من الحكمين الصليجي والنجاحي :

وآنية من فضة صورت لنـــا تماثيل خيـــل شـزب ورجـال
ورسم انو شروان في الدستجالس كما كان في دنيـاه ناعـــم بـال

(فلوردفيكسرى بن ساسان روحه) (١) لجاذبني فيهـا أخص خلال
بنينا علينـا بالمدامـه رتبـه مكللـة حافاتهـا بلآلـي

وتذكرنا مقطوعة سليمان هذه بخمرية ابي نواس التي يقول فيها :

تدار علينا الراح في عسجديـة حبتهـا بأنواع التصاويـر فارس
قراراتهـا كسرى وفي جنباتهـا مهى تدريهـا بالقسى الفوارس

اما البيت الاخير في مقطوعة شاعرنا فلفظه كله لابي نواس وليس فيه سوى القافية قال ابو نواس :

بنينا علينـا بالمدام سمـاوة مكللة حافاتهـا بنجـوم

وله في الغزل هذه الواقعة الدقيقة :

خلعت عذاري قبـل شيب عذاري وارخيت في فرط الشبـاب أزاري
واسخطت على آلي وارضيت مسعدي وتابعت غيي واجتنبت وقـاري
وما زلت مـن آم الوليـد صبابة صريع غرام او رهـين اسـار
تبدت لنا كالشمس من تحت حالك فقلت أليـل في بياض نهـار
بنفحة داري ومقلـة شـادن وخطرة معلول بكـاس عقـار
رنت فطوت قلبي على مستكنـة من الوجد فيهـا سكرتي وخماري
خليلي ان التـين لا يرحم الفتى اقـلا ملاميـا فالامور جوار
تعاديني الايـام حتى كأنمـا يطالبني صـرف الزمـان بثـار

واحيانا يرق في شعره العاطفي رقة لولا معرفتنا بحياته لقلنا انه شاب غرير لا يعرف من دنياه الا كأسا وغانية كما تمثله هذه الابيات في قصيدة له :

يـا غزالا مهما قربت اليـه زاد بعدا وازداد عجبـا وتيهـا
ما كشفت القناع عـن وجهك الا بلج الا لمهجتـي تستبيهـا
نحل الجسم ذابت النفس هل أنت بوصـل معجـل محييها
بحياتي عليك قم واشرب الـراح دراكـا ثلاثـة واسقنيهـا
في الحشا حرقة ولثـم ثنايـاك وترشـاف ريقهـا بشفيها
كم فتاه بيضاء كالشمس قد نسيتها بـر أمهـا وأبيهـا ..
مخضتني الوداد منـذ التقينـا ثم لـم تلتفـت الى عاذليهـا

ومن محاسن شعره العاطفي هذه الابيات من قصيدة له :

يا بابي من وصلتـه فأبـى وصلى فـلم أقض منـه ما وجبا
ظبـي من الانس قد كلفت بـه ولم أزل عاشقا مهـى وظبـى
فمـا لقلبي عذلتـه فأبـى وقلـت عنـه انقلب فما انقلبا
معسل الريـق والرضاب فمـا يخشى الضنا مـن طريقـه شربا
غض الصبـا لو عصرت وجنتـه لذاب منهـا النعيم وانسكبا

وقال في نفس الموضوع من قصيدة اخرى :

عرج برسم الطلل الشاسـع مـا بـين (حيران) الـى رادع
وقف به وأسأله عـن أهلـه ورووه مـن دمعـك الهامـع
وقل لـه يا ربـع أين الـذي خلا عن المرتـع والراتـع
كنت أنيسـا مونقـا رائعـا تعيش في ثوب الصبـا الرائـع
وقد تنـكرت وراح الصبيـا وليس مـا قد فـات بالراجـع

(١) الشطر ، لابي نواس وثمامه يقول ابو نواس اذن لاصطفاني دون كل نديم

وناهد يهتز فـــي صدرهـــــا　　　كحق عاج فـــي يد الصـــائغ
الجيـد والطرف كظبـي الفـلا　　　والوجـه مثـــل القمـر الطالع
أجل من عاينت حسنـا ومــن　　　يروق للنـــاظر والسامـــع
وفاحـــم محلولـــك أجعـــد　　　مثل سواد العنـــب الشـــارع

ومن الشعر الذي يرسم صورة للحياة المترفة في المجتمع اليمني فـــي ايام الدولة النجاحية هذه الابيات لشاعرنا :

كم ليلـــة بتنـــا معا في غرفة　　　جدرانهـا مستـــورة بستـــوره
نتبادل الراح السلاف وعندنـــا　　　ما نشتهي من مســـكه وبخوره
وتفوح مجمرنـــا ويملأ كاسنـــا　　　ونعاف عند الشرب من تقديــــره
والآس والاترنج والتفاح منشـــور　　　الشذى بسريرنـــا وسريـــره
وكأن وجنتـــه وفيهـا دمعـــه　　　ورد عليـــه الطل في تقطـــيره

وانتهت حياته دامية . لقد استطاع اخوه الخطاب ان يقضي عليه بنفس الحرية التي قضى بها على اخيه احمد . ولقى الخطاب بدوره على يد اولاد هذا القتيـل نفس المصـير (١) .

من شعر سليمان في موضوع العاطفة قوله :

قولوا لمـن صد بعدما وصـــلا　　　وجار في حكمـــه ومـــا عدلا
وخان ودي وقـد وثقت بـــه　　　يا بئس والله بئس مـــا فعـلا
أطاع قول الوشاة اذ عذلـــوا　　　في ولم أرض فيـه مـــن عـذلا
كم ليلة زرتـــه على وجـــل　　　متزرا بالظـلام مشتمـــلا
حتى اذا جئتهـا وقـــد هجعت　　　حراسهـــا والرقيب قـد غفلا
قرعت باب الفتاة قرعـــة ذي　　　عقـل أديب فأقبلت عجــــلا
تسحب في الارض فضـل مئزرها　　　لم تستطـع أن تضمـه خجـلا
قالت سلام عليك قلـت لهـــا　　　أهلا وسهـلا وقيت كـــل بـلا
ثم اعتنقنا فذقـــت من فمهـــا　　　صهباء تحكي بطعمهـــا العسلا
وبات لي نحرها وساعدهــــا　　　مهدا وباتت تعلنـــي القبـــلا
أضمهـــا تـارة وتلحفنـــي　　　قدا كمثـل القضيب معتـــدلا
هيفـــاء ترخي عـــلى مناكبها　　　وحفـا مـــن الشعر فاحما جثـلا
مصقولة العارضـين خرعبـــة　　　بسحر هاروت طرفهـــا كحـلا
ورديـــة الوجنتـين البسها　　　الله مـن الحسن والبسها حللا
تسمع للحلى فـــي مناكبهـــا　　　ونحرهـــا عنـــد سيرها زجـلا
فلا تبدلت غيرهـــا أبـــدا　　　ما دامهـــا لا تريدنـــي بـــدلا
كم عاذل قـــد نهى فقلت لـــه　　　لم أستمـــع قول عاذل عـــذلا

---

(١) قدمنا عابدين ـ الخطاب واخاه سليمان ضمن شعراء القرن الخامس مع ان كليهما عاشا فترة من القرن الخامس واخرى من القرن السادس ، لان كلا العصرين متداخلان حيث لا يحدث مثل هذا التقديم البسيط أثرا فـــي سباق الترجمة الادبية ، وقد دعانا الى ذلك الحرص على أن نقدم مجموعـة شعراء الدولة الصليحية في اطار واحد ، لانهم يمثلون اتجاها واحدا ويرتبطون باوضاع دولـة معينـة .

فان يمتني الهوى غرب فتى قبلي من الاولين قد قتلا
وليس عشق الهمام يقتله ما لم يكن للهوان محتملا

ومن مراجعة مجموعة اشعار هذين الاديبين نلاحظ ان سليمان الحجوري مدح حكام بني لحاح وعلى رأسهم من الله الفاتكي ومفلح الفاتكي وابنه منصور الفاتكي وكل هؤلاء عاشوا في اوائل القرن السادس .

ويتضح من رثاء الخطاب للملكة اروى انه عمر بعدها فترة ليست معروفة . على ان مصادر التاريخ تشير الى ان الخطاب تولى القيام بمهمة الداعي بالاشتراك مع الذوئب .

وذلك بعد ان فصلت اروى بين الدولة والدعوة بعد ان سبقها الى ذلك الخليفة الفاطمي بمصر الذي عين لزوجها المكرم داعيا حربيا وسماه داعي السيف وعين الى جانبه القاضي لمك الذي سماه داعي القلم .

وفي شعر سليمان ما يشير الى انه عاش الى عصر قيام اخيه الخطاب والذوئب بامر الدعوة ومن شعره الذي قاله في هذا الموضوع هذه الابيات التي يهاجم بها الخطاب والذوئب معا :

قل للذؤيب وقل لابن العذيب اما كنتم لخطاب في ارائه شعرا
وكان أخبرني من ليس يكذبني فلم أصدق بذلك العلم حين طرا
ان الذؤيب وابراهيم قد نزلا كل النزول له عن دولة الوزرا
نظمتما رأي خطاب برايكما حتى اذا تم فيما رامه نترا

الحسين بن القم :

ومن شعراء القرن الخامس الشاعر اليمني الكبير والكاتب المترسل الحسين بن علي بن القم . ولد بزبيد كما اسلفنا وتلقى تعليمه وعمل كاتبا للملكة الحرة بنت احمد ورئيسا لديوان الانشاء وله كتاب مجموع الرسائل وديوان شعر وكلاهما مخطوطان .

ومعروفة قصة تواطئه مع جياش بعد رجوعه من الهند ويبدو ان خلافا نشأ بينه وبين اسعد بن عراف الذي كان واليا على زبيد من قبل المكرم بن علي الصليحي . وقد تواطأ الوزير الصليحي الحسين بن القم مع جياش وساعد على اخفاء امره حتى جعله يعد العدة ويجمع رجاله الذين انزل بهم فتكته البكر بعلى بن محمد الصليحي وهو في طريق الحج .

ويبدو ان علاقته بال نجاح لم تكن على ما يرام فقد لام جياش على قتله القاضي الحسن بن ابي عقامه بمقطوعته التي يقول في اولها :

أخطأت يا جياش في قتل الحسن فقأت والله به عين الزمن

وفي اكثر من قصيدة لشاعرنا شكرى من جياش لاهماله شأنه وتضييق اسباب الرزق عليه صرح بذلك في قصيدته العينية التي يقول في مطلعها :

أذاع لساني ما تجن الاضالع واعرب عما في الضمير المدامع

وفي قصيدته التي اولها :

يـــا أيهـــا الملـــك الـــذي كـــل الملوك له رعيـــة

ولكن الحسين بن علي القم كان اديبا ابي النفس عالي الهمة فلم يكد يقيم في كنف جياش الا ريثما تحول وقبل ان يتحول كان قد قال :

اذا تضايق عن رحلي فنا ملـــك يوما فقد وسعتني دونـــه الهمـــم
كل البلاد اذا لم تنب لـــي وطـــن وكل أرض اذا يممتهـــا أمـــم

ولعل جياشا وال نجاح جميعا هم المقصدون يقول شاعرنا :

فقل لقحطان ان طال الهوان بهـــا لا أرغـــم الله الا آنف العـــرب
أن أغض أغض على ذل ومنقصة وان أصل لا أجد عونا على النوب
وغالب الظن اني ســـوف يحملني علو نفسي على الاقدام والعطـــب

واياهـــم عني بقولـــه :

اذا حل ذو نقص محلة فاضـــل وأصبـــح رب الجاه غير وجيـــه
فان حياة المرء غـــير شهيـــة اليـــه وطعم الموت غـــير كريه

ويقرب هذا المعنى من قول البحتري وزنا وقافية :

اذا ما نسبت الحادثات وجدتهـــا بنات زمـــان أصـــدق لبنيـــه
متى أرت الدنياه نباهـــة خامل فـــلا تنتظـــر الا خمـــول نبيـــه

وفر شاعرنا من كنف ال نجاح متحولا الى مقر الداعي سبأ بن احمد الصليحى الذي كان قد تغلب على حصن أشيح بعد فشله من الزواج بالملكة السيده التي جاءها مرسوم من الخليفة الفاطمي بمصر ان تكونن له زوجا . وكان الداعى سبأ بن احمد فارسا شجاعا واديبا يفهم الشعر ويستشهد به وربما يجيـــد قوله . وقد نال شاعرنا لديه الحظوة فقال في الداعى سبأ بعض قصائده ومن جيد ما قاله فيه :

ولما مدحت الهزبري ابن أحمـــد أجاز وكافاني عـــلى المدح بالمدح
فعوض عن شعـــري وزادنـــي عطاء فهذا راس مالي ودا ربحي
شققت اليـــه الناس حتى رايتـــه فكنت كمن شق الظلام الى الصبح

ولسنا نحب أن نعرض لما قاله الحسين بن علي القم من شعر في ال علي الصايحي أو ال نجاح او في الداعي سبأ فان الذي يهمنا من شعره الجانب الذي يمثل عواطفه ووجدانه ومن ذلك مقدمة قصيدة له قالها في المكرم بن علـــي الصايحي وفيها يقول :

مـــا بال دارس هذه الاطـــلال جددن أشجانـــي وهن بـــوال
أترى علمن بما يكابـــد مدنـــف لعبـــت بمهجتـــه يـــد البلبـــال
سال الرسوم الأولون وعنـــدي الخبر اليقـــين فمـــا يفيد سؤالي
حال الطلول كما علمت فكيف لـــي لا كيف لو تدري الطلول بحالـــي
هجرت وخالفها الخيال فزارنـــي والهجر أحسن من وصـــال خيال
هيفاء مثل الذابـــل العسال فـــي ردف كمثـــل الأوعس المنهـــال
يا أخت آرام الكناس ترفقـــي بفؤاد عـــان ليس عنـــك بسال
لظلمت غزلان الفـــلاة لانهـــا عطل النحور وأنت نحرك حـــال
يا عاذلي دعا المـــلام فان لـــي قلبا بـــه صمم عـــن العذال ..

وروى عمارة في (المفيد) ان الفقيه ابا السعود بن علي الحنفي قـــال حدثني ابن بنت ابي الصباح وكان ممن دخل العراق قال حضرت مجلس الوزير

وعنده جماعة يتذاكرون الشعر فقال لي هل تحفظ شيئا لاحد من اهل اليمن ؟ فأنشدته قول ابن القم من قصيدته التي يقول فيها :

الليل يعلم اني لست أرقده ... فلا يغرنك من قليبي تجلده

وكان الوزير العراقي متكئا فاستوى جالسا واستعادها مرارا . ثم بعثني في الموسم الى مكة ابتاع له ديوان ابن القم فلما جئته به كان من اقوى الذرائع في خلطته والانقطاع الى جملته . وهذه ابيات مختارة من هذه القصيدة :

الليل يعلم أني لستُ أرقده ... فلا يغرنك من قلبي تجلده
فان دمعي كصوب المزن أيسره ... وان وجدن كحر النار أبرده
لي في هوادجكم قلب اخربه ... فسلموه والا قمت أنشده
وبان للناس ما قد كنت أكتمه ... من الهوى وبدا ما كنت اجحده

والشاعر الحسين وان امتدح طائفة من حكام الصليحيين والنجاحيين بحكم سنة عصره ومن بينهم الداعي سبأ بن احمد الذي يقول فيه :

انضامك الدهر فاستعصم بأشيع أو ... ازري بك الفقر فاستمطر بنان سبأ
يخال صارمه يوم الوغى نهرا ... تضرمت حافتاه من دم لهبا ..
بني المظفر ما امتدت سماء علا ... الا والفيتم في أفقها شهبا ..
ان امرءا كنت دون الناس مطلبه ... لأجدر الناس أن يحظى بما طلبا

الا انه كما يبدو شاعر لا يعفي ممدوحه من الادلال عليه وربما قرصه بلواذع الكلم متى دعته المناسبة الى ذلك فمن ذلك قوله معاتبا الداعي سبأ ومفتخرا بنفسه :

أبا حمير ان المعالي رخيصة ... ولو بذلت فيها النفوس الكرائم
وجدت مطارا يابن أحمد واسعا ... الى غرض لو ساعدتني القوادم
وما أنا الا السهم لو كان رائش ... وما أنا الا النصل لو كان قائم
ولا عار ان جار الزمان وان سطا ... اذا لم تخني همتي والعزائم
فلا تحتقر جفننا يبيت مسهدا ... ليدرك ما يهوى وجفنك نائم

وهو مولع بوصف شعره وأظهار اعجابه بولائد خياله كما كان يفعل ابو تمام ، ومن ذلك قول شاعرنا يصف شعره الذي يرى ان كثير عزة يقل أمامه وان متمم بن نويرة يشعر بالنقص ازاءه يقول واصفا احدى قصائده :

اذا ما ادعت فضلا رأيت شهودها ... تبرع من قبل السؤال وتقسم
وما قللت اذ لم يقلها كثير .. ... وما نقصت اذ غاب عنها متمم ..

ويصف قصيدة له اخرى بقوله :

فلأهدين اليك كل كريمة ... يمسي الحسود بها مغيظا موجعا
طورا ترى بين الورى جوالة ... في الارض تقطع مغربا أو مطلعا
كالدر نظمه بديع الفكر في ... سلك على الايام لن يتقطعا
حلل تزيد على ابتذال جدة ... أبدا وتخلق أن تصان وترفعا

ومن شعره الوصفي بيتان كتبهما على كأس يقول فيهما :

ان فضلي على الزجاجة أني ... لا أذيع الاسرار وهي تذيع
ذهب سائل حواه لجين ... جامد أن ذا لشيء بديع ...

وشعره في الرثاء يصدر عن روح حزين مثل قوله في رثاء عزيز :

لهفي لفقدك يأس غير منقطع ... ما كان أقرب يأسي منك من طمعي

أن تسترح فأنـــا المبلـــو بعــدك ... بالاحزان أو تسل اني دائم الجزع
كيف التذادي بدنيا لست ساكنهـــا ... أو اغتباطي بعيش لست فيه معي

ومن جيد ما قاله في الرثاء تلك القصيدة التي قالها في مقتل علي بن محمد الصليحي ورفاقه الذين حصدت رؤوسـهم سيوف النجاحيين في موقعة المهجم ويقال ان هذه القصيدة كتبت على لسان اخت علي الصليحي القتيل ومـــن ابياتها :

لعمري ما طارت طبوري بأسعد ... غداة دهتني الحادثات بأسعـــد
وذكرني فقدي لأسعـــد أخوتـــي ... ملوك من المستشهدين (بسردد)
وقد فقد الاحباب بعد أحبتـــي ... وان كان لا مفقود مثل محمـــد
ملوكا ترى الاملاك حول دسوتهم ... صفوفـــا عكوفـــا من قيام وسجد
رزئت من الامـــلاك كـل متــوج ... كثير غبـــار الجيش طلاع أنجـد
أأبكي عليا أم أخاه الذي غـــدا ... وأكرم مفدى هنـــاك ومفتـــدي
أم الثالث اللاقي الحراب بنحــره ... وقد نهلــــت من كـل صيد أغيد
فلله اسـد صرعـــت بثعالــب ... ولله أحرارا ذيلـــت بأعبـــد
وهون وجدي انهم ما تخرمـــوا ... بغير المواضي والوشيـح المقصد

وشعر العاطفة عند شاعرنا كثير يبدأ به قصائده على طريقة الشعراء في الجاهلية والاسلام ، ومن اجل ذلك قال ابو الطيب المتنبي :

اذا كان شعرا فالنسيب المقـدم ... أكل فصيـــح قال شعرا متيـــم

ومن هذا اللون من شعره قوله :

يـــا صاحبي قفا المطى قليـــلا ... يشفى العليل من الديـــار غليـــلا
هذي طلولهـــم أطلن صبابتـــي ... وتركن قلبي مـــن عزاي طلـــولا
ولئن خلت منهم مرابعهم فقـــد ... غادرن قلبـــي بالغرام أهيـــلا

وفي هذا البيت يبدو تأثر الحسين بن القم بأبي الطيب المتنبي في بيته الـذي يقـــول :

لك يا منازل في القلوب منـــازل ... اقفرت أنت وهن منـــك أواهل

ثم يواصل شاعرنا قصيدته بقوله :

لو أن عيسهم غـــداة رحيلهـم ... حملن وجـــدي ما أطقن رحيـــلا
من كل ريم لا عديـــل لحسنهـــا ... رحلت فكان لهـــا الفؤاد عديـــلا
كالبدر وجهـــا والغزال سوالفـــا ... والرمل ردفـــا والقنـــاة ذبـــولا
غادرتني جاري المدامـــع حائرا ... وتركتني حـــي الغـــرام قتيـــلا

وقافية الظأ ليست من قوافي الشعر العربي السهلة ، ولكن شاعرنا يذلل هذه القافية الحرون فيقول :

رق لي قلبهـــا وقد كان فظـــا ... فأرتني درين دمعـــا ولفظـــا
ثم قالب الست تقبـــل نصحـــا ... من نصيـــح ولست تقبـل وعظا
بت يا بارد الجوانـــح خلـــوا ... من غرام قلبـــي بـــه يتلظـــى
فاز كل بالحظ من هذه الدنيـــا ... وما نلت من زمانـــك حظـــا
أنـــا مولى محمـــد وعلي .. ... لست مولى بني زياد فاحظى ..

محمد بن زياد المأربي :

ومن شعراء هذه الفترة محمد بن زياد المأربي كانت له صلة بالائمة من ال الرسى ولما سمع به المفضل بن ابي البركات حاول استقطابه واستمالته الى الصلحيين ومن شعره في ابي السعود بن زريع قوله :

يا ناظري قل لي تراه كما هوه   اني لأحسبه تقمص لؤلؤه
وما أن بصرت بزاخر في شامخ   حتى رأيتك جالسا في الدملؤه

زكرى بن شكيل :

ومنهم السلطان زكرى بن شكيل الخولاني ممن امتدحوا جياشا ملك زبيد وله فيه هذ هالقصيدة التي يختار منها مقدمتها في الغزل:

كم لا تزال تسر وجدا ما سرى   مزن وتسفح مدمعا متحدرا
أطللت دمعك في الطلول وادمنت   حرق الحشاد من تخال الاسطرا
عفى معالمها الغوادي والسواري   والعواصف والاعاصر أعصرا
ولقل ما غرى القديم بمحدث   الا وأحدث في القديم تغيرا
فتنكرت في العين وهي معارف   في القلب يكبر قدرها أن يكبرا
ولقد علقت بها غزالا أغيدا   غنج اللحاظ أغن أحوى أحورا
يثني الصباح بفرغه ليلا ويثني   الليل أصباحا بخد مسفرا

القرن السادس

استهل القرن السادس هـ . والدول الموجودة على ساحة اليمن هي نفس الدول الموجودة في القرن الخامس ، ال نجاح في تهامة والصليحيون داخلـــه دولتهم في دور الاحتضار في عهد الملكة اروى التي استطاعت بقوة شخصيتها وحنكتها السياسية ان تحقن جسم الدولة بكثير من الحقن حفظت بعض اجزائها وأطالت من عمرها حتى عام وفاة الملكة العظيمة ذات السيرة المشرفة والاثار الخالدة .

ومع ذلك لم تمت الملكة أروى الا وقد شهدت صدوعا تزلزل أركان الدولة وتنتقص من أطرافها .

شهدت دولة بني نجاح تعود الى الظهور في تهامة بعد أن ضربها علي بن محمد الصليحي ضمن من ضرب من الامارات والسلطنات في عموم اليمن ، بحيث تحققت لليمن وحدة لم تتحقق لها كما نظن في عصر من عصورهـــا ، وشهدت صنعاء التي نصحت هي زوجها المكرم بالتخلي عنها كقاعدة للحكم ، وتواية عمران بن الفضل اليامي وابي السعود بن أسعد بن شهاب عليهـــا عام ٤٧٤ ، واختطاط مدينة جبلة بديلا عنها ، شهدت صنعاء في العقد الاخير من المائة الخامســة وقد تغلب عليها حاتم بن الغشم المغلسي الهمداني ليتوارثها اعقابه وشهدت ال زريع الدين نصبهم زوجها المكرم حكاما على عدن يمتنعون عن دفع الخراج لها ، وشهدت كبار ولاتها ونوابها ومستشاريها يتغلبون علـــى الحصون والمواقع كما فعل المفضل بن ابي البركات حين تغلب على حصـــن التعكر ، وسبأ بن احمد الصليحي حين اعتصم بمعقل اشيح ووجدت نفسها تستنجد بالخليفة الفاطمي بمصر المستنصر ليبعث اليها بمستشار يعينهـــا على ادارة شؤون الدولة فيبعث اليها ابن نجيب الدولة ، ولكن الخلافـــة الفاطمية في هذا العهد قد اخذت تدخل دور الضعف وكانت خلافة المستنصر

بالله نفسه بداية ضعف الدولة الفاطمية . ففي عهد المستنصر اجتاحت جحافل الصليبيين الارض العربية حيث كونوا لهم امارات بعد ان قتلوا الالوف من المسلمين وفي كتاب ابن سناء الملك من سلسلة أعلام العرب لمحمد ابراهيم نصر تحليل دقيق عن حال مصر والشام في اخريات العهد الفاطمي قال فيه :

« كان في مصر اربع قوى تتنافس على الحكم والسلطة :

اولها قوة المغاربة ، الذين وفدوا الى مصر كجنود مرتزقة حين استعان بهم الحاكم بامر الله على المصريين السنيين فهاجموا المدن ونهبوا الاسواق وظلوا خطرا على الدولة حتى كانت نهايتهم على يد صلاح الدين .

ثالثها قوة الاتراك وقد كانوا خطرا على الدولة تمكن امرهم واستبدوا ، بالسلطان وخلعوا الخلفاء واشتبكوا مع المغاربة حينا ومع السودانيين حينا اخر .

رابعها قوة الارمن وقد قدم بهم والى عكا بدر الجمالي عندما استغاث به الخليفة المستنصر ليخلص البلاد من الفتن والقلاقل فاشتبكوا مع السودانيين تارة ومع الاتراك أخرى ، واستطاع بهرام الارمني والي الغربية في عهد الحافظ بالله ان يحاصر القاهرة عام ٥٢٩ هـ ، وأن يرغم الخليفة على تولي الوزارة على الرغم من عدم دخوله في الاسلام .

اجل شهدت الملكة أروى تصدع الدولة الفاطمية في اليمن وتصدعها في مصر ولكنها رغم كل هذه العواصف والاعاصير استطاعت ان تسير سفينة الحكم بما تبقى لها من قلوع واشرعة فما هو الا أن اخترمتها المنية عام ٥٣٢ حتى عادت اليمن الى ما كانت عليه من امارات وسلطنات طوائف ، استرجع الائمة صعدة وهاجموا صنعاء هاجمها الامام احمد بن سليمان عام ٥٣٣ أي بعد عام واحد من وفاة أروى واستطاع ان يحتلها من يد حاتم بن احمد عمران اليامي الصليحي ، ثم استعادها حاتم بعد ذلك .

التنين الذي ابتلع الجميع

وخرج من بطن الارض اليمنية تنين جديد استطاع أن يبتلع كل الامارات في اليمن باسرها .

ظهر علي بن مهدي الحميري الرعيني وكان ظهور هذا الرجل عام ٥٣١ هـ في قرية ساحلية في زبيد تدعى العنبره وقد بداء يستميل الناس بحسن وعظه ودوام تعبده وطريقة تصوفه حتى اعجبت به الحرة ام فاتك وكان ال نجاح لا يقطعون براى دون الرجوع اليها ، فاطلقت لابن مهدي وأسرته ومن يلوذ به — كما يقول عمارة — خراج املاكهم فأثروا واتسعت حالهم وركبوا الخيل ، حتى اذا كان عام ٥٣٨ قاد علي بن مهدي جيشا قوامه ٤٠ الف مقاتل هاجم به زبيد فلقيه القائد النجاحي اسحاق بن مرزوق السحرتي فهزم علي بن مهدي الذي فر الى الجبال . ثم كاتب الحرة ام فاتك يطلبها الامان فامنته على

كرة من رجال دولتها فعاد الى بلده عام ٥٤١ ، وحين ماتت الحرة ام فاتك اعاد الكرة على بني نجاح يغاديهم بزحوفه ويراوحهم حتى تم له افتتاح زبيد عام ٥٥٦.

وقد قامت ثورة علي بن مهدي على برنامج يشتمل على مجموعة من التعاليم اشارت اليها بعض مصادر التاريخ اليمني فمن تعاليمه :

١ — تكفير صاحب المعصية ووجوب قتله .

٢ — قتل من خالف اعتقاده واباحة وطء نسائهم واسترقاق ذراريهم .

٣ — قتل الجندي المنهزم من العدو

٤ — قتل من شرب الخمر

٥ — قتل من سمع الغناء

٦ — قتل من زنى .

٧ — قتل من تأخر عن صلاة الجمعة او عن مجلس وعظه يومي الخميس والاثنين .

ويعقب المؤرخ عمارة على هذه التعاليم بانها كانت تطبق على النظام العسكري في ثكنات ابن مهدي اما بالنسبة لافراد الشعب فقد كان الامر في هذا اخف والطف . ويضيف عمارة الى تعقيبه قوله بانه قد بلغه عام ٥٥٣ أن الامر قد هان على ما كان عليه من الشدة أي أن تعديلا قد طرأ على هذا النظام العسكري المتشدد قبل عام واحد واكثر من فتح ابن مهدي لزبيد وماجاورها من مناطق تهامة .

ويتحدث عمارة — وهو ممن جالس علي بن مهدي صبيا وسمع مواعظه ، وراءه في عدن — كبيرا — حين اتصل ابن مهدي بالزريعيين يطلب انجاده على ال نجاح فلم يحققوا طلبه ؛ يتحدث عمارة عن ولاء وطاعة اتباع واعوان وجنود ابن مهدي له بحيث كانوا يعتقدون فيه فوق ما يعتقد الناس في الانبياء ، ويصف كيف كانوا يقدمون له ما تغزله الزوجات والبنات من الملابس حتى يوزعه عليهم بنفسه ، وكان ابن مهدي يحتبس الخيل في اصطبلاته والسلاح في خزائنه لا يسمح لجندي بان يبقى عنده شيء منها حتى اذا دعا الامر وزعها عليهم .

تلك خلاصة ما قيل في برنامج الثورة الذي رسمه علي بن مهدي لجنوده واتباعه ، وابن خلدون يصف ابن مهدي بانه خارجي ولعله استنبط ذلك من قول ابن مهدي بتكفير صاحب الكبيرة ولكن قتل الزاني وشارب الخمر وسامع الغناء ليست من اقوال الخوارج في شيء ، فما هي اذن عقيدة علي بن مهدي ان عمارة يصفه بانه كان في بداية امره ناسكا وصوفيا وانه فقها حنفي المذهب في الفروع وكل الامور التي تقدم ذكرها ليست من مذهب ابي حنيفة في شيء .

والذي نرجحه ان الرجل قد جمع بين اراء غلاة الخوارج وغلاة المعتزلة بالاضافة الى روحه العسكري الذي فرض عليه ان يسن مجموعة من الانظمة العسكرية الصارمة هي اشبه ما يسمى في لغة العصر الحديث بقوانين

الطوري .. ولم يتمتع علي بن مهدي بالحكم فقد قضى نحبه بعد شهرين وعدة أيام من فتح زبيد وما حواليها وخلفه في الحكم ابنه مهدي الذي غـز تعـز واب والجند ومات عام ٥٥٨ ، فخلفه اخوه عبد النبي بن علي بن مهدي ، وقد اتجه عبد النبي الى شمال تهامة وشرقها واستولى على المخلاف السليماني وقتل الشريف وهاس بن غانم ، ثم عاد عبد النبي الى عدن حيث خاض مـع الزريعيين حربا ضروسا اضطرتهم الى ان يستنجدوا بحاكم صنعاء السلطان علي بن حاتم الذي اتجه بجيش كثيف فهاجم جبله واب . مما اضطر عبد النبي الى فك الحصار عن عدن ومواجهة جيش علي بن حاتم ، وكانت الدائـرة على عبد النبي ففر الى زبيد وعاد علي بن حاتم الى صنعاء .

ولم تدم دولة ال مهدي اكثر من حوالي ١٤ عاما حين اكتسحت اليمـن جيوش صلاح الدين الايوبي بقيادة اخيه طوران شاه فقضت على كـل دول اليمن الائمة في صعدة والسليمانيين في عسير ، والحاتميين في صنعاء وال مهدي في زبيد وال زريع عدن وحضرموت وكانت بداية دولة بني أيوب الكرديـة عام ٥٦٩ هـ ، ونهايتها عام ٦٢٨ .

الحالة الثقافية

في هذا العصر نشطت الحركة الثقافية فظهر أعلام التاليف أمثال نشوان الحميري صاحب كتاب حور العين ، وشمس العلوم ، وعمارة صاحب كتاب المفيد في اخبار صنعاء وزبيد ، وكلا هذين الاديبين العالمين الكبيرين من انشط مؤلفي هذا القرن ، وممن ابرز الممثلين لما سادته من تيارات فكرية وثقافية وأبية.

الخطابة :

من خطب الزعيم اليمني الثائر علي بن مهدي هذه الكلمة التي وردت في تاريخ الجندي « مخطوط » وهي كلمة القاها على جنوده وفيها يصب جـام حقده على النجاحيين في تهامة .

« والله ما جعل الله فناء الحبشة الا بي وبكم وعما قليل ان شاء اللـه سوف تعلمون ، والله العظيم رب موسى وابراهيم ، اني عليهم ريح عـاد وصيحة ثمود ، واني احدثكم فلا اكذبكم وأعدكم فلا أخلفكم ولئن اصبحتم اليوم قليلا لتكثرن او وضعا لتشرفن ، او اذلة لتعزن ححتى تصيروا مثلا في العرب والعجم .

ليجزي الله الذين اساؤا بما عملوا ، ويجزي الذين احسنوا بالحسنـى واخواتهم ولاخولنكم اموالهم واولادهم ثم قراء وعد الله الذين امنوا منكم وعملوا الصالحات الى قوله تعالى امنا »

مجالس الادب .

كانت مجالس الادب في هذا العصر عامرة وقد روى لنا عمارة او على الاصح نقل الينا صورا من تلك المجالس التي كانت تقام في عدن في قصر الرئيس الزريعي الداعي محمد بن سباء ففي هذه المجالس تعلم عمارة أول ما تعلم نظم الشعر بنصيحة من الشاعر ابي بكر العندي وكان عمارة قبلها فقيها لا يخرج عن نطاق العلم بفقه الشريعة وقضايا الفرائض . وممن كان يحضر تلك المجالس القاضيان ابو بكر بن محمد اليافعي وابو الفتح بن سهل . وصفى الدولة احمد بن علي الحقلي والقاضي يحي بن احمد بن احمد بن يحي الذي كان يتولى قضاء صنعاء والذي كان يعده أهل اليمن في الشعراء من طبقة الحسين بن القم ؛ وفي مثل هذه المجالس كانت تدور المطارحات الادبية وتلقى القصائد الشعرية التي كان يحظى الشعراء عليها بالمكافات السخية .

النثــــر

ونثر عمارة ونشوان الحميري يمثلان صورة لازدهار حركة النثر في هذا العصر وسنعرض على القارىء العزيز نموذجا من نثر عمارة .

عاش عمارة في اليمن فترة من حياته ثم انتقل الى الحجاز فمصر التي الف فيها كتاب المفيد في اخبار صنعاء وزبيد بناء على اقتراح القاضي الفاضل رئيس ديوان الانشاء في العهدين الفاطمي والايوبي .

وكان القاضي الفاضل في هذا العصر يمثل أعلى نموذج يتبعه الكتاب في عصره ؛ وقد وصف طريقته مصطفى عبد الرزاق في مقدمة ديوان البهاء زهير بأنها تتميز بالاطناب وكثرة الاقتباس والتضمن والمطابقة والتورية والمجاز مع الاسراف في الجناس وما اليه من المحسنات اللفظية ومع الميل الى المفردات الغريبة والتراكيب الفخمة .

على ان عمارة لم يتاثر – كما هو واضح – بالطريقة الفاضلية وانما هو في نثره صاحب نثر مرسل لا يتكلف فيه ولا يتصنع وهذا نموذج قصير من كتابه المفيد في اخبار صنعاء وزبيد .

« الحمد لله أفضل محمود وأحق معبود ؛ وصلى الله على رسوله اظهر منزل وأكرم مرسل ، وعلى اله اعلام العلوم واطواد الحلوم ؛ وبعد فاني في سنة ثلاث وستين وخمسمائة حضرت مجلس المولى القاضي الاجل الفاضل أبي عبد الرحيم بن القاضي الاشرف بهاء الدين أبي المجد علي البيساني حرس الله علوه ، وادام سموه وهو يومئذ صاحب ديوان الانشاء عن الخلافة العاضدية ضاعف الله قدرتها واعز نصرتها ؛ فحداني ؛ بل هداني أمره

الى وضع كتاب أجمع فيه ما علق بحفظي من اخبار جزيرة اليمن سهلا ووعرا وبرا وبحرا .
حدثني الشيخ الفقيه نزار بن عبد الملك المكي والفقيه احمد بن محمد الاشعري وما منهما الا عارف بايام الناس وأنسابهم وأشعارهم .
وقرأت في كتاب المفيد لاخبار زبيد تأليف الملك المكين أبي الطامي جياش بن نجاح نصير الدين مالك زبيد قالوا : لما كان في سنة تسع وتسعين ومائة اتي الى المأمون بقوم من ولد عبيد الله بن زيياد فانتسب أحدهم واسمه محمد بن فلان بن عبيد اله بن زياد بن معاوية ، وانتسب منهم رجل الى سليمان بن هشام بن عبد الملك ومن ولد هذا الرجل الوزير خلف بن أبي الطاهر وزير جياش بن نجاح « فقال المأمون لهذا الاموي : ان عبد الله بن علي بن العباس ضرب عنق سليمان بن هشام ومنا قوم بالبصرة في افناء الناس . وانتسب له رجل الى بني تغلب واسمه محمد بن هارون ، فبكى المأمون وقال : وانى لي بمحمد بن هارون ؛ يعني اخاه الامين ، ثم قال له : أما الامويان فيقتلان ، وأما التغلبي فعفى عنه رعاية لاسمه واسم ابيه ، فقال ابن زياد : ما أكذب الناس يا امير المؤمنين لانهم يزعمون انك حليم كثير العفو متورع عن سفك الدماء بغير حق فان كنت تقتلنا على ذنوبنا فانا لم نخرج يدا على الطاعة « ولم نفارق في بيعتك رأي الجماعة » وان كنت تقتلنا على جناية بني امية فيكم فالله يقول ولا تزر وازرة وزر أخرى فاستحسن المأمون كلامه وعفا عنهم جميعا . وكانوا أكثر من مائة رجل . ثم اضافهم الى أبي العباس الفضل بن سهل ذي الرئاستين ، وقيل الى اخيه الحسن . فلما بويع لابراهيم بن المهدي ببغداد في المحرم سنة اثنين ومائتين وافق ذلك ورود كتاب عامل اليمن بخروج الاشاعر وعك في تهامة عن الطاعة فأثنى ابن سهل على هذا محمد بن زياد وعلى المرواني والتغلبي عند المأمون وأنهم من أعيان الرجال وافراد الكفاة واشار بتسييرهم الى اليمن ابن زياد اميرا ،وابن هشام وزيرا والتغلبي حاكما ومفتيا ، فمن ولد التغلبي محمد بن هارون وقضاة زبيد بنو ابن أبي عقامة ، ولم يزل الحكم فيهم متوارثا حتى ازالهم ابن مهدي حين ازال دولة الحبشة فأخرجوا في الجيش الذي جهزه المأمون الى بغداد لمحاربة ابراهيم بن المهدي وحج ابن زياد ومن معه في سنة ثلاث ومائتين وسار الى اليمن ففتح تهامة بعد حروب جرت بينه وبين العرب بها واختط زبيد في شعبان سنة ٢٠٤ أربع ومائتين .

عمارة اليمني

في تربة الادب والمعرفة نبت ، وفي بيئة الحياة السياسية نشأ وترعرع ، تذوق افاويق اليسر والنعيم ، وتجرع مرارة البؤس والحرمان ، نبت به اليمن فغادرها هاربا من دسائس القصور ، ومكايد الحكام ، ومظاهر الخلاف القبلي بين الاسر

الحاكمة ، وانتهت به الهجرة الى مصر حيث كان الصراع اشد والخلاف اعنف وانتهت به حياته مقتولا على اعواد المشنقة مع بعض رفاقه في تهمة لم تتفق عليها اقوال الرواة وان تكررت اقوالهم على أنها كانت أحد اسباب قتله ، ذلك هو عمارة بن ابي الحسن اليمني ، الشاعر والمؤرخ الذي كتب عن فترة نحو ٣٠٠ سنة من تاريخ اليمن ما أضحى مرجعا لاعلام المؤرخين الذين عاصروه أو جاؤا من بعده امثال العماد الاصفهاني صاحب جريدة القصر وجريدة العصر ؛ والشريف ادريس الحمزي صاحب كنز الاخبار ، والديبع مؤلف قرة العيون وغيرهم من المؤرخين يمنيين وغير يمنيين .

ولد في تهامه في حدود عام ٥١٠ من الهجرة في مدينة ذكر عمارة في كتابه « النكت العنصرية » انها تسمى مرطانة من وادي وساع واسرته من قحطان من أولاد الحكم بن سعد العشيرة ، وهي أسرة كانت تتمتع بمركز رئاسي في مرطانة وما حولها من تهامة اليمن ، وكان اسلافه اهل علم وفضل تحدث عنهم زيدان بن احمد — عم عمارة — فقال اعد من اسلافي احد عشر جدا ما منهم الا عالم وصنف في عدة علوم ، وفي ظل هذه الاسرة وعلى يد معلم اسمه عطية بن محمد بن حرام تعلم عمارة الكتابة والقراءة وحفظ القران الكريم .

وفي السادسة عشرة من عمره وبالتحديد في سنة احدى وثلاثين وخمس مائة وجهه ابوه بصحبة مرافق له الى زبيد لتلقي العلم ، وكانت زبيد يومذاك تحت حكم بني نجاح وكان مذهب السنة هو الشائع ، وقد قرأ عمارة فقه الشافعية على يد جماعة من المشائخ من ابرزهم ابو محمد بن أبي القاسم الابار ونصرالله بن قاسم الحضرمي ، ودامت مدة دراسته اربع سنوات خرج منها بمحصول وافر في فقه الشريعة بحيث لقب « بالفقيه » و « القاضي » والفرضي نسبة الى الفرائض وهو علم يتعلق بأحكام المواريث .

وانتقلت الحياة بعمارة من دور التلميذ الذي يعكف على دروسه لا يفارقها الا يوم الجمعة لاداء الصلاة الى طور حياته مدرسا يلتف حوله الطلبة حيث أملى عليهم دروسا جمعها في كتاب ذكرته المصادر ولم تعرف نسخته الى اليوم .

بل انه بدأ يوطد صلته بحكام بني نجاح ، فحج مرة مع الملكة الحرة ام فاتك ال نجاح ، ويروى عمارة قصة حراسته لحملها وحفظه لصاغها الذهبي في ليلة تحرك فيها الركب وتخلف هودج الملكة التي كانت فيه نائمة ، وكان ذلك سببا في نيل عمارة الحظوة لديها ولدى وزيرها القائم بشؤون دولتها القائد ابي محمد سرور الفاتكي .

وكانت عدن يحكمها الزريعيون وهم شيعة للفاطميين وكان العداء بينهم وبين ال نجاح السنيين في زبيد مستعرا ، وحدث أن تحرك من عدن اسطول بقيادة بلال بن جرير حيث اجتاح ساحل زبيد فقتل ونهب وأحرق وانقطعت المواصلات بين عدن وزبيد ثلاثة اعوام ، وتعطلت حركة التجارة بين البلدين ، وأقتضى ذلك ارتفاع الاسعار في قطر وهبوطها في قطر اخر .

فوفد عمارة الى عدن شبه شريك للملكة النجاحية ووزيرها في بضاعة اتفقا

على أن يبيعها في عدن لنفاقها في أسواقها على أن يعود ببضاعة لها رواج في أسواق زبيد ، بعد أن يقتطع لنفسه ربحا معينا متفقا عليه ، وقد ادى شاعرنا التاجر مهمته على اكمل وجه ، وأضاف الى ذلك أن اتصل بالاديب الابيني أبي بكر محمد العندي كاتب الدولة الزريعية ووزيرها . فعمل ابو بكر على تقديم عمارة الى الداعي محمد بن سبأ صاحب الدعوة الفاطمية في اليمن واقترح عليه مدح الداعي بقصيدة ، فاعتذر عمارة لانه لا يحسن الشعر ونظم قصيدة ولم يرض عنها الاديب ابو بكر فكتب هذا الاخير قصيدة نحلها عمارة وامره بألقائها ، فألقاها امام الداعي محمد بن سبأ الذي اجازه عليها كما اجازه كبير دولته بلال بن جرير ، ونصحه بعدها الاديب الشاعر الابيني قائلا انك قد وسمت عند القوم بسمة شاعر فطالع كتب الادب ولا تجمد على الفقه ، فكانت تلك النصيحة سببا في وصوله الى ذلك المركز الشعري الرفيع الذي فتح امام عمارة ابواب رجال الدولة في اليمن والحجاز ومصر ، حتى لقد قال عمارة في هذا الصدد مفاخرا .. « ما من أهل دولتي زبيد وعدن الا من يغار على نصيبه من مجالستي ومؤانستي ويطلقون ما وصل من البضائع باسمي من الهند ، ومن عدن ، ومن زبيد ، ومن مكة ، ومن عيذاب برا وبحرا فقضى ذلك باتساع الحال وذهاب الصيت » .

ومرت بعمارة عشر سنوات من ٥٣٨ الى ٥٤٨ هـ كانت من اخصب ايامه في اليمن واستطاع بما اوتي من لباقة وكياسة وحسن تصرف أن يحسن علاقاته مع كلا الطرفين المتنازعين ، آل زريع في عدن وال نجاح في زبيد ،ولكن الحسادة ومنافسيه اوغروا صدورهم ضده : ورسخوا في اذهانهم انه يد ال زريع تعمل على ازالة الحكم من ايديهم ، ونسبوا اليه انه كان واسطة بين الداعي محمد بن سبأ والقائد علي بن مهدي الخارجي ، وكان هذا الاخير قد طلب نصرة الزريعيين على ال نجاح ثم افتتح زبيد يوم الجمعة اخر يوم من رجب عام ٥٥٤هـ كل ذلك احفظ صدور النجاحيين على عمارة حتى اوشكوا ان يقتلوه لولا انه فر الى مكة بعد اختفائه في زبيد اياما .

وسبقت عماره قبل فراره الى مكة شهرته الواسعة العريضة ، فما هو الا ان القى عصاه في رحاب البيت الحرام حتى التف حوله الناس يستمعون الى مواعظه والتلاميذ يتلقون على يديه الدروس ، وبلغت احاديثه امير مكة قاسم بن هاشم بن فليته فاستدعاه وقربه اليه .

وكان خلاف قد نشب بين امير مكة قاسم بن هاشم والخليفة الفاطمي الفائز بمصر ، حول قضايا تتعلق بأمن الحجاج ، وقد وقع اختيار امير مكة على عمارة ليكون سفيرا له الى الخليفة الفاطمي بمصر، من اجل تحسين العلاقات بين البلدين وذلك عام ٥٥٠ هـ .

ووفد شاعرنا الى مصر والقى بين يدي الخليفة الفاطمي الفائز ووزيره الملك الصالح طلائع بن زريك ، قصيدته الميمية المشهورة التي يقول فيها :

الحمد للعيس بعد الحمد للهمم   حمدا بما أولت من النعم
قربن بعد مزار العز من نظري   حتى رأيت أمام العصر من أمم

فهل دری البیت انی بعد فرقتـــه ما سرت من حرم الا الـــى حـــرم
حيث الخلافة مضروب سرادقهـــا بين النقيضين من عفو ومن نقـــم

وكانت الخلافة قد بدأت تضعف في أواخر ذلك العهد ، وكان الوزير هو الملك الفعلي الذي يسمى بالملك كما كان وزير الفائز يسمى بالملك الصالح لذلك اشرك عمارة وزير الخليفة في هذه القصيدة فقال :

اقسمت بالفائز المعصوم معتقدا فوز النجاة واجر البر في القسـم
لقد حمى الدين والدنيـا واهلهما وزيره الصـــالح الفراج للهمـم
خليفة ووزيـر مـد عدلهمـا ظلا على مفرق الاسلام والامـم

ولم يمكث في مصر اكثر من عام فعاد الى مكة عام ٥٥١ ومنها الى زبيد فعدن التي لم يستقر فيها الا سحابة عام ثم شد الرحال حاجا الى مكة ، بعد أن اسقط دينا كان قد لحقه للداعي عمران بن محمد الزريعي وقدره ثلاثة الاف دينار ، وكان قد اسقطه عنه الوزير المصري بن زريك بكتاب بعثه معه الى الداعي عمران ، كما اعاد عمارة الى قاسم بن فليته أمير مكة مالا هو ثمن لحلي فضية باعها له في اسواق اليمن ، وهكذا نلاحظ ان الروح التجارية لم تفارق شاعرنا حتى وهو اديب تملأ شهرته الافاق .

وبعثه امير مكة في نفس العام الى مصر سفيرا في مهمة تتعلق بقضايـا الحاج، فأقبل الى مصر واثقا من مكانته في نفوس خليفتها ووزيرها وحاشيتها الى غير اولئك من خلصائه ورفاقه وكانت هذه الوفادة بداية استقراره بمصر واتخاذه اياها وطنا لم يفارقه حتى نهاية عمره الذي لم يزد عن ٥٥ عاما .

هذا موضوع اثاره الدكتور ذو النون المصري في كتاب له عن عمارة وفحواه ان الدكتور المشار اليه يرجع ان عمارة كان شيعي المذهب وانه قد تحول عن مذهب اهل السنة منذ ان اتصلت الوشائج بينه وبين الفاطميين في عدن وفي مصر ، وهذا الرأي مدعاة للنظر لانه يفترض استحالة ان يمدح الشاعر حاكما من غيرمذهبه، فقد مدح أدباء من الشيعة حكاما سنيين ، ومدح ادباء سنيون حكاما من الشيعة .

وقد اجمع المؤرخون الذين ترجموا لعمارة على انه كان سني المذهب محافظا على تعاليم أهل السنة قال عنه ابن خلكان في تاريخه بينه وفيات الاعيان : «كان فقيها شافعي المذهب شديد التعصب للسنة » وقال عنه الذهبي في تاريخ الاسلام: « عمارة اليمني الشافعي كان شديد التعصب للسنة .

وقال عنه جمال الدين بن واصل في كتابه تاريخ الواصلين : « لم يكن على مذهبهم وانما كان شافعيا سنيا . واستشهد له ابن واصل بهذا البيت الذي يدل على مخالفته لمذهب الشيعة وان جاء ذلك في سياق مدحه امامهم :

افاعيلهم في الجود افعال سنـــه وان خالفوني في اعتقاد التشيـــع

وأحاديث مصادر التاريخ تشير في مواضع كثيرة الى محاوراته مع حكام الفاطميين الذين كانوا يخوضون معه في موضوع خلافة ابي بكر وعمر وعثمان فكانت ردوده عليهم مقنعة وقائمة من مبادىء اهل السنة على اساس مكين .

وجاءته مرة رقعة من الملك الصالح — وزير الفائز — تتضمن ابياتا بخطه مع هبة مالية سنية يقول فيها :

قل للفقيه عمارة يا خير من أضحى يؤلف خطبة وكتابا
أقبل نصيحة من دعاك الى الهدى قل حطة وادخل علينا البابا
تلق الائمة شافعين ولا تجد الا لدينا سنة وكتابا

فأجابه عمارة بهذه الابيات :

حاشاك من هذا الخطاب خطابا يا خير أملاك الزمان نصابا
لكن اذا ما افسدت علماؤكم معمور معتقدي وصار خرابا
ودعوتم فكري الى أقوالكم من بعد ذاك أطاعكم واجابا
فاشدد يديك على صفاء مودتي وامنن علي وسد هذا البابا

أغلب اثار عمارة كتبها وهو في مصر وعلى رأسها ديوان شعره الذي طبع ويبدو ان هذا الديوان غير متكامل لانه لم يشتمل الا على القصائد التي قالها في مصر مادحا حكامها الفاطميين كما اشتمل الديوان على قصائد ومقطوعات اخر قالها في مواضيع الوصف والغزل والحكمة وفي الاخوانيات ونحو ذلك من اغراض الشعر التي كانت متداولة ذلك العصر .. وحتى هذه القصائد التي قالها في مصر لم يكتمل جمعها ، فقد وردت بعض القصائد ، والمقاطع الشعرية في بعض المصادر ولم ترد في ديوان عمارة ولا يبعد ان توجد في بعض كتب المؤرخين اليمنيين .

أما قصائده التي قالها حكام بني زريع في عدن والقصائد التي قالها في حكام ال نجاح في زبيد قد اختفت من ديوان عمارة اختفاء وليس اختفاء هذا الشعر بغريب ، فقد يكون السبب راجعا الى عناية المؤرخين وليس الذى قاله في مصر ، وقد يعود السبب الى ان عمارة قد حرض وهو مقيم بمصر على اخفاء شعره الذى قاله في اليمن .

وعلى اية حال فان المكتبة اليمنية لم تزل الى اليوم حبلى ولم يجئها المخاض حتى تخرج الى عالم النور روائع الادب اليمني المطمور الذي قد يظن ان يكون من بينها قسم كبير من ادب عمارة الذي فات المؤرخين تدوينه .

ومن اثاره الذى وضعه من تاريخ اليمن تحت « المفيد في اخبار صنعاء وزبيد » ولهذا الكتاب قيمة تاريخية عظيمة ، لانه كتب في فترة قلت فيها العناية بكتابة تاريخ اليمن ، وقد أرخ فيه عمارة من بداية الدولة الزيادية التي كانت اولى الدولة التي استقلت بحكم اليمن في خلافة المأمون العباسي ، الى حكم بني نجاح في زبيد ، والصليحيين في صنعاء وعدن ، الى عهد خلفائهم الزريعين في عدن ، كما ضم الكتاب عدة تراجم لادباء يمنيين عاصرهم او سجل اخبارهم واثارهم عن طريق الرواية والسماع .

ولم يشر عمارة الى مصدر عنه في سياق تاليفه لهذا الكتاب حاشا كتاب المفيد للقائد جياش بن نجاح الذي انقرض عصر عمارة ، والذي حجبه تاريخ عمارة بحيث اصبح عمدة الاعلام المؤرخين الناقلين عنه امثال العماد الاصفهاني

وابن الاثير ، وابن القفطي ، وابن خلكان ، وابن خلدون والمقريزي واعتمده من المؤرخين اليمنيين الخزرجي والديبع وغيره .

ويتسم تأليف مترجمنا بنصوع العبارة وصفاء اللفظ والبعد عن اساليب الكتابة الصناعية التي كانت متبعة في ذلك العصر كأسلوب القاضي الفاضل والعماد الاصفهاني ، الميالين الى الجملة المسجوعة واصطناع محسنات البديع .

وقد كان تأليفه « للمفيد » باقتراح من لدن صديقه القاضي الفاضل الذي تحول من خدمة الفاطميين الى خدمة الايوبيين بعد ان قضى على دولتهم صلاح الدين الايوبي ، كما كان من المشيرين على صلاح الدين بقتله في التهمة التي وجهت اليه والتي سيأتي ذكرها في خاتمة هذا العرض .

كتابه في تاريخ مصر

وله ايضا كتاب « النكت العصرية في اخبار الوزارات المصرية » وفيه تسجيل لاخبار الوزراء الفاطميين ، وما حدثت في ذلك العصر من وقائع واحداث ، وقضايا وشؤون .

وقد أودع عماره هذا الكتاب خلاصة تجارية ودروسه التي تلقاها من تقلب الدول وعبر الايام سلك فيه ملك المذكرات الشخصية لان الرجل عاصر الوزراء والخلفاء والحكام فهو يتحدث عنهم بضمير المتكلم ، ولا تفارق شاعرنا في هذا الكتاب طبيعة الاديب فهو يروى المقاطع الشعرية الجيدة ، والاخبار الادبية النادرة ، الى جانب اخبار التاريخ .

قصة وفاته :

هذه القضية ينبغي ان يعرض لها من يقرأ عنها وهو ايقظ ما يكون حسا واشد حذرا ، واقصد بها قضية مقتل عمارة شنقا مع جماعة من رفاقه ، في مؤامرة كان عمارة على رأسها وكانت تستهدف الاطاحة بحكم صلاح الدين الايوبي عن طريق استدعاء الفرنج الصليبيين من صقلية والشام لمهاجمة مصر ، لكي يخرج صلاح الدين لمقارعتهم فتكون الفرصة سانحة لينفذ عمارة ورفاقه خطتهم في الانقلاب من اجل اعادة الحكم الى العلويين .

هذا أهم سبب اعتمده المؤرخون في ذكرهم لمقتل عمارة وذكرت بعض اسباب أخرى مثل هجاء بعض الوزراء الايوبيين وغيرها من الاسباب التي لا تكاد تسوغ قتله بتلك الصورة الشنيعة التي روتها مصادر التاريخ .

ترى هل فكر عمارة فعلا في الانقلاب على الدولة الايوبية في الوقت التي كانت فيه هذه الدولة تنصر مبادىء السنة ــ وعمارة سني المذهب ــ وتعمل على صد الخطر الصليبي الذي لمع صلاح الدين نجما وهاجا عمل على تبديد

ظلماته المتراكمة بعضها فوق بعض ثم ان عمارة له شعر في صلاح الدين فيه ثناء وتمجيد لاعماله وبطولته .

اكانت تلك التهمة التي اشارت اصابعها الى عمارة متناسبة مع فقهه الذي لا يسمح لجماعة من المسلمين ان يلجأوا الى اهل الشرك لكشف مظلمة واقعة اورد ملك مضاع ؟؟ اكان ذنبه أم أن ذنبه كان واقعا في كونه فردا ينتمي الى نظام قديم سحقته دولة جديدة وشكت في ولاء ذلك الفرد لها بحكم علاقاته السابقة بحكام النظام القديم ؟؟ .

ان كتب التاريخ لتفيض في وفاء عمارة للفاطميين لقد رثي ملكهم بقصائد روائع مثل لاميته التي يقول فيها :

رميت يا دهر كف المجد بالشلل ... وجيده بعد حسن الحلى بالعطل
سعيت في منهج الراي العثور فان ... قدرت من عثرات الراي فاستقل
لهفي ولهف بني الامال قاطبة ... على فجيعتها في أكرم الدول
ماذا ترى كانت الافرنج فاعلة ... في نسل آل أمير المؤمنين علي

وقوله يرثي في قصيدة اخرى :

لما رايت عراص الحي خالية ... من الانيس وما بالربع سادات
أيقنت انهم عن ربعهم رحلوا ... وخلفوني وفي قلبي حزازاتي

اجل ان كتب التاريخ لتفيض في ذكر الشعر الذي قاله عمارة في رثاء الفاطميين فهل كان هذا الشعر هو السبب في اهمال الايوبيين لعمارة واحتضان الايوبيين اناسا اخرين غير شاعرنا ممن كانوا انصارا للناظم القديم امثال القاضي الفاضل وابن شداد وغيرهما من الادباء .

كل ذلك جائز .. ولكن الذي لا يجوز ان نأخذ كل قصص التاريخ مأخذ المسلمات التي لا تقبل النقض ولا التغيير ، ولا سيما حين يكتب التاريخ الغالبون.

من شعر عمارة السائر قصيدته الرائية التي وصف بها قصر الوزير الفاطمي بن رزيك ومن أبياتها :

فتمل دارا شيدتها همة ... يغدو العسير بأمرها متيسرا
فاقت على الاطلاق كل بنية ... وسمت فما استثنت سوى ام القرى
أنشأت فيها للعيون بدائعا ... دقت فأذهل حسنها من أبصرا
فمن الرخام مسيرا ، ومسبها ... ومنمنما ، ومدرهما ، ومدنرا
والعاج بين الآبنوس كانه ... أرض من الكافور تنبت عنبرا
البستها بيض الستور وحمرها ... فأتت كزهر الورد أبيض أحمرا
وسقيت من ذوب النضار سقوفها ... حتى يكاد نضارها أن يقطرا
لم يبق نوع صامت أو ناطق ... الا غدا فيها الجميع مصورا
فيها حدائق لم تجدها ديمة ... كلا ولا نبتت على وجه الثرى
لم يبد فيها الروض الا مزهرا ... والنخل والرمان الا مثمرا
والطير مذ وقعت على اغصانها ... وثمارها لم تستطع أن تنقرا
وبها من الحيوان كل مشبه ... لبس الحرير العبقري مصورا
لا تعدم الابصا بين مروجها ... ليثا ولا ظبيا بوجرة أعفرا
أنست نوافر وحشها لسباعها ... فظباؤها لا تتقي أسد الشرى

وكأن صولتك المخيفــــة امنــت ... اسرابهـــــا الا تخـــــاف فتذعرا
وبها زرافــات كأن رقابهــــــا ... في الطول الويـــة تـــؤم العسكرا
نوبيـــــة المنشأ تريـــك من المها ... روقا ومـــن بـــزل المهاري مشفرا
جبلت على الاقعاء مـــن أعجازها ... فتخالهـــا في التيه تمشي القهقرى

ويقول الدكتور ذو النون المصري في تحليل هذه القصيدة ووصف معانيها :

(١) وعمارة في هذا الوصف مهندس ماهر ، ومصور بارع ، نقل الينا في أمانة لغوية مفصحة تصميم دار من ديار العصر الفاطمي ، مبانيها وسقوفها ، وجدرانها ، ورخاما ، وستورها ، وألوانها الزاهية ، ونقوشها المختلفة ، وما صور فيها من الحيوانات المفترسة والاليفة ، والرياض المزهرة ، والاشجـار المثمرة ، ولو أن رساما قدم لنا هذا التصميم مصورا على لوحة فنية لما زاد عن وصف هذا الشاعر شيئا . وقد أبدع عمارة حين اضفى من خياله على ما قدم لنا من صور ، حتى جاءت قصيدته تحفة فنية رائعة .

ويحوى ديوان عمارة قصيدة اخذت شهرتها تفوق الوصف في العالم العربي الاسلامي على ما ذهب اليه ديرنبورغ في مقدمة الديوان وهي القصيدة العينية التي وجهها الى صلاح الدين ولكنه لم ينشدها امامها واسمها (شكاية المتظلم ، ونهاية المتألم) .

فهي في الفاظها ومعانيها وقافيتها وجرسها تعد من الطراز الاول فـــي القصائد العربية التي قيلت في موضوع الشكوى .

نص القصيـــدة

أيا أذن الايام ان قلت فاسمعـــي ... لنفثة مصدور وأنـــــة موجـــع
وعي كل صوت تسمعين نـــداءه ... فلا خير في أذن تنادي فلا تعـــي
تقاصر بي خطب الزمـــان وباعه ... فقصر عن ذرعي وقصر أذرعـــي
وأخرجني من موضع كنت اهلــه ... وأنزلني بالجور في غـــير موضعي
بسيف ابن مهدي وأبنـــاء فاتـــك ... أقض من الاوطان جنبي ومضجعي
فيممت مصرا أطلب الجاه والغنى ... فنلتهما في ظـــــل عيش ممتـــع
وزرت ملوك النيل اذ زاد نيلهـــم ... فأحمد مرتادي وأخصب مرتعـــي
وكم طرقتني مــــــن يد عاضدية ... سرت بين يقظي من عيون وهجع
وجاء ابن رزيك من الجاه والغنى ... بما زاد عن مرمى رجائي ومطمعي
وأوحى الى سمعي ودائع شعـــره ... لخبرته منـــــي بأكـــرم مـــودع
وليست أيادي شـــاور بذميمـــة ... ولا عهدها عنـــدي بعهد مضيـــع
ملوك رعوا لي حرمة صار نبتهـــا ... هشيما رعتـــه النائبات وما رعى
وردت بهم شمس العطايا لوفدهم ... كما قال قوم في عـــلا وتوشـــــع
مذاهبهم في الجود مذهب سنـــــة ... وان خالفوني في اعتقاد التشيـــع
فقل لصلاح الدين والعدل شانـــه ... من الحكم المصغى الــــي فادعي

---

(١) المصدر المشار اليه لذي النون المصري

سكت فقالت ناطقات ضرورتي   اذا حلقات الباب علقن فامرع

فأدللت ادلال المحب وقلت : ما   أبالي بعفو الطبع لا بالتطبع

وعندي من الاداب ما لو شرحته   تيقنت أني قدوه ابن المقفع

اقمت لكم ضيفا ثلاثة اشهر   اقول لصدري كلما ضاق : وسع

أعلل غلماني وخيلي ونسوتي   بما صغت من عذر ضعيف مرقع

ونوابك الموفون في كل بلدة   تفرق شمل النائل المتوزع

وكم من ضيوف الباب ممن لسانه   اذا قطعوه لا يقوم بأصبع

مشارع من نعمائكم زرتها وقد   تكرر بالاسكندرية مشرعي

وضايقني أهل الديون فلم يكن   سوى بابكم منه ملاذي ومفزعي

فيا راعي الاسلام ، كيف تركتها   فريقي ضياع من عرايا وجوع ؟

دعوناك من قرب وبعد فهب لنا   جوابك فالبازي يجيب اذا دعي

الى الله اشكو من ليالي ضرورة   رجعنا بهسا نحو الجناب المرجع

قنعنا ولم نسألك صبرا وعفة   الى أن عدمنا بلغة المتقنع

ولما أغص الريق مجرى حلوقنا   أتيناك نشكو غصة المتوجع

فان كنت ترعى الناس للفقه وحده   فمنه طرازي بل لثامي وبرقعي

ألم ترعني للشافعي وأنتم   أجل شفيع عند أعلى مشفع ؟

ونصري له في حيث لا أنت ناصر   بضرب صقيلات ولا طعن شرع

ليالي لا فقه العراق بسجسج   بمصر ولا ريح الشام بزعزع

كأني بها من آل فرعون مؤمن   أصارع عن ديني وان حان مصرعي

أمن حسنات الدهر أم سيئاته   رضاك عن الدنيا بما فعلت معي ؟

ملكت عنان النصر ثم خذلتني   وحالي بمرأى من علاك ومسمع

فما لك لم توسع علي وتلتفت   الي التفات المنعم المتبرع

فأما لأني لست دون معاشر   فتحت لهم باب العطاء الموسع

وأما لما أوضحته من زعازع   عصفن علي ديني ولم أتزعزع

وردي ألوف المال لم التفت لها   بعيني ولم أحفل ولم أتطلع

وأما لفن واحد من معارف   هو النظم الا انه نظم مبدع

فان سمتني نظما ظفرت بمفلق   وان سمتني نثرا ظفرت بمصقع

طباع وفي المطبوع من خطراته   غنى عن أفانين الكلام المصنع

سألتك في دين لياليك سقته   والزمتنيه كارها غير طيع

وهاجرت أرجو منك اطلاق راتب   تقرر من ازمان كسرى وتبع

وليتك فيمن أطلق الشرق مطلعي   لتعلم نبعي ان عجمت وخروعي

وما أنا الا قائم السـ ف لم يعن   بكف ودر لم يجد من مرصع

وياقوته في سلك عقد سدارة   على خرزات من عقيق مجزع

فيا واصل الارزاق كيف تركتني   امد الى كف المنى كف اقطع ؟

اعندك أني كلما عطس امرؤ   بذي شمم اقنى عطست بأجدع

ظلامة مصدوع الفؤاد فهل له   سبيل الى جبر الفؤاد المصدع ؟

وأقسم لو قالت لياليك للدجى :   اعد غارب الجوزاء قال لها: اطلعي

غدا الامر في ايصال رزقي وقطعه   بحكمك فأبذل كيفما شئت وامنع

كذلك اقدار الرجال وان غدت   بحكمك فاحفظ كيف شئت وضيع

فيا زارع الاحسان في كل تربة   ظفرت بأرض تنبت الشكر فازرع

فعندي اذا ما العرف ضاع غريبه   ثناء كعرف المسكة المتضوع

وقدر صدرت في طي ذا النظم رقعة / غدا طمعي فيهما الى خير مطمع
أريد بها اطلاق ديني ورواتبي / فأطلقها والامر منك ووقع
وبيني وبين الجاه والعز والغنى / وقائع أخشاها اذا لم توقع
وما هي الا مدة نستمدها / وقد فجت الارزاق من كل منبع
الى ها هنا أنهي حديثي وانتهي / وما شئت في حقي من الخير فاصنع
فانك أهل الجود والبر والتقى / ووضع الايادي البيض في كل موضع

ومن شعره الذي يدل على أن عمارة يفهم الشعر لا على انه مجرد وزن وقافية وانما الشعر كالماء في العين لونه واحد ولكن منه العذب الفرات ومنه الملح الاجاج .

تجنبت مطروق الكلام وهذه / خلاصة ما انشاته وابتدأته
ولم أر مثل الشعر يرجو بغاثه / مطارا بجو قد حمته بزاته
توهم قوم أنه الوزن وحده / وقد غاب عنهم سره وسراته
كذلك لون الماء في العين واحد / وما يتساوى ملحه وفراته

ومن شعره في الحكمة قوله :

اذا لم يسالمك الزمان فحارب / وباعد اذا لم تنتفع بالاقارب
ولا تحتقر كيد الضعيف فربما / تموت الافاعي من سموم العقارب
فقد هد قدما عرش بلقيس هدهد / وأخرب فأر قبل ذا سد مارب
اذا كان رأس المال عمرك فاحترز / عليه من الانفاق في غير واجب
فبين اختلاف الليل والصبح معرك / يكر علينا جيشه بالعجائب
وما راعني غدر الشباب لانني / أنست بهذا الخلق من كل صاحب
وغدر الفتى في عهده ووفائه / وغدر المواضي في نبو المضارب
اذا كان هذا الدر معدنه فمي / فصونوه عن تقبيل راحة واهب
رأيت رجالا أصبحت في مآرب / لديكم وحالي أصبحت في نوادب
ترى أين كانوا في مواطني التي / غدوت لكم فيهن أكرم نادب
ليالي أتلو ذكركم في مجالس / حديث الورى فيها بغمز الحواجب

حاتم بن عمران ــ صاحب صنعاء :

ترجم له عمارة في كتابه المفيد في اخبار صنعاء وزبيد فقال :

هو حاتم احمد بن عمران صاحب صنعاء ، وكان القاضي الرشيد بن الزبير وقد جاوره بصنعاء يذكر من سؤدده ونبله وفواضله وفضله ما يقف الوصف عنده ولا يجاوز حده . .

وترجم له المؤرخ الخزرجي في كتابه طراز اعلام الزمن فقال ما فحواه :

هو الملقب حميد الدولة كان أوحد عصره وسلطان اهل بلده في دهره فلما انقضت ايام بني حاتم بن الغشم المغلسي أجمعت همدان بأسرها وحملوه على القيام بالامر والاضطلاع به فكان قيامه في صنعاء عام ٥٣٣ ، وفي أيام حاتم بن احمد بن عمران ظهر الامام المتوكل أحمد بن سليمان الذي خاض معه حاتم عدة وقائع كانت الحرب فيها بينهما سجالا وكانت صنعاء مرة في يد الامام ومرة في

يـــد حاتـــم .
وينحدر حتام بن احمد من بيت رئاسة وأدب فان جده هو القاضي عمران اليامي من اقطاب الدولة الصليحية عينه المكرم الصليحي واليا على صنعـــاء ولعمران في المكرم وابيه عدة قصائد وكان مقتل عمران في وقعة الكظائم التـي دارت في احدى نواحي زبيد عام ٤٧٩ وقيل عام ٤٨٤ بين قوات الداعي سبأ بن احمد وقوات جياش النجاحي .
والى حاتم بن احمد هذا تنسب الروضة بصنعاء التي تسمى الى اليوم بروضة حاتم ، ولاسرة حاتم حارة مخصوصة لهم تعرف الى اليوم يدرب السلاطين فـي الجانب الغربي من الروضة ، ومقابرهم فيها معروفة وبها قبر السلطان حاتـم بن أحمـد .
أما شعر السلطان حاتم بن أحمد فيتحدث عن حروبه مع الامام احمد بـــن سليمان الذي أرسل ذات مرة رسولا الى صنعاء يشتري له ورقا وحوائج وعلم حاتم بأمر الرسول فأستحضره وحمله الى الامام بيتين من الشعر يقول فيهما

أبالورق الطلحي تأخذ ارضنـــا ولم تشتجر تحت العجاج رمـاح
وتأخذ صنعـــاء وهي كرسيّ ملكنا ونحن بأطراف البـــلاد شحـاح

وفي موقعة « الشزرة » من بلاد سنحان انهزم السلطان حاتم وقواته امام قوات الامام واضطر الى الصلح معه وقدم البيعة له مكرها وفي ذلك يقول :

غلبنا بني حواء شرقا ومغربـــا ولكننا لم نستطع غلب الدهـــر
فلا لوم فيما لا يطـاق وانمــا يلام الفتى فيما يطاق من الامــر

ولكنه بعو البيعة قاتل الامام احمد بن سليمان وخاض معه عددا من المعارك انتهت بصد قوات الامام والاستقلال بحكم صنعاء هو وعقبة ، وفي ذلك يقول :

يقولون لي قد حزت مملكة الدرب فادمن على اللذات واللهو والشرب
ولا تهجر الصهباء فهي لذيـــذة مسهلة ما كان مـــن خلق صعب
فقلت اذهبوا عني فلســت بنازح على مذهبي حسبي به مذهبا حسبي
صبا القوم فانصبوا الى ام ذفرهم ولست بمنصب اليهـــا ولا صب

وفي دفعة ديات القتلى من أنصاره قال :

ينبيهمـــو حملي ديات عـــدة ان المكارم في الرقاب صنائـــع
فليسرعوا مـــن فورهم تصديرها متعمدين نفاذ ما أنـا صانـــع

وكان له جواد اصيل يسمى الرازقي أشتهر بقوة العضل وخفة السرعة وفيه يقول :

ليس للرازقي فيمـــا علمنـــا الان ذنب نعده فـي الذنـــوب
غير صبر وسرعـــة وانـــاة ونشاط مـــع الوقـــار وطيـب

واحسن من ذلك قوله واصفا هذا الجواد :

ولي قائد نحو المنايـا وسـائق يسوق اليهـا أو الـي يسوقها
وهن المنايا أي واد سلكتـــه طريقي عليهـا أو علي طريقهـا

وفي الشكوى ممن جاوزه على الاحسان مساءة وعلى العرف والوفاء نكـــرا وغدرا يقول حاتم بن أحمد اليامي :

تركت أناسا في غضارة عيشهـم وأمنتهم مـــن طارق الحدثـــان

وكنت لهم حصنا حصينا وموئــلا واصلت سيفي دونهــم وسنانــي
وعلمتهم رمى العدو فكلهـــــم تغمدني دون العـــدا فرمانــي

وللسلطان الشـاعر حاتم بن أحمد قصيدة ميمية دارت أبياتها حول موضـــوع الحلم عن القريب أو الصديق الجاهل وهي تذكرنا بقصيدة الشاعر المخضـــرم — جاهلي أسلامي — معن بن أوس المزني التي يقول في مقدمة ابياتها :

وذوي رحم قلمت أظفار ضغنـه بحلمي عنه هو وليس له حــلم
يحاول رغمي لا يحــاول غـــيره وكالموت عندي أن يحل بـه الرغم
فان أعف عنه أغض عينا على قذى وليس له بالصفح عن ذنبـه حلم
صبرت على ما كان بيني وبينـــه وما تستوي حرب الاقارب والسلم

وقد اثبتت هذه القصيدة كثير من المصادر اليمنية الحديثة اثبتها الاستاذ الاكوع في تلعيقه على كتاب « المفيد » لعمارة ، والاستاذ عبد الله الثور في نماذجه مـــن الشعر اليمني واحمد الشامي في كتابه قصة الادب في اليمن .

على ان من الحق ان نقول ان في النفس شيئا من الشك في صحة نص هذه القصيدة ويكاد يغلب على الظن أن هذه القصيدة قد نقلت من مصادر غير محققة تحقيقا مضبوطا ففي بعض أبياتها ضعف ، وما يشبه عدم التلاؤم والاتساق بين معانيها على اننا نستطيع أن نثبت منها ما يخيل الينا انه انه مستقيم وصحيم فمن ذلـــك قـــول شاعرنـــا .

واورى زناد الهم في القلب جــذوة اذا جاش من تيــاره متلاطمـــه
وما ذاك من شوق ولا نأي معهــد ولا فقد رسم دراســات معالمــه
ولكن اذا خان الصديق صديقـــه وصارم بالاوهام مـــن لا يصارمه
ونكب عنـــا مـــن نريد وداده وسالمنـــا مـــن لا نريــد نسالمه
ولو أنني حاكمتـــه لحجتـــه ولكنني من حشمة لا أحاكمـــه
فيا صحبتي لينوا له وارفقوا بــه ليستــل منـــه حقــده وسخائمه
وما لامني الا مليـــم فعنـــد ولا لامه الا عـــلى النكث لائمــه
دليل صفاء الـــود في المرء بشــره وشر خليل عابس الوجـــه واجمه
وللود مـــا بين الاخـــلاء شاهـــد أحاديثهم عنـــد المغيب تراجمـــه

ثم يوجه شاعرنا في هذه القصيدة الحديث الى رفيق له كناه بأبي منـــذر الذي وجه اليه عتبه في أبيات ما نرى انها قد قيلت بالشكـــل الذي نقلت به ، ومثلها الابيات التي تلتها في وصف الجواد ، وفي نهاية القصيدة التي قدمها الى صديقه أبي منذر يتحدث شاعرنا عن موهبته الادبية الممتازة وعن قريحتـــه الشعرية ذات الخلق والابداع وذلك حين يقول :

فدونكها كالبـــدر ليلة تمـــة وكالعنبر الشحري فضت لطائمه
يهذبهـــا فكر تحضر بعدمـــا بدا فهو صمصام الكلام وصارمه
خبير بأبكار المعانـــي وعونهـــا وبالشعر مذ نيطت عليـه تمائمه

وللشاعر السلطان حاتم قصيدة يهاجم بها الدعوة الاسماعيلية ويتبرأ فيها من الداعي الذوئب وأمثاله من الدعاة الفاطميين ، كما يتبرأ من ماذون همـــدان ولسنا نعلم من هو ماذن هدان الذي يقصده ولكنا نعلم أن المأذون مرتبة مـــن

مراتب الدعوة الباطنية ، أما الذؤيب بن موسى الوادعي فهو أول داع مطلق من دعاة الفاطميين .

حين دخلت دعوتهم مرحلة الستر . وقد نصبته الملكة أروى داعيا للامام المستور الطيب بن الامر بن المستعلي حين قررت فصل الدعوة الاسماعيلية عن الدولة . وكان الداعي قبل ذلك يجمع بين الدعوة والدولة ، فقد كان علي الصليحي مثلا داعيا ورئيسا للدولة ومثله كان ولده المكرم في بداية الامر ولكن الخليفة المستنصر بمصر لقب المكرم بداعي السيف وعين الى جانبه القاضي لك داعيا لقبه بداعي القلم ، وحين توفي لمك عام ٥١٠ هـ خلفه ابنه يحيى في القيام بشؤون الدعوة ، وبعد وفاة يحيى خلفه الذؤيب بن موسى وفي التبرؤ من الذوئب وغيره من الدعاة يقول حاتم بن احمد بن عمران مؤكدا سنيته ورفضه للمذهب الاسماعيلي :

برئت من الذؤيب ومن علي	ومن مأذون همدان بريت
ظموا ورويت من ماء معين	ولو أني صحبتهم ظميت
شقوا بخلافهم للدين حقا	وخالفت الغواة فما شقيت
ولو أني أشاء شهرت منهم	فضائح لا تواريها البيوت
أخشى الناس في ديني وأغضي	كأني بعد ذلك لا أموت
فان ترني واياهم جميعا	فقل كيف التقى ضب وحوت
ولو وردوا الفرات لنجوه	ولم يك طاهرا حتى يموتوا

أبو بكر اليافعي :

ترجم له المؤرخ البهاء الجندي فقال :

هو ابن العتيق أبو بكر بن الفقيه أبي عبد الله محمد بن ابراهيم اليافعي نسبا الجندي مولدا مولده عام ٤٧٠ أثنى عليه عمارة ثناء مرضيا وكان به عارفا وله مخالطا فقال عند ذكره هو قاضي قضاة اليمن المنوطة به أحكام صنعاء وعدن ادركته جليسا وخصيصا للملكي اليمن المنصور بن المفضل والداعي محمد بن سبأ وهو مجيد ، وله بديهة لافضل في الرواية عليها .. تفقه بعلامة اليمن زيد بن عبد الله اليفاعي ، واخذ الادب عن النعماني والرشيد بن الزبير ولما عاد الرشيد الى مصر سئل عمن في اليمن الفضلاء فقال بها جماعة سيدهم ابو بكر اليافعي وقاه الله ورعاه .

ولابي بكر اليافعي ديوان شعر مخطوط يقع في مجلدين كبيرين وغالب شعره في مدح المنصور بن المفضل بن ابي البركات الحميري والداعي محمد بن سبأ الزريعي ويحتوي شعره على الجد والهزل والرقيق والجزل .

فمن شعر ابي بكر اليافعي قوله ردا على من عابه لقول الشعر وانه لا يليق بعلماء الدين :

وكم حاسد لي في الانام وغابط	على منطقي اذا كان منطقه رخوا
يعيرني بالشعر قوم وبعضهم	يوبخني والكل يخبط في عشوا

أرادوا به عيبي وهل هـو ناقص ... اذا ما جمعت الشعر والفقه والنحوا
وأصبحت في علم العروض مجودا ... وقدم قولي في الحكومة والفتـوى
وما كنت مداحا لنفسـي وانمـا ... لأجعل أكباد العدى بالغطى تكوى

وفي ذكر ماثر المنصور بن المفضل بن ابي البركات الحميري يقول الشاعر ابو بكي اليافعـي :

كثرت يابن مفضل حسـادي ... بصنائع أسديتهـا وأيـادي
وانلتني بنداك اسباب الغنـى ... فبلغت أوطاري ونلـت مرادي
وفعلت لي ما ليس يفعلـه الاب ... الحـاني عـلى الاولاد للاولاد
في كل يوم خلعـة مشهـورة ... كالروض تسخين أعـين الاضداد
ومواهب عدد النجوم فلـو درت ... زهر النجوم لكن مـن حسـادي

الى أن يقول في هذه القصيدة معددا ماثر المنصور وابيه :

وأقل مكرمة لـه وفضيلـة ... اجراؤه للغيـل في الاجنـاد
شق الجبال الشامخات فأصبحت ... وكأنما كانت شعـاب وهـاد
فاليوم أصبح مـاء خنوة وهـو ... في الجند العزيزة منهـل الوراد
فخر المفضل في المفاخر كلهـا ... بمثابة الارواح في الاجسـاد

وكان أبو بكر اليافعي مستقرا في عدن أيام الداعي محمد بن سبأ حيث كانت تنعقد مجالس أدبية أشار اليها عمارة في كتاب المفيد على ان من أجود شعره قصيدته التي قالها مودعا رفاقه واحباءه في بلدة يغرس بالمعافر :

أستودع الله الـذي ودعـا ... ونحن للفرقـة نبكي معـا
أسبـل من أجفانه أدمعـا ... لما رآنـي مسبـلا أدمعـا
وقال لي عنـد فراقـي لـه ... ما أعظـم البـين ومـا أوجعا
ما أنت بعدي بالنـوى صانع ... فقلت لا اقـدر ان أصنعـا
ما يصنع الصـب المعنـى اذا ... فارق الفا غـير أن يجزعـا
فارقتكم يا سـاكني يغـرس ... ورحت والقلب بـكم مولعـا
ناديت صبري يوم فارقتـكم ... اجـد للبـين وقـد أزمعـا
يا صبر عد يا صبر عد قـال لا ... لبيك لا لبيـك يا مـن دعـا
والله لا أرجع يـا غـادرا ... ما دمت في الفرقة او ترجعـا
ولي فـؤاد منـذ فارقتـكم ... ظل كئيبا مدنفـا موجعـا
ونفس صـب شهـدت أنـه ... ما نقض العهـد ولا ضيعـا
ومقلة مهمـا تذكرتـكم ... تذرف دمعـي أربعـا أربعـا
وليس لي مـن حيلـة كلمـا ... لجت بي الاشـواق غـير الدعـا
أسأل مـن ألف مـا بيننـا ... وقـدر الفرقـة أن يجمعـا

محمد بن عبد الله الحفائلـي :

ومن شعراء هذا العصر القاضي محمد بن عبدالله الحفائلي ، كان ـ كما وصفـه عمارة ـ فقيها متكلما ، شاعرا مترسلا ، وانتهت اليه رئاسة مذهـب الشافعي في زبيد ومن شعره ما كتبه الى صديق لـه :

رفقا فدتك أوائلي وأواخري | أين الاضاة (١) من الفرات الزاخر
أنت الذي نوهت بي من الوري | ورفعت للسارين ضوء مفاخري

ومن شعر الحفائلي في وصف الطبيعة :

وروضة ما رأى الراؤن مشبهها | كأنما سرقت شيئا من الزمن
غيم وظل وروض مونق وهوى | يجري مع الروح (٢) مجرى الروح في البدن
غنت بها الطير الحانا وساعدها | رقص الغصون على ايقاعها الحسن
فقد سكرت وما الصهباء دائرة | فيها ولا نغمات العود في أذني

واثنى على صديقه الشاعر عمارة واصفا شاعريته بقوله :

اذا فاخرت سعد العشيرة لم تكن | لأخلافها الا بأسلافها الفخر
وبيتك منها يا عمارة شامخ | هوت تحته الشعرى ودان له الشعر

ابن الهبيني :

من شعراء تهامة كان شاعر علي بن مهدي صاحب زبيد وأولاده وهو القائل على لسان ابن مهدي :

أبلغ قرى تعكر ولا جرما | ان الذي تكرهون قد دهما
وقل لجناتها سأبدلها | سيلا بأيام مأرب عرما
أتشرب الخمر في ربى عدن | والسمر والبيض في الحصيب ظما .
ويلجم الدين في محافلها | والخيل حولي تعلك اللجما

علي بن مهدي :

ومن شعر الرئيس علي بن مهدي هذه المقطوعة التي تنضح بمعاني الفروسية :

عناق العتاق الصافنات السوابق | الذ وأشهى من عناق العواتق
وسهرتنا بالليل فوق ظهورها | الذ الينا من رقاد النمارق
وما العز الا في صها كل صاهل | من الخيل لا في صهوتي كل ناهق
وفي الذابلات العاسلات من القنا | وفي المشرفيات الرقاق الفوالق
اذا ضحكت في حافتيها سيوفنا | بكين العوالي من دماء هوارق
وما طلعت أسيافنا من غمودها | فتغرب الا في الكلي والمفارق

أبو بكر العندي :

اختلفت مصادر التاريخ حول لقبه المنسوب فقيل العندي وقيل العيدي والثاني هو الاشهر ، ولكنا نستأنس بالاول فنقول العندي نسبة الى منطقة

(١) الاضاة : هو المستنقع الصغير من الماء
(٢) الروح بفتح الراء : الريح الطيبة

« العند » في المحافظه الثانية أو نسبه الى حي الاعنود كما تقول بعض لمصادر الاعنود حي من الاحياء اليمنية .

لم تذكر مصادر التاريخ مولده ولكنها اشارت الى أن وفاته كانت في عام ٥٨٠ هـ أما عن نشأته فقد أشارت المصادر الى انه ولد من أسرة مترفة فقد كان والده من كبار الاعيان وفي ظل هذا الوالد نشأ ابو بكر نشأة علمية . درس على أيدي علماء عدن الفقه والادب والحساب فبرز على اقرانه ونظم ونثر فمهر في الشعر والادب .

ويظهر أن مولده كان في أوائل القرن السادس ، فقد علمنا أنه عرف واشتهر في عهد الداعي محمد بن سبأ وهذا الداعي حكم عدن وما جاورها في عام ٥٣٤ هـ وكان الشيخ بلال بن جرير المحمدي وصى ابنه بعد وفاته ونصيره وعضده الذي ساعده على الاستقلال بحكم عدن وفصلها عن الصليحيين في أواخر أيام الملكة اروى والى بلال هذا يرجع الفضل في تعريف العندي بالداعي محمد بن سبأ وتقريبه اليه وتعيينه في وظيفة الامين الخاص له فكان العندي أديب الدولة وشاعرها وكاتب الرسائل فيها والمستشار الذي بلغ محل الثقة من كلا الداعي بنْ سبأ وقائده ونصيره بلال بن جرير .

عاصر الشاعر أبو بكر العندي الدولة الزريعية ، وشهد اخر أيام الدولة لصليحية وكلا الاسرتين ابناء عمومة وخئولة واحدة ولكن أطماع الحكم هي لتي جرت الحروب الدامية التي خاضها الفريقان رغم أن كليهما شيعة لابناء فاطمة، يجمعها مذهب واحد وطريقة عقائدية واحدة .

فالصليحيون استقلوا بحكم اليمن رغم انهم ظلوا ظاهريا على ولائهم للخليفة الفاطمي بمصر ، والزريعيون استقلوا عدن وملحقاتها رغم انهم عينوا في بداية الامر حكاما عليها خلفا لبني معن الذين استقلوا بحكم عدن زمنا وكان الصليحيون قد أقروهم على الحكام على أن يدفعوا خراجا سنويا محددا .

وعاصر الشاعر ابو بكر العندي دولة علي بن مهدي الخارجي التي اسسها في التهائم اليمنية والتي انتهت كما انتهت دولة الزريعيين على أيدي الايوبيين عام ٥٥٨ .

تلقى الاديب العندي الثقافة التي كانت متداولة في عصره من لغة وفقه واصول وعلم قران ، واتصل بال زريع الذين كانوا فاطمية فهل كانت ثقافته اسماعيلية ان الذي يتبادر الى الذهن أن الثقافة الاسماعيلية كانت هي السائدة لانها ثقافة الطبقة الحاكمة التي كانت تعتمد على تعاليمها في توطيد نظام الحكم ، والثقافة الاسماعيلية كانت في ذلك العهد ــ كما هي في كل عهد ــ ذات هيكل تداخلي تركيبي ، ففيها بذور من الفلسفة التي تبتعد بها عن نهج أهل السنة حيث السهولة والبساطة والاخذ بأسباب ظواهر النصوص الاسلامية ، حين يستدعي الامر الاحتكام الى ظواهر النصوص في الاحيان النادرة وباطنية في أغلب الاحيان بل أن الباطن هو الاصل الذي عليه مدار تعاليم الفاطميين .

والشيعة فرق كثيرة منهم المعتدلون ومنهم الغلاة المتطرفون وفي أدبهم أمشاج مختلطة من الثقافات والفلسفات القديمة كفلسفة الحلول وتناسخ الارواح والقول بالرجعة بعد الموت وكان كثير يرى عودة أحد الائمة من البيت الفاطمي بعد موته وله في ذلك هذا البيت المشهور :

ألا قل للوصي فدتك نفسي ... اطلت بذلك الجيل المقاما

وكان ابن هاني الاندلسي شاعر المعز يضفي عليه صفات النبوة والالوهية وهو الذي يقول فيه :

ما شئت لا ما شاءت الاقدار ... فاحكم فانت الواحد القهار

فكانما أنت النبي محمد ... وكانما انصارك الانصار

فما هي ثقافة العندي أكانت فاطمية محضة ، وبعبارة أخرى هل كان العندي من الشيعة بحكم صلته بالزريعيين الذين كانوا انصار للفاطميين ؟؟

لقد كنا تعرضنا لمثل هذه الفكرة في عرضنا الذي قدمناه حول الشاعر عمارة ، لقد قلنا ما فحواه « أن عمارة مدح الفاطميين في عدن وفي مصر ومات مقتولا بيد صلاح الدين الايوبي من اجل ولائه لهم ولكن ظواهر شعره ومعارض أقواله تدل على انه كان سني العقيدة ، وقد حدث أن كاتب — أحد حكام بني ايوب — بشعر يحثه فيه على ضرورة اعتناقه لمبادىء الشيعة فرد عليه بشعر يرفض هذا الاقتراح ويرجوه أن لا يعيد مثل هذا القول مرة ثانية. واذا كنا قد قلنا مثل هذا القول في عمارة اليمني فأحرى بنا أن نقوله في العندي الذي كان إستاذ عمارة في الادب فهو أول من وجهه اليه ونصحه أن لا يقتصر على الفقه ويجمد فيه دون أن يكون له من الادب نصيب .

ان مجموع قصائد العندي التي قالها في ال زريع تشتمل على المدح الخالص لتلك الشخصيات ووصفها بالفروسية والشجاعة والكرم وباختصار فان شعره لا يختلف عن سائر شعر المديح الذي يقوله مثله الشعراء من اقدم الزمان .

وليس في شعر العندي ما يشير الى العقيدة الفاطمية ، وبمعنى اخر ليس في شعره ما يشعر القارىء بأنه قد كان لسان المذهب الفاطمي الذي يعبر عن أهدافه ويذود عن حياضه كما رأينا ذلك في شعر ابن هاني الاندلسي في المغرب ، وفي شعر الخطاب الحجوري باليمن الذي قاله في الملكة أروى الصليحية .

روت عنه الاخبار أنه كان على جانب كبير من اللطف والتواضع والتحبب الى الناس والعمل على مساعدة المحتاجين والمنكوبين .

روى عمارة في تاريخه أن تهايم اليمن أصيبت بمجاعة في عهد حكم علي بن مهدي الخارجي وان الاعانات الى سكانه انهالت من عدن واليد الطولى للعندي في دفع اثار النكبة التي احاقت باسرة عمادة صديق العندي .

وتروي الاخبار انه كان يتصل بالقادمين الى عدن ويستضيف الفضلاء والادباء ، وربما قدم الاديب او الشاعر الى كبار رجال الحكم من أجل أن يحصلا على الوظائف او الجوائز وله اخبار وحكايات ومسامرات ومذاكرات أدبية لا تتسع هذه العجالة لايرادها والافاضة فيها .

وكانت للشاعر العندي اليد البيضاء في ايجاد موهبة أدبية لها اثر عظيم في تاريخ اليمن السياسي وفي تاريخها الادبي بوجه خاص ونقصد بهذه الموهبة موهبة الشاعر والمؤرخ والفقيه والعلامة عمارة اليمني .

لقد وصل عمارة الى عدن من تهامة اليمن التي كان يظلها حكم آل نجاح ، ووصول عمارة الى عدن كان لغرض تجاري ولتصريف بضاعة مزجاة كان فيها شريكا لرئيسه نجاحية .

ويبدو أن شهرة عمارة كعالم كبير وفقيه له المام واسع بعلم الفرائض سبقت وصوله الى عدن .

ولسنا نعلم اي الرجلين عمارة أو العندي كان السابق الى التعرف بصاحبه ، أكان عمارة لمعرفته بأدب العندي وعلمه واهميته وخطورته في الدولة — سعى الى التعرف به أم ان العندي كعادته في الاتصال بمن يفد الى عدن كان هو الذي سعى الى عمارة .

ومهما يكن فقد اتصلت بين الرجلين اواصر الاخوة والصداقة ويبدو ان العندي اقنع عمارة بوجوب الاتصال بحكام آل زريع ، فاقتنع عمارة بالاتصال بهم رغم ما جر عليه ذلك الاتصال من عناء فقد لقي عمارة عنتا كبيرا واذى كبيرا من النجاحيين . بعد اتصاله بالزريعيين حتى أوشك أن يفقد حياته في مؤامرة دبرت لاغتياله واضطر عمارة اخيرا الى الهجرة من اليمن الى الحجاز حين بعثه بعد عام من استقراره هناك أحد الحكام الفواطم بعثه سفيرا الى الخليفة الفاطمي وما هو الا ان عرف الحكام الفاطميون عمارة حتى احتووه واحتكروه لسانا منافحا عن الدولة الفاطمية ، وكان مصير عمارة القتل بأمر صلاح الدين كما أسلفنا في فصل سابق من هذا الكتاب .

ويعترف الشاعر عمارة اليمني في كتابه الذي وضعه في تاريخ اليمن بفضل العندي عليه حين وجهه الى قول الشاعر لقد أشار الى أن العندي اقترح عليه كتابة قصيدة في مدح الداعي محمد بن سبأ ونظم عمارة القصيدة ، وعرضها على العندي فلم تعجبه ، ونظم العندي قصيدة لعمارة ليلقيها بين يدي الداعي والقاها العندي نيابة عنه فنالت استحسانا كبيرا .

وتوجه العندي الى عمارة بعد القائه قصيدته بنصحه :

قال له انك الان قد عرفت بالشعر فلا يمكنك النكول عنه وأنت عالم كبير في الفقه واللغة ، وقبيح بمثلك ان يجمد على الفقه ، ولا يوسع معارفه في الادب ، وتقبل عمارة النصيحة قبولا حسنا وكانت اثار النصيحة بعد ذلك ظاهرة في انتاج عمارة الشعري الذي بلغ به مبلغا يضعهفي مصاف كبار الشعراء المعدودين في القرن السادس للهجرة .

عاصر من الحكام الزريعيين محمد بن سبأ وقد تولى هذا الداعي الحكم عام ٥٣٤ هـ . وتوفي في حدود عام ٥٥٠ حين تولى الحكم ابنه عمران بن محمد بن سبأ ، وفي أيام عمران حدثت ثورة علي بن مهدي الخارجي الذي لم يطل

حكمه أكثر من عام يتولى الحكم بعده ابنه عبد النبي بن علي بن مهدي ، وكان هذا الاخير قد غزا لحجا ونهبها مرتين وفي عام ٥٥٩ اغار على أبين واحرقهـا حتى اضطر عمر أن يصالح عبد النبي على جزية له تدفع سنويا .

وخلف الداعي عمران ابنه ياسر الذي بقي مسيطرا على عدن ولحـج وابين والشحر وحضرموت حتى عام ٥٦٩ .

وفي رجب عام ٥٦٩ دخل طوران شاه بن ايوب اليمن فافتتح زبيـد والجند وتعز وصنعاء وتهامة وعدن ، وبذلك انهت الدولة الايوبية حكـم ابن علي بن مهدي في تهامة وحكم الزريعيين في عدن وكانت مدة حكم آل زريع لعدن ثلاثة وتسعين عامـا .

ذلك وصف مجمل للاحداث وانظمة الحكم التي عاصرها الشاعر أبـو بكـر العندي وقد كان ازاءها مستشار الدولة الذي يؤخذ برأيه ولسانهـا الناطق الذي تملؤ رسائله الافاق ، ويظهر ان تجارب الحكم وحنكة الايام وهبته مرونة على مواجهة التغييرات التي تطرأ على الدول والحكومات ، فكان موقفه من نظام حكم الايوبيين موقف المساند المؤيد ، عكس موقف عمارة المبدئـي الذي وقف من حكم بني أيوب موقف المعارضة والعداء حتى دفع حياتـه ثمنـا لموقفـه ذاك .

من النماذج الذي تمثل مدرسته في الكتابة ، هذه الكلمة التي كتبهـا على لسان طوران شاه أخي صلاح الدين الايوبي يتشوق فيها الى مصـر ، وانتدابه لمثل هذه المهمة يدل على ما كان قد حازه من ثقة وتقدير لـدى النظـام الجديـد .

بدأ العندي رسالته بشعر فيه تشوق الى مصر ثم اتبعه بنثر يشبه النثر الديواني المنمق الذي ابتدأ بزمن ابن العميد والصاحب بن عباد وانتهى بزمـن القاضي الفاضل الذي أكثر واطال أنفاس النثر المسجع حتى عرفت طريقتـه بالطريقة الفاضلية وينبغي ان نلاحظ أن كلا الرجلين القاضي والعندي متعاصران أولا ، ثم أن كلا الرجلين كانا متحولين من نظام قديم الى نظام جديد فالقاضـي الافضل كان سنيا يعمل ظل الفاطميين ثم أصبح رئيسا للكتابة في عهـد الايوبيين ومثله العندي الذي كان يعمل في ظل الزريعيين وهم شيعة للفاطميين ثم تحول الى العمل رئيسا للكتابة في عهد الايوبيين وهذه كلمات مختارة مـن رسالته تمثل مذهبه في النثر الفني المسجوع .

ولما ترامت به مفارز الطرق وفقد ما كان يستضيء بـه من انوار ذلـك الافق ، وحاول استدامة ما كان يتخلق به من ذلك الخلق ، وجد الحال مـن قبله قد استحالت وخطرة الحيرات بلبه قد استمالت ولم يلبث أن باح سرا فؤاده الملتاح ، وهزته نشوة الشوق هزة نشوان الراح ، وجعل الوجد يهفو بثباته ووقاره ، والحنين يتغنى شجوه كما يتغنى الحمام في اشجاره ، والشوق يصور له ما لـم يكن مصورا لديه من سامي ذلك المقام ، والغرام يمثل لـه باهر ذلـك الفضل ويضرب به احكام المسير والمقام ، وبواعث الحسن تعاطيه كاسات دراكا ،

ومترنم الوجد بنشد في صفات حاله خصوصا لا اشتراكا .

وشعر العندي قوى الاسر ، محكم النسج ، فيه جزالة في اللفظ تهول وتروع وفيه رقة في المعنى تأسر الألباب .

ولن نتعرض لشعره في المديح ، فهذا الباب يحتاج اليه من يريد دراسة شعر المديح ، وانما يتجه نظرنا في هذا العرض الى شعره الوصفي والوجداني الذي لم يقله تزلفا او مجاملة .

فمن شعره الوجداني هذه الابيات العاطفية التي تتحدث عن خواطر قلبه ، وغليان اشواقه :

ذاك يبرين ونعمان ... قضب هيف وكثبان
هي غزلان النقا سحبت ... أم حسان الحي غزلان
أسهرتني وهي نائمة ... مقل شأني بها شان
رب ليل نام ساهره ... واشتياقي فيه يقظان
كان نجم الافق يؤنسني ... وكلانا فيه حيران

وله في وصف الربيع :

وافى الربيع يرف في الوانه ... ما بين وشى رياضه وجنانه
وسرى يجرر من مطارف زهره ... أذيال مخضل الندى ريانه
متوشحا بالخضر من أوراقه ... مترنحا بالهيف من اغصانه
مستوطنا بالعصب من خيراته ... عدنا وان جلت عن استيطانه
أبدى الغرائب من بدائع حسنه ... غرس تبسم عنه قبل أوانه

وفي وصف عدن قال :

حياك يا عدن الحياة حياك ... وجرى رضاب لماه فوق لماك
وافتر ثغر الروض فيك مضاحكا ... بالنشر رونق ثغرك الضحاك
ووشى حدائقه عليك مطارف ... يختال في حبراتها عطفاك
فلقد خصصت بسر فضل أصبحت ... فيه القلوب وهن من أسراك
يسري بها شغف اليك وانما ... للشوق جشمها نسيم صباك
كم من غريب الحسن فيك كأنما ... مرآه في اشراقه مرآك
ومسارح للعيش تقتطف المنى ... منها وتجنى من قطوف جناك

ويقول ذاكرا « ابين » وهذه الابيات مما يرجح عندنا القول بأن منشأ اسرة العندي في ابين :

ليت ساري المزن من نجد دنى ... ناب عن عيني فيسقي « أبينا »
واستهلت بالرقيطا أدمع ... فيه تستضحك تلك الدمنا
فكسى البطحاء وشيا أخضرا ... واعاد الجو نوؤا أدكنا
وطن اللهو الذي جر الصبا ... فيه أذيال الهوى مستوطنا
تلك ارض لم أزل صبا بها ... هائما في حبها مرتهنا
هي الوت بحبيبي فالهوى ... برباها لا اللوى والمنحنى

ومن حجازياته التي تذكرنا بحجازيات الشريف الرضي قوله :

يا خليلي ضاق بالوجد ذرعي ... واستباح الغرام غاية وسعي
فدعاني أشكو لواعج بيني ... ان شكوى العليل ليس ببدع
واصدعا بالحنين والشوق عني ... تجبرا في الفؤاد أعظم صدع

واسألا الركب ركب مكة يزجي ... عن ليالي منى وليلة جمع
هل قلوب الاحباب فيها كقلبي ... ودموع الجميع فيها كدمعي
وهل الورق في ذرى الأيك تملي ... شرح شجوي ما بين نوح وسجع
تلك اقصى المنى فمن لي منها ... بوصال يسر من غير منع
اتمنى تفيؤ الظل منها ... والمقادير دفعها غير دفعي
ولئن عز ان أرى نور عيني ... فأحاديثها تشوق سمعي

والبيت الاخير مأخوذ من قول الشريف الرضي في بيت من قصيدة له في هذا الوزن والروى .

فاتني أن أرى الديار بعيني ... فلعلي أرى الديار بسمعي

ومن شعره الذي يمثل النزعة الصوفية هذه الابيات المختارة من قصيدة له مطولة يتشوق فيها الى البيت الحرام ، ويظهر انها معارضة لقصيدة ابن زريق البغدادي التي يقول في مطلعها :

لا تعذليه فان العذل يولعه ... قد قلت حقا ولكن ليس يسمعه

قال العندي :

لي بالحجاز غرام لست أدفعه ... ينقاد قلبي له طوعا ويتبعه
يهزني البرق مكيا تبسمه ... اذا تراى حجازيا تطلعه
وتزدهيني لقاء الوفد الحظه ... من جوه وحديث الركب أسمعه
وفائح الريح مسكيا تأرجه ... من طيب رياه نديا تضوعه
وهاتف الورق في فرع الأراك به ... يردد اللحن شجوا ويرجعه
كل الي حبيب من أماكنه ... ممكن الفضل في صدري ممتعه
جياده والصفا منه ومروته ... ومتكاه وما يحويه مربعه
وأخشباه وواديه وابطحه ... جديبة لا أرى جدبا ومرتعه
وموقف الحج في شامي معرفه ... وما تجد منى منه وتجمعه
والبيت فالبيت أعلى ان أحد له ... وصفا وتعظيمه عن ذاك يرفعه
في حيث حجاجه يعلو وقصده ... عزا وسجده تسمو وركعه
ومنهج الفوز بادي القصد واضحه ... ومنهل الجود طامي الورد مترعه
وفي ربى يثرب غايات كل هوى ... يحل عن موقع الاشراق موقعه
أفق الشريعة والاسلام طالعة ... شموسه مستجاش النصر منبعه
حيث النبوة مضروب سرادقها ... والفضل شامخ طود الفضل أفرعه
وحيث كان طريق الوحي متضحا ... بين السماء وبين الارض مهيعه

ومن القوافي الصعبة التي ذللها العندي قافية الهمزة ولهذه القافية حكاية رواها السيوطي في كتاب شواهد المغني[1] قال : وهو يتحدث عن الشاعر ابراهيم بن هرمة ـ من شعراء العصر الاموي ـ قيل ان قريشا لا تهمز فقال ابن هرمة لاقولن قصيدة اهمزها كلها بلسان قريش ثم أورد السيوطي قصيدة ابن هرمة المهموزة وعدد أبياتها ثمانية وفيها يقول :

وعودتني فيما تعودني ... أظمأ ورد ما كنت أجزؤها
ولا أراها تزال ظالمة ... تحدث لي نكبة وتنكؤها

---

(١) شواهد المغني ج (٢) ص ٨٢٦

وأبو بكر العندي قال قصيدة مهموزة في الداعي عمران بن محمد بن سبأ بلغ عدد ابياتها ٤٠ بيتا ونكتفي منها بمقدمتها العاطفية التي يقول فيها :

عاد الهوى في فؤادي مثلما بدأ	لما تعرفت من أهل الحما نبأ
أملي على القلب ساري البرق مبتسما	تزداد غلة أحشائي بها ظمأ
وفي العواذل مهراق النجيع بها	لما ترقرق منهلا فما رقأ
لعل لامع ذاك البرق كان لهم	طليعة طالع الاسرار فارتبأ
لئن يراني هوى أهل الحما فلكم	داويت من حبهم دائي فما برأ
يدنيهم الشوق مني والحنين وان	شط المزار بهم عن ناظري ونأ
وما تقبضني منهم سوا رشا	افدي بمهجة نفسي ذلك الرشأ
أغن يغني عن البدر المنير به	من جالس الشمس من أزراره ورأى
ملء النواظر حسنا حين يلحظه	وآمر الحسن للالحاظ ما ملأ
ما اهتز غصن الصباء من عطف قامته	الا وازرى بغصن البان أو هزأ
نشوان تحسب صرف الراح ريقته	ومدح داعي الهدى عاطاه فانتشأ

القصيدة اليتيمة :

هي قصيدة مفردة لشاعر يمني طغت شهرة هذه القصيدة على شهرته فلم يعرف عنه الا لقبه « التكريتي » وتكريت اسم بلد في العراق ، ونحن نستبعد أن تكون هذه الشخصية من سلالة أسرة وفدت من العراق ذلك لان المصادر اليمنية تعودت ان تشير الى الشخصيات العلمية والادبية التي وفد أسلافها الى اليمن .

ولعل التكريتي انما غلب عليه هذا اللقب لانه كان يتاجر الى تكريت ، وكثير من الاسر اليمنية التي كان يهاجر بعض افرادها الى منطقة ما يغلب عليها النسب الى المنطقة التي هاجرت مثل بيت الهندي وبيت الجاوي ونحوها من الاسر اليمنية .

وقد أشار بأمخرمه في كتابه تاريخ ثغر عدن الى التكريتي ، الذي وصفه بأنه لم يكن يتعانى الشعر ولعله يقصد بأنه لم يكن يكتسب بالشعر وانما هو تاجر سافر ببضاعة في سفينة عصفت بها الرياح فاتجه الى الامام المنجوى صاحب مرباط في ظفار فامتدحه بهذه القصيدة التي كافأه عليها بسفينة مشحونة بالمتاع والنفائس تعويضا عن سفينته التي غرقت .

وحين نسأل عن الامام المنجوب من هو يسعفنا بأمخرمة في كتابه تاريخ ثغر عدن بترجمة عن هذه الشخصية تخلع عليها ثوبا اسطوريا في الكرم لا تكاد تقف امامها شخصية حاتم الطائي (١)

« هو محمد بن أحمد الاكحل صاحب مرباط ، وهو من قوم يقال لهم المنجويون من بيت يقال لهم ال بلخ بضم الموحدة واللام ثم خاء معجمة كان أوحد زمانه كرما وحلما وتواضعا ويكفي في كرمه ما فعله مع التكريتي الشاعر » .

---

(١) تاريخ ثغر عدن ص ١٩٤

ويتحدث بامخرمة نقلا عن الجندي ان جماعة من أعيان حضرمــوت قصدوا المنجوى بهدايا مناسبة ورافقهم في السفر أديب فقير حمل معه سبعة أعواد مــن أغصان الاراك الذي يستعمل للسواك ، وحين قدم الجماعة هداياهم قدم الاديبه الفقير هديته التي قدمها بهذين البيتين :

جعلت هديتي لـــكم سواكـــا ولم أقصـــد بـــه أحـــدا سواكـــا
بعثت اليـــك عودا مـــن أراك رجاء أن أعـــود وان اراكـــا

وبعد أن يفيض بامخرمة في ذكر المكافأة التي قدمها المنجوى لهذا الاديب الفقير يخلص من ذلك الى ناحية تتعلق بتاريخ شخصية المنجوى — وهي الناحية التي تهمنا — وهي انه اخر من حكم مرباط من المنجويين حيث انتقل الحكم من بعده الى الحبوضيين بعد ان توفي في أوائل القرن السابع ، وقد ولى الامر بعده محمد بن احمد الحبوضي ، ومن نسل محمد الحبوضي سالم الحبوضي الذي قتل فـي عهد المظفر الرسولي ، وافتتحت على ايدي الرسوليين ظفار عمان .

ولن نطيل الحديث حول قصيدة التكريتي التي قيل عنها أن طغكتين بن أيوب غضب على التكريتي من أجلها وسأله عن معنى قوله في مدح المنجوى هوتــاج والملوك حذا فأجابه متخلصا بذكاء بارع انما قلت والملوك حذاء بفتح الحاء لــن نطيل الحديث حول هذه القصة المروية التي يجوز أن تكون حقيقة ويجوز أن تكون من مخترعات الرواة ، ولكننا نتجه صوب هذه القصيدة الجديدة الرائعةالتي قيل فيها ان كل شعر يدرس — اي يندثر — الا قصيدة التكريتي وهذا نصها :

عـــج برسم الدار فالطلـــل فالكثيـب الفـــرد فالأثـــل
فبمـــأوى الشـــادن الغـــزل بـــين ظـــل الضـــال والجبـــل

* *

وابـــك في أثر الدموع دمـــا هـــب كـأن الدمـــع قـــد عدما
وانـــدب الغيد الدما ندمـــا واقـــف أثـــر الظعن والابـــل

* *

واذا مـــا بان بـــان قبـــا وبلغـــت الرمـــل والكثبـــا
ناديـــا ذا الربـــع واحربـــا واسبـــل العبرات ثـــم ســـل

* *

آه لـــو أدركـــت بينهـــم كنـــت يـــوم البـــين بينهـــم
ليـــت شعـــري الان أيـــن هـــم رب ســـار ضـــل في السبـــل

* *

كيف أثنـــي عنهـــم طمعـــي وهـــم فـــي خاطـــري ومعـــي
كف عنـــي اللـــوم لســـت أعي ففـــؤادي عنـــك فـــي شغـــل

* *

ها أنـــا فـــي الربـــع بعدهـــم أشتـــكي وجـــدي وبعـــدهم
أســـأل الايـــام وعدهـــم واقضـــي الدهـــر بالامـــل

* *

فدمـــوع العـــين تنجدنـــي وحمـــام الأيـــك يسعدنـــي
فهـــي تدنينـــي وتبعدنـــي بالبكـــا طـــورا وبالجـــذل

* *

خلفوني في الرسوم ضحى   أتحسى الدمع مصطبحا
كل سكران وعى وصحى   وأنا كالشارب الثمل

* *

رق رسم الدار لي ورثا   وسقامي للضنا ورثا
ليس سقمي بعدهم عبثا   كل من رام الحسان بلي

* *

آه لو جاد الهوى وسخا   أذهب الاكدار والوسخا
فالجوى والصبر قد نسخا   وقعتي صفين والجمل

* *

ما لهذا الدهر يطمعنا   واكف البين تقمعنا
أترى الايام تجمعنا   بمنى والخيف والجبل

* *

أترى بالمشعرين نرى   عيسهم والركب قد نفرا
ونزور الحجر والحجرا   ونضم الركن للقبل

* *

كم لنا بالمروتين أسى   ما له غير الخضوع أسى
ينجلي عن ربما وعسى   والورى في غاية الوجل

* *

يا أصيحابيَ ويا لزمي   غير خاف عنكم المي
ان أمت لا تأخذوا بدمي   غير ذات الدل والكسل

* *

غادة في خصرها هيف   دنف كل بها دنف
فهيام القلب والشغف   بين ذاك الخصر والكفل

* *

فبياض الصبح غرتها   وسواد الليل طرتها
دمية كالشمس بهجتها   وهي في خمس من الحمل

* *

أصل دائي غنج مقلتها   ودوائي لثم وجنتها
أترى عمرا بنظرتها   أو أمير المؤمنين علي

* *

ريقها والمبسم الشنب   خندريس فوقها حبب
لؤلؤ رطب هنا العجب   بحره أحلى من العسل

* *

وصفوا هندا وما وصفوا   عكسوا المعنى وما عرفوا
قلت هذا منكم سرف   أيقاس الكحل بالكحل

* *

فعلت بي غير ما وجبا   عاقبت ما راقبت رقيبا
صحت في الاحياء واحربا   أيحل القتل في الخجل

* *

كم كرى عن مقلتي منعت   حبذا لو انها قنعت
مذ بدت صنعاء ما صنعت   جمع ذاك اللحظ بالمقل

* *

ان يكم بالحب هان دمي   ها صباباتي وها ندمي
فدمي في ثابت القدم   ورشادي ظل في الازل

* *

بدرت من بدر جارية   ودموع العين جارية
ثم قالت وهي جارية   ارفقي يا هند بالرجل

* *

فأجابت وهي معرضة   ومراض اللحظ ممرضة
أنت لي يا سعد مبغضة   قد شقيت النفس من علل

* *

قالت البدرية اتئدي   وعدي ذا المبتلي وعدي
ما الذي ينجي من القود   خلق الانسان من عجل

* *

طال ما فيك الهوى عبدا   ما عدا مما لديك بدا
ليس يخفى قتله أبدا   عن مروي البيض والاسل

* *

الامام الطاهر النسب   الزكي الطيب الحسب
السحاب الساكب اللجب   الهتون العارض الهطل

* *

الهزبر المنجوي اذا   القت الحرب العوان أذى
هو تاج والملوك حذا   بل حضيض وهو كالقلل

* *

طال ما قد ضنت السحب   واشرأب المحل والسغب
وغوادي كفه السهب   بالضحى تهمي وبالاصل

* *

لو همت يوما غمائمه   بلظى ناحت حمائمه
فهو مذ ميطت تمائمه   مولع بالخيل والخول

* *

يمنح السؤال قبل متى   سأل المضطر أو سكتا
لو أتى بعد الرسول فتى   كان حقا خاتم الرسل

* *

وعذول بات يعذله   ولديه المال يبذله
قصده عن ذاك يعدله   وهو لا يصغي الى العذل

* *

حكت الانوا أنامله   وهي تخشى أن تقابله
فاذا ما هز ذابله   قرب الارواح للاجل

* *

ما له مثل يماثله   لا ولا شكل يشاكله
وله فيما يحاوله   همة تعلو على زحل

* *

كف كف الدهر حين سطا   ونداه نحوننا بسطا
فغدونا أمة وسطا   بعد ذاك الخوف والوجل

* *

كيف نخشى بعــــده الزمنــــا ... وابــــو عبـــد الالـــه لنـــا
ارتـــدى مجـــدا والبسنـــا ... حلــــلا ناهيـك مـــن حلـل

* *

هــــو قس في فصاحتـــــه ... ولـــؤي فـــي صباحتــــه
وهو معـــن فـــي سماحتـــه ... وبن عباس لـــدى الجـــدل

* *

ان يكن فـــي نظمهـــا خلـل ... يعـــذر الجـــاني ويحتمـــل
خاطـــر المـــلوك مشتغـــل ... عن كتـــاب العـين والجمـل

* *

نشـــوان الحميـــري :

حياتـــه ... مؤلفاتـــه
مواقفـــه مـــن الائمـــة

قليلة هي المصادر التي تحدثت عن نشوان ، وعلى قلة هذه المصادر فقـــد تميزت الاخبار عنه بالقلق والاضطراب ، بحيث لا تكاد تلقى الضوء الذي يبيـــن شخصية (نشوان) الذي تمثله تواليفه في الاخبار وانساب ، وفي اللغة والاداب وفي الحكمة والطب ، وفي علم الفلك وعلم الكلام وفي فقه الشريعة الذي كـــان فيه طودا شامخا وعلما باذخا .

ولعل خلافاته مع فقهاء الشيعة ، وخصوماته مع الائمة الحاكمين ، وغلوه في النزعة القحطانية ، وطموحه الى انتزاع الحكم من ايدي العلويين ، كل ذلـــك كان من الاسباب التي حجبت ذكره في كتب التاريخ اليمني ، فما يجيء ذكـــره — وخاصة في تواريخ الشيعة — الا في معرض الرد على رأي له قاله مناوئـــا لهم ومعارضا لمبادىء حكمهم .

ولد في « حوث » مدينة تبتعد عن صنعاء بمسافة يومين ونصف — للماشـــي على قدميه — وحوث مدينة العلم والعلماء ومن مواليدها المؤرخ اليمني الكبير ابراهيم بن عبد الله اسماعيل الحوثي صاحب كتات « نفحات العنبر » .

ولم تحدد الاخبار تاريخ مولده ولكن وفاته كانت ما بعد عام ٥٧٥ على أرجـــح الاقوال ، ومعنى ذلك انه شهد أواخر ايام دولة بني نجاح في تهامه ، وأيام علي بن مهدي الرعيني الذي قضى على حكمهم ، وايام بني زريع الذين خلفـــوا الصليحيين في حكم عدن وما جاورها ، وفي أواخر أيامه شهد ايام الايوبيين الذي قضوا على حكـــم ال مهدي في تهامـــة .

وعاصر مجموعة من كبار آدباء اليمن مثل عمارة المؤرخ والشاعر اليمنـــي ، والاديب ابي بكر العندي كاتب ووزير ال زريع في عدن ،

لم تذكر الاخبار شيئا عن شيوخه الذين تلقى على ايديهم تعليمه ، ولكن الاخبار تجمع على علو كعبه وسمو منزلته الثقافية ، قال عنه المؤرخ المصري علي بـــن

يوسف القفطي في انباء الرواة (كانت له في الفرائض وقسمتها يد ، وكان يفضل قومه اليمنيين على الحجازيين ، ويفاخر عدنان وله في ذلك نقائض مع الاشراف القاسمية أولاد القاسم بن علي العياني) .

وترجمه السيوطي فقال :

نشوان بن سعيد بن نشوان اليمني الحميري أبو سعيد الفقيه العلامة المعتزلي النحوي اللغوي كذا ذكره الخزرجي وقال كان أوحد أهل عصره وأعلم أهل دهره ، فقيها نبيلا مفتنا عارفا بالنحو واللغة والاصول والانساب والتواريخ وسائر فنون الادب ، شاعرا فصيحا بليغا مفوها .. صنف « شمس العلوم » في اللغة ثمانية اجزاء سلك فيها مسلكا غريبا ، يذكر الكلمة من اللغة فان كان لها نفع من جهة الطب ذكره الى اخر ما جاء في سياق الترجمة .

كان نشوان معتزلي المذهب في أغلب ارائه — والاعتزال مذهب أسلامي عقلي الطابع ، فلسفي الاتجاه ، والمعتزلة في نظر الباحثين في الملل والنحل من اقرب الفرق الاسلامية الى مذاهب العقل والفلسفة ، يتلخص مذهبهم في القول باختيار الانسان وانه غير مسير لا يؤمنون بالمعجزات بالقياس الى الانبياء ، ولا بالكرامات بالقياس الى الاولياء ، لان ذلك عندهم خرق للعادة وكل خرق للعادة في نظرهم غير جائز وقوعه ، وهم يؤولون صفات الله تأويلا مجازيا ولا يفسرونها تفسيرا ظاهريا شأن الاشاعرة ، ولهم اساليب في استخدام مصطلحات الفلسفة ، كالحركة والسكون والعرض والجوهر والنار والسكون ، الى اخر ما تضمنه مذهبهم من مبادىء وتعاليم .

أما مذهبه في الفقه فقد كان يعتمد على الاجتهاد وترك التقليد ، ومن هنا كثرت خلافاته مع فقهاء الشيعة ، وخاصة أولئك الذين اتصفوا بالجمود والتقوقع المذهبي ، ولذلك يقول في الرد على امثال هؤلاء الفقهاء الجامدين .

اذا جادلت بالقرآن خصمي	أجاب مجادلا بكلام يحي
فقلت كلام ربك عنه وحي	أتجعل قول يحي عنه وحيا

أما مذهبه في الحكم فيذهب الى أن الامر شورى بين الامة ، وليس الحكم أو الخلافة منحصرا في بطن أو أسرة وهو في هذا المعنى يقول :

أيها السائل عني انني	مظهر من مذهبي ما ابطن
مذهبي التوحيد والعدل الذي	هو في الارض الطريق البين
ان أولى الناس بالامر الذي	هو أتقى الناس والمؤتمن
كائنا ما كان لا يجهل ما	ورد الفرض به والسنن
أبيض الجلدة أو أسودها	أنفه مخرومة والاذن
ايها الشيعة هيا فلقد	طال ما استولى عليك الوسن
ما رأيتم لبني عدنان من	ورم في الدين قلتم سمن

وهو يرد على القائلين بأن الحكم حكر على ال فاطمة :

آل النبي هم أتباع ملته	من الاعاجم والسودان والعرب
لو لم يكن آله قرابته	صلى المصلي على الطاغي أبي لهب

عاش نشوان في عهد الامام المتوكل أحمد بن سليمان — من ال القاسميين بن علي العياني وجرت بينه وبين هذا الامام نقائض متبادلة ، واشد تلك النقائض

وطأة مهاجاته للامير عبد الله بن القاسم ـــ أحد أقارب هذا الامام ـــ لقد هجا نشوان بابيات يقول فيها :

اما الصحيح فان اصـــلك فاســـد وجزاك منهـــا ذابـــل ومهنـــد

ـــ ورد عليه نشوان بقصيدته المشهورة التي يقول فيها مفاخرا بقمطان

من أين يأتيني الفساد وليس لـــي نسب خبيـــث في الاوائـــل يوجد
فدع السفاهـــة انهـــــا مذمومة والكف عنهـــــا في العواقب أحمد
ودع التهدد بالحســـام سفاهـــة فحسامك القطـــــاع ليس له يـــد
لو كان موتي من حسامك اننـــي لقرير عـــين بالبقـــاء مخلـــــد
مهـــلا قريش لا أبـــــا لأبيـــكم مهـــلا فمـــا منكم الـــه يعبـــــد
منكم نبـــــي قد مضى لسبيلـــه أظننتم أن النبـــــوة سرمـــــد ؟؟

وقال هاجيا الامام احمد بن سليمان :

عجائب الدهر اشتـــات وأعجبها امامـــــة نشأت في ابـــن الخذيف
ما أحمـــد بـــن سليمـــان بمؤتمن على البريـــة في خيط من الصوف

وانتقل نشوان الى حضرموت ، ولسنا نعلم لنقلته تلك من سبب، ولعلها كانت ناشئة عن مضايقات البيت القاسمي له ، وكانت حضرموت يومـــــذاك يحكمها عبد الله بن راشد بن قحطان الحميري ، وفي حضرموت مكـث نشوان عامين ونصف يلقي الحفاوة والتكريم من حاكمها الذي كان مشهورا له بالعلـم والورع والاستقامة ومن وعلمائها الذين قدروا نشوان حق قدره ، ولكنه عاد الى مأرب ، واصفا نقلته تلك بقوله (لبثت في حضرموت كما لبث يونس في بطن الحوت لبثت سنتين ونصفا ، أخصف بها ورق الندامة خصفا واتعرض لـــرزق حلال فحصل ما فيه سد الخلة ، ثم عدت الى مأرب فلقيني من بها ، فتعـــرض للعطية فقاسمتهم ما على المطية ، ووصلت الى الجوف متخليا من الاخـــــوان والانصار ، ولو شئت لدخلتها بالجيوش الكثار ولكن قلت ما عند الله خير وابقى وانشدت (١) قول ابن الصمة :

وما أنـــــا الا مـــن غزية ان غوت غويت وان ترشـــد غزيـــة ارشد

(١) « زيادة على النفس »

ويجدر بنا الالتفات الى الفقرات الاخيرة من كلمة نشوان السالفة . فهـــو يشير الى توزيعه العطايا على الاخوان والانصار ، وانه لو شاء لدخل مأرب بالجيوش الكثيفة فهي اذن فقرات تأتي مصداقا لاكثر من قول على لسان مؤرخ بأن نشوان استطاع التغلب على بعض مناطق اليمن وبسط سلطان حكمه عليها

قال ياقوت استولى نشوان هذا على قلاع وحصون وقد احتل جبل صبـــر حتى صار حاكما وقال القفطي في انباه الرواة .

« نشوان بن سعيد اللغوي اليمني المدعو القاضي في زمانه الاقرب من قضاة بعض مخاليف اليمن الجبلية وقيل انه في اخر عمره تحيل على حصن في بـــلاده وملكه وسماه اهل ذلك العمل بالسلطان » .

---

(١) البيت لدريد بن الصمة شاعر جاهلي .

هذان خبران ترددا في اغلب المصادر التي ترجمت لنشوان ، وليس لهما ما يؤكدهما تأكيدا لا يقبل النقض ، ولكن يبدو انهما خبران ليسا بمستغربين على تاريخ اليمن الذي تميزت اغلب فتراته بالاقطاع ، وبالحكم العشائري ، ودول الطوائف . فقبل حياة نشوان بفترة وجيزة كان شاعران كالخطاب واخيه سليمان الحجوري مستقلا احدهما بولاية الجريب في اليمن وكانت خلفها لهما ابوهما ، وكان استقلال الخطاب بولاية الجريب رغم وجود حكومتين مركزيتين في اليمن ، حكومة الصليحيين في صنعاء وحكومة النجاحيين في تهامة ، وكان التنافس على الحكم بين النجاحيين والصليحيين يبيح لكل منهما التغاضي عن استغلال ولاية الجريب بل ان كلا النظامين الصليحي في صنعاء والنجاحي في تهامة اشعل نار العداوة بين الاخوين فعاش سليمان الحجوري لاجئا في اكناف بني نجاح وبقى الخطاب مستقلا في ولايته يؤيده الصليحيون .

وعلى ذلك لم يكن شيئا صعبا ــ في ذلك التاريخ ــ ان يستقل حاكم ما بقطعة من ارض اليمن اذا توفر له المال والعدد والعتاد ، وينطبق هذا التفسير على نشوان العالم الاخباري الذي اطال النقاش مع معاصريه حول نظام الحكم ووجوب عدم وقفه على اسرة معينة ، وبعبارة اخرى فان وثوب نشوان على بقعة من ارض اليمن وبسط سلطانه عليها لا يعدو ان يكون تطبيقا عمليا لنظريته في الحكم التي صارح بها الائمة ، وشدد عليهم النكير حين يجعلون الحكم في قريش لا غير ، ولكن الذي لا ريب فيه أن نشوان قد فشل في ادارة ولايته في مأرب لان سلطان الدعوة الزيدية كان اقوى شأنا وامنع جانبا ولذلك راينا نشوان يستشهد بآخر فقرة من فقرات كلمته السالفة بقول الشاعر الجاهلي دريد بن الصمة :

وهل انا الا من غزية ان غوت	غويت وان ترشد غزية أرشد

ولكن الامام احمد بن سليمان استطاع ان يركز هجومه على نشوان في اواخر عمره ولم يهاجمه بشعر الهجاء فقد كان نشوان أقدر منه على شعر الهجاء ، ولا هو قارعه بجدليات الحكم لمن وبمن يقوم فأن نشوان اكثر منه جدلا . وانما استطاع أحمد بن سليمان أن يحسن الى نشوان احسانا ادبيا وماديا أبطل في نفسه مفعول الثورة خاصة ونشوان في اواخر عمره فراينا نشوان يمدح الامام احمد بن سليمان بقصيدة يقول فيها :

يابن الائمة من بني الزهراء	وابن الهداة الصفوة النجباء
كم رامت الكفار اطفاء آله	عمدا فما قدروا على اطفاء

وكان الامام بن سليمان شاعرا مثله فهو يرد على نشوان بقصيدة من نفس البحر والروى يقول فيها معددا مزايا نشوان :

يا أوحد الادباء والشعراء	بل أوحد البلغاء والفصحاء
يا من له عقل رصين ثابت	ويعده العقلاء في العقلاء
ويعده الفقهاء في فقهائهم	ويعده العلماء في العلماء
حاز المكارم والمحامد والعلا	ارثا عن الاجداد والآباء
من حمير الاملاك خير قبيلة	في حمير والشوكة الحجباء

وهكذا صفا الجو بينه وبين عدوه اللدود الامام ؛ احمد بن سليمان واتصلت

بينهما المراسلات الادبية ، والمساجلات الشعرية ، وبين ايدينا ونحن نعد هذا الفصل كلمة نشوان الحميري ، يتصل فيها مما قاله من شعر المنافرة والعصبية ويرد ذلـــك الى نزوات للشبـــاب .

وخليق بنا ونحن نقرأ هذه الكلمة لنشوان أن نستعرض الظروف والحالات التي الجأته الى كتابتها فليس بالشيء القليل ان يسلم نشوان من القتل في عهد بيت القاسم العياني ـــ القرن السادس هجري ـــ وهو يناقضهم في قاعـــــدة حكمهم ومستقر سلطتهم ، ولا ينبغي ان نقيسه بالعالم محمد بن الامير الذي كـــان الائمة القاسميون ـــ في القرن الثاني عشر ـــ يهادنونه رغم ثورته عليهم ، كـــلا فالفارق بين الرجلين ان ابن الامير كان من اسرةهاشمية ونشوان من قحطان ، واذن فعداوة نشوان للائمة كانت آتية من جهتين ، من جهة مذهبية تتعلـــق بارائه في الحكم والحاكمين ، ومن جهة نزعة القحطانية التي عبر عنها نشوان في كثير من قصائـــده وخاصة في قصيدته التاريخية المطولة التي اولها :

الامر جـــد وهـــو غـــير مـــزاح فاعمـــــل لنفسك صالحا يا صاح

وفي قصيدته المطولة التي يقول فيها :

منـــا التبابعـــة الثمانـــون الألي ملكـــوا البسيطة سل بذلك تخبر

الى كلمـــة نشـــــوان :

قال نشوان ، انقضت النقائض بيني وبين الاشراف الهاشميين وذلـــــك قبل طرور الشارب وبلوغ المأرب فاما اليوم ، وقد زدت على الاشد ، وصرت من الهزل الى الجد ، وأتاني نذير الشيب ، وزايلني كل ريب ، وتحليت بحليـــة الوقار ، ونظرت الى نفسي بعين الاحتقار ، ورغبت عن القريض ، وملاهـــــي معبد والغريض ، وأخذت القرآن بالشعر بدلا ، وتركت الجدال وكان الانسان اكثر شيء جدلا ، « الى ان يقول مشيرا الى الائمة » .

والشرفاء أبقاهم الله مما سألت مبراون ومما طلبت مكثرون فلتشملنـــــي بركتهم الى اخر كل منه .

كلمة قصيرة اختتم بها حياة عاصفة بالنقائض ولدد الخصومات ، وانصرف الـــى حياة التأليـــف .

تلك صورة عن حياة العلامة النابه اللغوي نشوان الحميري صورة تعز فيها الاخبار عن مراحل حياته وأطوارها ، على ان في مؤلفات هذا العالم الجليل غني للقارىء الذي يريد ان يعيش حياة قلم نشوان في كتبه ما طبع منها ومـــا لـــم يطبع ففي هذه الاثار ما يثرى المكتبة اليمنية وفي مقدمة هذه الاثار كتابـــه شمس العلوم الذي سلك فيـــه مسلكا لم يسلكه قبله مؤلف من مؤلفي معاجم اللغة فهو في هذا الباب نسيج وحده كما كان يعبر القدمـــاء .

نشوان في كتاب شمس العلوم :

ودواء كلام العرب من الكلـــوم :

طبع هذا الكتاب في اواخر الاربعينات او اوائل الخمسينات ، وهو من اشهر مؤلفات القاضي العلامة المؤرخ اللغوي نشوان بن سعيد الحميري ، وقد سلـــك فيه مسلكا جديدا في طريقة تأليف المعاجم اللغوية ، حدده المؤلـــــف

بقوله في مقدمة الكتاب :

(وقد صنف العلماء رحمهم الله في ذلك كثيرا من الكتب وكشفوا عن ما ستر من الحجب واجتهدوا في حداثة ما وضعوه ، وضبط ما حفظوا وصنفوا من ذلك وجمعوه ، ورووه عن الثقاة سمعوه ، فمنهم من جعل تصنيفه حارسا للنقط ، وضبطه بهذا الضبط ، ومنهم من حرس تصنيفه بالحركات بأمثلة قدروها ، وأوزان ذكروها ، ولم يأت أحد منهم بتصنيف يحرس جميع النقط والحركات ويصف كل حرف مما صنفه بجميع ما يلزمه من الصفات ، ولا حرس تصنيفه من النقط والحركات الا بأحدهما ، ولا جمعهما في تأليف لتباعدهما ، فلما رأيت ذلك ورأيت تصحيف الكتاب والقراء ، وتغييرهم ما عليه كلام العرب من البناء حملني ذلك على تصنيف ، يأمن كاتبه وقارئه من التصحيف ، يحرس كل كلمة بنقطها وشكلها ، ويجعلها مع جنسها وشكلها ويردها الى اصلها ،جعلت فيه لكل حرف من حروف للمعجم كتابا ، ثم جعلت له ولكل حرف معه من حروف المعجم بابا ، ثم جعلت كل باب من تلك الابواب شطرين ، أسماء وافعالا ثم جعلت كلمة من تلك الاسماء والافعال وزنا ومثالا فحروف المعجم تحرس النقط ، وتحفظ الخط ، والامثلة حارسة للحركات والشكل ، واردة كل كلمة من بنائا الى الاصل ، فكتابي هذا يحرس النقط والحركات جميعا ، ويدرك الطالب فيه ملتمسه سريعا ، بلا كد فطنة غريزية ، ولا اتعاب خاطر ولا رؤية ، ولا طلب شيخ يقرأ عليه ولا مفيد يفتقر في ذلك اليه) .

ذلك منهج نشوان في تأليف كتاب شمس العلوم ، من ناحية اللغة ، وبقي ان نشير الى ما أورد في كتابه من مباحث الادب والتاريخ وعروض الشعر ، وفي علم الفلك ، والفقه والاخبار والانساب بحيث بدأ الكتاب وكأنه موسوعة معارف كبرى يقطع المؤلف فيه مع القارىء شوطا لا يجعله يطول حتى يطرد عنه الملل والسأم بجولة في رحاب هذا الفن أو ذاك من فنون العلم التي اسلفنا ذكرها .

وقد جعل المؤلف للكتاب مقدمة أشتملت على أهم القواعد العامة ، في علم الصرف ، فتحدث عن حروف الزيادة والحذف والبدل ، وعن مخارج الحروف واقسامها ، وعقد فصلا حول ابنية كلام العرب من أسماء وافعال وحروف ، وعن ابنية الاسماء ، ومصادر الافعال .

اما معجمه في اللغة فقد ضمنه اشتاتا من اقوال انمة اللغة كالخليل بن أحمد ، والكسائي والفراء وسيبوبة ، والاصمعي وابي عبيدة والمبرد ويونس بن حبيب وابي عمرو بن العلاء وغيرهم . واستشهد بالقرآن وبالحديث النبوي واقوال الشعراء والرجال ، وأورد مختلف قراءات القراء .

ومن أمثلة استطراداته التي يخرج فيها من فن اللغة الى غيره من فنون المعرفة قوله في حرف الهمزة بدءها ميم «أم» حيث يستطرد في بحث حول الامامة يقول فيها عنها :

ومن عجب ان حياه نشوان على قلقها واضطرابها ، لم يضق فيها باعه في دنيا الدراسة والبحث والتأليف ، الف رسالة حور العين وفيها يشرح مذهبه في الاعتقاد والتوحيد طبعت في القاهرة عام ١٩٤٨ م، وله القصيدة الحميريــــة المسماة بالنشوانية ، وهي خلاصة السيرة الجامعية لاخبار التبابعة طبعــت هذه القصيدة مشروحة في كتاب لاسماعيل احمد الجرافي وعلي بن اسماعيل المؤيـــــد .

ومن مؤلفاته كتاب التبيان في تفسير القرآن ويقع في ٤ أجزاء وله أيضا كتاب (احكام صنعاء وزبيد) ووصيته لابنه ، أرجوزة في الاشهر الروميــة ومطالع النجوم ، وكتابه في القوافي بعنوان (مشكل الروى وصراطة السوري) وكتاب (النقايض) بينه وبين القاسميين وكتاب الاعتقاد في التوحيد ،ورسالته في علم (التصريف) ورسالة التبصر في الدين في الرد على الظلمة المتكبرين ، وديوان شعره (مخطوط) وكتاب (الفوائد والقلائد في الادب) مخطـــوط ايضا . اما اهم كتاب الفه نشوان فهو (شمس العلوم) وهو معجم في اللغـــة ويمتاز على سواه من المعاجم اللغوية . بأنه يضمن فوائد علمية وطبية وفقهيـــة وتاريخية وجغرافية كما تضمن معارف في علـــم الفلك وفي العروض والاوزان وكثيرا ما يسترشد بالايات القرآنية ويتعرض للقراءات واوجهها من ناحيـــة الاعراب فالكتاب — كما وصفه محققه القاضي عبد الله الجرافي معجم لغـــة وعلم على نحو دوائر المعارف العصرية ، يضاف الى مواد هذا الكتاب مقدمـــة طويلة في النحو ذكر فيها احكام المزيد والابدال والحذف ومخارج الحــــروف وابنية الاسماء والافعال والمصادر .

نموذجــان مــن شعــر :

يقول أبو الحسن القفطي ، ولنشوان شعر كشعر العلماء لا يخلو مـــن تكلف وقد كتب على كل جزء من أجزاء كتابه (شمس العلوم) ابياتا مــــن الشعر الذي لم يكن حلو المذاق .

والواقع أن القفطي لم يعد الحقيقة في وصف شعره ، على أن شعــر نشوان لم يكن كلــه متوسط الدرجة ، فأن له شعرا جيدا وبخاصة حينما يكتب الشعر غير خاضع لموضوع علمي فمن مقبول شعره ابياتــه التي كتبها الـــى اخوانه الذين نزل عليهم في مدينة (تريم) متشوقا اليهم :

رعى الله اخوانـــي الذين عهدتهم ... ببطن تريـــم كالنجــــوم العوالم
ومن في تريم مــن فقيه مهــذب ... وسيد أهــل العلم يحي بن سالم
أولئك أهل الفضل في ظل فاضل ... عظيم من الامــلاك عالي الدعائم

ألفت بهم في سالف الدهر برهة — وكانت لياليها كأحلام نائم

ومن جيد شعره هذه الابيات الممتازة من قصيدته التي عرض فيها تاريخ ليمن وامجاد سبأ وحمير :

أو ما علمت بأنني من معشر — شم الانوف من العديد الاكثر
قومي الذين تملكوا وتمكنوا — في الارض قبل تملك الاسكندر
المائلون على (قباد) بالقنا — في الدرع والمستأسرون (ليعبر)
والغالبون لهرمز وقبيله — والمالكون ملوك آل الاصغر
والضاربون الهام في يوم الوغي — بين الصوارم والقنا المتكسر
والناصبون بكل ربع آية — فيها اعتبار العاقل المتفكر
والناحتون من الجبال مصانعا — والباطشون بقوة وتجبر
أفخر على من شئت الا حميرا — فدع الفخار لأهله من (حمير)

« هي رئاسة عامة في الدين لرجل جامع لشروطها ، قالت المعتزلة والخوارج وجميع الشيعة واكثر المرجئة انها فرض واجب ».

وقالت الحشوية ليست بفرض ، ولكن أن أمكن الناس أن يذهبوا اماما من غير اراقة دم وحرب فحسنة وأن لم يمكنهم ذلك قام كل رجل بأهل منزله ومن تحت يده من ذوي رحمه وجيرانه فأقام فيهم الحدود ، واختلفوا في من هي ، فقال اكثر الشيعة لا تكون ابدا . في قريش ، وقالت الروانديه شيعة بني العباس بن عبد المطلب ، الامامة بالارث من ابيهم العباس لان العباس وارث النبي عليه السلام ، ولا ميراث لبني العم وبني البنت مع العم والله تعالى يقول (واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض) وقال عبد الله بن المعتز يخاطب ولد الحسن والحسين ابني علي بن ابي طالب :

بنو عمه وبنو بنته — ولكن أرى العم أولى بها

وقالت الجارودية اصحاب ابي جارود الخرسناني الامامة محصورة في ولد الحسن والحسين وهي شورى بينهم يستحقها الفاضل منهم ، وقالت الامامية محصورة في ولده دون ولد الحسن والحسين وغيرهم . الى ان يقول في استطراده :

وقال ضرار بن عمرو — يقصد احد ائمة المعتزلة — اذا اجتمع قرشي ونبطي فالنبطي اولى لان ازالته أهون على المسلمين ، وقال جميع الخوارج وبعض المرجئة وقوم من سائر الفرق الامامة في جميع اصناف الناس ، وقال ابراهيم النظام الامامة تصلح لمن قام بالكتاب والسنة من جميع الناس لقوله تعالى أن أكرمكم عند الله أتقاكم ، الى اخر ما قال مرجحا قول النظام ومشيرا الى كتابيه — كتابي نشوان الذين استوفيا هذه القضايا وهما كتاب (صحيح الاعتقاد وصريح الانتقاد) وكتاب مسلك العدل والميزان في موافقة القرآن .

وحين يشرح لفظ وبدا ، يذكر حديث النبي عليه السلام من بدا جفا ، وبدا الشيء بدوا اي ظهر وينتهي الى الحديث النبوي القائل ، نهي النبي عليه السلام عن بيع الثمرة قبل بدو صلاحها ثم يفضي من ذلك الى هذا الاستطراد الفقهي :

قال أبو حنيفة يجوز بيع الزرع قبل بدو صلاحه اذا لم يكن الانتفاع به

للاكل وكذلك روى عن ابن ابي ليلى ، وقال الشافعي يجوز بشرط القطع وهـو قول زيد بن علـي ، وقال ابو حنيفة وابو يوسف ومن وافقهما اذا اشتـرى الزرع بعد بدو صلاحه واشترط الترك بكل البيع ، وعند محمد والشافعي وقال بعض الفقهاء اذا اشترط الترك الى اجل معلوم صح فان كان غير معلوم بطل الى اخـر مـا قـال :

ومن ذلك ايضا خروجه من شرح لفظه (آس) وهو شجر طيب الرائحة، بمدلوله اللغوي الى ذكر خواصه الطبية قال :

الاس بارد في الدرجة الاولى يابس في الثانية وهو يجلو البهق ويسود الشعر واذا دق وقطر في الاذن نفع من القيح السائل فيهـا واذا سحق وذر على القروح المرطبة جففها واذ دق وصب عليه ماء زيت أو دهن ورد نفع مـن القروح الرطبة والاسهال والبواسير واذا دق وضرب بخل وترك على الراس قطع الرعاف ، وهو يحلل الاورام الحارة ، واذا حرق وخلط بزيت أو ثثوم ابـرا وأحرق الناروحبه نافع لنفث الدم ، وهو يقوي المعدة ، ويدر البول وينفع مـن أوجاع المفاصل اذا ضمد بـه ودهنه نافع في البواسير وحرق النار واسترخاء المفاصل والبثور والاسهال وقروح الامعاء .

وفي هذا النمط من الخروج على قاعدة الكتاب صنع نشوان في استطراداته في مباحث التاريخ والادب والعروض وما اليها من فنون المعارف ، ولكنه خروج محبب يشد القارىء الى الكتاب شدا يذكر باستطرادات الجاحظ وانتقالاتـه في تواليفه من فن الـى فن وانتقالات نشوان في هذا الكتاب اقرب الى قلـب القارىء واشد استيلاء على ذهنه وبخاصة وهو أمام كتاب متخصص في اللغة وشرح مفرداتها التي ينشر حولها كثير من أصحاب المعاجـم ضبابا كثيفا من الجمود والرتابة تكتم أنفاس كثير من القراء وترهقهم من أمرهم عسرا .

رسالـة حور العـين :

سماها محققا حور العين مقامة ، ويخيل الينا أن هذه التسمية فيهـا شيء من التجوز يبتعد بها عن المميزات التي اتسم بها ادب المقامات ، فمـن المعلوم أن مجموعة كتب المقامات التي الفت ابتداء من عصر بديع الزمـان للهمداني وعصر الحريري وغيرهما من كتاب هذا اللون من الادب هـذه المجموعات قد التزم مؤلفوها بعض شروط خلعت على فن المقامات لونـه الخاص الذي يميزه عن غيره من فنون الادب العربي ومن أهم هذه الشروط اشتمال كل مقامة على هذه العناصر :

أ ـــ عنصر القصة بشكلها القديم المتميز بالبساطة والسذاجة .

ب ـــ احتواء المقامة على عنصر الهزل او الفكاهة اللذين يعدان من أهـم الشروط في كتابـة المقامـة .

ج ــ التزام السجع في طريقة تأليفها وقد يتخلله بعض الشعر بحسب الموقف الذي يفرضه طبيعة المقامة .

د ــ اظهار البراعة اللغوية والحذق في تصريف الكلام المشحون بزخارف من البديع مطابقة وتجنيسا ، ومقابلة وتورية الى غير تلك من فنون البديع .

ونص حور العين لنشوان ليس فيه اكثر من هذه الشروط شيء يمست اليها بسبب وانما هو نص أقرب الى الرسالة منه الى المقامة .

لقد كتب نشوان هذه الرسالة التي ضمنها آراءه في الملل والنحل والعقائد والمذاهب الى مواضيع اخرى تتصل بعلوم اللغة والعروض والتاريخ والفلك الى أخبار في الادب ، واصول الفقه وغيرها من المواضيع .

وكتاب حور العين من مطبوعات عام ١٩٤٨ م حققه كمال مصطفى وساهم في تصحيح وضبط ونشر ست من ملازمه الاستاذ ابراهيم الابياري وقدم له الاستاذ محمد زاهد بن الحسن الكوثري .

ولم تتعد رسالة حور العين اثنتين وعشرين صفحة لحقها شرح المؤلف للرسالة التي استغرقت بقية صفحات الكتاب التي ابتدات من صفحة ــ١ــ الى صفحة ٣١٨ ؛ ولكن صاحب الرسالة جعل بقية الكتاب شرحا لهذه الرسالة ، وقد جرى في ذلك على النهج المدرسي فهو يشرح مفردات كل مقطع من مقاطع الرسالة شرحا لغويا ، ثم يتوسع في شرح كل كلمة واردة في المقطع بحسب ما تحمل من معنى .

وأسلوب نشوان في حور العين ، متين رصين تشعر امامه انك امام عالم لغوي قد عجم عود المعاجم والقواميس فهو يوظف كل لفظه وظيفته التي يستحقها ومعانيه تحمل شحنات من الوان العلوم والمعارف وقد التزم في الرسالة النثر المسجوع بطريقة تشبه طريقة أبي العلاء المعري في كتاب الفصول والغايات . ومن فقرات هذه الرسالة قوله :

(لقد اغرب هاتف الحمام ، واتى لذوي الكمد بامام ، اغنى من طرب ، أم هتف لغير أرب ، فقد الفا ، فرضع من مر الفراق خلفا ، فهو عروة الحمائم ، ومرقشهن الهائم ، أو فجع بهديل ، موف على البديل ، هلك بزعمهم في عهد نوح ، فكل حمامة تؤبنه وتنوح ، تأبين متمم لمالك ، ومراثيه لاخيه الهالك ، وعلم ربك ما في الصدور ، وحم على الرضا والسخط كل مقدور ، الا انه سلم من كفر والسلام ، وتحصن عن الملام بأحصن لام وتحلى بأطواق ، لم تبع في الاسواق ، واستشاد جذلا بمذل ، ناء عن العزل ، وترنم بأوزان ، مسلية عن الاحزان ، لا تفتقر من العروض الى ميزان ، وصدح بقريض ، عزب عن الغريض ، ورجع بألحان حسان كررها بأحسان وعرى من خطل الانسان) .

ويقول في موضع آخر من هذه الرسالة واصفا أو محللا الفرق والمذاهب والملل والنحل والديانات من هنود يعبدون البد وروم يعبدون الصليب وفرس يعبدون النيران ، ويهود حرفوا شريعة موسى ، وفلاسفة يطنبون في الاعراض والجواهر ، ووصف المركب والبسيط ، وما ظفروا من الدين بقسيط

ثم يفضي من ذلك كله الى الفرق المختلفة في الملة الاسلامية التي يقول فيها :

« وأما فرق هذه الملة للتقاطع منتحلة ، يكفر بعضها بعضا ، ويرى عداوته عليه فرضا ، وقد أمسكت كل طائفة منهم برئيس ، وعدت حسنا منه كل بئيس ، ولكل محاسن ومساو ، وقول ليس بمتساو ، وقل من يوجد على غير دين ابيه ، ومعلمه واقربيه ، وداء الناس في دينهم داء قديم ، ما صح معه من النغل اديم ، ومن اوضع في المذاهب ، وقع في الغياهب ، او غرق في البحث عن الفرق ، لم ير ناجيا من الغرق ، او نظر في الملل عثر على الزلل واشرف على اختلاف ، مود الى اتلاف ، وهجم على رياض مرة الثمار ، منهجة للاعمار ، وموارد ماؤها اجاج ، والمسيغ لها مجاج ، في العين الصحيحة عور ، وفي القناة الصليبة خور ، يشقي بها الغامز والعاجم ، شقاء واغد البراجم فهل عند ضد او ولى ، من نبأ جلى ، يحدث عنه الرائد بما لقي ، ويمسك عما بقي ، يزيل دجى الشكوك والشكاة بقبس هدى لاقبس مشكلة ، ويصدق جهينه الخبر عن اخيها ، ويبلغ الخاتمة من توخيها اكثر من ينتحل السنة ، فالعامة في طريق الحيرة امة ، والقدرية للطعن دريه ، وحجة الرافضة عند الله داحضة والحشوية غوية شبوية ، وركبت المرجئة ، مطية غير منجية ، ومشت الخوارج بأقدام عوارج ».

وقد كفانا نشوان في هذه الرسالة مئونة البحث عن معتقده في التوحيد ، والى أي مذهب من هذه المذاهب ينتمي فأنه يخرج المعتزلة من بين كل هذه الفرق وكأنها الفرقة الوحيدة التي تميزت بمذهب في الفكر سديد ، وطريق في الاعتقاد مستقيم ، وبديهي أن نستدل من ذلك على ان نشوان معتزلي المذهب قال :

(ونزلت المعتزلة من الفضل بمنزله ، فهم ملائكة الارض ، واعلم الناس بالسنة والفرض فرسان الكلام وذروة أهل الاسلام) .

أما الفرق الزيدية فقد هاجمها نشوان في هذه الرسالة فرقة فرقة ، ولم يستثن منها واحدا ، الا في شرحه للرسالة ، فقد اثنى فيه على الامام زيد بن علي وذكر علو قدره في علم الكلام ، وفي علم القرآن الذي له فيه قراءة مفردة مروية عنه كما نقل نشوان قول ابي طالب يحيى بن الحسين في كتاب الدعامة الذي يصف بيعة زيد بن علي بأنها كانت بيعة مشتملة على فرق الامة مع أختلافها ولم يشذ عن بيعته الا هذه الطائفة القليلة التوفيق يقصد طائفة الرافضة كما هو ظاهر من سياق الكلام ..

وهذه قصيدة نشوان الموسومة بالدافعة نثبتها في هذا الكتاب لانها تمثل علم نشوان بتاريخ اليمن القديم على طريقة الاخباريين ، وكثير من المستشرقين وعلماء الحضارات القديمة أصبحوا يقيمون وزنا كبيرا لكتب الاخباريين امثال عبيد بن شرية وابن الكلبي والهمداني ونشوان ، ولا ننس أن كلا من الهمداني ونشوان قارئسان للخط المسند ، وقد أثبت كثير من علماء النقوش تطابق ترجماته للنقوش مع ترجمات المهداني . وهذا هو نص القصيدة الدامغة

لنشـــوان :

ليس المحب عن الحبيب بمقصر   كلا ولا هو في الهوى بمقصر
صب تكاثفت الهموم بقلبه   يطوي الضمير عن اكتئاب مضمر
وملم طيف بعد وهن زارني   والصبح في جلبابه لم يسفر
كيف اهتدى وصلا على بعد النوى   وركوب اخطار ومحسرت مقفر
حيا فاحيا موت شوقي والجوى   وأمات حسن تجلدي وتصبري
كحلت جفوني بالسهاد وللملاء   حولي عيون في الدجى لم تسهر
ليس الخلي من الانام كذي الشجي   كلا ولا المعنى مثل الموقر
رعيا لأيام الوصال فانها   زمن الحياة وعمر كل معمر
ولشادن يهوى أغن مهفهف   يصبي الفؤاد بلحظ طرف أحور
صنم تخر له النواظر سجدا   خجلا لهيبته وحسن المنظر
يحكي قضيبا في كثيب قده   شخت الموشح وعث ما في المئزر
أصباء نجد هل شعرت بكلما   غادرت في الاحشا أم لم تشعر
صيرت ما بين الجوانح ملتقى   ملآن من جمر الغضا المتسعر
وأسرت قلبي بالهوى وملكته   اني لعمرك لست بالمتأسر
أو ما علمت بأنني من معشر   شم الانوف من العديد الاكثر
قومي الذين تملكوا وتمكنوا   في الارض قبل تملك الاسكندر
الخاتمون لسد ياجوج الذي   لا يستطاع لردمه من مظهر
الفاتحون لكل ثغر مبهم   غلق على من رامه متعسر
والمائلون على قباذ بالقنا   في الروع والمتأسرون ليعبر
والغالبون لهرمز وقبيله   والمالكون ملوك آل الاصفر
والطاعنون اذا الرماح تشاجرت   ثغر الفوارس تحت ظل العثير
والضاربون الهام في يوم الوغى   بين الصوارم والقنا المتكسر
والناصبون بكل ربع آية   فيها اعتبار العاقل المتفكر
والناحتون من الجبال مصانعا   والباطشون بقدرة وتجبر
والكاتبون بكل ثغر مسندا   بعد الفتوح تراه عين المبصر
بالسغد منه وباب مرو شاهد   أيضا ووادي الرمل لم يتغير
هم دوخوا الافاق حتى ذللوا   عز العزيز ونخوة المتكبر
واستفتحوا مدن البلاد جميعها   بالمشرفية والجياد الضمر
وبنو سمرقند وأفريقية   أيضا وتبتا في قديم الاعصر
ولهم بأرض الهند ثم مآثر   معروفة من عندهم لم تنكر
ولطالما حمل الخراج اليهم   اجداد كسرى في القديم وقيصر
ولطالما وطئت سنابك خيلهم   بالصين كل ممنع لم يقهر
واتت اليهم بالاتاوة عن يد   سكان غانة والعراق وبربر
وجرت بنافذ حكمهم أقلامهم   فيها على المأمور والمتأمر
واستنفرتهم أم عمرو بعدما   ظلمت بأرض الترك ان لم تنصر
بسطوا لظالمها ولما ينجه   منهم تجاوزه لسبعة ابحر
وغزا أبو كرب له في عسكر   فملا البسيطة يا له من عسكر
نحن الملوك الأولون جميعنا   ننمي الى جد كريم العنصر
أفخر على من شئت الا حميرا   فدع الفخار لأهله من حمير
قوم اذا ما أغضبوا لم ينتهم   عن مدخل الظلمات قوة معشر

واذا همو نهضوا لحي أصبحت ... أوطانهم قفرا كأن لم تعمر
فافخر بقيل قضاعة ابنة حمير ... فيها يقوم كل خد أصعر
بالصيد من خولانها وبنهدها ... وبكربها وبمهرة والصيعر
وبوائل والشمّ من بهرائها ... وتنوخها وقبيلها المتسور
وقبائل أخرى تزيد على الحصى ... منها تملى رق كل مشجر
شهد الرسول لها شهادة صادق ... عند التكاثر بالنصيب الاوفر
وافخر بكهلان الحماة ذوي العلا ... بملوك غسان بآل المنذر
وملوك كندة والذرى من مذحج ... وملوك همدان تمام المفخر
وبطيء أهل المكارم والندى ... وسراة أنمار ورهط الاشعر
قوم حصونهم السوابق والقنا ... ولباسهم نسج الحرير الاخضر
لولا صوارم يعرب ورماحها ... لم يسمع الاذان صوت مكبر
بسيوفنا نصر النبي محمد ... في يوم بدر والنضير وخيبر
ومواقف في غيرها مشهورة ... للأزد تشهد بالفخار الاكبر
وبها نمى الاسلام بعد خموله ... وعلى خطيب القوم قرع المنبر
وكرامة الجيران فرض بيننا ... من لم يقم منهم بها لم يعذر
عاداتنا بذل العطايا والقرى ... واغاثة الجاني ورفد المعسر
شيم لنا في الدهر لم نسبق بها ... عرفت لأولنا وللمتأخر
كم آمر منا مطاع في الورى ... ومقامنا في الناس غير مؤخر
كم فائق منا وكم من رائد ... كم مورد منا وكم من مصدر

القرن السابع

نهايــة حكــم الايوبيين
بدايــة حكم بني رسول

أستهل القرن السابع ومعظم مناطق اليمن بأيدي الايوبيين منذ ان بعث صلاح الدين الايوبي اخاه طوران شاه على راس جيش كثيف استطاع ان يقضي به على دولة ابن مهدي في زبيد وال زريع في عدن وحضرموت وما تبقى من دولة الصليحيين في جبلة وكذلك ال حاتم في صنعاء ثم عاد طوران شاه الى مصر بعد أن أناب عنه علي زبيد كامل بن منقد المكنى بأبي الميمون المبارك ، بعد ان أمره بقتل عبد النبي بن مهدي وأخويه أحمد ويحيى وأناب على تعز ياقوت التعزي وعلى عدن عثمان الزنجبيلي كما اناب اخرين على غير تلك من المناطق.

ولم يطب المقام لطوران شا هفي اليمن فأستأذن أخاه صلاح الدين بالعودة الى مصر فعاد اليها ؛ وظل هؤلاء النواب قائمين بشئون اليمن فترة بلغت تسع سنوات ؛ ولكن الخلاف نشب بينهم ، واخذت بعض المقاطعات اليمنية يستعيدها حكامها الذين انهى حكمهم طوران شاه ، الامر الذي اضطر صلا حالدين الايوبي الى ارسال أخيه الذي تمكن من اخماد ثورة علي بن حاتم فأحتل حصن كوكبان وذي مرمر - وهزم الامام عبد الله بن حمزه واحتل صنعاء ثم سار بجيوشه الى حضرموت فاعادها الى حكمه .

وبعد وفاة طغكتين تولى الحكم بعده اسماعيل الذي قتله غلمانه في زبيد وكان اسماعيل ضعيف الراي ؛ في ايامه استفحل أمر الامام عبد الله بن حمزه الذي أحتل صنعاء وذمار واكثر جبال جبال اليمن .

وفي عام ٦١٢ قدم الملك المسعود بن الملك الكامل ابي بكر بن ايوب الى اليمن واليا عليها من قبل والده ووصلت معه اسرة بني رسول ، التي اعانته على

بسط نفوذه في اليمـــــــــن .

وغادر الملــك المسعود اليمن في طريقه الى مكة تمهيدا لرجوعه الـــى دمشق التي وعده ابن عمه الملك الكامل بأن يوليه عليها بعد وفاة والده الملــك عيسى بن العادل الايوبـــي .

ولم يغادر الملك المسعود اليمن الا بعد أن أخذ ـ كما يقول المـــؤرخ الخزرجي معه خراج اليمن من البيضاء والصفراء والجواهر الغالية والطرف والتحف حيث بعث بذلك كله الى مصر مع مملوكه حسام الدين لؤلؤ وبعث معه افـــراد اسرته وحاشيتـــه .

واناب الملك المسعود على صنعاء نجم الدين احمد بن أبي زكرى ، كمـــا أناب عمر بن رسول على اليمن ، وقد بدأت دولة عمر بن رسول بعد أن بلغت وفاة الملك المسعود في مكـــة في حدود عام ٦٢٦ .

وآل رسول يدعون انهم يمانون من غسان من سلالة جبلة بن الايهم ، نزع أسلافهم كما يدعون الى بلاد التركمان بعد موت جبلة بن الايهم ، وظلـــوا ـ كما يقول الخزرجي ـ يتكلمون بلغة قبائل التركمان فأنقطعت اخبارهم عـــن كثير من الناس ، وكان كثير من الناس يظن أنهم من التركمان وهم مقيمون على أنسابـــهم .

وينسب الخزرجي اسم رسول جدة الاسرة الى محمد بن هارون الـــذي أدناه الخليفة العباسي ـ ولا يسمي الخزرجي هذا الخليفة ـ واختصه برسالته الى الشام والى مصر فأطلق عليه اسم رسول واشتهر به وترك اسمه الحقيقي حتى جهل فلا يعرفه الا القليل من الناس .

والذي هو واضح أن خمسة من افراد هذه الاسرة وفدوا مع طـــوران شاه وهم ـ١ـ شمس الدين علي بن رسول ٢ ـ بدر الدين الحسن بن علي بن رسول ٣ ـ نور الدين عمر بن علي بن رسول ٤ ـ فخر الدين أبو بكر بن علي بن رسول ـ٥ـ شرف الدين موسى بن علي بن رسول ، وكان هؤلاء الافراد الخمسة غاية في الشجاعة والاقدام وحسن التدبير في الحروب ، وقد أبلوا في الحروب التي خاضها طورالشاه في اليمن بلاء حسنا وظلوا علـــى الـــولاء للايوبيين رغم تخوف الايوبيين منهم ورغم حبس الملك المسعود لثلاثة منهـــم لانه آنس منهم ما يشبه المؤامرة ـ على ما يبـــدو .

ومهما يكن من امر فأن الذي نرجحه أن ال رسول هم ممن تعود المورخون ان يطلقوا عليهم اسم الغز أو التركمان أو ما شاكل ذلـــك من أسماء القبائـــل التركمانية . وافتثبات الجنسية اليمنية بالقياس الى جماعة عاشت في بـــلاد الروم أو تركيا منذ فجر الاسلام أمر فيه شيء من الصعوبة والافتئات علـــى علـــم الانســـــاب .

ولكن الذي لا ريب فيه أن الحكام الرسوليين مثل غيرهم من الحكـــام الايوبيين كانوا على جانب كبير من الالمام بالثقافة العربية الاسلامية فقدصهرتهم هذه الثقافة فذابوا في بوتقتها الحارة ، فكان لهم اكبر الفضل في مقاومة حكم

الشيعة وثقافة الشيعة ، وتشجيع ثقافة أهل السنة ، ومشهورة جدا مواقف كثير من الايوبيين والمماليك في حروب الصليبيين وصد جموع المغول والتتار رغم ما نال الشعب العربي اثناء حكم المماليك من ظلم وقهر وتسخير .

وقد سار حكام آل رسول في اليمن نفس السيرة التي سارها الايوبيون وخلفاؤهم من المماليك في نظام الحكم ، وفن الادارة ، ومن اجل ذلك لاحظنا مجموعة من الكلمات الاعجمية التي كانت تستعمل في مجال الوظائف والرتب مثل:

الاستادار ــ المشرف على البيوت السلطانية .

الخازاندار ــ الذي يحفظ ما يجلبه الاستادار من المؤن والاقمشة .

المهمندار ــ المستقبل للسفراء والوفود .

الدويدار ــ خادم القصر والمتولي أمر تبليغ الرسائل واخذ التوقيعات من السلطان .

السلحدار ــ المتولي أمر الاسلحة .

الجاشنكير ــ المشرف على اعداد الاسمطة .

الطبلخانه ــ موسيقى الجيش وداياته .

الجامكية ــ المرتب الشهري .

الاتابك ــ قائد عام الجيش ه

الخانقاه ــ مجموعة دور مبنية كتكايا للصوفية .

وقد بدأت دولة بني رسول في عام ٦٢٦ برئاسة عمر بن علي بن رسول الذي بسط نفوذه على اليمن بكاملها الى الحجاز ومات مقتولا بالجند على أيدي مماليكه الذي أستكثر منهم حتى بلغ عددهم اكثر من الف مملوك وكان مقتله عام ٦٤٧ هـ وخلفه ابنه المظفر يوسف بن عمر الذي أمتدت ايام حكمه الى عام ٦٩٤ هـ ثم خلفه ابنه الاشرف الذي لم تدم أيام حكمه اكثر من عامين ، وانتهى القرن السابع وعلى عرش اليمن أخو الاشرف المؤيد داود بن يوسف الذي أمتدت أيام حكمه الى عام ٧٢٠ من القرن الثامن .

وقد أحس حكام بني رسول بضعف الدولة الايوبية وتفككها في أواخر عهدها وأوائل حكم المماليك ، فعمل عمر بن علي بن رسول ــ كأول رئيس للدولة ــ على اثبات شرعية حكمه ــ بالاستعانة بالخليفة العباسي المستنصر بن الظاهر بن المستعصم ، فولاه على اليمن نيابة عنه في حدود عام ٦٣٢ .

وكانت أيام عمر بن رسول جهادا متصلا في الحفاظ على مواقع حكمه في اليمن ومكة التي جابهت قواته فيها مرارا قوات الكامل بن أيوب صاحب الديار المصرية .

ويعد المظفر الملك الرسولي الثاني الذي خلف اباه عمر بن علي بن رسول، اعظم ملوك بني رسول شأنا وأجلهم قدرا ، وقد عاصر من خلفاء بغداد المستعصم العباسي ومن سلاطين مصر الظاهر بيبرس البندقداري ، ومع هذا الاخير تبادل المظفر وفود المجاملة التي تحركت من مصر الى اليمن ومن اليمن الى مصر مؤكدة حسن العلاقة بين البلدين ، وقد قاتل المظفر كثيرا وصالح

كثيرا الائمة والسلاطين الذين كانوا متغلبين على الحصون ، وهو الـــذي أفتتح ظفار وعمان التيوجه اليها جيشا كثيفا عام ٦٧٨ لقتال سالم بن ادريس الحبوظي ، وفي هذه المعركة قتل سالم الحبوظي ونقل ال الحبوظي بأجمعهم الى زبيد بعد أن ولي المظفر على ظفار واليا من قبله .

وخلف المظفر ابنه الاشراف فسار سيرة أبيه ، وكان الاشرف موضع الثقة من ابيه بحيث عهد اليه بالقيام بالخلافة وهو حي وذلك في عام ٦٩٤ للهجـــرة .

ثـورات الائمـة في هـذه الفتـرة

في هذه الفترة ثار على الدولة الرسولية كثير من الائمة والامراء المتغلبين علــى بعض الحصون والنواحــي .

ففي عام ٦٥٠ قام الشريف الحسن بن وهاس يدعو الناس الى امامتـــه في صعدة ، فتبعه كثير من الزيدية وكان مقاتلا شجاعا وقد وقع في اسر بنـي رسول ثلاث مرات أخرها عام ٦٥٨ .

وفي عام ٦٧١ ثار الامام أبراهيم بن تاج الدين فأسرته قوات بني رسول في عهد المظفر وظل في الاسر حتــى مــات .

وثار المطهر بن يحيى عام ٦٧٦ وظل في حروب مع ال رسول حتـــى توفـــي عـــام ٦٩٧ .

ثـورة دثينـــة :

وثارت دثينة عام ٦٠٥ على بني رسول ، الامر الذي اضطر الملك المظفر أن يجهز حملة كبيرة اليها فأستطاع أن يخمد الثورة وقال الشاعر أبو القاسم بن هتيــل قصيدته الرائعة التي يقول فيها :

يهنـــى دثينـــة أن الله عوضها	من الدآدي بيض الهنـد والسمر
غر الجحافل حصناها وما علمـوا	أن الزجاجـة لا تقوى على الحجر
أرسلت صاعقـة في غيم بارقـة	تردي وتبرق وتبرق في رعد بلا مطر

الاوضاع السياسية بوجـه عـام :

ومجمل ما يمكن ان يقال في الاوضاع السياسية السائدة في عهد بنـي رسول أنها أوضاع قلقة مضطربة لا تكاد تختلف عن الاوضاع التي سادت مصر في عهد المماليك ، فقد قتل أول خليفة رسولي على يد مماليكه — عمر بن علي بن رسول ، واصطدم الاشرف بعد موت ابيه المظفر مع اخيه المؤيد اصطداما

مسلحا ، وكذلك ظل الخلاف مستعرا بين خلفائهم من أفراد الاسرة الحاكمة الذين جاؤا من بعدهـــم .

على أن الدولـــة الرسولية ظلت تحكم اليمن زهاء ٢٣٠ عاما ولا يشبهها من هذه الناحية الا دولة بني زياد الذين دام حكمهم حوالي ٢٠٥ أعوام ، فمـــا هو السر في بقائها الطويل رغم الخلافات والمشاكل والاضطرابات ؟

أن السبب في ذلك يرجع الى عدة أمور ، يمكن أن نوجزها فيما يلي :

ــ أ ــ سأم الناس وضيقهم بالخلافات المذهبية التي أثارها الائمة في كـــل ناحية ظهروا فيها . ففي كل ناحية يظهر أمام وكل امام يدعى أنه أولى بالامـــر من غيره ، وقد وسع الخرق مذهب الزيدية القائل بوجوب الخروج على الامام الظالم وهو مبدأ اسلامي صحيح ولكن الخوارج انحرفوا به عن معناه الحقيقي حتى أصبـــح يدخل في باب شق عصا الجماعة والخروج عما انعقد عليه اجمـــاع المسلمـــــين .

ــ ب ــ تغلب روح الاقطاع على بعض الامراء المسيطرين على الحصون والمواقع الاستراتيجية وتأصل النزعة القبلية فيهم بحيث كان ينظر كل منهـــم الى اليمـــن من منظار ضيق لا يتعدى حدود منطقته والقبيلة التي يعيـــــش بـــين أفرادهـــــا .

ــ ج ــ خروج النـــاس من بقايا عهد الصليحيين الذي تقوقـــع فـــي دائرة التعاليم الاسماعيلية ، ومن قسوة حكم ابن مهدي المليء بالمجـــازر والماســـي الداميـــة .

ــ د ــ ظهور دولة بني رسول التي بهرت الناس بمظاهر الابهـــــة وبهارج النظم التي هي خليط من بقايا تراث الفاطميين والايوبيين بما تبعه مـــن أشكال الاحتفالات والمواسم والاعياد .

ــ هـ ــ تشجيع الرسوليين لفقه السنة بل التزامهم بهذا المذهب وتشجيعهم لحركة التصوف شأنهم في ذلك شأن الايوبيين والمماليك .

حرص الرسوليين القوي ومثابرتهم الدؤوب على بسط نفوذهم علـــى سائـــر اجزاء اليمن بحيث أمتد حكمهم الى ظفار في عمان ، والى الحجـــاز وتعاملهم مع الدول القائمة في بغداد ومصر تعامل الند للند ، وهم وأن طلبـــوا تأييد الخليفة العباسي لتأكيد شرعية حكمهم ، فأنهم فلم يعلنوا اسم الخليفـــة العباسي في خطبة ولا ضربوا سكة نقد تحمل اسمه . الى غير تلـــك مـــن المزايا التي تذكر لحكام ال رسول .

الحركـــة الثقافيـــــة :

كانت الحركة الثقافية في هذا العهد نشطة وقد تمثلت في الكتابـــــة الديوانية وفي التأليف وفي فقه الشريعة ، وفي الخطابة والنثر والشعـــر ، وفي علم الفلـــك وعلم الكلام .

فقد كان المظفر الرسولي عالما بالكتاب والسنة وله في النحو واللغـــــة علو كعب ، وله في الطب يد طولى ومثله ابنه الاشرف الذي قرأ الفقه والنحـــو واللغة وبرع في الانساب والطب وفي علم الفلك ؛ الف في الانساب كتـــــاب «تحفة الاداب في التواريخ والانساب ، وكتاب جواهر التيجان » وله في الطب كتاب الجامع والف كتابا في السطرلاب بعد أن زاوله واتقنه .

وفي تاريخ الجندي والخزرجي عشرات التراجم للادباء والشعراء والعلماء والاساتذة والمتصوفة الذين عاشوا في هذه الفترة ، وفيهما اشارات الــــــى مؤلفاتهم في مختلف الفنون والعلوم .

حركـــة التصـــــوف :

وكما فعل صلاح الدين الايوبي في انشاء خانقاه لرجال التصوف فـــي مصر أنشأ الرسوليون خانقاه لرجال التصوف في تهامة ومن اعلام الصوفية في عهدهم جميل ابو الغيـــث وهو الذي كان يلبس الخرقة زملاءه من اعـــــلام التصوف وسيأتي ذكره وذكر غيره من الصوفية في غير هذا الموضع مـــــن هـــذا الكتـــــاب .

المنشـــور السياســـي :

ومن نماذج الخطابة أو الرسائل لهذه الفترة هذه الكلمة أو هذا المنشور السياسي الذي وجهه المظفر الى الناس بمناسبة توليته لابنه الاشرف خلفا لـــه.

« أما بعد فقد ملكنا عليكم من لا نؤثر فيـــه والله داعي التقريب علــــى باعث التجريب ، ولا عاجل التخصيص على أجل التمحيص ، ولا ملازمة الهوى والايثار ، على مداومة البلوى والاختبار ، وهو سليلنا الخطير وشهابنا المنـــير وذخيرتنا على المراد وبصيرنا الذي نرجو بـــه صلاح البلاد والعباد ، ونؤمل فيه من الله الفوز والنجاة في المعاد ، وقد رسمنا لـــه من وجوه الذب والعتابـــة ، ومعالم الرفق والرعاية ، ما قد التزم بوفاء عهده ، والمسؤول في اعانته من لا عون الا من عنده ، ولن يعرفكم من حميد خصاله وسديد فعاله الا بمـــا قد بدأ للعيان ، وزكا مع الامتحان وفشا من قبلكـــم في كل لسان .

وقد حددنا له أن يكون بكم رؤوفا رحيما جوادا كريما ، ما أطعتموه علـــى المراد مطاوعة الانقياد فأما من شق العصا وخرج عن الطاعة وعصى فهـــــو يقص منه ولو مت اليه بالرحم الدنيا فكونوا لـــه خير رعية بالسمع والطاعة في كل حال يكن لكـــم بالبر خير ملك ووال » :

من العــادات الاجتماعية (السبوت) :

والسبوت من العادات الاجتماعية التي حرص الرسوليون على احيائها ، وهي عادة اتخذت شكل عيدي سنوي يقام احتفاء بالنخيل وهو عيد شعبي شبيه بعيد النيروز عند الفرس وعيد الربيع عند الايوبيين ، ويظهر ان السبوت أو عيد النخيل كان أهل تهامة يقيمونه قبل ظهور دولة آل رسول ، ولكن الرسوليين عملوا على ترسيمه مضاهاة بعيد الربيع الذي استحدثه الايوبيون في مصر .

وقد هاجم عادة السبوت بعض مؤرخي الشيعة فما قاله زبارة في كتاب ائمة اليمن ومن أعظم وأبشع البدع التي حدثت في الاسلام في أيامه يقصد أيام المؤيد الرسولي بدعة السبوت حيث كان المؤيد يأمرأهل زبيد بالخروج معه بنسائهم فتقع هنالك مفاسد عظيمة واختلاط فاحش وسماع وطرب ففي ذلك يقول أحد الفقهاء :

تجنب عن زبيد ولا تطأها ... ولا تغررك يابن أخي زبيد
ففي يوم السبوت ترى مساو ... أتتها يوم سبتهم اليهود

وحين نراجع تاريخ الخزرجي في عهدي المنصور والمظفر الرسوليين الاول والثاني لا نجد ذكرا لاي عيد أقاماه بهذه المناسبة على أن الخزرجي أشار في سياق ترجمته للعلامة اليمني سليمان بن موسى الجون الاشعري المتوفي عام ٥٦٢ هـ ، قال : ولما ظهرت السبوت ــ يقصد رسمت ــ وعمل فيها المنكر هاجر ــ يقصد العالم المذكور ــ الى الحبشة فأقام فيها الى أن توفي .

وكل ما يمكن أن يقال في السبوت أنها عادة احياها الرسوليون مضاهاة لاعياد الشيعة التي يقيمونها كعيد الغدير الذي ظل الائمة يحتفلون به الى ما قبل ثورة ٢٦ سبتمبر المجيد والذي يؤكد حق علي في الخلافة في حديث من كنت مولاه فعلي مولاه الذي انفرد به رواة الشيعة .

(الاتجاهات الشعرية في القرن السابع)

حين نلقي نظرة عامة نتجاوز بها حركة الشعر الذي قيل في اليمن الى غيرها من المناطق نلاحظ أن الشعر في هذه الفترة قد تشابهت ــ نوعا ما ــ أغراضه ومقاصده ، وأن اختلفت هذه الاغراض والمقاصد ــ شيئاما ــ بالقياس الى اليمن وحدها .

فمن ابرز شعراء مصر في القرن السادس القاضي الفاضل صاحب أو رئيس ديوان الانشاء للفاطميين ثم الايوبيين والمتوفي عام ٥٩٦ ، ومنهم المهذب بن الزبير المتوفي عام ٥٦١ واسامة بن منقذ المتوفي عام ٥٨٤ .

ويقابل هؤلاء من شعراء اليمن في القرن السادس عمارة اليمني ونشوان

الحميري وأبو بكر العندي ، وحاتم بن عمران وأبو بكر اليافعي وابن الهبيني ومحمد الحفائلي .

أما في القرن السابع للهجرة فقد كان من ابرز شعراء مصر ابن سناء الملك المتوفي عام ٦٠٨ ، وكمال الدين ابن النبيه المتوفي عام ٦١٩ وعمر بن الفارض المتوفي عام ٦٣٢ وابن مطروح المتوفي ٦٤٩ والبهاء زهير المتوفي عام ٦٥٦ .

ويقابل هؤلاء من شعراء اليمن في القرن السابع محمد بن حمير ، المتوفي عام ٦٥١ ، والامير شمس الدين احمد بن الامام عبد الله بن حمزة المتوفي في حدود ٦٥٦ والشيخ الرئيس علوان بن عبد الله بن سعيد الجحدري ، والمتوفي عام ٦٦٠ ، وابن هتيمل المتوفي قبل نهاية القرن السابع ، ويحي بن ابراهيم بن العمك المتوفي ٦٧٠ والامام ابراهيم بن احمد بن تاج الدين الهدوي المتوفي ٦٨٣ .

وقد كان الحكم في اليمن منذ ٥٦٩ بيد الايوبيين فال أيوب ، ومثل ذلك ال الحكم في مصر من ال أيوب الى المماليك .

وكان سقوط بغداد بأيدي التتار بقيادة هولاكو عام ٦٥٦ نكبة عظيمة تركت اثارها على العالم العربي والاسلامي في الفكر والسياسة والادب .

اذن فلا عجب اذا رأينا الادب في اغلب هذه المناطق يسخر للبلاط في موضوع المديح والتهاني ووصف القصور ، وما اليها من المواضيع ، فقد مدح البهاء زهير وابن سناء الملك وغيرهما حكام بني ايوب ، ومثلهم فعل ابن هتيمل في اليمن ومحمد بن حمير وكثير غيرها من المادحين لحكام ال رسول وغيرهم من الائمة المناويئين لهم .

على أن ميزة خاصة انفرد بها نتاج الشعر في اليمن هي خلوه من الفحش والمجون والمباهات بالغزل الغلماني الذي عرفناه في مصر في شعر ابن مطروح والبهاء زهير وابن سناء الملك حتى اضطر شاعر مصري من شعراء القرن السابع كابن الوردي الى ان يعتذر من اجل شعره الذي قاله في هذا الموضوع بقصد ترويج شعره لانه كان سنة من سنن العصر قال ابن الوردي :

أستغفر الله من شعر تقدم لـي ... في المرد قصدي به ترويج أشعاري

وقال الشاعر المصري ابن سناء الملك وهو من شعراء القرن السابع — كما أسلفنا — في هذا الموضوع :

مـا المـرد أكبـر همـي ... ولا نهايـة علمـي
ولسـت مـن قـوم سـوء ... حاشـا تقـا يوعلمـي
وانمـا خـرج دهـري ... كـذا فنفقت شعـري

أجل لم يعرف الشعر الذي قيل في اليمن هذا اللون من الغزل الماجن ، ولعل مرد ذلك الى كثرة من كان يورد الى مصر من سبي الحروب الصليبية من غلمان الفرنجة وما كان يجلبه تجار الرقيق من اطفال الترك من اصقاع اسيا .

ورغم ذلك فانا لا نصف الادب — كل الادب — الذي قيل في مصر وفي غير مصر بأنه أدب فحش ومجون فان شعر ابن الفارض وابن عربي وابن الخيمي والاخير شاعر يمني الاصل مصري الوطن ، شعر هؤلاء يمثل اعلى طبقة لشعراء

التصوف اصحاب الاذواق والمواجيد الذين يمثل شعرهم اعلى درجات الحب الالهي .

ولابن الفارض وابن عربي ومن شاكلهما امثال من شعراء اليمن استقوا من نفس النبع ونهلوا من عين المنهل ولو رجعنا الى ما كتبه ابن سمرة في كتاب طبقات فقهاء اليمن وهو من كتاب القرن الخامس والى ما كتبه الجندي في كتاب السلوك ، وهو من كتاب القرن الثامن وما كتبه غير هؤلاء ممن جاء بعدهم لوقفنا على عشرات بل مئات التراجم يمكن ان يؤلف فيها اضخم كتاب في تاريخ التصوف والوان من كلام اصحابه شعرا ونثرا وتأليفا .

شعراء هذا القرن

علوان بن عبد الله بن سعيد الجحدري

توفي هذا الشاعر في عام ٦٦٠ وفي عهد المظفر ـــ الملك الرسول الثاني .

وكان الشيخ الرئيس علوان الجحدري ـــ كما ترجم له الخزرجي[1] : قيـــلا من اقيال اليمن وأوحد أعيان الزمن كان كريما شجاعا مطعاما مطعانا عفيف الازار مجتهدا في طلب الاجر والثناء وقد ملك في عهد ا لرسول ناحية عظيمة من شرق اليمن هي حجر ونواحيها وتغلب على حصون كثيرة منها حصـــن العروسين ووعل والبورة ونعمان شرقي الجند وحارب ملوك الغز ـــ كذا يسميهم الخزرجي وهو الذي أكد في مقدمة الكتاب نسبهم اليمني ـــ ولم يظفروا منه بطائل .

وكان الملك المنصور عمر بن علي بن رسول رئيس الدولة الرسوليـــة الاول قد هاجم حصون الشيخ الرئيس علوان الجحدري عدة مرات وكانـــت جيوش الملك الرسولي اذا وصلت تتقدمها الطبول التي تضربها النوبـــة فترعب النفوس ، وكان علوان يقول لقواته المقاومة لا تفزعوا يا مذحج فأنما هي ـــ يقصد الطبول ـــ جلود بقر . وله قصيدة في التحريض على الرسوليين يقول منها :

من تاب عن حرب نور الدين من جزع فانني عنـــه ما عمرت لم أتب

وكان الرئيس الشاعر علوان الجحدري قد راسل الملك الكامل الايوبـــي الى الديار المصرية يطلب منه الاعانة في حربه ضد نور الدين عمر بن علـــي الملك الرسولي الاول ، فأعانه الملك الكامل بأموال جمة .

وقد أستطاع الملك الرسولي أن يتلطف ويبذل فيه الرغائب حتى أتى اليـــه

(١) العقود اللؤلؤية ج (١) ص ١٣٨

به أسيرا ثم اطلقه وأعاد اليه حصونه التي ظل محتفظا بها طوال ايام حياته ولم يستطع ال رسول افتتاحها الا بعد موته .

وكان العداء قائما بين الرئيس علوان الجحدري والامير أسد الدين محمد بن الحسن بن علي رسول ، وكان أسد الدين نائب الدولة الرسولية في صنعاء وقد خالف أو خرج على المظفر ولجأ الى ال حاتم ، بعد أن قاتل الامام احمد بن الحسين في صنعاء فلم يستطع أن ينال منه بل أن الامير الرسولي أسد الدين دخل في طاعة الامام وباعه حصن براش بمايتي الف درهم . وكان ذلك في حدود عام ٦٥٠ .

وبعد ذلك بعام فسد ما بين أسد الدين والامام لان الاخير لم يدفع له ثمن حصن براش ، فسار بمن معهفي طريق المشرق وقصدت جنود المظفر أسد الدين وكان بصحبته الامير الهاشمي علي بن وهاس ، وأحيط بأسد الدين الذي لم يجد بدا من اللجوء الى شاعرنا علوان بن عبد الله الجحدري رغم ما بينهما من عداوة .

فلما نزلوا عليه تلقاهم بالرحب والسعة وانزلهم حصنه العروسين وحمل اليهم الضيافات واجارهم من الملك الرسولي ، ولم يزل يسعى في الصلح بين المظفر وقريبه النائب الرسولي حتى عفا عنه وجمع بينهما ، واعادهما الى الوفاق في هذه المرة ، وفي ذلك يقول شاعرنا الرئيس علوان بن عبد الله الجحدري في ابيات مختارة من قصيدته الدالية المطولة التي يصف فيها قصة نزول اسد الدين ورفاقه في رحابه وكيف أستقبله على ما بينهما من عداوة وبغضاء بالرحب والسعة مصورا روح الضيافة والكرم اليمني المعروفين :

سلام على الدار التي في عراصها ... معاهد قوم لا يذم لهم عهد
أناخوا علينا نازلين وفيهم ... طوال القنا والمشرفية والجرد
ليوث شرى خاضوا الرمال فذللوا ... مقاولها فارتاع من خوفهم نجد
رموا موضع الشمس احتسابا لأنفس ... أمانتها موت على العز أو حمد
الى أن سرى البرق اليماني لأمعا ... بدملؤة العز الذي ما لها ند
فراحوا له بزل الركاب على الوجي ... وقادوا اليها الخيل من فوقها الاسد
يقودهم الملك الذي في يمينه ... عوارف منهن المنية والرفد
تحف به القوم الذين سيوفهم ... عقائق حمر لا يلائمها غمد
رأوا موردا عذبا فلما دنوا له ... وقد أشرعوا قلن المقادير لا ورد
قضى أسد الدين القضاء برمحه ... الى علم زهر النجوم له عقد
فجاش عليهم للمظفر عارض ... له البيض برق والطبول به رعد
همام أبي أن يسلم الملك فانبرى ... حواليه أرباب الزعامة والجند
يسوقهم سوق السحاب يحثها ... نسيم الصبا حتى الم بنا الوفد

ثم يعرج الرئيس الشاعر علوان الجحدري الى موضوع التجاء أسد الدين الرسولي ورفاقه اليه رغم العداء المستحكم بينهما والذي تناساه بمجرد نزولهم بساحته طالبين عونه وحمايته قال :

اكارم كانوا لي عدوا فأصبحوا ... ينادون يا علوان هل ذهب الحقد
فقلت لهم في فرع « ثيماء » فانزلوا ... الا مرحبا هذا السموأل والفرد

مددت لهم ظل العروسين دائما بسطت لهم أيدي الرجاء الذي مدو
فشكرا لمن أدنى ركاب محمد الي واهداه لي الفلك والسعد
فأصبح أرباب الزعامة حولنا وما رابني منها الوعيد ولا الوعد
ملوك دنا بعض لبعض فأصبحت كتائب عزمي وهي بينهم سد
وأسد الى أسد تدانت فصدها على حنق ما بينها الاسد الورد
فمن لفخار العرب مثلي ومن لها كمثل مقامي في المكاره ان عدوا

ومن شعره قوله في الحكمة :

اذا كان قول الحق والحق قوله بمحكمة والملك في آية الملك
ونفسك فاتركها عن الهم والاذى فراحتك العظمى لك الله في الترك
فما الامر الا للذي برأ الورى وتسييرهم في لجة البحر بالفلك
وموجدهم من غير وجدان سابق ومفنيهم بعد التكاثر بالهلك

وله قصيدة اخرى تطرق فيها الى معنى الشباب والمشيب ويبدو أن فيها أبيات مبتورة لعلها تصور أو تصف شيطان الغواية في المشيب الذي يقول الشاعر علوان بن عبد الله الجحدري ان شيطانه — يقصد شيطان المشيب لا يختلف عن شيطان الشباب والقصيدة ذات طابع قصصي يقول فيها :

وقد كان ظني الغي واللهو انما يكونان في عصر الشباب العرائق
فلما أتاني الشيب وانقرض الصبا نظرت وذاك الغي غير مفارقي
فقال بلى لكن رأيتك ربما تكون باحدى الحالتين موافقي
فقلت له لا مرحبا بك بعدها وانك مني طالق وابن طالق
فقال سمعنا ما حلفت به لنا وكم مثله قد قلته غير صادق
وقلت أمن بعد الطلاق فقال لي وأي طلاق للنساء الطوالق
فقلت له منك جار بجيرتي فقال ومن ذا قلت ذو الطول خالقي
فولى له مني ضجيج فقلت له تضج وبادر نحو كل منافق

وديوان علوان الجحدري — كما يقول الخزرجي واقع في مجلد ضخم وفي الغالب عليه الجزالة وكان في عصر الخزرجي عزيز الوجود .

ابراهيم بن أحمد بن تاج الدين :

هذا أحد الائمة الذين حاربوا الدولة الرسولية وكان من الفرسان المعدودين والشجعان المشهورين وكانت وفاته عام ٦٨٣ أسيرا في حصن تعز في عهد الملك المظفر الرسولي .

وكان ابراهيم هذا قد دعا الى نفسه ببلاد الظاهر من حاشد عام ٦٧٠ وتابعه الاشراف الحمزات وكانت له وقائع مع الرسوليين في ذمار وما حواليها وانتهى الامر به أسيرا في حصن تعز عام ٦٧٤ الى ان توفي — كما اسلفنا في عام ٦٨٣ وقد ظل أيام سجنه مكرما معززا في الحصن تجري عليه الجرايات وتقدم له الهبات من قبل الملك الرسولي المظفر .

ومن شعر هذه الابيات التي قالها في موضوع سقوطه في أسر الرسوليين:

خطب ألم فأنساني الخطوب معا وصير القلب في أحشائه قطعا

الى أن يقول في هذه القصيدة :

حتى اذا جاء من خلفي ومن قبلي	عساكر حملوا الانصاف والقطعا
وامسكوا السيف من خلفي مغادرة	والرمح قد أمسكوه والجواد معا
وكنت في موضع مستصعب حرج	لم ألق فيه لسعي الطرف متسعا
ثم انتهيت الى سوح به ملك	يحل بيتا من العلياء مرتفعا
فجاد بالعفو والاحسان شيمته	ولم يزل للعلى والجود مصطنعا

واجود من هذه الابيات واقوى منها مبنى وارصن معنى قصيدته البائية التي وصفت قصة وقوعه في قبضة قوات المظفر بقوله :

نوائب الدهر في أفعالها عجب	والحرب لفظ ومعنى لفظه حرب
والدهر ان سر يوما في تصرفه	فعن قريب اذا ما سر ينقلب
وقد رمتني صروف الدهر عن كثب	بأسهم ماضيات عندها العطب
ويوم أفق وقد جاء المظفر في	عساكر جلها الاتراك والعرب
فلم أخم عن لقاء القوم اذ نزلوا	ولا هربت مع الابطال اذ هربوا
بل صلت فيهم على الآساد منتضيا	سيفا كعزم هزبر الغاب اذ يثب
وتحت سرجي وقاح حين أحفزها	تخالها كوكبا في الجو يلتهب
فما اطاقوا لقائي اذ دلفت لهم	بعاسل كرشاء البئر يضطرب

الى ان يقول في هذه القصيدة التي نقف منها عند هذا البيت :

فان غلبت فما هذا بمبتدع	فكم بها ليل غلابون قد غلبوا

يحيى بن ابراهيم بن العمك :

هذا الشاعر من تهامة اليمن وكان في أول حياته مقدم الرماة في جيش المظفر الرسولي (١) ورئيسا على قومه يركب الخيل ولا يستغل بشيء من طلب العلم .

ولكن الحب هو الذي دفعه الى طلب العلم . لقد خطب ابنة الفقيه ابي بكر بن خطاب فامتنع هذا الكبير من تزويجه وقال له لست لها كفئا لانك رجل جاهل . واكب يحيى بن ابراهيم على العلم يتلقاه من مصادره في بطون الكتب وعلى ايدي الاساتذة حتى صار فيه من الاعلام المبرزين ثم عاود خطبة الفتاة من ابيها فزوجه اياها ولكن بعد أن صنف عدة كتب في الادب وفي علم العروض ويقول الخزرجي أنكتبه من احسن ما صنف أهل اليمن تحقيقا وتدقيقا .

وكان يحيى بن العمك شجاعا مقداما كريما جوادا شاعرا فصيحا له عدة قصائد في المظفر على أن من أسير شعره قصيدته البائية التي قالها يتغنى حبيبته التهامية ممتدحا فيها سواد اللون :

أعد لي حديثك يوم الكثيب	وسل به عن فؤادي الكئيب
عشية سوداء قد أقبلت	تسارقني لحظها من قريب
وقد أمنت رصدة الكاشحين	وسمع الوشاة وعين الرقيب
تبدت لنا من خلال البيوت	تجرد فضل الرداء القشيب

---

(١) العقود اللؤلؤية ج (١) ص ١٨١

أرتنا النقـــا والقنــــا مائــلا | قوام القضيـــب وردف الكتيب
مولدة من بنـــــات المواليـــــي | كمثل الغـــزال الغريب الربيب
فان لامني النــــاس في حبهـــا | فمـــا لائمي ابـــدا بالمصيـــب
يقولون ســـودا ولـــم ينصفوا | وما ذاك لـــو أنصفوا بالمعيــب
فلــولا الســـــواد وما خصـــه | به الله مـــن حسن سر عجيـــب
لما كـــان يسكن وســـط العيون | ولا كان يسكن وســـــط القلوب
ولا زين الخــــال خد الفتـــى | ولا حسن النقش طـــرس الاديب
أما حجر الركـــن خير الحجـــار | أما المســك أطيب من كل طيــب
أما شغف النـــاس في دهرهـــم | بحمد الشبـــاب وذم المشيـــب
ولا تحسن العـــين مرمى الجفون | ولا الكف ما لم يكن بالخضيـــب
ولا كـــل عين كعـــين المحـــب | ولا كل قلـــب كقلـــب الحبيب

محمد بن حمير

لمع اسم هذا الشاعر في القرن السابع للهجرة وكانت وفاته في سنة اثنتين وتسعين وست مائة . وعاصر من ملوك بني رسول الملك المنصور وابنـــــه المظفر ، وكان أوحد شعراء عصره وكان يصحب الفقيهين العالمين الشيخ الحكمي ومحمد بن الحسين البجلي صاحبي (عواجه) وله فيهما عدة قصائد ، وقـــد اختص الشاعر محمد بن حمير بالمظفر الذي قربه اليه ورفع منزلته ، فكتب فيه عددا من القصائد التي وصفت حروب المظفر مع الائمة ، ومع نوابه المتمردين في بعض الجهات .

وحين نراجع تاريخ الشعراء في المائة السابعة تطالعنا عدة اسماء لشعراءورد ذكرهم ضمن شعراء هذه الفترة امثال علوان بن بشر بن حاتم اليامي ، محمد بن المنصور عبد الله بن حمزة علي بن يحيى العنسي الملقب بشمس الدين ، ابو بكر بن دعاس ، عزان بن سعيد بن نسر بن حاتم ، شمس الدين احمد بن الامام عبد الله بن حمزة وغازي بن المعمار ، اسد الدين الرسولي واغلب هذه المجموعة لم ترو مصادر التاريخ عنهم الا المقطوعات القصيرة أو القصائد المفردة التي لا تكاد تعطي الناقد الادبي صورة واضحة المعالم يمكن من خلالها الحكم على انتاج هذا الاديب او ذاك .

على أن الشاعر محمد بن حمير من الشعراء الذين تجمع كثير من المصـــادر الادبية في اليمن على الشهادة لهبالتبريز ، رغم ان ديوانه كان حتى في عصـــر الخزرجي المؤرخ للدولة الرسولية عزيز الوجود .

ويظهر ان الخلاف في الاوساط الادبية في العهد الرسولي كان قائما حـــول المفاضلة بين الشاعرين المتعاصرين القاسم بن هتيمل شاعر تهامة العليا وشاعرنا المترجم له وهو من مواليد زبيد وفيها كانت وفاته ، وقد طار في الافاق كل مطار البيتان الذين قالهما ابن سحبان في المفاضلة بين الشاعرين :

أما قصائـــد قاسم بن هتيمـــل | فمذاقهـــا أحلى مـــن الصهبــــاء
هو شاعر في عصره فطن ولــكن | ابن حمير أشعـــــر الشعـــــراء

ويبدو ان الشاعر محمد بن حمير كان يتمتع بمكانة عظيمة في الدولة الرسولية لذلك رأينا القاسم بن هتيمل يتودد اليه حين اراد الاتصال بالبلاط الرسولي بعد تجواله الطويل بين تهامة ومكة وظفار ، مادحا حكام هذه المناطق وقد طلب ابن هتيمل الزرافي الى الشاعر محمد بن حمير بقصيدة له ميمية يقول فيها مشيدا بعبقرية ابن حمير :

لابنا الغيث عن سهام ولا زالت ... تمج المياه ريا « سهام » (١)
جمعت في محمد آلة الفضل ... فحارت في وصفه الافهام
الجواد الجواد والسيد السيد ... والصارم الحسام الحسام
راعف السيف واليراعة تمضي ... بيديه السيوف والاقلام
انما لابن حمير قدم السبق ... وحيدا وتستوي الاقدام
قمت فردا بدولة الملك المنصور ... بالشعر حين عز القيام
بقواف تهز من أعجز الجيش ... الرسولي وهو جيش لهام
نحن سيفا غمد وقد علم العالم ... انا ذو النون والصمصام (٢)

كانت المجالس الادبية تنعقد في البلاط الرسولي ، وهي ذات طابعين : طابع عام ويتمثل في تلك المجالس الرسمية التي تنعقد في الاعياد والاحتفالات والمناسبات العامة وفيها تلقى القصائد أو الخطب وطابع اخر تتميز به المجالس الخاصة وربما مجالس الشراب وفي مثل هذه المجالس الخاصة قد يقال شعر الهزل والفكاهة الذي كان فيه ابن حمير اية في حضور البديهة .

متشعر بعمامة معقودة ... لو بعثرت ملت الفضاء خميرا
وأبوك عطار فما بال ابنه ... يهدي الصنان الى الرجال بخورا

اجتمع في مجلس شراب محمد بن حمير وابن العطار والاخير شاعر من الديار المصرية لازم المنصور وولده المظفر ، وعاتب ابن العطار المنصور نورالدين لتفضيله محمد بن حمير عليه وأجابه المنصور انه يفعل ذلك لجودة بديهة ابن حمير وأشار الى الاخير يطلب منه القول فقال على البديهة :

وحضر ابن حمير مجلس شراب فيه المنصور نور الدين وابن اخيه الامير أسد الدين وكان مع الامير شاعر من المشرق اسمه علي بن احمد فجعل اسد الدين يثني على الشاعر المذكور والتفت المنصور الى ابن حمير يطلب منه القول فارتجل على الفور هذين البيتين :

أنا البحر فياضا بكل غريبة ... أحلى بها المنصور درا وجوهرا
وما أن ابالي من علي بن أحمد ... وما شعره ذقن ابن احمد في المسك

وقال له المنصور وما منعك من قافية الراء قال خوف ابن اخيك هذا .

ووفد الشاعر محمد بن حمير على الزعيم اليمني عمار الشيباني وكان هذا الزعيم متغلبا على عدة حصون في أعالي اليمن من بينها حصن يمين ووقف شاعرنا على طريقة شعراء التكسب على باب دار عمار الشيباني ساعة من نهار فلم يأذن فبعث اليه بهذين البيتين :

بالباب أصلحك الله امرؤ لسن ... أمضه السير والادلاج والسهر

---

(١) سهام : اسم موضع .

(٢) الصمصام : وذو النون سيف ال عمرو بن معدى كرب الزبيدي

وافى الى أرض خولان فصادفهـا   مثل القتـادة لا ظل ولا ثمـر

فلما وقف على رقعته كتب على ظهرها « بل كالغمامة فيها الظل والثمر » ثم اذن لابن حمير فأقام عنده أياما ثم انصرف عنه فلقيه جماعة من موالي عمار فنهبوه واخذوا ما معه فاتهم عمارا ووقع في نفسه انه هو الذي أمرهم بذلك ، ثم قدم على الملك نور الدين عمر بن رسول فأنشده قصيدة يحرضه فيها على عمار الشيباني ويهجوه هجاء مرا ومما جاء فيها قوله :

ما شاق قلبي أمـواج واكـوار   ولا شجتني أعـلام وآثـار
ولا أسائل أهل النجد أن نجـدوا   ولا أسائل أهل الغوران غـاروا
سررت باليمن الخضراء حين صفت   لابن الرسول فما من تلك اكـدار
لكن بقي فرد ثؤلول تعاب بـه   والنار تسهل مركوبا ولا العـار
ان قلت لم يبق سلطان سوى عمر   قالوا بلى وبقي السلطان عمـار
أو قلت لا قصر الا قصر دملـؤة   قالوا «براش» يمني القصر والدار
أو قلت ما أحسن المعشار من جؤة   قالوا وليس الى ذبحان معشـار

ثم يحث محمد بن حمير الرسولي على ضرورة مناجزة عمار الشيباني وافتتاح حصونه لانه يشكل خطرا يهدد أمن الدولة الرسولية وسلامتها وذلك يقـول :

فخذ يمينا ولا تقبـل معـاذرة   فالكلب حيث خلا بالعظم جبـار
لم يتفق قط سلطانان في بلـد   هل يدخل الغمـد بتـار وبتار
ما غبت الا رمى بالعـين دملـؤة   وظـل ينشـد والاقـداح دوار
وابن المحلـى يمنيـه بملحمـة   كلاهمـا اتفقـا طبـل ومزمـار

ولم يطبع ديوان ابن حمير الى اليوم وكل ما بأيدينا من نصوص شعره مقاطع من قصائده التي أوردها الخزرجي في كتاب العقود اللؤلؤية وهي مقاطع قيلت في مدح الملك عمر بن رسول مثل قوله وقد بالغ فيه نفس ما بلغ شعراء مصر في مدح آل ايوب والمماليك :

قد قيل جاور لتغني البحر أو ملكا   انت المليـك وأنت البحر يا عمر
ما حاز ما حزت لا عرب ولا عجم   ما شاد ما شدت لا جن ولا بشر
اذا الجدود بهـم أبناؤهم شرفوا   أو فاخروا فيـك الاجداد تفتخر
عزو بعزك أولاهـم وآخرهـم   كما بأحمـد عـزت كلهـا مضر

ومثل قوله في مقطع نختار من أبياته البيت الاول :

قل للقوافي تفي عـلى عمـر   ايـاك ان تخدعـي فتنخدعي

ومثل قوله في مقطع اخر وصف به سقوط حب ـــ وهو احد الحصـون التهامية في ايدي المظفر ـــ عام ٦٤٨ والبيت الاخير في المقطع يقول :

وسار الى حب وحـب يحبـه   وبالسيف ليس السيف الا لمن قهر

ومثل قصيدته الشهيرة التي قالها حين استطاع المظفر تثبيت سلطته في الحجاز اثناء حجه ، ومن أبيات هذه القصيدة قوله :

ما ضر جيران نجد حيثما بعـدوا   لو انهم وجدوا مثل الـذي أجـد
ومن أبساح لأهل الدمنتين دمـي   ما فيه لادية فيهـا ولا قـود

قل للقصائد حثي واذملي وخدي ... مثل النجائب في القفر الذي اخد(١)
لقيهم بجنود لا عديد لها ... وهم كذلك جنود مالهم عدد
فزلزال الرعب أيديهم وارجلهم ... حتى السماء رأوها غير ما عهدوا
ولوا وكان الذي يلقى بهم أسدا ... فعاد ثعلب قفر ذلك الاسد

على أن الذي لا ريب فيه أن للشاعر محمد بن حمير شعرا كثيرا قاله في غير موضوع المديح ، فقد وصفه الملك عمر الرسولي بأنه شاعر صاحب خلاعه (١) وهو أمر يدل على وفرة ما له من شعر في مواضيع العاطفة وفي وصف الخمر وما الى ذلك من فنون الشعر .

أبو بكر بن دعاس :

كان هذا الشاعر فقيها نبيها نحويا لغويا (٢) وكان احد جلساء المظفر الملك الرسولي الثاني الذي كان يثني عليه ويفضله على الشاعر ابن حمير ويقول انما ابن حمير صاحب خلاعة .

ويبدو ان الشاعر ابا بكر بن دعاس كان الى جانب اتصافه بالفقه والعلم ظريفا خفيف الروح ، كان أدباء زبيد يتهمونه بالاغارة على شعر الشعراء اي بالسرقة الشعرية وكانوا يقولون اذا حوسب الشعراء يوم القيامة يؤتى بابن دعاس للحساب فيقال (٣) هذا البيت لفلان وهذا المصدر لفلان وهذا العجز لفلان فيخرج بريئا .

ورووا عنه أن المظفر حين حج ورجع الى اليمن استأذنه ابن دعاس — وكان بصحبته — أن يتقدم قبله الى زبيد . قال له المظفر — متظرفا — اتريد أن تتقدم لتجمع شعرا من الدواوين وتلقانا به ، ثم اذن له أن يتقدم فلما وصل المظفر الى زبيد استقبله ابن دعاس بقصيدة يقول في مطلعها ، ويقال أن مطلعها للشاعر العراقي ابن حجاج يقول المطلع :

ليس في قدرة ولا امكان ... نيل ما نلت يا مليك الزمان

والبيت الثاني يتظرف فيه ابن دعاس فيؤكد فيه للمظفر أن شعره غير مسروق من مصحف ولا ديوان :

هاك شعرا منظما لم أغر فيه ... على مصحف ولا ديوان

فيقول الملك المظفر عندما سمع القصيدة نهيناك عن الدواوين فتعديت الى المصحف .

والظاهر أنها تهمة الصقت بالشاعر اللغوي النحوي أبي بكر بن دعاس من قبيل التظرف ، وما بين أيدينا من شعره — وان كان قليلا جدا — ينفي عنه هذه التهمة ، ونستطيع أن نقرأ له هذه القصيدة التي قالها مهنئا المظفر بعد أن

---

١) العقود اللؤلؤية للخزرجي ج (١)ص ٢٨٢
٢) نفس المصدر .
٣) نفس المصدر .

ظفر بقتلة ابيه المنصور وتربع عرش الحكم وهي قصيدة تمثل مقدرته اللغوية وحرصه على استخدام أدوات البيان من مطابقة وتجنيس ، وقد يميل الى استعمال بعض الالفاظ المتداولة في اللغة المحلية اليمنية مثل لفظ « أزيب » وهو أسم موسم من مواسم الرياح البحرية :

ان غـاب أفق الملك عن أفق العلا … فانظر ضياء الشمس قد ملأ المـلا
لو كان جفن الملك أمسى أرمـدا … فاليوم أصبح بالمظفر أكحـلا
ما كان رزء الملـك الا غيهبـا … غم الـورى وأتاه صبـح فانجلى
بالملـك عاد الكسر جبرا وانثنـى … جيد العلا (١) حال وكان معطـلا
لم يرض غيرك يا أبـا عمر لهـا … فاستجلها ان العرائس تجتلـى
ما نلت معترفا بنعمـة ربهـا … متضرعـا لقدومهـا متبتـلا
أو ما تراهـا في زبيـد تزدهي … وتميس في حلل المفاخر والحلـى
أمهرتها وافي الصداق فمـا لهـا … كفؤ سـواك ولا تريـد تبدلا
جاءتك طائعـة ولم تهزز لهـا … رمحـا ولم تشهر عليهـا منصلا
قل للذي رام التملك جاهـلا … وسعى فضل عن الطريق وضلـلا
ما أنت والملك الـذي لا سـره … باد عليك ولست فيـه مؤهـلا
ارجع الى كأس الطلى ودع العلى … للمغمد الاسيـاف في هـام الطلى
ولصاحب الجيش الذي سد الفضا … وعلا بحد السيف ناصيـة الفـلا
وأعاد ريحك حين هبت (أزيبـا) … نكبا بريـح منـه هبـت شمالا
أولى الورى بالملك والـده الـذي … ما انفك في نسب المفاخـر أو لا
هي دولتي وانـا الذي أملتهـا … والله يعطي عبـده ما امـلا

وابن دعاس مولع بالجناس قال في احدى قصائده يرثي العلامة الفقيه الحنفي الاشعر سليمان بن موسى الجون .

غير انا نقول مـا دام عينـا … نجل عيسى لم نرز في نجل موسى
ولعمري يؤسى عليـه ولـكن … ببقـاء الامام ذا الجرح يؤسـى

وعندما أمر المظفر الرسولي بالقاء القبض على ابن اخيه المتمرد عليـه وحليفه الذي كان يشايعه سرا شمس الدين علي بن يحي العنسي استغـل الشاعر هذه المناسبة ليستخدم لسمي الشمس والاسد في تورية شعريـة ضمنها هذين البيتين :

ما دار في فلك الايام ذا أبـدا … كـلا ولا دار للاقوام في خلـد
ان الكسوف جميعا والخسوف معا … في ساعة في نزول الشمس في الاسد

عبد الله بن حمزة

دعا هذا الامام الى نفسه في الجوف عام ٥٨٣ هـ وتوفي في اوائل القـرن السابع وبالتحديد عام ٦١٤ ، وهو الذي ضرب جماعة المطرفية وقتل الالوف المؤلفة من افرادها الامر الذي جعل الكاتب الاديب اليمني حسن بن محمد بن النساح يكتب رسالته الى الخليفة العباسي مصوراً مأساة تلك المجـزرة

---

(١) الجأته الضرورة الى تنوين لفظ حال والصواب حاليا .

الرهيبة التي انزلها هذا الامام بجماعة لم تخرج عليه بالسيف وانما خالفته في الراي والفكر ومفهوم الامامة .

ولسنا نعلم لماذا سميت هذه الجماعة بالمطرفية ، وهل هذا اسم اطلقتـه على نفسها أم هو اسم اطلقه عليها اعداؤها ، ولكن المعلوم أن هذه الجماعة كانت — فيما تظن — تتوق الى أن ترد للمذهب الزيدي وجهه الاصيل ، ذلك الوجه الذي شوهه اتباع الامام يحي بن الحسين الرسي حين قيدوا الامامـة بالبيت العلوي . بل أن جماعة المطرفية حاولت الانفتاح على مذهب اهـل السنة وهو الامر الذي عمل به فيما بعد ابن الامير ورفاقه فنالهم من الاسرة القاسمية اذى كثير وشر مستطير . وقد سار في الافاق بيت عبد الله بن حمزة الذي قيل انه كتبه على واجهة مسجده مؤكداً رفضه لراي المطرفية واصراره على وجوب استئصالهم :

أقسمت قسمـة حالـف بسر وفي   لا يدخلنك مـا حييت مطرفـي

وكان هذا الامام يستخدم الشعر التعليمي في التعبير عن ارائه التي تؤكد حق الحكم لاي فرد ينتمي الى البيت العلوي وان لا حق لغير علوي ان يحكم مهما عظم حظه من العلم والعدالة وقوة الشخصية وحسن السيرة وقد سبق أن قدمنا في فصل سالف بضعة أبيات من ارجوزته التي يقول فيها في هـذا الموضوع :

ما قولـكم في مؤمـن قـوام   موحـد مجتهـد صـوام
حبـر بـكل غامض عـلام   وذكـره قـد شاع في الانـام
لـم يبـق فـن من فنون العلـم   الا وقـد أضحى لـه ذا فهـم
وهو الى الديـن الحنيف ينمـى   مستحكـم الراي صحيح الجسم
وما له أصـل الـى آل الحسن   ولا الـى آل الحسـين المؤتمـن
بل هو مـن أرفع بيـت في اليمن   قد استوى السر لديـه والعلـن
ثم انبرى يدعو الـى الامامـه   لنفسـه المؤمنـة القوامه
ثمت أجرى بالقضـا أقلامـه   ونفـذت أسيافـه أحكامـه
وقاد نحـو ضـده المقانبـا   وبـث في أرض العدا الكتائبـا

وبعد أن تكلم الامام عبد الله بن حمزة عن هذه الشخصية اليمنية الفريـدة التي تمتلك كل هذه الصفات الممتازة التي تجعلها مؤهلة للحكم قدم سؤاله الرهيب يطلب فيه الحكم على هذه الشخصية اذا تطلعت الى الحكم وهي لا تنتمي الى الاسرة العلوية :

ما حكمه عند ثقـات العقـل   لما تناءى أصلـه من أصلـي
ولم يكن من معشري وأهلـي   اهل الكسا موضع علم الرسـل

ثم يحسم الامر باصدار هذا الحكم الذي لا يستند الى أساس من كتـابه ولا من سنة ولا من قياس ولا من اجماع بل هذا الحكم الذي يرفضه مذهـب زيد بن علي ويرفضه فكر المعتزلة الذين يعد زيد بن علي من ابرز رجالهـم قال شاعرنا الامام :

أمـا الذي عند جدودي فيـه   فينزعون لسنـه مـن فيـه
ويؤتمـون جهـرة بنيـه   اذ صـار حـق الغـير يدعيه

يا قـوم ليس الدر قدرا كالبعـر ... ولا النضـار الابرزي كالحجـر
كلا ولا الجوهـر مثـل للمـدر ... فحاذروا فـي قولكم مس سقـر
حمدا لمـن أيدنـا بعصمتـه ... واختصنـا بفضلـه ورحمتـه
وصير الامـر لنـا برمتـه ... من كـل مـن أظهر من بريتـه
فمـن عصانا كـان في النيران ... بـين يـدي فرعون أو هامـان
العلم في آل النبـي من صغـر ... نص عليـه جدهم خـير البشر
وغيرهـم ليس بمغنيـه الكبر ... لو شـاب شعر راسـه أو انتثر

قاتل هذا الامام الدولة الايوبية ايام الملك المسعود الايوبي وكـان سيف الدين سنجر القائم بشؤن الدولة الايوبية في اليمن قد خاض معه عدة وقائـع من أشهرها وقعة نصف في بلاد نهم ووقعة عفان بالبون الاعلى من بلاد حاشد ووقعة ردمان في أرحب وانعقد صلح بين الفريقين عام ٦٠١ ، ثم دارت معارك أخرى بين الفريقين كان فيها الصلح ينعقد تارة وينتقض أخرى ، وظلت الحرب قائمة بين الامام عبد الله بن حمزة والايوبيين حتى توفي عام ٦١٤ .

ومن أشهر شعره قصيدته التي وجهها الى خليفة بغداد الناصر بـن المستضيء وفيها يدين خلفاء بغداد لاستسلامهم للعناصر غير العربية التـي نصبتها مجرد دمى تحركها متى شاءت وتديرها اية وجهة أرادت وهـي مـع ذلك عرضة للعزل أو سمل العيون أو القتل ومن ابيات هذه القصيدة المختارة :

يا أهل بغداد ان الله سائلـكم ... عن ملة الدين اذ غيرتـم فيهـا
أنتـم عيون بني الايام قاطبـة ... في النائبـات ولكن القذى فيها
قد اشتملتم عـلى عمياء مظلمـة ... لا يهتـدي بنجوم الحق هاديهـا
لو كان ما أنتم فيـه على سنـن ... قام الطبيب الى المرضى يداويها

ومن أطرف ما في هذه القصيدة :

لا نعرف الخمر الا حين نهرقهـا ... ولا الفواحش الا حـين ننفيهـا

فهو في هذا البيت ينفي عن نفسه صفة اتصف بها كثير من خلفاء بغداد وهي تعاطي الخمر واقامة مجالس اللهو والطرب ، ولكن الرد على هذا البيت يأتي بعد نصف قرن وبضع سنوات وذلك حين دخل المظفر صنعاء سنة اثنتين وسبعين ومائة واتجهت جنوده الى بيت حنبص فأخذته بعد ان تخلت عنه حاميته مـن خلفاء الامام عبد الله بن حمزة لقد وجد الجنود فيه خمرا كثيرا فكسروا انيته وأراقوه وفي ذلك يقول شاعر الرسوليين معرضا بالائمة في مسألة تظاهرهم بعدم تعاطي الراح جهرا وهم يقبلون عليها سرا قال الشاعـر الرسولـي غازي بن المعمار :

ولما فتحنـا بيت حنبص عنـوة ... وجدنا بها الارواح ملأى من الخمر
فان تكن الاشراف تشرب خفيـة ... وتظهر للناس التنسك في الجهـر
وتأخـذ من خلع العذار نصيبهـا ... فاني أمـير المؤمنـين ولا أدري

محمد بن عبد الله بن حمزة

وهذا هو نجل الامام المتقدم ذكره ولقبه عز الدين وقد خاض مع عمر بـن

رسول أيام كان نائبا للمسعود الايوبي عذة وقائع من اشهرها وقعة عصر قرب صنعاء التي حدثت عام ٦٢٣ ، وكانت الدائرة فيها على الامام ، ويظهر ان بقايا من اسرة حاتم بن أحمد بن عمران صاحب صنعاء — تقدمت ترجمته ضمن شعراء القرن السادس — ظلت متغلبة على بعض الحصون حتى استطاع المسعود الايوبي ان يزحزحهم عنها فاصطلحوا معه ، وظلوا يراقبون الحرب القائمة بين المسعود الايوبي أو بالاصح بين نوابه الرسوليين والامام محمد بن عبد الله بن حمزة حتى اذا راوا المعركة في غير صالحه أعلنوا ميلهم الى الجانب الايوبي واظهروا الشماتة به في شعر يتضمن قارص اللوم ولاذع التبكيت .

لقد دارت المعركة بين الفريقين عنيفة شرسة ولكنها انتهت بهزيمة محمد بن عبد الله بن حمزة الذي انهزم بعدد قليل من اتباعه لا يتجاوز عددهم أربعين وانسحب الى ثلا بعد أن اصابه سهم في عينه ، وفي وقعة عصر هذه كتب علوان بن بشر بن حاتم الى الامام المنهزم هذه الابيات متشفيا ومبكتا :

اسادات الورى من كل حي ... واسمي في المعالي من يسامي
واربطها لدى الهيجاء بأسا ... واحماها اذا عدم المحامي
أهنيكم قدوم العيد فرضا ... علي فعدتم في كل عام
واهدي نحوكم أزكى سلامي ... الى المأموم منكم والامام
واسمعكم أحقا ما سمعنا ... فما يشفي سوى صدق الكلام
بأن جموعكم طارت شعاعا ... ولما تخش عاقبة الملام
وولت غير كاسبة ثناء ... فرارا لم تكر ولم تحام
ولم يحضر من القادات الا ... شهاب الدين محمود المقام
ونور الدين والبدر المرجى ... ليوث الحرب في يوم الصدام
وخيلهم الى مائة وعشر ... وهم ما بين رماح ورامي
فماذا تصنعون اذا المت ... جنود الملك في يمن وشام
ولاحت راية المسعود فيها ... كلائحة على أرجاء طام
هنالك تندمون ولا محيص ... اذا حم القضاء لدى الحمام
فان تقبل نصيحة ذي وداد ... فان النصح من شيم الكرام
اتيتم طائعين الى مليك ... شريف النفس ذي منن جسام

الى ان يقول :

فاعط القوس باريها ودعها ... فقد أودعتها في كف رام

ويرد عليه الامام المنهزم بقوله :

أمن برق تألق بابتسام ... أرقت ولم تذق طعم المنام
لذكر الوصل أو لفراق غيد ... تضيء وجوهها جنح الظلام
رعى الله الديار وساكنيها ... وروى ربعها صوب الغمام
فلا تعجب لتذكاري فاني ... ذكرت منازل القوم الكرام
واعجب من تذكر وصل هند ... كتاب جاءنا من ملك يام
واودعه السلام فلا عدمنا ... انامل نمنمت أزكى سلام
ويخبر عن طراد الخيل قولا ... أحقا ما يقال من الكلام
بأن جموعنا طارت شعاعا ... وولت لم تكر ولم تحام

سوى عشر اغـــارت غير نكـــر	فعــادت جنحـــا مثـل السهام
ولو كــان الامـــير الندب فيهــا	عماد الديـــن محمود المقـــام
لزارت بيتنـــا عصب عصـــاب	بكـــل مهنـــد غضـــب حسام
ولكن عاقــــه الرحمـــن عنـــا	فلـم يحضر ويوم الروع حـــام
وكيف تعد هـــذا القول نصحـــا	وقد صدعت لـــه صمـــم السلام
فواعجبا نداف‍ـــع عـــن حماتـــا	وتنسبنـــا الى فعـــل اللئـــام
فليس لنطح صخرتهم سوانـــا	بني حسن فكف عـــن الكـــلام

احمد بن عبد الله بن حمزة :

هو اخو محمد بن عبدالله بن حمزة ، خضع هذا الامير هو واخوه داوود بن عبد الله بن حمزة — والثاني تولى الامر بعد وفاة أخيه محمد — خاضعـــا للدولة الرسولية وكان عونا لهم في الحرب التي قامت بينهم وبين المهـــدي احمد بن الحسين صاحب ذي بين .

وكان المهدي احمد بن الحسين قد دعا الى نفسه عام ٦٤٦ فلقي التأييـــد الكامل من الحمزيين ولكنهم اختلفوا معه في أمور تتعلق بقضايا حربه مــــع الرسوليين ، وكانت رسائل الخليفة العباسي المستعصم قد وصلت الـــى الرسوليين تحثهم على استئصال شافة احمد بن الحسين .

وقد تصالح آل رسول مع الحمزيين وأغروهم بأحمد بن الحسين فاجتمعوا عليه واظهروا ما يشبه الخلع له وخاضوا معه عدة وقائع متعاونين مــــع جنود الرسوليين ولكنهم لم يستطيعوا أن يظفروا منه بطائل .

حتى اذا كانت سنة ٦٥٦ خاضت قوات الرسوليين والحمزيين حربـــا مع قوات احمد بن الحسين انتهت بقتله فبعث الامير شمس الدين احمــــد براسه الى المظفر الرسولي مع رسالة يذكر فيها ولاءه وخضوعه للمظفـــر الرسولي وفي الرسالة هذان البيتان :

وأبيض ذي تاج اشاطت رماحنـــا	بمعتـــرك بين الفوارس أقتمـــا
هوى بين أيدي الخيل اذا فتكت بـــه	صدور العوالي تنضح المسك والدما

وكان شمس الدين احمد بن عبد الله بن حمزة قد وفد واخوه داوو علـــى المظفر في حاشية كبيرة من الاتباع والقى احمد بين يدي المظفر قصيدتــــه الدالية ذات المقدمة العاطفية . والواقع ان هذه القصيدة جديرة بأن يقـــف القارئ عليها . ذلك لانها اشتملت على أبيات دلت علـــى كراهيـــة الشعب اليمني لحكم الائمة وان اشارت أبيات القصيدة الى العداء التاريخي بـــين الامويين والعلويين منذ مقتل الحسين في موقعة كربلاء قال الامير الشاعـــر احمد بن عبد الله بن حمزة في هذا المعنى :

ولما صبرنا ظنت الناس أننـــا	ذللنا وانا ســـادرون سمـــود
فما سن فينـــا الناس الا ظلامه	كما سن في قتل الحسين يزيـــد
لقد انكرتنا الناس كل فضيلـــة	كأنـــا نصـــارى ملـــة ويهـــود

وليس يهمنا من هذه القصيدة مدح المظفر الرسولي فمن الواضح ان هـــذا

المدح زائف ومكذوب وبخاصة وهو يصدر من أمير علوي يشعر في قرارة نفسه بأنه يمتدح حاكما من الغز ــ التركمان ــ وفي اشعار الشيعة كثير من الابيات التي تغمز النسب الرسولي وأن تجنس بالجنسية اليمنية .

القايم بن هتيمل

هو اشعر شعراء اليمن في القرن السابع على الاطلاق ، يمثل شعره مختلف التيارات السياسية والاجتماعية في هذه الفترة ، ولئن وصفه محققو الشعر اليمني ونقاده بأنه شاعر جوال مدح حكام مكة ، في الحجاز ، والسليمانيين في المخلاف التهامي الاعلى والائمة في صنعاء ، والرسوليين في تعز ، فقد كانت تلك طبيعة ذلك العصر المتقلب في أوضاعه السياسية ، لا فرق في هذه الناحية بين الشاعر في اليمن وغيره في مصر أو في الحجاز او في العراق او الاندلس أو المغرب العربي .

على أن شعر المديح في كل عصور الادب العربي لم يخل من القيم التاريخية أو الاجتماعية التي قد يهملها كتاب مؤرخ من المؤرخين وتشتمل عليها قصيدة شاعر من الشعراء ــ لقد صورت قصيدة ابي تمام في مدح المعتصم فتح عمورية السيف أصدق وقصيدته في ثورة بابك الخرمي اكثر مما صوره قلم مؤرخ صور تلك الاحداث في اخبار يضمها كتاب ومثل ذلك وصفت اماديح المتنبي في سيف الدولة حروب الدولة الحمدانية مع الرومان أحسن مما وصفها المؤرخون في كتبهم ومذكراتهم المدونة .

وشعر ابن هتيمل ــ حتى قسم المديح منه ــ اشتمل على هذه القيمة التاريخية قال محمد العقيلي محقق ديوان شاعرنا في المقدمة التي صدر بها الديوان .

« شعره ــ يقصد ابن هتيمل ــ سجل حافل بكثير من الوقائع والحوادث السياسية والاجتماعية والجغرافية ، على تحقيقات جغرافية وحوادث المخلاف التي وقف بعض مؤرخيه موقف الحيرة وهذا شاهد من الشواهد نورده هنا كدليل على ما تدين به لشعره الخصب » .

وقدم محقق الديوان المثال الذي يؤكد به اهمية شعر ابن هتيمل من هذه الناحية فأشار الى خبر ورد في كتاب العقد المفصل بالعجائب والغرائب لمؤلفه علي بن عبد الرحمن البهلكي ــ مخطوط ــ وفحوى الخبران البهكلي اعياه البحث حول باني جازان العليا التي لم يأت ذكرها لا في كتاب بغية المفيد في تاريخ مدينة زبيد للديبع ولا في كتاب قرة العيون في اخبار اليمن الميمون ــ له ايضا ، ورجح الديبع ترجيحا ظنيا أن الباني لها هو خالد قطب الدين ــ من حكام ذلك المخلاف ــ واولاده ، ولكن العقيلي محقق الديوان يلجأ الى ديوان ابن هتيمل الذي ذكر مدينة جازان العليا قبل مائتي عام سبقا خالد بن قطب الدين ، فقد حملت اسم الدرب وجازان العليا قال ابن هتيمل ذاكرا المدينة :

اذا ما رماح الخط لم ترد هاربــا   الى الدرب أردته رمــاح المكايد

وقــــــــــــال :

لاذ بالدرب ثــم ادلــج يستــر   جف لـــــا نزلتــم لحصـــــاره

وقــــــــــــال :

ولولا دخول الدرب أصبح عانيــا   وفي رجله قيد وفي جيـــده غـــل

وقــــــــــــال :

فأدلج من بروج الدرب يهـــوي   الى السلبـــين من أهل ومــال

ومن هذا القبيل ما ذكره مؤرخ وتشكك المؤرخ الجندي — من مؤرخي القــرن الثامن — نسبة اقامة المنشات المحفورة في الصخر من القناطر والمجــاري المائية في الجند — قال هذا المؤرخ المعاصر :

وقد تشككت فيمن أجرى الغيل حتى وجدته في شعر ابي بكر اليافعي — من شعراء القرن السادس — في قصيدته التي قالها في المفضل بن ابي البركات وذلك حــين قــــال :

واقل مكرمـــة لـــــه وفضيلـــــة   اجراؤه للغيـــل فـــي الاجنــاد

على أن شعر ابن هتيمل لا يقتصر على القيمة التاريخية فحسب فان ديوانه يحتوي على الشعر الذي دار حول كثير من المواضيع ، المدح والرثاء والهجــاء والغزل ، والاخوانيات والحكمة والوصف وما اليها من فنون الشعر .

وديوان ابن هتيمل معرض كبير يمثل ثقافته التي تميزت بالسعة والشمـــول وتعدد الجوانب فأن شعره يدل على ثقافته الادبية ومقدار ما كا نيقف عليه مــن ترا ث الشعر العربي في مختلف عصوره ، فمن ذلك قوله في هذه القطعة الشعرية مشيراً الى الشاعر الجاهلي زهير بن ابي سلمى وممدوحه هرم بن سنان ، وخالد بن مزيد الشيباني وابي تمام والبحتري وعلاقته بأبني صاعد من كتاب الديـــوان العباسي ، وعمارة اليمني وعلاقته بالعاضد اخر الخلفاء الفاطميين في مصر ، ومحمد بن حمير وصلته براشد بن مظفر من رجال الدولة الرسولية قــــــال شاعرنـــــا :

أن رشتني فزهـــير راش جناحه   هرم وريش جناحـــه متفاقــــد
والخالد بن يزيد فاضلـــه أبـــو   تمـــام فاحتمـــل المشقــة خالد
والبحتري أنالــــه ابنـــا صاعد   ما لا يكفيــه الحساب فصاعـــد
وعمارة الحدقي قـــام بحالـــــه   في مصر من ولد الحسين العاضد
ولقـــد سمعت براشد بـــن مظفر   ما كان يصنع لابن حمير راشـــد

ذكر ابي تمام والبحتري باسميهما دون الكنية واللقب :

فأصبحت لا المغصوص دون حبيبها   عطاء ولا المخفوض دون وليدهـــا

ويشير الى قصة طرفة بن العبد — من شعراء الجاهلية — وعمرو بن :

ولا تقف بي عمرو بن هند وطرفة   ورأى انو شروان في بـــزر جمهر

وفي شعر القاسم بن هتيمل التفاتات الى قضايا التاريخ فمن ذلك قولــــه مشيراً الى نسب زياد بن ابيه :

اذا انتسبت أميـــة عبد شمـــس   فقل لـــي ما فضولك يا زيـــــاد

وقوله في هذه الابيات من قصيدة يشير فيها الى قصص موسى ونوح وصالح وعيسى ومحمد عليه السلام مع قومهم ، وكلها قصص مستمدة من القران :

قوم موسى من بعده اتخذوا العجل الهـا واستعجلـوه خـوارا
واصموا الاذان عن نهي هـارون وضلت عن دين عيسى النصارى
ودعا نوح قـوم نوح جـارا فأصروا واستكبروا استكبارا
وبما أسرفوا فلـم يـذر الله على الارض منهـم ديـارا
وثمـود لو عظموا ناقـة الله لما أرسلوا عليهـا قـدارا
وقريش بجهلهـا أخرجت أحمد كرهـا فاستنصر الانصـارا

واشار الى كسرى فارس وكليب تغلب وهرم بن سنان ممدوح الشاعـر الجاهلي زهير بن أبي سلمى والمنذرين وهما من ملوك الحيرة وذي الكـلاع وحوشب وهما من اقيال حمير قبل الاسلام .

وسيادة ما ساد فارس قبلهـا كسرى الملوك ولا كليـب تغلبـا
أنسيتنا هـرم الجواد وحاتمـا والمنذرين وذا الكـلاع وحوشبـا

وأضاف الى ذلك قصة ذي القرنين التي ذكرت في القران وقصة أشعب الطامع وهو من الشخصيات الفكاهية في القرن الاول للهجرة :

فضربت في الارض العريضة ضرب ذي القرنين حتى لم نجد لك مضربا
أمـا محاول ما ملكت فاشعـب طمعـا وحاشا في المطامع اشعبا

وأشار الى تأمير النبي عليه السلام اسامه بن زيد على الجيش الى مؤتة :

فقـد ولى النبي عـلى قريش وأمر دون سـادتهم أسامة

وذكر من الصوفية الجنيد والشبلى والحلاج ومن الحكام عبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف الثقفي :

قدم ما نرى الجنيد ولا الشبلـي يرقـى لهـا ولا الحلاجـا
طلتها يا سراج في الملك والفتـكة عبـد المليـك والحجاجـا

وذكر حلم الاحنف بن قيس ووفاء حاجب بن زراره التميميين :

وناهيـك ما لاقت تميـم بأحنف وما غيض عنهـا في تميم وحاجب

ويكثر في شعر ابن هتيمل ذكر المواقع والبلدان اليمنية ، مثل ذكره ظفار وهي بلدة قديمة قرب صنعاء لم يبق منها اليوم الا أطلال بالية :

ولعمري مـا أقنعتني ظفـار لك ان كنت أقنعتـك ظفـار

واشار الى صنعاء وذمار في بيته الذي يقول :

لا تعدوا صنعا فما صنعوا شيئـا بعيدا ولا تعـدوا ذمـارا

والمع الى تعز وحيس والجند في هذا البيت :

وراسلتكم تعـز من تذللهـا بالرغم وانتظرتكم حيس والجنـد

وذكر براش والكدراء وصعدة وزبيد في هذين البيتين :

اذا سلمت صنعاؤها وبراشهـا فما الظن في كدرائهـا وزبيدهـا
لك الخير قد انضيت خوص ركائبي بمـا جاوزت من صعدة وصعيدها

وورد في شعره قصرا غمدان وصرواح :

تمل ملكـك بالقصـر الذي قصرا عنـه المشيدان غمدان وصـرواح

ولو تتبعنا مثل هذا الشعر لوقفنا على كثير منه يصف المواقع والبلاد اليمنية فقد ورد في ديوانه ذكرمواقع وحصون وبلدان مثل « سنحان ـ حي يمني ـ ذروان

ــ حصن الحمزة ــ عزان ــ حصن ال حاتم ــ كحلان ــ جبل بحجه ــ هران ــ حصن ــ صعدة ــ واسط ــ نجران ــ الجوف ــ غربان ــ عدن ــ الحصيب ، حرض ، وادي مور ، بيش ، شعوب ، العريش ، الصعيد ، دثينة ، صبيا ، الجريب ، تعشر ، الى غير تلك من الاسماء الداخلة في هذا الباب .

في نجران ولد ، ونجران بلدة قديمة في أعالي تهامة وهي غير نجران المعروفة اليوم ، ولم يعرف تاريخ مولده ولا تاريخ وفاته ولكن المرجح انه توفي قبل نهاية القرن السابع وكان اخر ممدوحيه المظفر الملك الرسولي الثاني : الذي توفي أواخر القرن السابع للهجرة .

ترجم له صالح بن ابي الرجال صاحب كتاب مطلع البدور ومجمع البحور « مخطوط » ترجمة طويلة وصفه فيها بقوله :

البليغ الذي يعد في البلغاء بالخنصر والسابق الذي يطول على الكل ولا يقصر تعنو له المعاني اذا دعاها هو احد مفاخر اليمن على الشام والمغني بومضه عن كل بارق فما احد لبارق من بعده شام .

وتحدث عن ابن هتيمل وسيرورة شعره الاهل في كتابه « تحفة الزمن » فروى عند ذكر احمد الدباغ الحرضي أن طلبا جاءه يحثه على السفر فعقد العزيمة على الركوب ولكنه أجل السفر حين استشهدت زوجه بقوله شاعرنا :

أراك تروح ما ودعت نجدا ولا جددت بالعلمين عهدا

ودلل على فضله الهادي ابراهيم في قصيدة له على وزن وقافية قصيدة ابن هتيمل التي يقول في مطلعها « اذا جئت الغضا ولك السلامة » قال الهادي ابراهيم :

وهاك قصيدة غراء تحكي اذا جئت الغضا ولك السلامة

وفاخر الشاعر اليمني الكبير عبد الرحمن الانسي بأن شعره :

يضاهي قديما رقة ابن هتيمل على شرف المخلاف منه برود

ولم يقدم عليه احد شاعرا من معاصريه الا بيتان قالهما في عهد المظفر الرسولي ، شخص مجهول يدعى ابن سحبان يقول فيهما مغفلا الشاعر الرسولي محمد بن حمير على شاعرنا :

أما قصائد قاسم بن هتيمل فمذاقها احلى من الصهباء

هو شاعر في عصره فطن ولكن ابن حمير اشعر الشعراء

وهما بيتان ــ وان لم يجحدا فضل ابن هتيمل ــ الا ان فيهما تعميما لا يستند على أساس من النقد الادبي المدروس أو الخالي من الغرض الشخصي .

وقد عاش شاعرنا جواب افاق امتدح بشعره حكام المخلاف التهامي الاعلى ومن أهم ممدوحيه المهدي احمد بن الحسين صاحب ذيبين ، وأولاد المنصور عبد الله بن حمزة ، ومن دراسة شعره يتضح للقارىء ميله الى الحمزات ، فحين اختلف المهدي احمد بن الحسين مع ال حمزة حول مسألة الاعداد للحرب مع الرسوليين ، كان ابن هتيمل ينصحه بعدم الاختلاف معهم ، لانهم عضدة المكين ودرعه الواقي في حربه مع الرسوليين قال شاعرنا في هذا المعنى :

خذ الحمزات بالالطاف واخفض جناحك للقرابة والرحامه

فهم عين وأنت لهـــا ســـواد وهـــم بيت وانـــت لـــه دعامه
فمــا استنتجت رأيهـــم عقيما ولا استمطرت غيمهـم جهامــه
وربتما غزوت فكـــان منهــم بحسمك فوق ســـرد اللام لامه
فمــا مـــن سيـــد رفدوه الا حموه خلفهم ومضــوا أمامــه

واستطاع الرسوليين متعاونين مع ال حمزة انزال الضربة بقوات احمد بن الحسين وقتله ، وانتقل الشاعر الى بلاط الرسوليين ولاحظ وفود الحمزات الى تعز معبرين عن ولائهم للدولة الرسولية ، فبارك هذا الولاء وهذه الطاعة وطالب المظفر بمزيد من العطف عليهم ،ولفت نظره الى داوود بن عبد الله بن حمـزة الذي ولي الامر بعد اخيه عزالدين محمد ـ ونصحه بأن يصفح عنه وينسى لـه عثرة الراي وزلة القدم :

وأعطف على الحمزات واعلم أنهم أعوان صــدق أيمــا اخــوان
واخفض لداوود جناحك واغتفــر ذنبـــا لمــن زلت به القدمــان
فالامر يفسد ثم يصلح بعدمــا يأس وقد يتناحـــر الصنـــوان

عاصر الشاعر ابن هتيمل الدولة الرسولية التي بسطت نفوذها علــى أقسام كثيرة من اليمن ، وان بقيت بعض الاحياء والعشائر تتمتع ببقايا مــن النفوذ في بعض الجهات ، ومن شعره نعلم أنه كان على صلة بال ذروة الذيــن كانت لهم امارة « صبيا » ويظهر ان الشاعر قد عاش في ظل هذه الامارة التي حاولت الوقوف في وجه الدولة الرسولية مدافعة عن اقطاعاتها المتوارثـــة من زمن سبق ظهور الدولة الرسولية ، والشاعر يسجل في هذه الفترة الوقائع التي دارت بين حكام هذه الامارة وال رسول ، مثل واقعة حرض ، ووقعــة بيش ، ومن ابرز الحكام المقاومين للرسوليين في هذه المنطقة الامير القاسم بن علي الذروي الذي استطاع مرة اجلاء عمال المظفر عن بيش وحرض وفــي ذلك يقول ابن هتيمل محرضا الامير القاسم بن علي الذروي على الرسوليين واصفا اياهم بأنهم غز أعاجم ليس لهم عماد في البيت اليمني :

هيهات أن تــرد الكتائب جهلتــي بيش وانــت لهــن بالمرصــاد
ايــاك تربيــة الاعاجـــم مثلما ربــى أبــو حسن شقي مــراد
أعدمتهم حرضـــا وما أجلاهــم المهــدي عن حرض وآل الهادي
فكأنهــم بيــت بــلا عمد وهــل بيت يقــوم لهـــم بغير عمــاد

وفي القاسم بن علي الذروي هذا يقول شاعرنا واصفا احدى الوقائـــع التي دارت بينه وبين عمال ال رسول :

لم يكن يبلغ المظفــر لـــولاك رؤوس صدرن مـــن خـــان داره
فالاميني مـــن برازك ولـــى عن عـــلي في كفـــه ذو فقـــاره
ورأى في الفـــرار في يـــوم رحبان فكانـــت حياتـــه فـــي فواره
ودلفتم الى « المعين » الى «بيش» فلاقــي وقوعـــكم بمطـــاره

ولكن هذا الامير الطموح وقع في أسر الدولة الرسولية التي أطلقت سراحه بعد أن ضمن لها الولاء حتى رأينا شاعرنا يكتب على لسانه قصيدة الى القائد الرسولي سنجر الخوارزمي يقول فيها :

نعمت بخيمات « الجروب » لو انها مقاصير تبني من رخام ومرمــر

كفاني عن قومي وشم عشيرتي ومن حشمي اني غلام « المظفر »
فقد صرتم لي موئلا دون موئلي واصبحتم لي معشرا دون معشري

ومن مجموع قصائده التي قالها في القاسم بن علي الذروي نلاحظ أنه بدأ في أول الامر مستبشرا بالثورة على ال رسول فما هو الا أن رأى الاحداث تسير في غير الوجهة التي هي في صالحهم حتى بدأ يهدأ ويلين ويتقرب بقصائده الى عمال الرسوليين مرة بلسانه هو كما فعل مع الطواشي نظام الدين مختص — عامل المظفر الذي تولى ادارة زبيد ثم تولى ادارة بيش وما حواليها — والذي يقول فيه قصيدته التي اولها :

نعيمك ما أتتك به النعامي وما شرحته أنفاس الخزاما

والتي يقول فيها واصفا هذا الوالي الرسولي :

نضي الملك المظفر منه عضبا حساما يقطع العضب الحساما
فسر به وساء به واجيا به وأمات عفوا وانتقاما
اذا فسدت ثغور الملك داء أعاد دواء علتها نظاما
أقام الخالعين بأرض بيش مقاما ما أذل لمن أقاما

وعلى الرغم من أن الشاعر ابن هتيمل وقف من ثورة او انتفاضة القاسم بن علي الذروي موقف المؤيد فمدحه ومدح اخاه خالد ومدح أولاده ورثاه حين قتل بثلاث قصائد هي من جياد قصائد الشعر اليمني الا انه اضطر الى تغيير موقفه حين استطاع محمد بن ابراهيم عامل المظفر الرسولي على المخلاف التهامي الاعلى أن يحرز انتصارا ساحقا على القاسم الذروي فقد هنأه بقصيدة يقول فيها :

علم المظفر فيك ليث خفية ورآك تصلح كل أمر يفسد
فرمى بك الثغر المخوف واهله هلكي النفوس قريبهم والأبعد
انقذت أمة احمد من غمرة يجزيك عنها في القيامة «أحمد»

ويشير الى آل الذروي بأنهم :

فعلوا بأهل الله ما لا يفعل المتمجس المتنصر المتهود
فليهنني بقدومك الظفر الذي فيه اللقا بيني وبينك موعد

واتصل القاسم بن هتيمل بالائمة الثائرين على الدولة الرسولية ومن ممدوحيه منهم المهدي احمد بن الحسين صاحب « ذيبين » واحمد بن الحسين الذي نصب أماما في تلا عام ٦٤٦ ، وقد قاوم الرسوليين مقاومة عنيفة ، وانتصر عليهم في عدة معارك من اشهرها معركة تارن التي هزم فيها قوات الرسوليين متعاونة مع قوات آل حمزة ، وكان المهدي احمد بن الحسين قد عقد معاهدة مع الرسوليين نصت على أن تكون له جماعة من الحصون والمواقع في صعدة وحجة ، وكان الخليفة المستعصم قد أرسل الرسائل — كما اسلفنا في الصفحات السابقة — الى المظفر الرسولي يطلب اليه ان يستأصل شأفة هذا الامام ، واستطاعت قوى الرسوليين والحمزات أن تقضي عليه في احدى المعارك واحتز رأسه وحمل الى المظفر في يوم من ايام عام ٦٥٦ ، ويصادف هذا اليوم نفس اليوم الذي قتل فيه المستعصم اخر خليفة عباسي على

يــد هولاكــــو .

ولابن هتيمل في أحمد بن الحسين اربع قصائد من أشهرها قصيدته التي أولها :

اذا جئت الغضـــا ولـــك السلامة   فطارح بالتحيـــــة ريم رامـــــه

والذي يمكن أن نستشفه من شعر ابن هتيمل ظاهرة التشيع فقد ظل يطوي نفسه على قدر كبير من المودة حتى وهو في ظل الدولة الرسولية التي كانت تفسح صدرها لمبادىء اهل السنة وأيا كان مذهب شاعرنا في التشيع فالذي لا شك فيه أنه كان يمنيا يفخر بيمنيته وقحطانيته ، ولم ينهج في شعره منهج الكميت وغيره من شعراء الشيعة الذين كانوا يثيرون من النزعة الطائفـــة والعنصرية ما شوه وجه ادبهم وخلع عليه لونا قاتما من العصبية المريضة .

ولشاعرنا في المهدي بن الحسين قصيدته البائية التي أولها :

تعرض لأولي الرحب ان عرض الركب   وقل خبروا بالشعب ما فعل الشعب

وله فيه قصيدته البائية التي أولها :

تنضو الصبا وتريد أيـــام الصبا   أتراك تخلف في الطماعـــة أشعبا

وله في قصيدته الدالية التي أولها :

أجر أضلعي من حرهـــا ووقودها   ومن هجر أروى وامتداد صدودها

ومن هذه القصائد الاربع نفهم أن الشاعر كان هواه مع الحمزات ولكنــه فتن بالانتصارات التي أحرزها عليهم وعلى الرسوليين معا ممدوحه أحمد بن الحسين ، لذلك نراه يدعوه الى أن يلبس لامة الحرب دوما وأن لا يعيش فـــي أرض الهدنـــــة :

أخو الحرب لا يمسى وما تم فتحه	وقد وضعت أوزارها عنده الحرب
اذا هم لم يطعم فقد عاش عيشة	بهيمية من همه الاكـل والشـرب
تشاغلت عن فرض بنفل فلا ترض	ذلولا ورض صعبا يذل لك الصعب
فما الراي ان نهنـا الصحاح وانما	من الراي ان تهنا من الجرب الجرب
ممالك شمت الصارم العضب لم تكن	ضربت به فالصارم الصارم العضب
فلا تعتقد أن المعاقـــل عصمــــة	لذي نخوة فالمعقل الطعن والضرب

وهو يصف في قصيدته الدالية معركة قارن التي خاضها مع الرسوليين والحمزات فيرسم قلمه البليغ صورة حية للمعركة يتضمنها قوله :

أفاءت عليك الخالفين كتائـــب	عديد الحصى والرمل دون عديدها
يرد نسيم الريح ركز رماحهـــا	ويحجب عين الشمس خفق بنودها
وملمومة مهديـــــة قاسميـــــة	يغض حديد الطرف لمع حديدهـــا
تدوس فراخ الطير بين وكورهـــا	وتشدخ روس العصم بين ريودها

وهو يعرض بمن سماه مفي أول هذه الابيات بالخالفين ويقصد بهـــم الحمزات الذين تعاونوا مع الرسوليين في اثارة الحرب ضد أحمد بن الحسين على أنه يكن لهم وداً عميقا في نفسه لذلك يطلب لهذه الجماعة بر ابن الحسين وعطفه لانه الدرة اللامعة في اكليلها ، والعود الصلب في شجرتها النامية :

وكم أنفت من بر كفك عصبــــة	وبـــرك من أغلالهـــا وقيودها
أرادت بك السؤي وقد كان غيرها	أعز لهـــا والله غــــير مريدها
فأسبل عليها ظل عفوك واغتفـــر	جنايـــة جانيهـــا وحقد حقودها

فأنت بحمـــد الله درة تاجهـا اذا اعتصبت يومـا وفلقه عودها
فلا تكترث ان المعت في بروقهـا عليك ولا ان أجلبت في رعودهـا
وحولك سادات خلت من حصونها حذارا وغابات خلت مـن أسودها

وهو يلح في طلب العفو عن الحمزات في قصيدته الميمية التي يقول فيهـا « خذ الحمزات بالالطاف واخفض » وقد ذكرنا هذه الابيات في الصفحات القليلـة السابقـة .

واتصل القاسم بن هتيمل بعدد من الائمة المتغلبين على بعض المواقـع والحصون مثل أحمـد بن المنصور صاحب ظفار والمنصور الحسن بن محمـد الحمزي الذي دعا لنفسه بالامامة عام ٦٥٧ بعد مقتل أحمد بن الحسين وكـان قبل ذلك قد اتصل بأمراء آخرين ولكن كل هؤلاء الامراء والحكام قد بسـطت الدولة الرسولية عليهم نفوذها ، فهم لها أتباع واذا انتفض منهم منتفض فـي فترة من الفترات كتبت نهايته على أيدي أبناء عمه ان لم تكتب نهايته علـى أيدي آل رسول ، واضطر شاعرنا في اخر الامر الـى أن يلقي عصا الترحال في تعز مقر المظفر الرسولي ، ويذكر صاحـب مطلع البدور ومجمع البحـور قصة طويلـة عن وقوع الشاعر في أسر المظفر الرسولي بعد أن سمع بيتـه في أمير حلى احمد بن علي الحرامي ، وهو من اتباع المظفر الرسولي :

ان الملوك بني يعقوب قاطبـة قطعـا وكل ملـوك بعدهم سوق

قال المصدر المذكور ان المظفر بعث بجريدة من الخيل فجاؤوا بابن هتيمل من بطن تهامة وسأله عن قوله وكل ملوك بعدهم سوق فقال ما تلت الا وكـل ملوك غيرهم سبقوا فاستحسن منه هذا التخلص وتشفع لـه عند المظفـر سليمـان بن وهاس صاحب باغتة الموالي للمظفر الرسولي فقبل شفاعته فيه وفي ذلك يقول شاعرنا شاكرا لسليمان بن وهاس :

كم من يد لك عندي قد أبدت بهـا وسواس كل ذميم الخلق دساس
أخرجتني من لهات الليث منتفـذا حوباي من بني أنيـاب واضراس
من بعد ما نكص المولى وقد خنس الخل الذي لم يكن عني بخنـاس

وفي ظل المظفر الرسولي كتب ابن هتيمل مجموعة من القصائد فيه وفـي بعض وزرائه وكتابه ، وقد سجـل في شعره بعض الوقائع والاحداث الهامة في عهده فمن ذلك قصيدته الرائية التي قالها حين انزل المظفر ضربته بالامـام ابراهيم بن تاج الدين الهدوي في ذمار والذي ظل أسيرا في تعز حتى مـات عام ٦٨٣ وكان وقوعه في الاسر عام ٦٧٤ وقد قال شاعرنا في هذه الموقعة التي يعارض بها قصيدة ابي تمام في صلب الافشين واحتراق جثث المصلوبين :
الحق ابلج والسيوف عوار قال ابن هتيمل :

بـوأت حزب الله دار قـرار وأحل حـزب البغى دار بـوار
ووضعت أوزار الذنـوب بوقعـة ما حربهـا موضوعـة الاوزار
مشبوبة الطرفين تردي الجحفـل الجرار نحـو الجحفـل الجـرار
شنعاء ما حس الفوارس جمرهـا الا رمت شررا عـلى الاشـرار
هي كالفجـار الصعـب أو كحنين أو كالشعب او كبعاث أو ذي قار

راوحت بين المركبين لراحة ... لك في سروج الخيل والاكوار
وسريت في غسق الدجنة طاويا ... بعد المشقة كالخيال السار
لاقى بنوالهادي وحمزة ضعف ما ... لاقت سليم بجانب الثرثار
طلبوا « ذمار » فرد سعدك ذالها ... دالا واي هزيمة ودمار
صبو السياط على قوارح خيلهم ... هربا عن المهرات والامهار
فكأنهم شهب البزاة تبللت ... بالغيث فانفضت الى الاوكار

وبعد فما هو مذهب ابن هتيمل الشعري وما هي خصائص فنه ؟

الواقع إن حركة الادب — عامة — في القرن السابع قد تأثرت بمدرسة البديع التي اصلها القاضي الفاضل في القرن السادس للهجرة . فكان ابن سناء الملك في مصر وغيره من شعراء القرن السابع امتدادا لابن مطروح والبهاء زهير وغيرهما من شعراء القرن السادس الذين أسرتهم العناية بالبديع مثل قول البهاء زهير مجنسا في العاطفة :

طرفي وطرف النجم فيك ... كلاهما ساه وساهر
يا ليل بدرك حاضر ... يا ليت بدري كان حاضر
حتى يبين لناظري ... من منهما زاه وزاهر

ومثل قول صفي الدين الحلي مجنسا :

أحسن خلق الله جيدا وفما ... ان لم يكن أحق بالحسن فمن
حكى الغزال ناظرا ولفتة ... من ذا رآه مقبلا ولا افتتن

أما ابن هتيمل فقد تجافى عن مذهب الصناعة اللفظية وارتفع أدبه عن أساليب معاصريه ، ففي شعره من القوة والمتانة وسهولة الطبع وعفوية الروح ما يجعله خليقا بأن يسلك في عداد شعراء القرنين الثالث والرابع امثال ابي تمام والبحتري والسري الرفاء والوأوا الدمشقي ، وقد اشرنا في الصفحات السابقة الى ثقافته الواسعة في قضايا الادب والتاريخ وقدمنا على ذلك مختلف الامثلة .

وشعر ابن هتيمل حافل بالصور ، وصوره الشعرية تأتي على نوعين : النوع الاول منها الصورة الحديثة التي تكثر في اشعار العرب ومن ذلك قوله في الخمر الذي رسم فيه هذه الصورة :

يا نديمي والجو أدكن والغيم ... عليه من وشيه جلباب
انتهز فرصة الشباب فما أسرع ... ما يسترد منك الشباب
واسقنيها كالتبرا فرغ في الفضة ... ذا جامد وهذا مذاب
أرجوانا كالشمس يسعى بهاالبدر ... كأن النجوم فيها حباب
تأخذ الكأس منك واضحة الكف ... وتعطيكها وفيها خضابه
وكأن النهار والليل للفرقة ان ... حان جيئة وذهاب
طائر خلفه اذا وقع الباز ... على الخافقين طار الغراب

ومن ذلك أيضا هذه الصورة التي رسمها في لقاء الحبيب :

طرقت نوار وللظلام بقية ... نصف الظلام وللصباح شواهد
وتجلببت ورق الشباب فذائب ... للحسن في ورق الشباب وجامد
بتنا وطوق المالكية ساعدي ... تلوي ذوائبها وطوقي ساعد
تحمي عوارضها اذا جاذبتها ... دون اللثام عقارب واساود

افرشتها جسدي فبات مضاجعي | قمر عليه من النجوم قلائد
حتى اذا نصل الدجى وتعللت | جزعا وهب من الهجود الهاجد
قامت تغالطني الكلام فطائش | لا يستقيم من الكلام وقاصد

تلك قطعتان من قصيدتين أوردنا فيهما مثالين من صوره الشعرية ، وشعره حافل جدا بأمثال هذه الصور ، على ان الذي نود أن نلفت النظر اليه في هاتين القطعتين الوحدة الشعرية التي تتمثل لنا في أبيات كل قطعة مجموعة فليس كل بيت منفردا بمعناه وانما كل بيت يرتبط معناه بما بعده . وهي حقيقة لا تتمثل في شعر ابن هتيمل وحده وانما في شعر أكثر شعراء العرب هي اذن حقيقة جدير بأن يلتفت اليها بعض النقاد المحدثين الذين يصفون قصيدة العمود بأنها خالية — في مجموعها — من الوحدة الشعرية وانها انما قامت على وحدة البيت بحيث ينفرد كل بيت في معناه عن البيت الذي يليه .

أما النوع الثاني من الصور في شعر ابن هتيمل فهو ذلك الذي تأثر فيه بشعراء الجاهلية وشعراء فجر الاسلام ، حين كان يصف أحدهم الشيء فيتخذ له موصوفا يناسبه ثم يلح في وصف ذلك المشبه به الحاحا طويلا ليوجد العلاقة بينه وبين المشبه مبينا ما بينهما من وجوه التشبيه ، ومن أمثلة ذلك قول عنترة في وصف ثغر حبيبته :

وكأن فأرة تاجر بقسيمة | سبقت عوارضها اليك من الفم
أو روضة انفا تضمن نبتها | غيث قليل الدمن ليس بمعلم
جادت عليها كل عين ثرة | فتركن كل قرارة كالدرهم
سحا وتكايا فكل عشية | يجري عليها الماء لم يتصرم

وبعد الحاح عنترة على وصف هذه الروضة التي يشبه بها ثغر حبيبته لا ينسى ذكر الذباب الذي يتكاثر وجوده بهذه الروضة الانيقة فيسترسل في الوصف قائلا :

وخلا الذباب بها فليس ببارح | غردا كفعل الشارب المترنم
هزجا يحك ذراعه بذراعه | قدح المكب على الزناد الاجذم (1)

ولعل أكثر الشعراء اطالة في هذا الباب الشاعر المخضرم حميد بن ثور — جاهلي اسلامي — فقد شبه وجده بحبيبته لوجد امراة اشتعل راسها شيبا ولم تتزوج ، ثم واتاها الحظ فحصلت على زوج بعد طول انتظار فحملت منه فلما تم حمله وفصاله ولدته طفلا شب وترعرع شجاعا مقاتلا حاميا للحي مدافعا عن حياضه :

فوجدي بجمل وجد شمطاء عالجت | من العيش أزمانا على مرر القل (2)
فعاشت معافاة بأنزح عيشة | ترى حسنا أن لا تموت من القل
قضى ربها بعلا لها فتزوجت | حليلا وما كانت تؤمل من بعل
وعدت شهور الحمل حتى اذا انقضت | وجادت بخرق لا دنيء ولا وغل

---

(1) ديوان عنترة تحقيق عبد المنعم شلبي وتقديم ابراهيم الابياري ص ١٤٤ .

(2) ديوان حميد بن ثور الهلالي نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ص ١٢٣ و١٢٤ و١٢٥ .

ثم يتحدث الشاعر المخضرم حميد بن ثور عن هذا الفتى الذي بلغ سن الرشد فسلمه قومه زمام أمرهم ، وحدث أن غزا هذا الحي حي اخر وتولى هذا الشاب أمر الدفاع عن قومه بتفويض منهم له ، واجماع راي على الثقة بكفايته الحربية .

وقال لهم حملتموني أمركم ... فلا تتركوني لاضطراب ولا خذل
فلما التقى الصفان كان تطارد ... وطعن به أفواه معطوفه نجل (١)
نهارا طويلا ثم دارت هزيمة ... بأصحابه من غير ضعف ولا خذل
فقال لهم والخيل مدبرة بهم ... واعينهم مما يخافون كالقبل (٢)
على رسلكم اني سأحمي ذماركم ... وهل يمنع الاحساب الا فتى مثلي
فبيناه يحميهم ويعطف خلفهم ... بصير بعورات الفوارس والرجل (٣)
هوى ثائر حران يعلم انه ... اذا ما توارى القوم منقطع النبل
فخر وكرت خيله يندبونه ... ويثنون خيرا في الاباعد والاهل

وبعد أن سقط هذا الفتى صريعا في معركة الدفاع عن قومه صاح هاتف فيهم يعلن مقتله فقامت امه الى موسى قطعت به وريدها حزنا على ولدها الوحيد :

فلما دنوا للحي اسمع هاتف ... على غفلة النسوان وهي على رحل
فقامت الى موسى لتذبح نفسها ... واعجلها وشك الرزئة والثكل

وكل ما يريد أن يصل اليه الشاعر من هذه الابيات التي تحدث فيها عن هذه المرأة ووحيدها كل ما يريد أن يصل اليه هو أن يقول أن فرحته بلقاء حبيبته كفرح هذه المرأة بميلاد وحيدها وان حزنه على فراقها — فراق حبيبته — كحزن هذه المرأة على موت وحيدها :

فوجدي بجمل وجدتيك وفرحتي ... بجمل كما قد بابنها فرحت قبلي

وبهذا اللون من الشعر التصويري تأثر ابن هتيمل في شعره ، ففي قصيدته الميمية التي قالها في رثاء زوجته جاءت اكثر من صورة من هذا النوع فهو يصف حزنه على زوجه الفقيدة بحزن أم لها ولد وحيد أناف عمره على العشرين وهي ما زالت تعقد التمائم على عنقه خشية المرض أو الموت فما هو الا يوم دبت فيه الى ابضها الوحيد حية رقشاء وقضت على حياته على النحو الذي يقول في هذا السياق :

وما أم فرد لم تزل في صلاتها ... تضرع في انشائه وتهينم (٤)
أناف على العشرين وهي لحبه ... تعوذه خوف الردى وتتمتم
فدب له تحت الثرى متغضن ... من الرقش منفوش الظهارة أعرم

وكل ما يريد أن يصل اليه ابن هتيمل هو أن حزنه على زوجه لا يقل عن حزن هذه المرأة على موت ولدها الملدوغ :

---

(١) المعطوفة النجل وصف للطعنات واسعة الشق .
(٢) القبل جمع أقبل وقبلاء وهو اقبال سواد العين على الانف وقيل هو مثل الحول
(٣) الرجل بفتح الراء وسكون الجيم المشاة .
(٤) ديوان ابن هتيمل ص ٩٦ .

بأكثر مني لوعـــة وصبابـــة عليــك ولكني أســـر واكتـم

وفي رثائه للفقيه الصوفي علي بن الحسين البجلي — من أعلام الفقه والتصوف التهاميين في القرن السابع للهجرة — يكرر هذا المعنى في قصيدته أكثر من ثلاث مرات :

فما أم فرد شذب الدهر غصنها بأحداثه تشذيب احدى الجرائد(٢)
تعوذه خوف الردى وتعـــده على كل حال عـــدة للشدائد
أطاف به طيف المنـــون فعادها من المس طيف باختلاف العوائد
وما مرجحنات القلوب لوابـث ألــح عليهـــا زائد أي زائد
ترد الى طرق المصــادر عنـوة وقد حجبوها عن طريق المـوارد
وما أم خشف فوقتــه وادبـرت تورق في سرب البوادي الاوابـد
تكافحه غضف تـــرن خصاصة مقلدة أعناقهـــا بالقلائـــد
بأوجـــد مني يا علي وان همــت عليــك شؤون المدنـف المتواجد

الصوفيــة والتصــوف :

قبل أن نعرض لموضوع الصوفية والتصوف في اليمن يحسن بنا أن ننظر في جذور نشأتها في المجتمع العربي والاسلامي ، ففي كثير مما كتب عـن الصوفية والتصف اراء او اجتهادات قدمها بعض الباحثين وفحواها أن حركـة التصوف ليست اسلامية الطابع بقدر ما هي مذاهب مستوردة تأثر الفكـر العربي فيها بفلسفة الهند ذات التراث العريق في الرياضات الروحية .

والواقع ان مذهب التصوف عند العرب قد نشأ من صميم البيئة الاسلامية التي ورثت حضارة اليمن القديمة بما لها من طقوس عبادة ومراسيم تديــن ، وورثت تعاليم الديانتين اليهودية والمسيحية وكلتاهما ديانتان دان بهما بعـض العرب قبــل الاسلام يضاف اليها الحنيفية الابراهيمية التي كثرت الاشارات اليها في القرآن (٣) « ان هاذ لفي الصحف الاولى صحف ابراهيم وموسى » (٢) « ومن يرغب من ملة ابراهيم الا من سفه نفسه » (٤) « ان ابراهيـم كان أمة » (٥) .

لقد كانت البذور الاولى لمذهب التصوف متمثلة في حياة النبي عليه السلام الذي عاش حياة تقشف وزهد على النحو المعروف في السيرة الشريفة وتمثلت في حياة كثير من أصحابه أمثال أبي ذر الغفاري وأبي هريرة وصهيب الرومي وسلمان الفارسي ، وفي أهل الصفة وهم طائفة من أصحاب الرسول الفقراء الذين عاشوا في كنف نبي السلام يعيشون مثله عيش الكفاف .

وقد اختلف الباحثون حول لفظ صوفي وتصوف فقيل انه لفظ مشتـــق

(٢) نفس المصدر ص ٨٦

(٣) الاية رقم ١٨ سورة الاعلى .

(٤) الاية ١٣٠ سورة البقرة .

(٥) الاية ١٢٠ سورة النحل .

من الصفاء على النحو الذي رسمه قول الناظم :

ان انقطاع العبد بالكلية لله بالعبادة المرضية
ولازم الحمية حتى عوفي فذاك للصفاء يدعي صوفي (١)

وقيل انه لفظ مأخوذ من اهل الصفة الذين اسلفنا ذكرهم ، ويعرف اهل الصوفية الصوفي تعريفات مختلفة باختلاف اذواقهم ومواجيدهم مثل قول ذي النون المصري « هو — يقصد الصوفي — من اذا نطق أبان نطقه عن الحقائق وان سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق (٢) .

وعرف التصوف ابو الحسين النوري (٣) الذي قال « ليس التصوف رسوما ولا علوما ولكنه اخلاق » .

وقد بدأ التصوف بسيطا فطريا في القرنين الاول والثاني للهجرة وكان أعلام التصوف في هذه الفترة يجمعون بين الفقه ورواية الحديث وعلوم القران أي أنهم كانوا ظاهريين في فهم فقه الشريعة حتى اذا كان القرن الثالث حين ترجمت الفلسفة وامتزجت ثقافة العرب بثقافات فارس والهند واليونان والرومان بدأ مذهب التصوف يتأثر بهذه الثقافات وشاع عند الصوفية القول بمذهب الباطن وهو أمر شبيه بمذهب الفاطمية الذين يسمون بالباطنية مع الفارق الظاهر بين معنى الباطن عند الصوفية ومعناه عند الصوفية .

فالباطن عند الفاطمية تأويل لظواهر القران وظواهر الاحكام الشرعية يتولى كبره كبار الدعاة الواقفين على قمة الدعوة وكثيرا ما يخضع هذا التأويل للظروف والملابسات المحيطة بدعوتهم ، وقد سبق أن أشرنا الى هذا الموضوع عند استعراضنا للمذهب الفاطمي حين كان باطنيا محضا في عهد القرامطة وحين جمع بين الباطن والظاهر في عهد الصليحيين .

أما الباطن عند الصوفية فهو تأويل لنصوص القران وظواهر أحكام الشريعة يربطونه بمقاماتهم الروحية بما يتبعها من سلوك وعمل ورياضات ومجاهدات واشواق وأذواق .

وليس من شك في ان الصوفية قد تأثروا بالفلسفة شأن غيرهم من الفرق فاشتهر عن محي الدين بن عربي قوله بوحدة الوجود (٤) فوحدة الوجود هي المنظار الذي ابصر من خلاله كل شيء سواء أكان ذلك في عالم الفكر أو عالم السلوك .

وتراث الصوفية عظيم ضخم ومن أوائل من ألف في هذا الموضوع عبد الرحمن السلمي المولود عام ٣٢٥ هـ وفي هذا الكتاب تراجم لمائة من أعلام الصوفية قسمها الى خمس طبقات كل طبقة تضم عشرين صوفيا قدم نبذا من

---

(١) هداية المريد الى سبيل الحق والتوحيد الشيخ احمد العبادي
(٢) طبقات الصوفية لابي عبد الرحمن السلمي ص ١٠
(٣) نفس المصدر ص ٤٧
(٤) دراسات اشتراكية — دار الهلال —السنة الثالثة عدد مارس ٧٤

حياتهم والوانا من أقوالهم نثرا وشعرا ومن اشهر هؤلاء الاعلام الفضيل بن عياض المتوفي ، وذو النون المصري ثوبان بن أبراهيم المتوفي عام ٢٤٥ وقيل عام ثمانية وأربعين ، وابراهيم بن أدهم معاصر الفضيل بن عياض ، وبشر الحافي المتوفي عام ٢٢٧ والسري السقطي المتوفي سنة احدى وخمسين ومائتين ومعروف الكرخي استاذ سري السقلي ، وابو القاسم الجنيد المتوفي سنة سبع وتسعين ومائتين الى غير أولئك من مشاهير المتصوفة .

وقد احتدم الصراع بين أهل السنة والمتصوفة لما بين الفريقين من تناقض في فهم النصوص الشرعية فكان مقتل الحلاج أبرز مظهر لهذا التناقض الكبير بين الطرفين .

(١) « لقد نسب أبو المغيث الحسين بن منصور الحلاج — من كبار متصوفة القرن الرابع للهجرة الى الكفر ، والى الحلولية وحكوا عنه أنه قال من هذب نفسه بالطاعة وصبر على اللذات والشهوات ارتقى الى مقام المقربين ثم لا يزال يصفو ويرتقي في درجات المصافاة حتى يصفو عن البشرية ، فاذا لم يبق فيه من البشرية حظ حل فيه روح الاله الذي حل في عيسى بن مريم ولم يرد حينئذ شيئاالا كما أراد وكان جميع فعله فعل الله تعالى » .

ونسبت الى الحلاج أبيات قالها في معرض الشطح الصوفي مثل قوله معبرا عن التحامه بالذات الالهية :

انا انت وأنت أنا   فسبحانك سبحاني

وكقوله أيضا في نفس المعنى :

عجبت منك ومني   يا منية المتمني
ادنيتني منك حتى   ظننت أنك أني
وغبت في الوجد حتى   أفنيتني بك عني

وتنسب اليه كذلك قوله في المعنى عينه وينسب لغيره :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا   نحن روحان حللنا بدنا
فاذا حدثته حدثتني   واذا حدثتني حدثتنا

وتتخذ مسرحية الحلاج لعبد العبر في العصر الحديث من الحلاج رمزا للفكر الثوري المناضل ضد أوضاع الاقطاع في العصر القديم وفي بعض عبارات المؤرخين القدماء ما يشير الى شيء من ذلك قال البغدادي (٢) :

« ذكروا أنه استمال ببغداد جماعة من حاشية الخليفة ومن حرمه حتى خاف الخليفة — وهو جعفر المقتدر بالله — معرة فتنة فحبسه واستفتى الفقهاء في دمه واستروح الى فتوى أبي بكر بن داوود باباحة دمه فأمر بضربه الف سوط وبقطع يديه ورجليه وصلبه بجسر بغداد ففعل ذلك لست بقين من ذي القعدة سنة تسع وثلاث مائة ثم انزل من جذعه الذي صلب عليه بعد ثلاث وأحرق وطرح رماده في دجلة » .

---

(١) الفرق بين الفرق للبغدادي ص٢٦٣ .
(٢) الفرق بين الفرق للبغدادي ص٢٦٣

ويراجع هذا النص محمد محي الدين عبدالحميد محقق كتاب البغدادي (١) فيقول ان أبا بكر بن داوود كان قد توفي قبل مقتل الحلاج باثني عشر عاما والصواب أن الذين كان لهم ضلع في قتل الحلاج شيخ الصوفية ابو بكر الشبلي والوزير علي بن عيسى الذي كان في وزارته كابن هبيرة علما ودينا وعدلا ، ويقال كان في الوزارة كعمر بن عبدالعزيز في الخلفاء .

وتتحدث بعض الدراسات الحديثة التي تعرضت لمفهوم الحرية في الفكر الاسلامي (٢) عن فلاسفة التصوف الذين تعدت صناعتهم واهتمامهم دائرة الرياضات الروحية الى حيث طرقوا البحث فيما وراء الطبيعة ، ولكن بمنهج غير منهج الفلاسفة العقلانيين فبدلا من أن يؤولوا ظواهر النصوص بما يتفق مع حكام العقل ومعطيات البرهان نراهم قد جعلوا معطيات الذوق والشهود الصوفية هي الحكم والمرجع والمعيار في تفسير هذه النصوص .

ومن أبرز من سلك هذا السبيل من اعلام التصوف محي الدين بن عربي الذي كان يؤمن بوحدة الحق « الله » « والخلق » الكائنات لان الذين رأوا أن الاصل والاساس هو الحق قدعرفوا بالالهيين من انصار وحدة الوجود بينما الذين رأوا في الحق مجرد ظل للخلق « قد عرفوا بالماديين من أصحابه وحدة الوجود وخير نموذج لهؤلاء الاخيرين الفيلسوف اسبينوزا » .

والقسم الثاني من المتصوفة العمليون وهم أولئك الذين وقفت بهم افكارهم دون الحديث الفلسفي في قضايا الانسان وعلاقاته بما وراء الطبيعة والذين جعلوا من الرياضة الروحية ومجاهدة النفس شغلهم الشاغل ومن اعلامهم أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري صاحب الرسالة القشيرية الذي تحدث عن الحرية والعبودية — بالنسبة الى الله والانسان — مثلما تحدث المعتزلة عن الجبر والاختيار .

والذي يهمنا في هذا الصدد التعرض لمذهب التصوف في اليمن في القرن السابع للهجرة ففي هذا القرن ازدهر مذهب التصوف في اليمن ازدهارا عظيما ففي تاريخ الجندي وفي تاريخ الخزرجي وفي تاريخ ثغر عدن لباخرمة وفي كتاب طبقات الخواص للشرجي وكتاب طبقات فقهاء اليمن لابن سمره الجدي عشرات التراجم لكبار المتصوفة في القرن السابع وغيره من القرون سابقة ولاحقة ومن اعلام هذه الفترة العلامة موسى بن عمر بن المبارك الجمفي الذي كان يقال له جنيد اليمن ، ومن المع رجال الصوفية في هذه الفترة الشيخ التهامي ابو الغيث بن جميل الملقب بشمس الشموس ، والمتوفي عام ٦٥٠ للهجرة .

وكان الشيخ ابو الغيث معارضا لحكم الائمة كتب اليه الامام أحمد بن الحسين رسالة (٣) طمعا في مياه وميل أهل تهامة يقول فيها « قل يا أهل

---

(١) نفس المصدر ص ٢٦١ الحاشية

(٢) محمد عمارة ، دراسات اشتراكيةعدد مارس ١٩٧٤ م ص ١٣٣ و ١٣٤

(٣) تاريخ الخزرجي الجزء الاول ص١٠٨

الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فأن تولوا فقل اشهدوا بأنا مسلمون » ثم قال القصد يا شيخ الاجتماع على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والسلام .

ورد عليه الشيخ أبو الغيث برسالة يقول فيها :

« ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المتوكلون الحمد لله فالق الاصباح ومرسل نسيم الرياح الى فسحة مبدأ عالم الاشباح ، أما بعد فقد وصلنا كتاب السيد الشريف يدعونا لاجابته ولعمري انها طريق سلكها الاولون واقبل عليها الأكثرون غير انا نقر منذ سمعنا قوله تعالى « له دعوة الحق » لم يبق فيها متسع لاجابة الخلق فليس لاحد منا أن يشهر سيفه على غير نفسه ولا أن يفرط في يومه بعد أمسه فذكروا أن الرسول بقي عند الشيخ وبعث بالكتاب رسولا غيره .

وكانت بين الشيخ أبي الغيث والعلامة الصوفي اليمني احمد بن علوان مماحكات فمن ذلك ما كتب اليه أحمد بن علوان مفاخرا بمقاماته الصوفية :

جزت الصفوف الى الحروف الى الهجا ... حتى عرفت مراتب الأبداع

لا باسم ليلى استعين على السرى ... كلا ولا ليلى تقل شراعي

ورد عليه أبو الغيث ببيتين فيهما شطح مثل شطحه :

حليت في الاسم القديم باسمه ... واشتقت الاسماء من اسمائي

وحباني الملك المهيمن وارتضى ... فالارض أرضي والسماء سمائي

ومن كلامه قوله شكواك الى غيرك دليل على قلة ثقتك بالله ورجوعك في حال الشدة الى المخلوقين دليل على انك لا تعرف الله وفرحك بشيء تناله من الدنيا دليل على بعدك من الله .

وسئل عن المستحق لاسم الصوفي فقال هو من صفا سره من الكدر ، وامتلا قلبه من العبر ، وانقطع الى الله عن البشر ، واستوى عنده الذهب والمدر ، وسئل عن الصوفي فقال هو من كان بعهد الله موف من دعائه :

« اللهم اني اسألك يا روح الروح ويا لب اللب ويا قلب القلب هب لي قلبا أعيش به معك فقد خلقت كل ما ه دونك لاجلك فاجعلني ممن شئت من هذه الجملة .

احمد بن علوان :

حياته .. مذهبه وأدبه

من اعظم شخصيات اليمن الدينية التي اتسمت حياتها بطابع اسطوري ونسب اليها العامة كل ما يمكن ان ينسب الى مقام الولاية من كرامات خارقة ، ومكاشفات فائقة ، ومقامات تكاد تنزله منزلة المعبود .

عاش في أواخر حكم الايوبيين لليمن ، وأوائل حكم بني رسول وكان أبوه كاتبا للملك المسعود الايوبي اخي الملك العادل ابي بكر بن ايوب الذي بعث —

أخاه المسعود الى اليمن لاطفاء نار الخلاف بين الاسر الايوبية الحاكمة وخاصة بعد مقتل بعض افراد هذه الاسرة ، وقد كان والد احمد بن علوان ـ كما يظهر ـ على جانب من الثراء الذي يفترض وجوده لدى كتاب الدولة في ذلك العهد ، وآية ذلك الثراء ان احمد بن علوان لم يشترك في مناصب الدولة ، ولم يتقلد عملا من اعمالها طيلة حياته ، وانما هو رجل دين وتصوف يعتمد في حياته على ماله الموروث الذي آل اليه من ابيه ، ويتمتع بمكانة عظيمة لدى خاصة الناس وعامتهم بماله من تقوى وصلاح ، وعلم غزير ..

وقليلة هي المصادر التي تحدثت عن حياته ، ولكنها تكاد تكون مجمعة على انه ولد في احدى قرى جبل صبر ونشأ وترعرع في قرية تسمى « بذي الجنان » من قرى جبل « ذخر » المعروف بخصوبة ارضه ، وصفاء جوه ، وتؤكد هذه المصادر (١) انه تلقى علومه في جو تحيط به السعادة وراحة البال ، فاتقن فن الكتابة ، واخذ بقسط كبير من معارف الادب من نحو وصرف ومحفوظات واسعة من النظم والنثر الى المام كبير بفقه الشريعة .

ويقول الخزرجي في تاريخه انه بعد وفاة ابيه اصيب بشيء من العسر المالي نظرا لاغراقه في الحياة المترفه ، فحاول الحصول على عمل في الدولة ولكن عارضا عرض له في الطريق فعاد الى بلده ولزم اللخوة ولم يذكر الخزرجي ما نوع ذلك العارض وكيف كان .

عاش عالما دينيا وصوفيا صاحب أذواق ومواجيد ، وعريق تاريخ اليمن في التصوف ، ممتدة اماده ، عبر سلسلة من الزمن تكاد تتصل بالقرن الثالث للهجرة . ولكن القرن السادس والسابع كان أحفل بالتصوف وليس فيذلك بدع فان الايوبيين شجعوا حركة التصرف في كل قطر من الاقطار الواقعة تحت حكمهم ابتداء من مصر التي ازدهرت فيها حركة التصوف على أيدي اعلام أفذاذ كأبن عربي وابن الفارض والشاذلي وابن الخيمي وغيرهم وانتهاء باليمن التي حفل القرن السابع بتراجم صوفية فيها نالت مراكز الزعامة الروحية بين عامة الشعب المتوفي كالشيخ محمد بن الحسين البجلي المتوفي في ٦٢١ والشيخ علي بن عمر الاهدل المتوفي عام ٦٠٢ هـ. والشيخ بلغيث بن جميل المولود عام ٥٥٦ والمتوفي عام ٦٥١ .

وأشارت تراجم الصوفية في عهد بني رسول الى شخصيات اخرى مثل احمد بن موسى العجيل وكانت وفاته عام ٦٩٠ هـ. احمد بن عمر الليلعي العقيلي المتوفي عام ٧٠٤ الى غير تلك من الشخصيات في كلا عهدي بني ايوب وبني رسول .

وواضح ان العصر الذي اظل ابن علوان كان عصرا بلغت فيه حركة التصوف اوجا رفيعا من الرقي والازدهار .

فقد كان الحكم الايوبي يسيطر على اليمن في هذا العهد ، وكان الايوبيين بعد ذلك خلفاء الفاطميين في الحكم انتزعوا الحكم من ايديهم انتزاعا ، والغوا تعاليم الشيعة الغاء ، وعملوا على احياء تعاليم السنة ، ومن المعلوم ان عقائد الفاطميين

---

(١) العقود للخزرجي . وطبقات الخواص للسراجي .

تذهب مذهب المعتزلة ، يجحدون المعجزات بالنسبة للانبياء والكرامات بالقياس الى الاولياء ، ويقولون بأن الخرق في العادات خروج على قانون الطبيعة وأذن فهم يرفضون ذلك رفضا ومن أجل ذلك لم تنتعش حركة التصوف في عهد الفاطميين انتعاشها في عهد بني ايوت الذين خصصوا لها الاوقاف ، وبنوا لها الدور ،ونصبوا المشيخات .. وكان حكم بني رسول في اليمن امتدادا لعهد الايوبيين .

فبالرغم من ان حكام بني رسول هم من عرق يمني اصيل يمت الى الغساسنة الا انهم ، لم يكونوا في بادىء الامر سوى نواب للايوبيين عينوهم في الحكم واسندوا اليهم ادارة الدولة وهم بعد ذلك — اقصد بني الرسول — سنيون يناصبون تعاليم الشيعة العداء ، لذلك ساروا على نهج الايوبيين في تشجيع حركة التصوف ، فكانت اربطة المتصوفة تعفى عادة من الضرائب المفروضة على عامة الشعب وكان الاعفاء يقوم على اساس الافتراض بأن لتلك الاربطة تلاميذ ومريدين واتباعا وفقراء يكفيهم مشيخات تلك الاربطة مؤونة العيش وتكاليف الحياة .

ولا يمكن ان يغفل الدور الذي قام به رجال التصوف في مجال السياسة بحكم ما كان لهم من مركز روحي له اثره الكبير على نفوس العامة .

فقد كان الحكام يلجأون الى اولئك العلماء احيانا كثيرة طالبين اليهم التدخل في اخماد تمرد او ثورة تقوم بها جماعة من الجماعات او حي من الاحياء وقد يطلب اليهم اصلاح ذات البين بين افراد الاسرة الحاكمة كما فعل العيدروس حين فض النزاع بين عامر عبد الوهاب وأحد اقربائه الذين نازعوه الحكم .. وكما تدخل العيدروس ايضا في قضية النزاع بين الحكومة الطاهرية وأحد الاحياء اليمنية المتمردة ، فأعاد العلاقات الى حالتها الطبيعية بين كلا الطرفين المتنازعين .

مجهولة المصادر التي تتحدث عن الشيوخ الذين تلقى على ايديهم احمد بن علوان تعليمه ، ولكن مصدرا واحدا يشير الا انه قد اتصل بالشيخ جميل « أبو الغيث » صاحب أحد الاربطة في تهامة ، فالبسه الخرقة ، « والخرقة تقليد معروف عند أهل التصوف قد يلبسها الشيخ تلميذه الذي تلقى على يديه عملا بقاعدة الاستاذية الروحية » وقد يلبسها عالما مثله ينتمي الى زاوية اخرى ورباط اخر عملا بقاعدة الوحدة في الطريقة والمذهب .

ويظهر ان ابن علوان قد لبس الخرقة على يد هذا العالم الجليل وعملا بالقاعدة الاخيرة فقد كان ابن علوان عالما بالشريعة ، قيما باداب العربية ، واسع الاحاطة بعلم الكلام ، وكان بعد ذلك مطلعا على اراء ومصطلحات الصوفية ، وخاصة كتب ابن عربي صاحب « الفتوحات الملكية » و «فصوص الحكم » و « ترجمان الاشواق » والاخير ديوان شعر يكون مع ديوانه الثاني الذي اسماه بالديوان الكبير ، مجموعة اشعار ابن عربي الحب الالهي .

ويشهد على تأثر ابن علوان بأبن عربي تسمية ديوانه — اقصد ديوان ابن علوان — بالفتوحات ، وان اختلفت مادة كل من الديوانين .

فديوان ابن علوان اشتمل على قصائد قالها في الاصلاح الديني كقصيدته التي

قدمها الى عمر الرسولي أول حاكمي دولة بني رسول والتي سيأتي ذكرها في سياق استعراض اشعاره . واشتمل ديوانه أيضا على قصائد قالها في الديوان على مجموعة من الخطب والمواعظ التي وجه بعضها الى الحكام في نصائح الى القائمين بشؤون الحكم واحتوى قسم النثر ايضا على مقالات التصوف في السماع .. في الحب الالهي وغير تلك من الاغراض .

وشعره الفصيح دار حول مواضيع اجتماعية واغراض تمس موضوع الحب الالهي .

فمن شعره الذي يعبر عن مواجيده الصوفية هذه القطعة التي تشير الى الممه بفلسفة الحلول ، وهي فلسفة تقول بحلول الذات الالهية في الاشياء ومن اجل القول بها قتل الحلاج في العصر القديم . قال ابن علوان في هذا الصدد :

تمادى الشاهدان بنور عقلي ... فذا يعني وذاك يريد قتلي
فوافقت المشير الى التخلي ... وخالفت المشير الى التجلي
ولو أني نطقت على فنائي ... لقلت مقالة « الحلاج » قبلي
ولكن شد من أهواه أزري ... وقوى همتي وأجد عقلي
فبعضي في فنون الحب فان ... وبعضي بين اخواني وأهلي
فلا أدري ألاخوان أبقي ... أم الاهلين أم لله أم لي
فلي وجهان مكنون وباد ... ولي علمان جزئي وكلي

وقد يغرق احمد بن علوان في استخدام مصطلحات الصوفية فيحتاج شعره احيانا الى شارح يجلو غوامضه ، ويكشف معمياته . وليس هذا الغموض بدعا في شعر ابن علوان وانما هو طبيعة اصيلة في اشعار الصوفية . فقد شرح القدماء تائية ابن الفارض التي ملاها بالرموز والمصطلحات . ومن نمط هذا الشعر قول ابن علوان :

باهوت بهت عقائل الناسوت ... أسرار ما في باطن التابوت
تفاحة فواحة بروائح ... جنوية في الملك والملكوت
نصبت لها الاعلام قبل ظهورها ... في عالم الملكوت والناسوت

أما شعره الاجتماعي فقد حفل بمواقف اصلاحية وقف بها الشاعر العالم ابن علوان امام السلطات الحاكمة وقفة بطولية . وفي مقدمة قصائده في هذا الباب قصيدته النونية التي قالها في عمر بن رسول اول حكام الدولة الرسولية وقبل ان نعمد الى تقويم هذه القصائد يحسن بنا أن نلم بفقرة مما ذكر ابن المجاور في تاريخ المستبصر حول عهد ابن رسول قال :

في يوم الاربعاء ٢٦ رجب سنة ٦٢٤ هـ. دخل عمر بن علي بن رسول الى عدن وأمر جنده بنهبها وطرح القوة على كل من فيها من غريب وقريب وقوي وضعيف وامرأة حرة وفاسدة وفرض على سعر البهار مائتين وثمانين دينارا وضرب الخلق بالخشب ، وكانت الايام شبه ايام الحشر ينادي بها الى المفر » .

هذه الاحداث التي جرت في عدن والتي جرت لها نظائر واشباه في مناطق كثيرة من اليمن في بداية عهد الدولة الرسولية هي التي تصور جو القصيدة التي قدمها ابن علوان بن رسول وفيها يقول :

هذي تهامة لا دينـــار عندهـــــم ولحج أبين بل صنعاء بــــل عدن
فما ذنوب مساكين الجبال وهـــم جيران بيتــك والاحـــلاف والسكن
عار عليك عمــــارات مشيـــدة وللرعية دور كلهــــا دمـــــن
ترى الالـــوف ولم تستفت حاملها أنى له وبـــأي الحق يختـــزن
أنا وأنت ومن قد نالهــا خلــف وسوف نظعن عنها مثل من ظعنوا
لا تركنن اليهـــا انهـــا سخرت من الذين اليهــــا قبل قد ركنوا

وقد يصور احيانا بعض المظالم التي كانت ترتكب ضد افراد الشعب من قبل السلطات الحاكمة كذلك السجين الذي القى به في غياهب السجن بغية ان يقر بما يملك لتفرض عليه الزكاة :

ويقصدون بــه القاضي فينطقـــه أقرر وكـــل مقال قالـــــه كتبـــا
وكيف اقرار من ان لم يقر مضى به الى السجن والاغــــلال أو ضربـــا
والله يعلم والقاضي وكاتبــــــه وشاهداه بــــأن الحكم قد كتبـــا

وكعالم ديني من اهل السنة فهو يحمل على الفلسفة التي لا يراها تشبـــه الشرائع المنزلة من حيث توفير الامنوالطمأنينة للنفس ، لان براهين الفلسفـــة صادرة عن العقل المجرد فحسب على حين ان براهين الشرائع صادرة عن العقل والشعور معا لذلك فهو يناقش الفيلسوف هذا النقاش الذي نسمع في صوته حدة محتدمة وهديرا صاخبا .

ينبي عن الله أنبــــاء محققــــة وأنت عن فيلسوف الافــك تنبيني
المنطق الحق بـــين الخلق منطقـــه لا المنطقيون أهل الزيـــغ والهون
اقوالهم فتن والتابعون لهـــــم وزخرف القول من وحي الشياطين
يــا أيها المتولي شطر قبلتهـــم جهرا ذبحت ولـــم تذبـــح بسكين
لا تصحبن بغاث الطير وهي على دور المزابل زهـــــدا بالشواهين
لا تخلصن عن القرآن بهجتــــه مقلـــدا للنصارى والرهابـــين
والتابعـــين لهم من أهل قبلتنــا فتحت كل قميص ســــم تنـــين
فان عثرت على كتب مزخرفـــة عنهم فقل كتــب الرحمن تكفيني
ولا تظنن ان الحق ما وضعـــوا ليس الحقائق تمحى بالاظانـــين

ولاحمد بن علوان نثر فني مسجع كتبه في المواعظ والرقائق .

وبعض ذلك الكلام وضع تفسيرا للمذهب الصوفي في أذواقه واشواقـــه وانجذاباته مثل هذه القطعة التي يتحدث فيها ابن علوان عن الشطحات التـــي تصدر عن بعض المتصرفة فيحاسبهم اهل الظاهر على ظواهر لفظها على حين أن لها تفسيرا باطنا لا يعلمه الا من راض نفسه على التصوف حياة ورياضـــة وتجريبا قال ابن علوان في هذا الصدد ذاكرا في كلامه شطحة الحلاج المشهـــورة التي أدت الى مقتله كما يعلم القراء الاعزاء .

اعلم ان لطف المعرفة قلب خاضع ، تحت نور ساطع لـــكن معقله ورتبته ان الله بحوله وقوته يحول بينه وبين همته ، فصار بحوله يحول وبسكينته يسكن ، وبميدان نظرته يجول ، وبلسان حالــــــه يقول لا ينطق عـــــن الهوى ولا يتعلق بالفضول اشبه الاشياء بذلــك عند الحكمـــاء وقوع الشمس في جو السماء في المشكاة النافذ على صفو الماء في الاناء فيسطع جوهره علـــى الفنان ، وبلسان حال ذلك النور قال الحلاج ، عندنا له الحجة على الجاهليـــن

وذلك انه لما سطع ذلك النور الوهاج على مشكاة الحلاج صحبته نـــار طور كسرت الزجاج واحترقت معه غريزة المزاج وملات من علمه السبل والفجاج .

ذلك نموذج من نثره الفني الذي يشرح مذهبه ، وهو نص لا يتعارضـــس مع كثير من النصوص التي كتبها المتصوفة في القرنين السادس والسابع هجري الفاظ لها ارتباط بمد لولات الفلسفة ، ومذهب علم الكلام .. وقد وجد ابن عربي وابن الفارض في مصر من كتب الشروح المطولة على ما كتبا في هذا المجال مـــن شعر وثر ، ولم يجد مترجمنا من عني به من علماء عصره ، واولع عامة النـاس بهذه الشخصية واغرموا بها غراما شديدا حتى نسبوا اليه ما لم يقل ، واضفوا حوله هالة من القداسة تكاد تكون مروقا عن مبادىء الدين الحنيف .

وله شعر حميني لم يخرج عن أغراض التصوف في مجموعته كلها ، وفـــي بعض هذا الشعر الحميني غزل رقيق نكتفي — لضيق المجال — بايراد هـــذا النص منه .

أسقمتني يا سهـم قوس رامـــي	جريت في لحمي وفي عظامـــي
فمن كلامـــك في الهوى كلامـــي	ومن فؤادك في الاسى فـؤادي

* *

كالبدر لاحت في سنى الغلائـــل	مخضوبــة الكفـــين والانامـل
يطيش منهـــا عقل كل عاقـــل	مهمـــا مشت بالتيـــه والتهادي

وفي الاربعينات نبش قبر احمد بن علوان ، وكان النبش بأمر من طاغيـــة اليمن أحمد الذي كان واليا للعهد يوم ذاك ، والذي كان في غضون تلك الفتـــرة يتظاهر بأنه يحيي السنة وانه يجدد وصية الرسول عليه السلام لعلي بن ابـــي طالب حين بعثه الى اليمن بأن لا يدع تمثالا الا طمسه ولا قبرا مشرفا الا سواه .

وكان الزبيري وكثير من رفاق الزبيري مخدوعين بما يظهر ولي العهد من نيات حسنة نحو حركة التقدم ولذلك كتبت بعض القصائد التي تمجد عمليـــة النبش ، ومن تلك القصائد قصيدة للشاعر الزبيري يقول فيها :

كذلك المجـــد اما رافعا علمـــا	أو باعثا أمما أو هادما صنمـــا
يـــا من يجدد من آثار أمتـــه	ما لو رأى جده المختار لابتسمـــا
جرح عـــلى كبد الاسلام متسع	وضعت فيه ذباب السيف فالتأما
خديعـــة للجماهـــير التي زعمت	بأن من دينها أن تعبد الوهمـــا
قالوا له كتب في القبر يكتبهـــا	ينهي ويأمـــر انى شاء واحتكما
فليت شعري أسحر ذاك يزعمـــه	أم أنه اتخذ القرطـــاس والقلمـــا
أم انـــه اتخذ القبر المقيم بـــه	عرشـــا يدبر فيه اللوح والقلما
فدعهم يا ولي العهد في أثر التـــا	ريخ واذهب عـــلى آثاره قدمـــا

تلك نظرة نلقيهـــا على حياة شخصية أحلتهـــا اذهان الجماهـــير محـــل الاسطورة فما تتبين معالم واقعيتها الا من خلال ضباب كثيف من الاخيلـــة والمبالغات ، وقد حاولنا جلاءها أمام اعين القراء مستخدمين مقاييس عصرها ، بما اضطرب به عصرها من الوان الثقافات والمعارف والمذاهب الدينية ، وكـــان كتاب « الفتوح » المخطوط لصاحب الترجمة اهم مصدر اعتمدناه في تقويم هـــذا العرضـــــــــس .

القرن الثامن

الاوضـــاع السياسيـــة

استهل القرن الثامن للهجره ، والدولة الرسولية ما تزال قائمة في اليمن عاصمتها تعز واول ملوك هذا القرن المؤيد داود بن يوسف الملك الرابـــع من ملوك بني رسول والذي ولى الحكم عـــام ٦٩٦ خلفا لاخيه الاشرف الاول عمر بن يوسف وقد دام حكم المؤيد داود هذا الى عام ٧٢١ هـ .

ثم خلفه ولده المجاهد علي بن المؤيد الذي استمر في الحكم الى عام ٧٦٤ . ثم خلفه ابنه الافضل العباس بن علي الذي توفي عام ٧٧٨ ، فخلفه ابنه الأشرف اسماعيل بن العباس الذي توفي عام ٨٠٤ هـ .

وقد ظل الخلاف قائما بين افراد الاسرة الرسولية ، مثل ما حدث للمجاهد علي بن المؤيد داود الذي ثار عليه عمه المنصور عمر بن يوسف الذي استطاع بمعونة مجموعة من انصاره القبض على المجاهد واعتقالـــه حتى استطاعت امه ـــ أم المجاهد ـــ ان تبذل الاموال والعطايا السخية وان تجمـــع قوة كبيرة تمكنت بها من اخراج ابنها من السجن واعادته الى الحكم ومثـــل مـــا حدث للمجاهد نفسه حين خرج عليه ابنه يحيى المظفر الذي اتجه الى عدن مستميلا جماعة من العقارب دخل بهم عدن وابين فألقى القبض على عدد من ولاة ابيـــه وصادر املاكهم ولم يقو ابوه المجاهد على ان يظفر منه بطائل حتى مات وخلفه ابنه الافضل العباس بن علي .

ولم يكن الخلاف محتدما بين الاسرة الرسولية فحسب وانما تعداهم الى الاطراف التي خفقت فيها راية حكمهم فقد ثار على المجاهد عـــلي بن الدويدار نائبه على عدن ولحج الامر الذي اضطر المجاهد الى ان ينزل من تعز الى لحج

حيث جاءه ابن الدويدار (١) في مأية من رفاقه تائبا فعفا عنه وذلك في حدود عام ٧٢٥ وقتل علي بن الدويدار في نفس العام .

وكان المجاهد الرسولي قد استعان بالحاكم المصري محمد بن قلاوون بعد ثورة عمه المنصور عليه فأمده بجيش مكون من ألفي فارس ، ولكن هذا الجيش المعين اوشك ان يتحول الى نصرة اعدائه فتخلص منه بلباقة واعاده الى مصر في حدود عام ٧٢٥ ، ولما توجه المجاهد الى مكة للحج عام ٧٥١ ساء مقدمه امير مكة الشريف عجلان بن رميثه وسبب ذاك ان المجاهد الرسولي استصحب معه اخوة لعجلان كانوا لاجئين عنه فاغرى عجلان الجنود المصريين بالمجاهد فالقوا القبض عليه . وكان في قلة من رجاله ـــ وبعثوا به الى صاحب مصر محمد بن قلاوون الذي أكرمه وانعم عليه ورده الى اليمن بعد عشرة اشهر معززا مكرما .

ولم تخل ايام الرسوليين من فتن واضطرابات في كثير من المواضع في عدن وتهامة والجند واشتدت هذه الفتن والاضطرابات في اواخر هذا القرن حتى اصبحت دولتهم محصورة في تهامة وتعز وعدن .

أما في صنعاء واعالي الجبال فقد ظلت الحروب مستمرة بين الرسوليين والائمة انفسهم ، ففي عام ٧٢٣ استولى على صنعاء الامام محمد بن المطهر الذي استطاع أن يتغلب على الداعي علي بن ابراهيم بن الانف الهمداني واعانه على ذلك حايف الداعي ابن الاسد الذي كان حليفا للداعي المذكور وكان كلا الرجلين الداعي وابن الاسد قد استوليا على صنعاء في فترة انشغال المجاهد الرسولي بالتمرد الذي قام ضده في تعز .

وفي عام واحد هو ٧٢٩ دعا الى انفسهم ثلاثة ائمة هم الامام يحيى بن حمزه الذي تخلى عن الدعوة من تلقاء نفسه ، والامام المطهر بن محمد بن المطهر الذي خلف اباه محمد بن المطهر المتوفي عام ٧٢٨ ، والامام علي بن صلاح الدين الذي تلقب بالناصر وعارض الامام يحيى بن حمزه في بلاد السودة ومات في العام الذي تلا عام دعوته .

كما أدعى الامامة احمد بن علي بن ابي الفتح الديلمي الذي توفي عام ٧٥٠ وادعاها الامام المهدي علي بن محمد بن يحيى من أولاد يحيى بن الحسين وذلك في عام ٧٥٠ ولكنه اختلف مع الحمزات بزعامة رئيسهم داود وابراهيم اولاد عبد الله بن حمزه واختلف مع كثير من القبائل اليمنية حتى توفي عام ٧٧٣ (٢) .

وادعى الامامة ايضا صلاح الدين محمد بن علي الذي تنازل له وبايعه الامام المطهر بن محمد ، وكان المطهر قد دعا الى نفسه عام ٧٢٩ ثم تنازل وبايع يحيى بن حمزه وفي هذه المرة تنازل وبايع صلاح الدين محمد بن علي بيعة على رؤوس الاشهاد .

وانتهى هذا القرن وتلاه الذي يليه بحروب طاحنة خاضها بقية هؤلاء

---

(١) تاريخ ثغر عدن ابا مخرمة ص ١٥١ .

(٢) تاريخ اليمن السياسي ـــ محمد يحيى الحداد .

الائمة المتنازعين على الحكم تتكاثر الفتاوي حول هذا الامام او ذاك ايهما اوفى شروطا بالامامة ، وايهما اجدر بأن تسند اليه مقاليد الامور ، وفي اثناء ذلك تتأزم الامور وتضطرب الاحوال ، وتتصارع القوى منقسمة بين هذا الطرف او ذاك ، وينتج عن ذلك كله هلاك الزرع والضرع وفناء الجموع ، وخراب القرى والبلدان .

آثار الرسوليين :

وقد تميز العهد الرسولي — برغم كل الاضطرابات والخلافات — بعدة مظاهر عمرانية ، فمن آثار المجاهد الرسولي : بناؤه ثعبات (١) مع سورها وابتناء القصور الفريدة فيها ، وهو الذي بنى مدرسة في تعز وجعل فيها « خانقاه » للصوفية وابتنى جامعا في ثعبات وآخر في النويدرة بزبيد واضاف الزيادة الغربية في جامع عدينة بتعز ، وبنى مدرسة في دار العدل بتعز .

ومن آثار الافضل العباسي تجديده لسور زبيد وبناؤه مدرسة تعز في ناحية الجبل وفيها منارة لم يكن في البلاد مثلها وهي على ثلاثة اشكال او طبقات فالطبقة الاولى مربعة الشكل ، والطبقة الثانية مثلثة الشكل والطبقة الثالثة مسدسة الشكل كما بنى الافضل مدرسة بمكة قبالة الكعبة المعظمة .

ومن آثار الملك الاشرف الثاني اسماعيل بن العباس بن داود بناء جامع الاشرفية الاثري المعروف بتعز الى اليوم وهو الذي جدد بناء درب مدينة الجند وله غير تلك عدة اصلاحات . ومن الطريف ان الملك الاشرف الثاني هو اول من قام بتجربة زراعة الارز في اليمن ، زرعه بوادي زبيد قال الخزرجي (٢) .

« في شهر ربيع الاول يقصد من سنة ٨٠٠ هـ ضرب الارز من املاك الاشرف فوصلت الزفة الاولى منه مائتان وثمانون جملا ووصلت الزفة الثانية منه يوم الحادي والعشرين وهي نحو الاولى ووصلت الزفة الثالثة يوم السادس والعشرين وهي دون التي قبلها بكثير .

الوفود من اليمن واليها :

وفي خلال هذا القرن تمت لليمن وفود الى خارجها ، ففي سنة اربع وسبعمائة للهجرة بعث المؤيد الرسولي الامير اسد الدين محمد بن نور سفيرا الى الديار المصرية وتجهز ابن نور نحو مصر (٣) في اول شوال من نفس العام حاملا معه انواع التحف من المفضيات على اختلاف انواعها كالطشوت والاباريق

(١) الخزرجي ج ٢ ص ١٢٥ .

(٢) انظر العقود اللؤلؤية ج ٢ ص ٣٠٠ وانظر ايضا ص ٣١٨ .

(٣) العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٣٦١ .

والمجامر والاكر ، وسواري العود والصندل ، والقطع الكبار من العنبر ، ونوافج المسك وما عظم شأنه من الفخار الصيني ، ومن الخدام الحبش والقنا الهندي ، ومن المراتب والثياب المذهبية ، والاواني والاطباق والصناديق المملوءة بالمسك المفرغ والكافور ، والفلفل والقرنفل والزنجبيل ، ومن الوحوش كالفيل وحمار الوحش والزرافة ومن الخيل المسومة العربية الاصائل نقل ذلك مركبان عظيمان .

وفي ايام الاشرف الثاني وصل الى زبيد وفد من صاحب مصر (١) يحمل هدية جليلة فيها نحو ثلاثين من المماليك الاتراك ، ومن جياد الخيل اثني عشر رأسا ، وعدة جوار من الروميات والارمنيات وطبيب ماهر من يهود مصر ومن الملبوس والمشموم والمطعوم شيء كثير لا يدخل تحت حصر .

وقبل ذلك بحوالي عام (٢) استقبل الاشرف الرسولي الثاني كوجر شاه بن طغرخان سلطان دلهي على رأس وفد قادم من بلده وكان يحضر — اسوة بالوفود الاخرى مجالس القرآن — الختمة — التي كان يعقدها الاشرف ايام عيد النخل التي كانت تسمى « بالسبوت » . ومن الطريف ان طغرخان سلطان دلهي نازعه احد اخوته فقتله وقتل عددا من اولاده واستولى على الحكم ولجأ كوجر شاه رئيس الوفد الى اليمن حيث قضى فيها ايام حياته .

ومثل هذه الوفود — او ما كانت تسمى في ذلك العهد بالسفارات تكرر وصولها الى اليمن واتجه امثالها من اليمن ، وانما اوردنا منها هذه الامثلة القليلة على سبيل المثال لا الحصر .

اعلام هذا العصر :

وقد لمع في هذا العصر عدد من رجال الفقه والادب والتصوف والنحو ، فمن اعلام الادب في هذا العصر عبد الباقي بن عبد المجيد صاحب كتاب بهجة الزمن في تاريخ اليمن وقد جمع هذا الاديب بين التاريخ والشعر وسنعرض الوانا من نثره وشعره في الصفحات القادمة .

ومنهم الامام يحيى بن حمزه بن علي العلوي صاحب كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز وسنعرض له في مكانه من هذا الفصل .

ومن اعلام الشعراء في هذا العصر الاديب منصور بن عيسى بن سحبان وهو الشاعر الذي فضل شعر محمد بن حمير على شعر القاسم بن هتيمل في بيتيه المشهورين :

اما قصائد قاسم بن هتيمل	فمذاقها احلى من الصهباء
هو شاعر في عصره فطن ولكن	ابن حمير اشعر الشعراء

ومن شعراء هذا القرن المؤرخ اليمني الشيخ علي بن الحسن الخزرجي

(١) نفس المصدر .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٨٥ .

مؤلف كتاب العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسوايـــة وقد ذكرنـــاه في عداد شعراء هذا العصر — وان عاش الى اوائل القرن التاســـع — لأن كثيرا من قصائد قيلت في مدح ملوك بني رســـول في القرن الثامن . اما كتـــابه العقـــود اللؤلؤية فسنذكره او سنستعرضه في الفصل الذي نعقده حول الادب والثقافة في القرن التاسع .

ومن كبار شعراء هذا القرن الاديـــب عبد الله بن علي بن جعفر المتوفي عام ٧١٣ والذي له مجموعة من القصائد الجيدة في المؤيد الرسولي .

ومنهم الشريف ادريس بن عبد الله بن علي وكان ابوه اماما في حجه وقد هادنه المرئد الرسولي فكان له تابعا ولابنه ادريس عدة قصائد في المؤيد ، كما ان لادريس عدة مصنفات قيمة من اهمها كتاب كنز الاحبـــار في معرفة السير والاخبار وكانت وفاته عام ٧١٣ .

اما أعلام الفقـــه في هذا القرن فكثيرون لا يكاد يقع عليهم الحصر فمنهم ابو بكر بن محمد بن اسلم القراع اليافعي (١) كان اماما في النحو قرأ بمكة على الشهاب بن محمد بن عبد المعطي كتاب الجليل في علم الخليل تأليف ابن الحاجب ودروسا كثيرة من تسهيل ابن مالك والفيته ومن كتاب مغني اللبيب لابن هشام، واجازه الشهاب بن عبد المعطي اجازة مؤرخة بثاني عشر شوال عام ٧٨٦ .

ومنهم العلامة (٢) ابو العباس احمد بن علي بن عبد الله العامري الذي عرف بالمدرس لطول اقامته على التدريس بالمهجم وشهرته فيه كبيرة وكان قد تفقه على خاله اسماعيل بن محمد الحضرمي ، واخذ عن الامـــام احمد بن موسى العجيل . وهو من اكثر فقهاء تهامة تدريسا واكثرهم نشرا للعلم اخذ عنه جمع كبير وصنف عدة مصنفات منها شرح التنبيه شرحا اثنى عليه غالب الفقهاء .

ومن كبار اعلام الفقه والتصوف في هذا القرن عبد الله بن اسعد بن علي اليـــافعي (٣) ترجم له بامخرمة ترجمة ضافية وصفه فيها بأنه العـــالم العامل العابد الزاهد ، ولتلميذه احمد بن ابي بكرف بن سلامه كتاب خـــاص الفه فيه بعنوان المسلك الارشد في مناقب عبد الله بن اسعد .

وكان المترجم له قد تلقى العلم في عدن عـــلى يد الشيخ محمـــد بن احمد الذهيبي والبسه خرقة الصوفية في عدن الشيخ مسعود الجاوي وكان هـــذا العلامة يتنقل بين اليمن والحجاز ومصر وفلسطين وفي مكة استقر فترة طويلة .

وقد عكف على التصنيف والاقراء والاسماع ومن مصنفاته المرهـــم وروض الرياحين في حكايات الصالحين ، وذيل عليه بذيل يحتوي على مائتي حكاية وله كتاب نشر المحاسن ، وكتاب الارشاد والتعزيز ، والدرة المستحسنة في تكرار العمرة في السنة . وله قصيدة نحو ثلاثة آلاف بيت في العربية وغيرها وذكر انها تشتمل على قريب من عشرين علما ، وبعض هذه العلوم متداخل ، كالتصريف

---

(١) تاريخ ثغر عدن لبا مخرمة ص ٣٨ .

(٢) العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٤٣٩ .

(٣) تاريخ ثغر عدن ص ١١١ .

مع النحو ، والتوافي مع العروض ، ومن اشهر مؤلفاته كتاب مـرآة الجنـان وسنعرض له في موضعه حين نعرض لكبار المؤرخين في هذا القرن .

ومن شعره الصوفي هذه الابيات التائية التي يظهر انه قالها من قصيـدة يعارض فيها تائية ابن الفارض المشهورة ، قال عبد الله بن اسعد :

وعبد الهوى يمتاز من عبـد ربه لدى شهرة أو عند صـدم بلية
خلا من خلا قوم كرام تدرعـوا دروع الرضا والصبر في كل شدة
فلاقوا طعان النفس في معرك الهوى وراحوا وقد رووا مواضي الاسنة
وساقوا جياد المجد عند استباقهم وارخوا لها نحو العلى للأعنـة
مقامات قوم اتعبوا النفس والسرى فأضحوا ملوك الدهر فوق الاسرة

ومن شعره الصوفي ايضا :

كن عن همـوك معرضـا وكـل الامـور الى القضـا
فلربمـا اتسـع المضيـق وربمـا ضـاق الفضـا
ولرب امــر متعـب لـك في عواقبـه رضـا
الله يفعـل مـا يشـاء فـلا تكـن متعرضـا

ومن فقهاء صنعاء في هذا القرن (١) الحسن بن سابـق الدين بن يعيش عالم الزيدية في زمانه وشيخ شيوخهم ، كان يحضر حلقة تدريسه زهاء ثمانين عالما وله تحقيق واتقان لا سيما لعلم الفقه يفوق الوصف وله مصنفات منهـا في الفقه كتاب « التذكرة الفاخرة » اودعه من المسائل ما لا يحيط به انحصر مـع ايجاز وحسن تعبير وقد كان مدرس الزيدية وعمدتهم حتى اختصر المهدي احمد وجرد منه الازهار فمال الطلبة من حينئذ الى هذا المختصر وله تفسير وله تعليق على « اللمع » وكانت وفاته عام ٧٩١ .

ومنهم عبد الله بن الحسن اليماني الصعدي المعروف بسلطان العلماء ولد عام ٧١٥ وتوفي عام ٨٠٠ (٢) له تصانيف حافلة منها في الاصول شرح جوهرة الرصاص ، وله في الفروع الديباج النضر وهو كتاب حافل ممتع وكان الطلبـة للفنون العلمية يرحلون اليه ويتنافسون في الاخذ عنه . وليس لاحد من علماء عصره ما له من تلامذة .

فن التدريس :

كانت المدارس في هذا القرن اجنحة او اقساما متدرجة ـ غالبا ـ ضمن الجوامع وكانت لها اوقاف تنفق دخولها على الصرف على الايتام من الطلبة الذين لهم داخليات . وكان للصوفية اربطة خاصة كرباط الصوفية في زبيد وفي عدن وفي تعز وفي حضرموت وكانت الاجازة تعطي للطالب الذي يبلغ درجة ممتازة في المعارف وكانت الدروس التي تلقى موزعة على فنون مختلفة . وكان المدرسـون

(١) البدر الطالع ج ١ ص ٢١٠ .
(٢) نفس المصدر ص ٣٨٢ .

مختص كل واحد منهم بالفن او العلم الذي يتولى فيه نقل المعارف والمعلومات الى اذهان طلابه فهناك (١) مدرس للقرآن بالقراءات السبع ومحدث يشرح ويفسر الاحاديث النبوية ومدرس في الفقه على مذهب الامام الشافعي ومدرس في الفرائض — علم المواريث — كما تدرس علوم العربية من نحو وصرف وبيان وبديع وبلاغة ، كذلك يدرس علم الفلك والحساب والهندسة .

ومن النظم الذي اشتمل على صورة تصور احد الاحتفالات العلمية في عهد الاشرف الرسولي الثاني هذه الابيات التي اخترناها من منظومة مطولة للمؤرخ الخزرجي :

العلم عز وعز حامله	فتراه بعد الطي في نشر
وعصابة العلماء قاطبة	يدعون في سر وفي جهر
لما جمعتهم جميعهم	ونظمتهم كالسلك والدر
في جامع رحب الفناء فسيح	السوح لاضنك ولا وعر
وجمعت فيه العلم اجمعه	في المذهبين رفيعي القدر (٢)
والسبعة القراء كلهم	برواية المقرى عن المقرى
وكذا الفرائض والحديث	وعلم النحو والتصريف والشعر
وسطرتهم سطرا على سنن	اكرم بذاك السطر من سطر
وترى ابا العباس محتبيا	يروي حديث الطاهر الطهر
والناشري كأنه قمر	متباج ومعيده الفخرى
ويجنبه عبد اللطيف ومن	حوليه مثل الانجم الزهر
ولمقرىء القرآن تقدمة	ومحله في اول الذكر
ومعلم الصبيان ليس له	في البدو مثل لا ولا الحضر

الثقافة بوجه عام :

حين نراجع تراث القرن الثامن الادبي بقصد المقارنة بينه وبين التراث الادبي الذي قيل في القرنين السادس والسابع للهجرة ، نلاحظ الفارق كبيرا بين القرنين السالفين وهذا القرن من حيث الخلق والابداع .

فلم يحظ القرن السابع بشعراء في مستوى عمارة اليمني وابي بكر العندي والتكريتي من شعراء القرن السادس ولا في مستوى ابن هتيمل ومحمد بن حمير من شعراء القرن السابع فما سر هذا الركود في المواهب الفنية ؟

ان الذي لا ريب فيه ان هذا الهبوط في المستوى الادبي راجع الى اكثر من سبب . ومن اهم هذه الاسباب النكبات التي توالت على الامة العربية من جراء غزوات المغول او التتار ، اضافة الى الحملات الصليبية التي تحالف فيها

---

(١) العقود اللؤلؤية ج ٢ ص ٢٠٢ وص ٢١٨ .

(٢) يقصد بالمذهبين الشافعي والحنفي .

المغول مع الصليبيين لضرب الحضارة العربية الاسلامية في قسوة وعنف وفي جهالة وهمجية لم يعرف لهما التاريخ مثيلا وكل ذلك اثر على الادب لا في اليمن وحده وانما في سائر الاقطار العربية .

لقد استطاع هولاكو حفيد جنكيز خان ان يحتل بغداد من غير مقاومة وقتل المعتصم بالله بن المستنصر في يوم ١٤ من صفر عام ٦٥٦ وكانت الخلافة العباسية اذ ذاك قد وصلت الى الدرك الاوهد من مراحل الضعف ، وكان الخليفة المستعصم عاكفا على مباذله وكان ضعيف الشخصية فائل الرأي ، قليل الخبرة بشئون الحكم ، لذلك عندما عرف باقتراب المغول من مقر حكمه لم يحرك ساكنا بل اكتفى بقوله انا بغداد تكفيني ولا يستكثرونها — المغول — علي اذا ما نزلت لهم عن باقي البلاد .

واجتاح المغول بغداد وتركوا عمرانها حرائق واطلالا ، وقتل هولاكو المستعصم وقتل وزيره العلقمي الذي لا يقل عنه حطة وخيانة وضرب المغول في عين جالوت على يد الظاهر بيبرس ، ومات هولاكو وخلفه اخوه تكولار الذي كان اول من اسلم من المغول والذي بعث باسلامه الى محمد بن قلاوون صاحب مصر ، ودخل كثير من المغول مصر مسلمين بعد أن اصهر اليهم بن قلاوون ولكنهم وجهوا الضربة الى الامة العربية — مرة ثانية — في عهد تيمورلنك دخل بغداد عام ٩٧٥ ففعل بأهلها الافاعيل ثم اتجه الى الشام على النحو الذي تذكره من ظلمه وطغيانه مصادر التاريخ .

تلك كانت من اهم الاسباب التي ادت الى ركود الادب في هذه الفترة ، على انها فترة وان قل فيها الابداع الذني فانها قد حفلت بظاهرة الفن الموسوعي ظاهرة جمع نصوص التاريخ والادب .

ففي هذا القرن الف ابن عبد الباقي تاريخه بهجة الزمن ، وبدأ فيه الخزرجي كتابة تاريخ العقود اللؤلؤية[1] الذي اكمله في القرن التاسع وفيه الف اليافعي مرآة الجنان والف الامام يحيى بن حمزه — كما اسلفنا — كتابه الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وحقائق الاعجاز .

---

(1) العقود ج ٢ ص ٤٠٩

العفيف عبد الله بن جعفر :

هو الاديب الشاعر عبد الله بن علي بن جعفر كان كاتب الانشاء في دولة المؤيد الرسولي داود توفي عام ٧١٣ وكان معاصرا للمؤرخ علي بن الحسن الخزرجي (١) خالطه وعرفه معرفة شخصية .

ولم نعرف للعفيف عبد الله بن جعفر اخبارا الا في عهد المؤيد الرسولي الذي ولي الامر بعد اخيه الاشرف الثاني فهنأه العفيف بن جعفر بقصيدة دالية يقول فيها :

املك داعود ام ملك ابن داعود	ما ان يقاس بكنعان ونمرود
افي الرواق هزبز تحت غابته	ام الهزبز هزبز البأس والجود
بين السماء وبين الارض مزدحم	من القنا والظبى والشزب القود
ومن ذوائب رايات اذا رفعت	حسبتها طاردات بعد مطرود

الى ان يقول في هذه القصيدة :

ورثت دولة غسان كما ورثت	اباؤك الغلب من اجدادك الصيد
فالارض مشرقة والسحب مغدقة	والنبت ما بين مخضود ومنضود

ومن ابيات هذه القصيدة ما يشير الى ان اول تألق نجم العفيف بن جعفر كان في عهد المؤيد داعود الرسولي وذلك حين يقول :

واى مواعد من نعماك صادقة	ومنك نعرف انجاز المواعيد
كم انعم الله ايام الخليفة لي	قد كان اول مسقى بها عودى

وحين هاجم المؤيد الرسولي حصون الاشراف في اشيح وما حواليها كان حصن الميقاع لشريف جمال الدين علي بن عبد الله من بين الحصون التي هاجمها ، ولم يكن جمال الدين علي بن عبد الله موجودا فيه وانما كان ابنه

الشاعر المؤرخ ادريس بن علي موجود فيه ، وكاتب جمال الدين الاشراف يطلب نصرتهم له على المؤئد فلما عز ان يجد بينهم النصير قدم على المؤئد داعود طالبا المصالحة فاستقبله المؤئد احسن استقبال وتسلم منه حصني الميقاع وذيفان وفي ذلك يقول الشاعر العفيف عبد الله بن جعفر هذه القصيدة التي نختار منها :

ارث الخلافة في يديك مشاع ... وغرار سيفك شاهد قطاع
تبغ التبابع في عناصر حمير ... والى المناقب هم له اتباع
عمرو وعمرو ذو الجناح ومنذر ... والايهمان وفائش وكلاع
اسرى الى الشرق القصى بشزب ... خطواتها نحو المغار سراع
والشمس من لمع الحديد كليلة ... والجو من سمر اليراع يراع
وفيالق سالت هوادي خيلها ... سيل الأتي تداولته تلاع
تسري فمن زرق الاسنة فوقها ... نار ومن اسل الوشيج شعاع
غسلت مياه سيوفها ماء الدجى ... فتشابه الاصباح والاهزاع

وحين تقدم ركاب المؤئد داعود الى عدن في اواخر القرن السابع عيد فيها عيد النحر (١) وكان السماط في حقات على شاطىء البحر وفيها القى الشاعر العفيف بن جعفر قصيدته اللامية التي يقول فيها :

اعلمت ما قاد الجبال خيولا ... وافاض من لمع السيوف سيولا
واماج بحرا من دلاص زاخر ... جرت اسود الغاب منه ذيولا
ومن القسي اهلة ما ينقضي ... منعا الخضاب من النصول نصولا
وتزاحمت سمر القنا فتعانقت ... قربا كما يلقى الخليل خليلا
فالغيث لا يلقى الطريق الى الثرى ... والريح منه لا يطيق دخولا
سحب سرت فيها السيوف بوارقا ... وتجاوبت فيه الرعود صهيلا
طلعت اسنتها نجوما في السما ... فتبادرت عنها النجوم افولا
تركت ديار الملحدين طلولا ... مما يثج بها دما مطلولا
فالارض ترجف تحتها من افكل ... والجو يحسب شلوه مأكولا
حطمت جحافلها الجحافل حطمة ... تدع الحمام مع القتيل قتيلا
طلبوا الفرار فمد اشطان القنا ... فاعاد معقلهم به معقولا
اين الفرار ولا فرار وبعدهم ... من ليس يترك للفرار سبيلا
ملك اذا هاجت هوائج بأسه ... ترك العزيز من الملوك ذليلا
يقفو المظفر والشهيد مآثرا ... وعلى وفخرا في الملوك اثيلا
وافى الى عدن كمقدم جده ... سيف بن ذي يزن الكريم اصولا
بحرا الى بحر يسير بمثله ... والبحر احقر ان يكون مثيلا
فتطايرت امواج لجته الى ... عيذاب ينذر دجلة والنيلا
واستقبلت عدن جبينك والتقت ... بالثغر منه ركابكم تقبيلا
اهزيز غسان بن قحطان الذي ... يدعوه في النسب القبيل قبيلا
في كل يوم لا برحت مقابلا ... فتحا من الملك الجليل جليلا

---

(١) العقود ج ١، ص ٢١٩ .

في حيث ما رفعت بنودك نزلت آيات نصرك فوقها تنزيلا
لولا العوائق والعلائق لم اغب عن ظل بابك بكرة واصيلا
لازال توفيق الاله مقارنا لك حيث كنت اقامة ورحيلا

ومن المؤسف ان لا نجد بين ايدينا من شعر العفيف عبد الله بن جعفر الا هذه القصائد او المقاطع القليلة التي اوردها المؤرخون امثال الخزرجي في العقود اللؤلؤية وبامخرمة في تاريخ ثغر عدن ، وقد اسلفنا القول ان نجم العفيف بن جعفر لم يلمع الا في عهد المؤيد داءود الرسولي وحده حين تولى الكتابة في ديوان الانشاء ولكن شعر ابن جعفر في المؤيد يدل على ملكة اصيلة في البيان ، وعلى مقدرة ممتازة في اسلوب التعبير وتملك ناصية اللغة ففي شعره ملامح فنية تدل على براعة في تذليل القوافي ، وحسن اداء المعاني وافتتان في استعمال ادوات البلاغة من مطابقة ومقابلة وتقديم وتأخير ورد الصدور على الاعجاز في عفوية ليس فيها كلفة ولا اعنات طبع .

فمن أمثلة هذا الشعر القوي الاسر المتين السبك هذه القصيدة الرائية التي قالها العفيف عبد الله بن جعفر حين توجه المؤيد داءود الرسولي من تعز الى زبيد بغية اخماد ثورة بعض القبائل المتمردة وكثيرا ما كان بعض اهل تهامة يتمردون وبخاصة منهم المعازبة — ولعلهم الزرانيق — وقد استقبل ابن جعفر المؤيد الرسولي بعيد عام ٧٠٠ بهذه القصيدة الرائية التي نختار منها قوله :

لو كان يقدر ان يكون الزائرا لك سردد لمشى اليك مبادرا
منع الجماد جموده ان يعتري عتبات بابك وارداً او صادرا
وتمرغت ارض على الارض التي فيها مقامك أوجها ومحاجرا
شرفت مهجم سردد فتشرفست ورفعتها فوق النجوم مفاخرا
اوردتها رجراجة «جفنية» (١) خضراء طلميه لقبض عساكرا
بحر اذا ما الريح سارت فوقه جعلت لمسلكها البنود قناطرا
شرعت صدور الخيل في حافاته حتى حسبت الفلك فيه مواخرا
اذكرته مغدى ابيك لمكة وانابه منه فأصبح ذاكرا
عجبا لحلمك في الخلائق عادلا ولحكم كفك في الخزائن خاطرا
ولحد سيفك اين غاية حده اذ ليس يبرح في الرقاب مسافرا
نار بقبضة راحة فياضة كالبرق يصطحب الغمام الماطرا
ثبتت اصول الملك بين بيوتكم فسقيتموها سؤددا ومآثرا
فحكت اواخركم بذاك اوئلا وحكت اوائلا بذاك اواخرا

وفي عام ١٧٠١ أحرز المؤيد داءود الرسولي انتصارا مؤقتا في اعالي اليمن وفي دثينة .

فبعد موت الامام مطهر بن يحيى اسرع المؤيد الى صنعاء فاحتل ظفار وعدة حصون واتجه الى صعدة فنازل الشريف سليمان بن قاسم واضطره الى

(١) نسبة الى جفنة من غسان قال حسان في جبلة بن الايهم :
اولاد جفنة حول قبر ابيهم قبر ابن مادية الكريم المفضل

تسليم حصونه ومواقعه الاستراتيجية ودفع له مبلغا من المال قدره خمسون الف دينار بعد ان اخذ منه الرهائن ، وعيد المؤيد عيد الاضحى في حصن « ورور » بأعالي الجبال وبعثت اليه قصائد التهنئة بهذه المناسبة ومن بينها قصيدة بن جعفر التي نكتفي منها بقوله في العاطفة :

علت بمهجته النوى افعالها	اما حدت تلك الحداة جمالها
متحملا ثقل الهوى لما راى	عيس الاحبة حملت اثقالها

وفي عام ٧٠٢ اسند المؤيد ولاية الحج الى الشاعر الاديب المؤرخ عماد الدين ادريس بن علي لاخماد انتفاضة في الصعيد من جنوب اليمن ، وكانت قبائل هذه المنطقة كثيراً ما تنتفض على الرسوليين منذ بداية حكمهم وعاد ادريس قرب عيد الاضحى الذي احتفل فيه بانتصاراته المؤيد داعود ومن بين القصائد التي القيت بهذه المناسبة قصيدة العفيف بن جعفر النونية المطولة التي نختار منها هذه الابيات المقدمة العاطفية :

اثمار هذا القضيب الرطب الوان	كرم وطلع وتفاح ورمان
ظبي مباسمه در وريقته	خمر وانفاسه روح وريحان
اهكذا الفضة البيضاء قد نبتت	غصن وزهر بها في الخد عقيان
قد اضرم الحسن في امواج وجنته	نارا لها مهج الاكباد قربان
عجبت اذا نبت المرجان في فمه	وقبلها لم يكن في العذب مرجان
تصوير شخصك في عيني ممتنع	ان يلتقي لي فوق النوم اجفان
هذه دموعي بوجدي فيك شاهدة	يتبيك بالشان ما يجري به الشان (١)
ما اختص ناظرك الساجي لأنفسنا	بفتنة كل شيء منك فتان
لا تمش بالصب في طرق الهوى مرحا	واقصد كما قال في فحواه لقمان
اتستبيح جهارا قتل انفسنا	والارض فيها هزبر الدين سلطان

وبعد هذا التخلص البارع الذي خلص به ابن جعفر من الغزل الى المدح على طريقة القدماء اشار الى المعارك التي دارت في اعالي اليمن بين المؤيد والائمة المتنازعين على الحكم ، واومأ الى حصن ظفار قرب صنعاء الذي ضربته قوات المؤيد بالمنجنيق :

كأنما الشهب من ظلمائه قنص	تخطفته من الرايات عقبان
كأن حصن ظفار تحت لجتها	من الهلاك ابن نوح وهي طوفان
حتى تظنوا بأن الارض قد طويت	وان موضعها خيل وفرسان
يمدها من دواهي الارض مأثلة	فمخضت بحجار وهي عيدان
مطاعة كلما نادت برفع يد	تبادرت نحوها دور وحيطان
حتى اذا طحنتهم تحت كلكلها	شهباء منها تطيش الانس والجان
تشفعوا بكتاب الله وارتفعت	امامه صحف فيهن قرآن
فرد عنهم حياء من كرامتها	زاكي الاصول كريم الخيم يقظان
ومن داود في الاسرى واطلقهم	جودا وان هزبر الدين منان

(١) الشئون الدموع ومفردها شأن وفي البيت جناس تام .

وكان حصن وصاب من امنع الحصون في اليمن واعلاها ارتفاعا وقد تغلب عليه ابن اصهب الذي توجه المؤيد لافتتاحه في عـام ٧٠٦ فأذعـن ابن اصهب واستسلم وعاد المؤيد الى زبيد وهنأه الشعراء بقصائدهم ومن جملتهم العفيف بن جعفر وفي قصيدة ابن جعفر هذه صورة للحروب الداخلية التي كانت تمزق وحدة اليمن وتسلبها الامن والطمأنينة :

ترك الجبال الشم قاعا صفصفا … من وعده ووعيـده مـا اخلفـا
متقاضيا ميراثــه مستشهـــدا … صم العوالي والصفيـح المرهفا
جمع الجيوش الى المغار ولو اتى … للحرب قبل جيوشه فردا كفـى
داب المؤيد ان يسـل عـلى العدا … سيفا وداب رقابهـا ان تقطفـا
لا تقدر الايـام ترفـو خرقـــه … ابدا ولا الايام تخـرق مارفـا
العاقد الرايات لم يك زاجـــرا … طيرا بمسرحهـا ولا متعفيـا
بحبائس للحرب لسن خوانـــا … تمسي وتصبح في المراكـز عكفا
قامت عقاب المنجنيق وراءهـــا … فأشـار محتكمـا بأن تتوقفـا
جمعت جناحيهـا ومدت عنقهـا … للسير في اثر الخميس لتزحفـا
نوء يجلجل من زبيـد رعـــده … الساري فصاب وصاب غيثا أو كفا
حتى اذا ما السيف بالغ خطـوه … فيها وحثحثه السبـاق فأوجفـا
وجرت سيول من دم لو انهـــا … ماء لكـان ربيعهـم والصيفـا
ورأوا من النيران حـول قلاعهم … عدد الكواكب في السماء ونيفـا
فتوجسـوا ان الطبـــول زلازل … كادت بهم وبطودهم ان تخسفـا
هربوا اليه منه فاعتصموا بـــه … ولكم اجـار الهارب المتخوفـا

وهي قصيدة مطولة اكتفينا منها بهذه الابيات ووصف القصور من الفنون التي امتلأت بها دواوين الشعر العربي وخاصة في الشعر الاندلسي ، والعفيف ابن جعفر قصيدة ميمية في وصف القصر الذي ابتناه المؤيـد في ثعبات وسمـاه بالمعقلي لقد اكتمل بناؤه في سبع سنين (١) وكـان فيه مجلس طولـه خمسة وعشرون ذراعا في عرض عشرين ذراعا بسقفين مذهبين بغير اعمدة له اربعة مناظر ليس فيها الا رخام وذهب ، وامامه بركة طولها مائـة ذراع في عـرض خمسين ذراعا على حافاتها طيور ووحوش من صفر ترمي الماء من افواهها ، وفي وسط البركة فوارة ترمي الماء الى اعلى فيبلغ مدا بعيدا ، وقباله شاذروان بعيد المدى يصب ماؤه الى البركة المذكورة وفيـه شبابيك تفضي الى بستـان عجيب المنظر .

وقصيدة العفيف بن جعفر في وصف هذا القصر متكلفة ويظهر انه لا يحسن وصف القصور كما يحسن وصف الحروب ، وآية ذلك ان القصيدة التي قالها عبد الباقي بن عبد المجيد في وصف هذا القصر اجود منها ، ونكتفي من قصيدة العفيف بن جعفر بهذه الابيات :

---

(١) العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٢٧٧ .

هنيت قصرا على كل القصور سما — يا حبذا برج سعد فيه بدر سما
بنيته مستجدا تستجد بـه — نصرا من الله قد اجرى به القلما
بين الحدائق والاعناب قد نشرت — منه ثياب تلف الوهد والاكما
كأنما عاد غمدان كمبدئه — واظهر الله من استاره ارما
بين الشبيهين شاذروان قبلته — هما الجناحان وهو القصر بينهما
الى سواقي رخام فوق فسقيه — تعاجب لجامد ماء فيه ذائب ما
والخورنق حين المعقلي بدا — كمثل ضد اذا قابلته انهزما

وفي عام ٧١٢ مات الحسن بن المؤيد داود فعزاه العفيف بن جعفر بقصيدة يقول فيها :

امولى الملوك وسلطانها — ويا من له طاعة تفترض
فلا ملك ناقض عقده — ولا ملك عاقد ما نقض
ولا عوض منك في ذا السورى — وكل الورى انت منهم عوض

ولم يعش ابن جعفر بعد هذه المرثية الا عاما واحدا فقد قضى نحبه في عام ٧١٣ ، ويقول الخزرجي ان للشاعر ابن جعفر شعرا كثيرا قاله في الامراء والحكام وله قصائد في التصوف وله مدائح كثيرة في الرسول الاعظم عليه السلام .

عماد الدين الشريف ادريس بن علي :

هو الشاعر والمؤرخ والقائد الذي ابلى احسن البلاء مناصرا للمؤيد الرسولي في الحروب التي خاضها مع الاطراف الثائرة عليه في شمال اليمن اليمن وجنوبها .

كان ابوه الامير جمال الدين بن علي متغلبا على حصن الميقاع في اشيح الذي حاصره المؤيد وكان فيه شاعرنا قائما بأعمال ابيه الذي كان خارج الحصن بغية استنفار الاشراف في صعدة وما حواليها لاعانته على حرب الرسوليين ولم تنجح محاولات الاب في هذا الامر فوصل الاب والابن الى المؤيد معلنين طاعتهما واسلماه حصني ذيفان والميقاع واستقبلهما المؤيد احسن الاستقبال وجعلهما نائبيه على الحصنين وخلع عليهما الخلع وحمل اليهما من الاموال والكسى الشيء الكثير .

ولما مات والده كتب الى المؤيد يطلب الوصول الى تعز وجاءه الجواب بالرغبة في الحضور فقدم وعيّنه المؤيد مقدما على كافة الامراء ووجوه الدولة وامر له بسبعة آلاف دينار وتحف وملابس وخيل ومماليك وعقد له الاعلام .

وازدادت ثقة المؤيد به فانتدبه واليا على لحج ووكل اليه امر اخماد الانتفاضات التي قامت ضده ـ ضد المؤيد ـ في دثينة والصعيد كما انتدبه مرات لاخماد الانتفاضات التي حدثت في اعالي الجبال وفي تهامة وغيرها من المناطق .

وقد امتاز عماد الدين ادريس بن علي بالثقافة الواسعة والمعارف الجمة ولا سيما في علم التاريخ الذي صنف فيه اكثر من كتاب كما اسلفنا ، ومن شعره هذه القصيدة التي قالها في المؤيد الرسولي داوود وفيها يخاطب ابناء عمه في اعالي الجبال مشيرا الى المكانة العظيمة التي نالها لدى المؤيد منذ نزل في رحابه :

عوجا على الربع من سلمى بذي قار ... واستوقفا العيس لي في ساحة الدار
وسائلاها عسى تنبئكما خبرا ... يشفي فؤادي ويقضي بعض اوطاري

وفيها يقول موجها الخطاب الى ابناء عمه :

يا راكبا بلغن عني بني حسن ... وخص حمزه منهم عصمة الدار
ان المؤيد اسماني وقربني ... واختارني وهو حقا خير مختار
اعطى وامطى واسدى كل عارفة ... يقصر الشكر عنها اي اقصار
واختصني بولاء منه فزت به ... فأصبح الزند منه ايما واري
فلست أخشى لريب الدهر من حدث ... ولا ابالي بأهوال واخطار
الاروع الاغلب الغلاب والاسد ... الليث الهصور الهزبر الضيغم الضاري
بمن اذا خفقت راياته خضعت ... له الملوك وخافت حكمة الجاري
وقابلته بمن تهواه باذله ... ما يرتضي من اقاليم وامصار

وفي عام ٧٠٣ هـ وصل الامير بدر الدين مكتوب (١) سفيرا — اي رئيس وفد — من الديار المصرية الى اليمن يخبر بانتصار المسلمين على عسكر التتار « بمرج الصفر » وكان عدد القتلى — من التتار — في الوقعة المذكورة يومئذ مائة الف قتيل فاحتفل المؤيد بالرسول الوارد اليه بكتاب النصر ، وفي هذه المناسبة انشد ادريس بن علي قصيدته التي يقول فيها :

لم تأتك الرسل من مصر وساكنها ... الا مؤدية حقا لكم يجب
وحين لاحت قصور الحصن لاح لهم ... من نور وجهك ما لا تستر الحجب
واستقبل العسكر المنصور فانصدعت ... قلوبهم فهي في اجوافهم تجب
كتائب مثل ضوء الشمس قسطلها ... غيم فساروا بليل والقنا شهب
خفت بهم فرأوا اسدا ضراغمة ... عاداتهم في الورى ان غالبوا غلبوا

وفي احدى المواقع التي خاضها ادريس بن علي في دثينة مع القبائل الثائرة قتل الى جانبه ابن عمه الشريف علي بن محمد الابرص وفي ذلك يقول ادريس :

ولو لم تخني عند صنوى كبوة ... من الاحمر الخناس ما فات مطلب
ولكن خرصان الرماح تشاجرت ... هنالك حتى كاد يودي ويعطب
فقد صرعت حوليه سبعون اغلبا ... تهاداهم في القفر ذئب وثعلب

وفي اول العشر من ذي الحجة عام ٧١٨ انشد ادريس بن علي قصيدته الرائية امام المؤيد الرسولي مهنئا وفيها يقول :

تهنى بك العشر الكريمة والشهر ... وتزهو بك الايام والملك والدهر

---

(١) العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٣٤٩ .

سمت «ثعبات» فوق كيوان رتبة | وطالبت على الافاق وابتهج القصر
واشرق نور « المعقلي » كأنمـــا | تبدي لنا من بين اركانه الفجـــر
وقد كان ظن الهجر اما رحلتـــم | ورام امطبارا وهو ليس له صبر
فلما اتت منكم بشائـــر حجـــة | وما فعلت فيها صوارمـــك البتر
زها حينما حل ابن جفنـــة صدره | ولا غروان يزهو بك الدست والصدر

شائق الدين يوسف بن محمد العنسي :

لم نعثر له فيما بين ايدينا من المصادر على ترجمة ولا على تاريخ ميـــلاد او وفاة ولكن الخزرجي في العقود اللؤلؤية (١) روي له قصيدتين اولاهمـــا في المؤيد الرسولي التي هنأه بها حين ولي الامر بعد اخيه الاشرف الاول وفيهـــا يقول :

القوس موترة في كف باريهـــا | فليعلم الناس قاصيها ودانيهـــا
وليلبس الكل منهم درع مسكنـــه | كي يصبحوا في امان من مراميها
وكل نعمة قوم من ندى ملـــك | البغي سالبها والذل كاسيهـــا
ان الخلافة ما قرت ولا هـــدأت | حتى رمت نفسهـــا في كف حاميها
اضحت محجلة الايام مذ وقعت | في كف داعودها غرا لياليهـــا
بلاد غسان ما انفكت دعائمهـــا | لما اتت من معاليـــه معاليهـــا

والقصيدة الثانية قالها حين عيد المؤيد عيد النحر في اعالي اليمن بعيـــد انتصاره الذي اسلفنا ذكره ـــ وفيها يقول :

الملك ليس تنام منـــه عيـــون | حتى تسيل من الدمـــاء عـــيون
لولاد ادالتك المصـــون من العدا | ما بات وجه الدهر وهو مصون
ضمنت لك الملك السيوف وكل ما | ضمن السيـــوف فانه مضمـــون
وافيتـــه بكتائـــب اعلامهـــــا | النصر والتأييـــد والتمكـــين
من كل ارعـــن مكفهـــر اصبحت | منه سهـــول الارض وهي حزون
لو شئت تورد بعضه سيعون ما | ارواه سيعـــون ولا جيحـــون
كم نقع ليل قد دجـــا من ركضـــه | اجلاه سرد دلاصـــه الموضـــون
ضاقت لكثرته البسيطـــة كلهـــا | فمقامها في الشرق اين يكـــون
اظهرت بالجيش العرمرم كلمـــا | اخفت ظهور منهـــم وبطـــون

عبد الباقي عبد المجيـــد :

عاش هذا الاديب المؤرخ الشاعر حياة كلها قلق واضطراب وعدم استقرار ولكنها رغم ذلك حياة انتجت ادبا رفيعا وفنا خصيبا فالى جانب شعـــره الف

(١) العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٣٠٠ .

في التاريخ كتابه بهجة الزمن في تاريخ اليمن والف عددا من المصنفات منها « تاريخ النحاة » و « مطرب السمع في حديث ام زرع » و «لقطة العجلان في تذليل تاريخ ابن خلكان » و « مختار الصحاح في اللغة للجوهري » ولم تبق يد الزمن من آثاره الكاملة الا كتاب « بهجة الزمن » الذي اورده النويري كاملا في الجزء الثاني والثلاثين من كتاب « نهاية الارب في فنون الادب » .

عاش ابن عبد الباقي قسما من حياته في اليمن واقساما من حياته في الشام ومصر ، وكان اول وصول له الى اليمن من مكة — مسقط رأسه — حين عبر بعدن واجتازها الى تعز يريد ان يكون كاتب الانشاء ويقول الخزرجي (٢) ان معارضات قد حصلت من اجل حصوله على هذه الوظيفة فاضطر الى الرحيل الى الديار المصرية مستشهدا بقول الشاعر :

ايا ماء العذيب وانت عذب تعرض دونك الماء الوخيم

وقد عاش ابن عبد المجيد القرن الثامن للهجرة وهو عصر الموسوعات العلمية والادبية وتسجيل الفنون الديوانية ، وحظي كتابه بهجة الزمن باهتمام معاصريه فضمن شهاب الدين النويري هذا الكتاب موسوعته المسماة نهاية الارب في فنون الادب » حيث ضم النويري الكتاب باكمله في الجزء الثاني والثلاثين من موسوعته المشار اليها .

وما بين أيدينا من شعر عبد الباقي عبد المجيد لا يعدو بضع قصائد قالها في المؤيد الرسولي وهي في مجموعها قصائد تدل على ملكة شعرية راسخة تقف شاعرنا في مصاف شعراء القرن الثامن في سائر اقطار الوطن العربي .

فمن شعره المشهور قصيدته التائية التي قالها في المؤيد الرسولي والتي وصف بها قصر المعقلي الذي بناه المؤيد في ثعبات والتي يقول فيها :

دع رامة الوادي ودع سمراتها واترك بيوت الشعر في ابياتها
وانحظ منازل آل جفنة في العلى من ارض صالتها الى ثعباتها

وسنلاحظ من هذا البيت ان كثيرا من المناطق اليمنية لا تزال تحمل اسماءها من اقدم الازمنة الى اليوم فقصر المؤيد الرسولي المعقلي الذي ابتناه المؤيد الرسولي في صالة هو في نفس الموضع الذي ابتنى فيه الامام احمد قصر صالة في ثعبات — تعز — ثم يستمر شاعرنا في وصف هذا القصر وما حواليه من قصور وصفا لا نجده في مثل قصيدة العفيف عبد الله بن جعفر الميمية التي اشرنا اليها في الصفحات السابقة قال عبد الباقي :

تجد القصور الشامخات على السها شرفا تريك العز في شرفاتها

وبعد ان يجانس الشاعر بين لفظ شرف وشرفات في هذا البيت يقول :

تلك الجنان اما ترى انهارها قد اعربت بالطيب عن ثمراتها
تجلى زواهرها ويشرق زهرها فكأنها الاقمار في هالاتها
مثل المجرة في انتظام قصورها اين المجرة من نما زهراتها
برزت بها الاغصان شبه عرائس نظمت عقود الدر في آياتها

(٢) العقود اللؤلؤية ج ١١٠ ص ٣٦٢ .

ثم يجانس الشاعر بين العود الذي يقف عليه ساجع الطير والعود الذي يعزف عليه الفنان وذلك حين يقول :

في كل عود من سواجع طيرها — عود يريك اللحن من نغماتها
فخرت بها ثعبات امصار الورى — بجميل منظرها وجل صفاتها
فاذا بها الطاووس فرق ريشه — فشياته في الحسن مثل شياتها
ما شعب بوان وغوطة جلق — يوما بأزهى من بهـا غوطاتها
بنيانها من عسجد ومياهها — من فضة تجري على حافاتها
به شيد المعقلي فكم به — من صنعة فخرت بحسن بناتها
قصر يقصر عن لحاق كما له — باهي النجوم اذا سمت بسماتها
هذه المنازل لا منازل غيرها — في حسنها الباهي وفي حسناتها

ثم يخلص من هذا الوصف الى مدح المؤيد الرسولي فيقول :

فلكبه الملك المؤيد طالع — كالشمس كاشفة دجى ظلماتها
متعود بذل النوال لقاصد — والنفس جارية على عاداتها
ايامه للقاصدين مواسم — وبواسم عن فضلها وهباتها
ملك له في العلم او في غاية — اربت على الاملاك في غاياتها
حازت مناقبه شتات فضائل — فلذاك اضحى جامعا لشتاتها
تلقى اعاديه كتائب جيشه — والنصر معقود على راياتها
ايامه مخلوقة لهباته — مقصورة ابدا على لذاتها

وقبل ان ننتقل من هذه القصيدة الى قصيدة أخرى لهذا الاديب المؤرخ الشاعر ، نرى لزاما علينا ان نقف امام كثير من النصوص المتعارضة التي دارت حول قدوم عبد الباقي الى اليمن . لقد ذكرت المصادر انه قدم مرة الى اليمن وانه اخفق في الحصول على عمل في ديوان الانشاء فاضطر الى الرحيل الى مصر ، ثم الى الشام حيث باشر هناك مهنة التدريس ، ثم استقدمه المؤيد الرسولي الى تعز واسند اليه وظيفة الكتابة في ديوان الانشاء ، وظل في ايام المؤيد منظورا اليه بعين الرعاية حتى اذا كانت ايام المجاهد الرسولي تعرض عبد الباقي عبد المجيد للمصادرة واتهم بمساندته للظاهر بن المنصور الذي ثار على المؤيد وسجنه واستولى على عدن واستوزر ابن عبد الباقي فيما هو الا ان عاد المجاهد الى الحكم بعد ان أخمد انتفاضة الظاهر بن المنصور وسجنه وصادر اموال ابن عبد المجيد وتتبعه بغية القاء القبض عليه ولكنه فر الى مكة ومنها الى مصر فالشام جريا على عادته في النقل السريعة .

على ان كتاب العقود اللؤلؤية للخزرجي يذكر في حوادث عام ٧٠٤ هـ وصول عبد الباقي الى تعز عن طريق ثغر عدن يطلب الوظيفة في ديوان الانشاء ثم يذكر توجهه — بعد اخفاقه — الى الديار المصرية وكان عمره يومئذ ثلاثة وعشرين عاما .

ويورد الخزرجي في حوادث عام ٧٠٨ للهجرة قصيدة عبد الباقي السابقة في وصف قصور صالة وثعبات ، وذلك قبل ان يذكر امر استقدام المؤيد لشاعرنا

في عام ٧١٧ وتوليته كتابة الانشاء ، ومن هذه النصوص الثلاثة نفهم ان المؤرخ الشاعر ابن عبد المجيد قد قدم الى اليمن ثلاث مرات الاولى هي التي بارحها سريعا بعد ان فشل في الحصول على عمل ، والثانية هي التي انشد فيها قصيدته التائية الانفة الذكر ، والثالثة هي التي استقدمه فيها المؤيد ليوليه ديوان الانشاء ، والتي تعرض فيها لمحنة المصادرة والفرار بجلده من غضبة المجاهد الرسولي ولم يعد بعدها الى اليمن حيث قضى نحبه في حدود عام ٧٤٣ .

اما القصيدة الثانية التي اوردها الخزرجي لشاعرنا فهي نونيته التي انشدها المؤيد وهو في ايوانه بقصر الحائط المعروف بحائط لبيق في احدى نواحي زبيد وقد استهلها بأبيات قليلة في الغزل حيث يقول :

يا ناظم الشعر في نعم ونعمان ... وذاكر العهد في لبنى ولبنان
ومعمل الفكر في ليلى وليلتها ... بالسفح من عقدات الضال والبان
قصر فبالواد من وادي زبيد علا ... عالي المنار عظيم القدر والشان
به التغزل احلى ما يرى لهجا ... فدع حديث لييلات بعسفان

ثم يفضي من ذاك الى وصف هذا القصر المشيد في ارض زبيد والذي يرى فيه عبد الباقي عملا فنيا يضاهي قصر الخورنق والسدير الذي بناهما النعمان بن المنذر في العراق بل هو يضاهي ايوان كسرى :

هذا الخورنق بل هذا السدير اتى ... في قصر داوود لا في قصر غمدان
قصر بناه هزبز الدين مفتخرا ... فشاد ذلك بان ايما بان
فقف بساحته تنظر بها عجبا ... كم راحة هطلت فيها باحسان
انسى بايوانه كسرى فلا خبر ... من بعد ذلك عن كسرى بايوان
سامي النجوم علاء فهي راجعة ... عن السمو لأيوان ابن غسان
تود فيه الثريا لو بدت سرجا ... مثل الثريا به في بعض اركان
تحفه دوح زهر كله عجب ... كم فيه من فنن زاه بافنان
من ابيض يقق حال باحمره ... يميس في حلتي در ومرجان
تجمعت فيه الوان محيرة ... للعقل في سرها الزاهي باعلان
فالسنبل الغض والورد الطري معا ... من اخضر ناصع او احمر قان
صنوان حطن به من كل فاكهة ... وكم راى مجتليه غير صنوان
ظل ظليل وماء سلسل غدق ... تخاله من صفاء بطن ثعبان
هذا وكم فيه من ورقاء صادحة ... يغنيك عود لها عن ضرب عيدان
كأنهن قيان والقصور لها ... في ذلك الدست اوراق لاغصان
تهوى الغزالة لو اضحت مقبلة ... منه مراشف انهار لنيسان
وكيف يمكنها والدوح منعقد ... فحالة الشمس فيه حال ظمان
فارضه كسماء منه مشرقة ... وها هما في بديع الوصف شبهان

وبعد أن يفيض شاعرنا في وصف هذا القصر افاضة طويلة يخلص الى وصف موكب المؤيد الرسولي الحافل بمظاهر الابهة وعظمة الملك فهو يقدم صورة رائعة لدقة النظام العسكري المتمثل في سلاح الفرسان والمشاة ، وفرقة

الصيد والقنص التي يتضمنها ذلك المركب قال شاعرنا :

لله موكبه الزاهـي برونقـه	لما استقـل بفرسان وشـجعـان
مثل البحـور ولكن في أكفهـم	قواضي تتلألأ مثـل نـيران
من كل اشهب صافي الجسم تنظره	في الحربنجما هوىفي اثر شيطان
بكل احمـر زاه في ملابسـه	يختـال من لونها في نسج عقيان
اذا مشوا في صباح عاد من رهج	ليلا كواكبه اطراف خرصـان
على الاكف شواهين لهالكهـم	وهمها صيد نسر فوق كيـوان
كالصبح في اخريات الليل هبتهـا	والنرجس الغضمنها وسط اجفان
ما سار مالك هذا الجمع مقتنصا	الا انثنى ظافرا في ثوب جـذلان

من مؤلفات هذا العصر :

الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز

اجمع العلماء المختصون في شئون اللغة على ان الامام الشيخ عبد القاهر الجرجاني هو مؤسس علمي البلاغة ومقيم ركنيها المعاني والبيان (١) بكتابيه « اسرار البلاغة » و « دلائل الاعجاز » وان السكاكي ومن دونه من علماء هذا الشأن عيال عليه .

وعبد القاهر الجرجاني من علماء القرن الخامس توفي عام احدى وسبعين واربع مائة ، قال السبكي ومن مصنفاته (٢) كتاب المغني على شرح الايضاح في نحو ثلاثين مجلدا وكتاب المقصد في شرح الايضاح ثلاثة مجلـدات وكتـاب اعجاز القرآن الصغير والعوامل المائة والمفتاح ، وشرح الفاتحـة ، والعمدة في التصريف وكتاب الجمل المختصر المشهور .

وقد كتب قبل عبد القاهر (٣) بعض العلماء كالجاحظ وابن دريد وقدامة الكاتب ولكنهم لم يبلغوا فيما بنوه ان جعلوه فنا مرنوع القواعد مفتح الابواب كما فعل عبد القاهر من بعدهم فهو واضع علم البلاغة كما صرح به بعض علمائها وان لم يذكر له هذه المنقبة المؤرخون الذين راينا ترجمته في كتبهم حتى ان ابن خلدون الذي تصدى دون القوم للالمام بتاريخ الفنون اهمل ذكره وزعم ان الذي هذب هذا الفن بعد اولئك الذين كتبوا في مسائل متفرقة منه هو السكاكي ، وما كان السكاكي الا عيالا على عبد القاهر تلا تلوه واخذ عنه مع المخالفة في شيء من الترتيب والتبويب ، ولكنه لم يسلم من التكلف في بعض عباراتـه والتعقيـد في بعض منازعه .

---

(١) مقدمة كتاب دلائل الاعجاز لمحمد رشيد رضا الطبعة الاولى عام ١٣٢١ هـ .

(٢) مقدمة كتاب اسرار البلاغة لمحمد رشيد رضا الطبعة السادسة ١٣٧٩ هـ ١٩٥٩ م .

(٣) نفس المصدر .

واستشهد محمد رشيد رضا بقول الامام يحيى بن حمـــزة الحسيني في مقدمة كتابه هذا الذي نحن بصدده استشهد بقوله الذي نوه به بفضل عبد القاهر الجرجاني على علوم البلاغة والمعاني والبيان وذلك حين قال (٤) :

« واول من اسس من هذا الفن قواعد واوضح براهينه واظهـــر فوائده ورتب افانينه الشيخ العالم النحرير علم المحققين عبد القاهر الجرجاني ، فلقد فك قيد الغرائب بالتقييد ، وهد من سور المشكلات بالتسوير المشيد ، وفتـــح ازاهره من اكمامها ، وفتق ازراره بعد استغلاقها واستبهامها وله من المصنفات فيه كتابان احدهما لقبه بدلائل الاعجاز والاخر لقبه باسرار البلاغة ولم اقف على شيء منهما مع شغفي بحبهما وشدة أعجابي بهما الا ما نقله العلماء في تعاليقهم منهما » .

وقبل ان نفضي الى استعراض مواضيع كتاب الطــراز المتضمن لاسرار البلاغة وحقائق علوم الاعجاز ليحيى بن حمـــزه لا بد من أن نـــدلي برأي حول نشأة علوم البلاغة والبيان والبديع قبل ظهور عبد القاهر الجرجاني وذلك من اجل تصحيح مفهوم نشأ لدى بعض النقاد المعاصرين وفحـــواه ان عبد القاهر الجرجاني قد استند في تأصيل البلاغة الى اصول ومصادر يونانية رجح هـــذا الرأي الدكتور طه حسين وشايعه آخرون فيما ذهب اليه من استنتاج .

والذي هو واضح ان البلاغة على كثرة تعريفاتها عند العـــرب هي عربية اللسان عربية الاصول والقواعد لأنها جرت على معايير واقيســـة عربية تعتمد الذوق والحس الجمالي ، وكل فضل لعلماء البلاغة هو انهم توسعوا في الشروح والتحليلات والاستنباطات التى جعلت علم البلاغة والمعانى والبيان والبديـــع فنا يدرس في اطر مبوبة مرتبة وكان الجرجانى قمة هـــؤلاء العلمـــاء في التذوق اللغوي والحس الادبى بحيث نسب اليه هذا العلم نسبة لا يماثله فيها غيره .

لقد كتب الجاحظ وابن دريد وقدامة وغيرهم في علوم البلاغة ولكن ما كتبوه لم يتعد شذرات متقطعة في هذا الفن او ذاك من فنون البلاغة والبيان ، وكتب ابن المعتز رسالته المختصرة في فن البديع — وابن المعتز اول من كتب في البديع فيما نعلم — وفي شهر رمضان من عام اربعة وتسعين وثلاث مائة للهجرة فرغ ابو هلال العسكري من تصنيف كتاب الصناعتين في علوم البلاغة والبيان والبديع. وكل مادة هذه الكتب التي الفت في هذا الفن كانت امثلتها ونماذجهـــا مأخوذا اكثرها من كلام العرب في الجاهلية والاسلام ومن نصوص القرآن فيما تضمنت تلك الامثلة من الوان التشبيه مرسلا وبليغا والوان المجاز عقليـــا ومرســـلا وانواع الكنايات مكنية وتمثيلية وفي علم المعاني الخبر والانشاء بانواعها ، ومثل ذلك في علم البديع الطباق الجناس ، السجع ، حسن التعليل ، الف النشر ، الى غير ذلك من فنون ، كل هذه الامثلة وردت في الكتب التي اسلفنـــا ذكرهـــا مأخوذة من كلام العرب القدماء فما وجه القول بأن علوم البلاغـــة والبيـــان بل وقواعد الصرف والنحو ذات أصول يونانية ؟

---

(٤) نفس المصدر — وانظر ايضا مقدمة كتاب الطراز ليحيى بن حمزة .

وبقي الان ان نفضي الى كتاب الطراز في اسرار البلاغة وحقائق الاعجـاز ليحيى بن حمزة فان هذا الكتاب يعد من اهم كتب اللغـة التي الفت في اليمن في القرن الثامن للهجرة ، وقد طبع هذا الكتاب بمطبعة المقتطف بمصر عام ١٣٣٢ هـ ١٩١٤ م وهو واقـع في اربعـة اجـزاء اما مؤلفه المشار اليه آنفا فهـو من اعيان القرن الثامن وقد الف عدة مصنفات منها هذا الكتـاب ، ومنهـا كتاب الانتصار على علماء الامصار في تقرير المختار من مذاهب الائمة واقوال الامة وقد صاغه في ١٨ مجلدا وله كتاب الحاصر لفوائد مقدمة طاهر ، وهو شرح عـلى مقدمة ابي الحسن طاهر بن احمد بن بابشاد بن داوود المصري النحوي . اما مولد يحيى بن حمزه فقد كان في عام تسعة وستين وست مائة وكانت وفاته عام تسعة وعشرين وسبع مائة وفيما يلي كلمة المؤلف التي قدمهـا بين يدي كتابه الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم الاعجاز قال المؤلف في سياق كلمته :

« اما بعد فان العلوم الادبية ، وان عظم في الشرف شأنها ، وعلا عـلى اوج الشمس قدرها ومكانها ، خلا ان علم البيان هو امير جنودها ، وواسطـة عقودها ، فلكها المحيط الدائر ، وقمرها السامر الزاهر وهو ابو عذرتهـا ، وانسان مقلتها ، وشعلة مصباحها ، وياقوته وشاحها ولولاه لم تر لسانا يحوك الوشي من حلل الكلام ، وينفث السحر مفتر الاكمام ، وكيف لا وهو المطلع على اسرار الاعجاز ، والمستولي على حقائق علم المجاز ، فهو من العلوم بمنزلـه الانسان من السواد ، والمهيمن عليها عند السبر والحك والانتقاد ، ولما فيه من الغموض ورقة الرموز ، واحتوائه على الاسرار والكنوز ، استولت عليه يـد النسيان والذهول ، وآلت نجومه وشموسه الى الانكساف والأفول . ولم يختص باحرازه من العلماء الا واحد بعد واحد ، وطالما قيل اذا عظم المطلـوب قـل المساعد وما ذاك الا لقصور الهمم عن بلوغ غاياتـه وعجزهـا عن ادراكـه والوصول الى نهاياته .

ثم ان المقصود بهذا الاملاء هو الاشارة الى معاقد هذا العلـم ومناظمه والتنبيه على مقاصده وتراجمه ، وقد كثر فيه خوض علماء الادب ، واتى فيه كل بمبلغ جده وجهده . ومنتهى علمه ومقدار وجده ، حرصا منهم عـلى بيانه وشغفا منهم بضبطه واتقانه ، واتوا فيه بالغث والسمين ، والنازل والثمين ، وهم فيما أتوا به من ذلك فريقان ، فمنهم من بسط كلامه فيه نهايـة البسط ، وخلط فيه ما ليس منه فكان آفته الاملال ، ومنهم من اوجز فيه غاية الايجاز ، وحذف منه بعض مقاصده فكان آفته الاخلال ، ولم اطالع من الدواوين المؤلفة فيه مع قلتها ونزورها الا (١) اكتبة اربعة اولها كتاب « المثـل السائر للشيخ ابي الفتح نصر بن عبد الكريم المعروف بابن الاثير ، وثانيها كتاب التبيان للشيخ عبد الواحد بن عبد الكريم وثالثها كتاب النهايـة لابن الخطيـب الـرازي ، ورابعها كتاب المصباح لابن سراج المالكي » ، واول من اسس من هـذا العلم قواعده ، واوضح براهينه واظهر فوائده (٢) الخ ، الى ان يقول ولست بناقص

(١) هذا الجمع متداول في اللهجة اليمنية الى اليوم .

(٢) سبق ايراد هذه الفقرة في السطور السابقة .

لأحد فضلا ولا عائب له قولا فاكون كما قال بعضهم :

بنقصك اهل الفضل بان لنا انك منقوص ومفضول

ولا ادعي لنفسي احراز الفضل فاكون كما قال بعضهم :

ويسيء بالاحسان ظنا لاكمن هو بابنه وبشعره مفتون

ولا اسلم نفسي من خطأ او زلل ولا اعصم قولي عن وهم وخطل فالفاضل من تعد سقطاته وتحصى غلطاته الا بتوفيق الله وعصمته والسالم من ذلك كتاب الله المجيد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

ثم ان الباعث على تأليف هذا الكتاب هو ان جماعة من الاخوان شرعوا علي في قراءة كتاب الكشاف تفسير الشيخ العالم المحقق استاذ المفسرين محمود بن عمر الزمخشري فانه اسسه على قواعد هذا العلم فاتضح عند ذلك وجه الاعجاز من التنزيل ، وعرف من اجله وجه التفرقة بين المستقيم والمعوج من التأويل ، وتحققوا انه لا سبيل الى الاطلاع على حقائق اعجاز القرآن الا بادراكه ، والوقوف على اسراره واغواره ومن اجل هذا الوجه كان متميزا عن سائر التفاسير ، لأني لم اعلم تفسيرا مؤسسا على علمي المعاني والبيان سواه، فسألني بعضهم ان املي فيه كتابا يشتمل على التهذيب والتحقيق ، فالتهذيب يرجع الى اللفظ ، والتحقيق يرجع الى المعاني اذا كان لا مندوحة لأحدهما عن الثاني .

وأرجو ان يكون كتابي هذا متميزا عن سائر الكتب المصنفة في هذا العلم بأمرين احدهما اختصاصه بالترتيب العجيب ، والتلفيق الانيق الذي يطلع الناظر من اول وهلة على مقاصد العلم ، ويفيده الاحتواء على اسراره ، وثانيهما اشتماله على التسهيل والتيسير والايضاح والتقريب لأن مباحث هذا العلم في غاية الدقة ، واسراره في نهاية الغموض ، فهو احوج العلوم الى الايضاح والبيان ، واولاهما بالفحص والاتقان فاما صغته على هذا المصاغ الفائق وسبكته على هذا القالب الرائق سميته بكتاب « الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز » ليكون اسمه موافقا لمسماه ولفظه مطابقا لمعناه .

ولما كان كل علم لا ينفك عن مبادىء ومقدمات تكون فاتحة لأمره ومقاصد تكون خلاصة لسره ، وتكملات تكون نهاية لحاله لا جرم اخترت في ترتيب هذا الكتاب ان يكون مرتبا على فنون ثلاثة ، ولعلها تكون وافية بالمطلوب محصلة للبغية بعون الله .

فالفن الاول منها مرسوم المقدمات السابقة نذكر فيها تفسير علم البيان ونشير فيها الى بيان ماهيته وموضوعه ومنزلته من العلوم الادبية ، والطريق الى الوصول اليه ، وبيان ثمرته وما يتعلق بذلك من بيان ماهية البلاغة والفصاحة والتفرقة بينهما ونشير الى معاني الحقيقة والمجاز وبيان اقسامها الى غير ذلك مما يكون تمهيدا وقاعدة لما نريده من المقاصد ، الفن الثاني منها مرسوم المقاصد اللائقة ، نذكر منه ونشير فيه الى ما يتعلق بالمباحث المتعلقة بالمعاني وعلومها. ونردفه بالمباحث المتعلقة بعلوم البيان واقسامها ، ونشرح فيه ما يتعلق به من

المباحث بعلم البديع ونذكر فيه خصائصه واقسامه واحكامه اللائقة به بمعونة الله ولطفه .

الفن الثالث نذكر فيه ما يكون جاريا مجرى التتمة والتكملة لهذه العلوم الثلاثة نذكر فيه فصاحة القرآن العظيم وانه قد وصل الغاية التي لا غاية فوقها . وان شيئا من الكلام وان عظم دخوله في البلاغة والفصاحة فانه لا يدانيه ولا يماثله . ونذكر كونه معجزا للخلق لا يأتي احد بمثله ونذكر وجه اعجازه ونذكر اقاويل العلماء في ذلك ، ونظهر الوجه المختار فيه ، الى غير ذلك من الفوائد الكثيرة والنكت الغزيرة التي نلحقها على جهة الردف والتكملة لما سبقها من المقاصد .

فالفن الثالث للثاني على جهة الاكمال والتتميم والفن الاول على جهة التمهيد والتوطئة والسر واللباب والمقصد لذوي الالباب ما يكون مودعا في الفن الثاني وهو من المقاصد .

وانا اسأل الله تعالى بجوده الذي هو في غاية مطلب الطلاب وكرمه الواسع الذي لا يحول دونه ستر ولا حجاب ان يجعله من العلوم النافعة في اصلاح الدين ، ورجحانها في ميزاني عند خفة الموازين انه خير مأمول واكرم مسئول .

من فصول هذا الكتاب :

ضم الجزء الاول من كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز مجموعة من المطالب والمسائل والبحوث والاحكام والتعريفات الدائرة حول مواضيع البلاغة والبيان ، ومن ذلك الفصل الذي عقده المؤلف حول مراتب البلاغة (1) او حكم البلاغة والمؤلف في هذا البحث يخوض في القضية التي خاضها من قبله أبو هلال العسكري في كتاب الصناعتين وخاضها غير العسكري من علماء البلاغة والمتعلقة بمسألة التفريق بين الفصاحة والبلاغة وترجيح الراي القائل بأن الفصاحة من متعلقات الالفاظ اما البلاغة فهي من متعلقات المعاني لأنه يقال هذا لفظ فصيح ولا يقال هذا لفظ بليغ ويقال هذا معنى بليغ ولا يقال هذا معنى فصيح قال المؤلف في هذا الصدد :

اعلم انه لا خلاف بين اهل التحقيق من علماء البيان ان الكلام لا يوصف بكونه بليغا الا اذا حاز مع جزالة المعنى فصاحة اللفظ ولا يكون بليغا الا بمجموع الامرين كليهما فقد صارت البلاغة وصفا عارضا للألفاظ والمعاني كما ترى .

واما الفصاحة فهل تكون من عوارض الالفاظ او تكون من عوارض المعاني، او لمجموعها فيه مذاهب اربعة اولها انها من عوارض الالفاظ لا باعتبار دلالتها على المعاني وهذا هو الذي يشير اليه كلام ابن الاثير في كتابه المثل السائر فانه

---

(1) الطراز ج اول ص ١٢٦ و ١٢٨ .

قال : ان الفصاحة مدركة بالسمع وليس يدرك بحاسة السمع الا اللفظ فلهذا كانت مقصورة عليه .

وثانيها ان الفصاحة من عوارض المعاني دون الالفاظ وهذا هو الذي يرمز اليه ابن الخطيب في كتابة « نهاية الايجاز » فانه زعم ان الفصاحة عبارة عن الدلالات المعنوية لا غير من غير حاجة الى اللفظ لا على جهة القصد ولا على جهة التبعية .

وثالثها ان الفصاحة عبارة عن الالفاظ باعتبار دلالتها على مسمياتها المعنوية وهذا شيء حكاه ابن الخطيب في كتاب النهاية ولم يعزه الى احد من علماء البيان ، وحاصل مذهبهم ان الفصاحة عبارة عن الامرين جميعا فلا هي من اوصاف اللفظ كما زعمه ابن الاثير على الخصوص ولا هي من اوصاف المعاني على الخصوص كما حكيناه عن ابن الخطيب .

ورابعها ان تكون الفصاحة مقولة على الامرين جميعا فيكون الامران جميعا اعنى المعاني والالفاظ من مسمى قولنا فصاحة وهذا المذهب يخالف المذهب الثالث فان هؤلاء جعلوا اللفظ والمعنى من مدلول لفظ الفصاحة والذين قبلهم جعلوا اللفظ هو مسمى الفصاحة . لكن اعتبار المعنى على جهة الضم والتبعية لا غير فهذا تقرير مذاهب العلماء في مذاهب الفصاحة وفائدة اطلاقه .

والمؤلف بعد ان يعرض وجهات النظر المتعارضة يطمئن قلبه ويستقر رأيه على هذا الراي الذي اشرنا اليه آنفا والذي يشير الى ان الفصاحة كائنة في اللفظ والبلاغة كامنة في المعنى وان كانت الصلة بينهما صلة الشكل بالمضمون اللذين لا يجب ان ينفصل احدهما عن الاخر في لغة اصحاب النقد الحديث ، قال المؤلف :

والمختار عندنا تفصيل نشير اليه وهو ان الفصاحة من عوارض الالفاظ لكن ليس بالاضافة الى مطلق الالفاظ فقط ولكن بالاضافة الى دلالتها على معانيها فتكون الفصاحة عبارة عن الامرين جميعا ، مطلق الالفاظ ودلالتها على ما تدل عليه من معانيها المفردة والمركبة ، وهذا المذهب هو الذي حكاه ابن الخطيب عن بعض علماء البيان الى ان يقول :

وثانيها انهم يقولون في الوصف كلام فصيح ومعنى بليغ ولا يقولون معنى فصيح فدل ذلك على ان الفصاحة من متعلقات الالفاظ وان فصاحته انما كانت باعتبار ما دل عليه من حسن المعنى ورشاقته .

وثالثها انا نراهم في اساليب كلامهم يفضلون لفظة على لفظة ويؤثرون كلمة على كلمة ، مع اتفاقهما في المعنى وما ذاك الا لأن احداهما افصح من الاخرى فدل ذلك على ان تعلق الفصاحة انما هو بالالفاظ والكلام الطيب الى آخر ما قال .

وفي الشواهد التي اوردها المؤلف (١) في حسن الاستعارة اشار الى قول ابن المعتز :

---

(١) الطراز ج اول ص ١٧٣ .

اثمـــرت اغصـــان راحتـــــه لجنـــــاة الحســـن عنابـــــا
ومن غرائب الاستعارة قول الوأواء الدمشقي في الاستعارة :
فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت وردا وعضت على العناب بالبرد
ومن رقيق الاستعارة قول ابي تمام :
اذا سفرت اضاءت شمس دجن ومالت في التعطف غصن بـــان
واحسن من هذا ما قاله ديك الجن عبد السلام بن رغبان (٢) :
لما نظـــرت الى من حدق المهى وبسمت عن متفتـــح النـــوار
وعقدت بين قضيـــب بان اهيف وكثيب رمـــل عقـــدة الزنـــار
عفرت خدى في الثرى لك طائعا وعزمت فيك على دخول النـــار
وفي حديث المؤلف عن اقسام التشبيه (٣) يتناول التشبيه عـــلى اســـاس انه : باعتبار ذاته ينقسم الى مفرد ومركب ونعني بالمفرد ما كـــان التنبيه فيـــه مقصورا على تشبيه صورة بصورة من غير زيادة او صورة بمعنى ونعني بالمركب ما كان التشبيه فيه تشبيها لأمر بامرين او باكثر من ذلك كما نورده او تشبيهـــا لأمرين بامرين او باكثر فاذن هذا التقسيم مشتمل على ضروب اربعة :
الضرب الاول منها تشبيه المفرد بالمفرد وهذا كقوله تعالى « فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » شبهها بالدهان لحمرتها وهـــو الجلد الاحمـــر وكقوله تعالى « تهتز كأنها جان » وقوله تعالى كعصف مأكول الى غير ذلك من التشبيهات المفردة الواردة في القرآن وقوله صلى الله عليه وسلم مثـــل المؤمن الذي يقرأ كمثل الاترجة طعمها طيب وريحها طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها ، ومثل المنافق الذي يقرأ القـــرآن كمثـــل الريحانـــة ريحهـــا طيب ولا طعم لها . ومثل قـــول علي بن ابي طالب كرم الله وجهه في الشقشقية فصاحبها كراكب الصعبة ان اشنق لهم خدم وان اسلس لها تقحم وقوله في مخاطبة طلحة والزبير والله لا اكون كالضبع تنام على طول اللدم حتى يصل اليها طالبها .
ومن التشبيه الفائق قول امرىء القيس :
كأن عيون الوحش حول خبائنـــا وارحلنا الجزع الذي لـــم يثقب
وقول زهير :
بكرن بكورا واستحرن بسحـــرة فهن بوادي الرس كاليد للفـــم
ولقد اجاد زهير في هذا التشبيه وابدع فيه ومنه قول ذى الرمة :
قف العيس في اطلال مية فاسأل رسوما كأخلاق الرداء المسلسل
ومثله قول ابي تمام في الخمر :
خرقاء تلعب بالعقول مزاجهـــا كتلعب الافعـــال بالاسمـــــاء
ومن ذلك قول بشار :

(٢) زيادة على السياق .
(٣) الطراز ج اول ص ٢٨٦ الى ٢٨٨ .

كأن الناس حين تغيب عنهم   نبات الارض اخطأه القطار

الضرب الثاني في تشبيه المركب بالمركب وما هذا حاله يرد على اوجه اربعة اولها تشبيه بشيئين كقوله تعالى « ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة » ، ونحو قوله تعالى « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا» وقوله تعالى « ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء » ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام « مثل الرجل الذي لا يتم صلاته كمثل الحامل حملت حتى اذا دنا نفاسها املصت فلا ذات حمل ولا ذات ولد » .

وثانيها تشبيه ثلاثة بثلاثة وهذا كقول بعضهم :

ليل وبدر وغصن   شعر ووجه وقد

خمر ودر وورد   ريق وثغر وخد

فهذا عددناه — قال المؤلف — من التشبيه وان لم تظهر فيه الاداة لأنه في معنى التشبيه وان كانت اداته مضمرة لأن ظهورها يكون مقدرا .

وثالثها تشبيه اربعة باربعة وهذا كقول امرىء القيس له :

له ايطلا ظبي وساقا نعامة   وارخاء سرحان وتقريب تتفل

وكقول ابي نواس :

تبكي فتذرى الدر من نرجس   وتمسح الورد بعناب

فشبه الدمع بالدر لبياضه والعين بالنرجس وشبه الوجه (١) بالورد وشبه الانامل بالعناب فهذه تشبيهات اربعة .

ورابعها تشبيه خمسة بخمسة وهذا كقول الواواء الدمشقي :

فامطرت لؤلؤا من نرجس وسقت   وردا وعضت على العناب بالبرد

فجميع ما اوردناه هنا انما هو في هذا المعنى .

ثم يفيض المؤلف القول في اقسام التشبيه واقسام الاستعارة ثم يتحدث عن الفرق بين الكناية والاستعارة وقبل ان نورد قوله في هذا الباب نود ان نشير الى رأيه الخاص بالالفاظ وتبعيتها للمعاني وهو رأي يخطىء كثير من النقاد المحدثين حين يصفون القدماء بانهم اصحاب قوالب لفظية جاهزة يكررونها في تعابيرهم دون مراعاة للمعاني ، وينسون ان نقادا كبارا كالجرجاني وابن رشيق والمترجم له في هذا الفصل قد درسوا نصوص الادب على اضواء من علم المعاني الكاشفة عن جماليات الادب بواسطة استبطان النص الادبي وتذوقه بدرجة عالية من الحس والذوق الفني اللذين يريان في اللغة وسيلة من وسائل التعبير وليست اللغة غاية في ذاتها ، والى القارىء العزيز رأي مؤلف كتاب الطراز في هذا الموضوع (٢) .

اياك ان يعتريك الوهم او تستولي على قلبك غفلة فتظن انا لما قلنا ان الالفاظ دالة على المعاني فتعتقد من اجل ذلك ان المعاني تابعة للألفاظ فهذا وامثاله خيال باطل وتوهم فاسد ، فان الالفاظ في انفسها هي التابعة

(١) قوله الوجه المراد به الخد كما هو واضح .

(٢) الطراز ج اول ص ١٨٦ .

للمعاني وان المعاني هي السابقة بالتقرير والثبوت والالفاظ تابعة لها ولنضرب لما ذكرناه مثالا يصدق ما قلناه في المفردة والمركبة منها :

اما المفردة فلأنك اذا رأيت سوأداً على بعد فظننته حجرا فانك تسميه حجرا واذا دنوت منه قليلا وسبق الى فهمك انه شجر فانك تسميه شجرا فاذا دنوت منه وتحققت حاله رجلا فانك تسميه رجلا فاختلاف هذه الاسامي يدل على اختلاف تلك الحقيقة وما يفهم منها من الصور المدركة .

واما المركبة فلأنك اذا رأيت رجلا من بعيد ولا تدري حاله اهو قائم ام قاعد او مضطجع فانك اذا دنوت اليه فعلى حسب ما يسبق الى فهمك من حالته تصفه بتلك الحالة ، ولا يزال الوصف يتغير حتى يستقر الوصف على واحد منها ، وهذا يدلك على ان الالفاظ تابعة للمعاني المفردة والمركبة كما اشرنا اليه ولهذا فانك تطلق العبارات على وفق ما يقع في نفسك من الحقائق والمعاني من غير مخالفة .

والمؤلف اليمني يحيى بن حمزه من علماء القرن الثامن للهجرة وقد وقف على آراء من سبقه من علماء البلاغة واستطاع ان يناقش ما توصلوا اليه من مفاهيم واستنتاجات في هذا الموضوع فهو يراجع آراءهم مصوبا ومرجحا ما يراه انها اقرب الى الحقيقة وارجح في ميزان الصواب . ولذلك رأيناه يناقش ابن الاثير وابن الخطيب في تعريف كل منهما ويتوصل فيها الى هذا الراي حين يقول (١) :

الحق الذي لا غبار على وجهه ان الكناية مخالفة للاستعارة وان كانتا معدودتين من أودية المجاز ، فان الاستعارة عامة والكناية خاصة ، ولهذا فان كل استعارة فهي كناية ، وليس كل كناية استعارة ، فان الكناية يتجاذبها أصلان حقيقة ومجاز وتكون دالة عليهما معا عند الاطلاق بخلاف الاستعارة فان لفظ الاسد يستعمل في السبع فيكون دالا عليه ، ثم يستعمل في الشجاع فيكون دالا عليه فاما الكناية فهي دالة على الحقيقة والمجاز معا عند الاطلاق .

ثم يتحدث المؤلف عن فن التعريض (٢) وكيف يخلط بعض علماء البيان بينه وبين الكناية ويقدم من امثلته قول الشاعر اليمني الجاهلي الشميذر الحارثي :

بني عمنا لا تذكروا الشعر بعدما دفنتم بصحراء الغمير القوافيا

فليس قصده مما قال الابيات الشعرية ولكنه قصد تعريفهم بما كان قد جرى في ذلك الموضع من الظهور عليهم والقتل لرجالهم فذكر الشعر وجعله تعريضا .

ومن التعريض الرائق ما قاله نصر بن سيار في شحذ عزائم بني امية بادراك الثأر لمن ارادهم .

اری خلل الرماد وميض نار ويوشك ان يكون له ضرام
فان النار بالزندين تورى وان الحرب اولها كلام
اقول من التعجب ليت شعري أأيقاظ امية ام نيام

(١) نفس المصدر ص ٣٧٨ .
(٢) نفس المصدر من ص ٣٩٣ الى ٣٩٦ .

والمؤلف يرى ان التعريض ليس معدودا من باب المجاز لأن المجاز ما دل على خلاف ما وضع له في الاصل خلا انه افاد معنى آخر بالقرينة ومثاله قوله تعالى « أفحسبتم انما خلقناكم عبثا » فهذا استفهام ورد على جهة الانكار ، وهو مجاز فيه ، لكنه تعريض بالكفار في انكار الرجعة والمعاد الاخروي وليس دالا عليه من جهة مجازه ولا من جهة حقيقته وانما هو مفهوم من جهة القرينة ، ومن غريب ما جاء في التعريض قول الامام علي بن ابي طالب « أن الموت طالب حثيث لا يفوته المقيم ، ولا يعجزه الهارب ، وان اكرم الموت القتل والذي نفس ابن ابي طالب بيده لضربة الف سيف اهون علي من ميتة على الفراش » فهذا الكلام قاله على جهة التعريض لأصحابه لتأخرهم عن الجهاد ونكوصهم عن قتال عدوهم ، ثم قوله ايضا « اين القوم الذين دعوا الى الاسلام فقبلوه وقرأوا القرآن فأحكموه وهيجوا للجهاد فولهوا وله اللقاح لأولادها ، وسلبوا السيوف اغمادها واخذوا باطراف الارض زحفا زحفا وصفا صفا بعضهم هلك وبعضهم نجا » الى آخر كلامه فهذا كلام اخرجه مخرج لتعريض باصحابه حيث لم ينقادوا لأمره ولا استمعوا قوله :

ذلك هو قول المؤلف في فن التعريض الذي عده غير داخل في باب الكناية اما الكناية فقد جاء فيها قوله (1) :

اعلم ان الشيخ عبد القاهر الجرجاني وغيره من افاضل علماء البيان مطبقون على ان الكناية ابلغ من الافصاح بذلك المعنى المكنى به عنه واعظم مبالغة في ثبوته ، والحجة على ما قلناه هو انك اذا كنيت عن كثرة القرى بقولك فلان كثير رماد القدر فانك تكون مثبتا لكثرة القرى باثبات شاهدها واقمت برهانا على صحتها وثبوتها ، وعلما على صحة وجودها وهي — اي الكناية باعتبار ذاتها مفردة ومركبة . فاما المفردة فهي ما كانت الكناية حاصلة في اللفظة الواحدة وهذا كقوله تعالى « او لامستم النساء » فانه كناية عن الصلة الجنسية .

واما المركبة فأكثر ورود الكناية عليها وهذا كقولك الكرم في برديه ، والمجد بين ثوبيه ، والعفاف في عطفيه ، وهذا كله في معرض الثناء فاما الكناية في الذم فكقولهم انك لعريض الوساد كما ورد في الحديث عن الرسول عليه السلام انه لما نزل قوله تعالى « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود » جعل عدى بن حاتم خيطين في يده احدهما اسود والاخر ابيض علامة للفجر فحكى ذلك للرسول واخبره بما فعل فقال له يا عدى انك لعريض الوساد وهو كناية عن بله الانسان وقلة فطانته . ومنه قول علي بن ابي طالب لبعض « انه لمزهو في عطفيه مختال في برديه تفال في شراكيه » يشير بذلك الى حمقه وخيلائه .

وهي — اي الكناية — باعتبار حالها قريبة وبعيدة ، ونعني بالقريبة ما يكون الانتقال الى المطلوب باقرب اللوازم ونريد بالبعيدة ما يكون الانتقال الى مطلوبها من لازم أبعد منه . ومثال القريبة قول الشاعر « بعيدة مهوى القرط »

---

(1) نفس المصدر ص ٤١٦ و ٤٢٧ .

فانه كناية عن طول عنق المراة ، ومثال الكناية البعيدة قولهم فلان كثير الرماد فهذا تكثر فيه الوسائط لانك تنتقل من كثرة الرماد الى كثرة الجمر ثم الى كثرة الاحراق تحت القدر ثم الى كثرة الطبائخ ثم الى كثرة الاكلين ثم الى كثرة الاضياف ثم الى كونه مضيافا .

(١) ومن الكنايات الجيدة قول الرسول عليه السلام في غزوة بدر حين راى اهل مكة يريدون لقاءه للحرب « هذه مكة قد القت اليكم بافلاذ كبدها فكنى بقوله افلاذ كبدها عن الرؤساء والاكابر لأن الكبد من اعز اعضاء الانسان ويضاف اليها ضيق الانسان وحزنه وفرحه وغمه وافلاذها قطعها فكنى بها عنهم .

أما الامثلة الشعرية التي اوردها المؤلف في الكناية فهي كثيرة منبثة هنا وهناك في ثنايا الكتاب فمنها قول البحتري وفيه كناية :

او ما رايت المجد القى رحله ... في آل طلحة ثم لم يتحول

ومنها قول حسان بن ثابت مفاخرا باليمن :

بنى المجد بيتا فاستقرت عماده ... علينا فأعيا الناس ان يتحولا

ومن بديع ما قيل في الكناية قول زياد الاعجم :

ان السماحة والمروءة والندى ... في قبة ضربت على ابن الحشرج

ومثله ما قاله بعضهم :

ومايك في من عيب فانى ... جبان الكلب مهزول الفصيل

ومن جيد الكناية ما قاله نصيب :

لعبد العزيز على قومه ... وغيرهم منن ظاهرة

فبابك اسهل ابوابهم ... ودارك مأهولة عامرة

وكلبك آنس بالزائرين ... من الام بالابنة الزائرة

محتويات الجزء الثاني من الكتاب :

اما الجزء الثاني من كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الاعجاز فقد ضمنه المؤلف كثيرا من الفصول والبحوث في المجاز وطرايق استعماله ، وفي المعرفة والنكرة ، والخطاب بالجملة الاسمية والفعلية ، واحوال الفصل والوصل ، وحروف العطف ، وحرف الجر ، و حروف التقديم والتأخير ، والايجاز والحذف ، ومنزلة اللفظ من المعنى وبيان الالفاظ مترادفة ومتباينة ومشتركة ومستغرقة ، وذلك في فصول تسعة من فصول الكتاب ، وفي الفصل العاشر والحادي عشر ذكر فنونا عدة منها الاعتراض ، وعلم الاعراب ، والتوكيد بنوعية اللفظي والمعنوي ، وفي الفصل الثاني عشر تكلم المؤلف عن عدة فنون في البيان والبديع من اهمها منها الاطناب والايجاز والتجنيس والطباق والمقابلة ، والترصيع ، والتطبيق ، ورد العجز على الصدر ، ولزوم ما لا يلزم ، واللف والنشر .

---

(١) نفس المصدر ص ١٧٨

فمما آورده المؤلف في باب الايجاز من امثلة فكلها مقتبس من القرآن مثل قوله تعالى « على الموسع قدره وعلى المقتر قدره » (١) وقوله تعالى من « كفر فعليه كفره » ، وقوله تعالى « كل امرىء بما كسب رهين » وقوله تعالى « فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف » .

ومن الامثلة التي اوردها المؤلف ما هو مأخوذ من الاحاديث النبوية مثل قوله عليه السلام « أنما آلاعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى » وقوله عليه السلام « الضعيف امير الركب » وقوله « دع ما يريبك الى ما لا يريبك » ومن ذلك ما قاله خطابا لقريش « يا ويح قريش لقد نهكتهم الحرب ، ما ضرهم لو ماددناهم مدة ويدعوا ما بيني وبين الناس فان اظهر عليهم دخلوا في دين الله وافرين والا كانوا قد حموا وان آبو فو الذي نفسي بيده لأقاتلنهم على امري هذا حتى تنفرد سالفتي هذه او لينفذ الله امره » .

اما الامثلة الشعرية على ذلك فقد اوردها المؤلف في المثال الخامس من نفس الفصل (٢) ومنها قول ابي نواس في وصف الخمر :

تدار علينا الراح في عسجدية ... حبتها بانواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها ... مهى تدريها بالقسى الفوارس
فالراح ما زرت عليه جيوبها ... وللماء مادارت عليه القيلانس

« فما هذا حاله — قال المؤلف — فهو من الشعر الفائق والنظم الجيد الرائق ، وحكى عن الجاحظ ابي عثمان انه قال لا اعرف شعرا يفضل هذه الابيات لابن هاني ، ولقد انشدتها آبا شعيب القلال ، فقال والله يا ابا عثمان ان هذا هو الشعر الذي لو نقر لطن ومهما تحركت اوتار نغماته لحن ، وحسبك به اعجابا اعتراف الجاحظ بحسنه ، فانه الماهر بالبلاغة والخريت في الفصاحة .

ومن الايجاز بالتقرير ما قاله علي بن جبله :

وما لامرىء حاولته منك مهرب ... ولو حملته في السماء المطالع
بل هارب لا يهتدى لمكانه ... ظلام ولا ضوء من الصبح ساطع

ومن ذلك ما قاله النابغة الذبياني :

فانك كالليل الذي هو مدركي ... وان خلت ان المنتأى عنه واسع

ومن ذلك ما قاله آلاعشى في اعتذاره الى اوس بن لأم لما هجاه :

واني على ما كان مني لنادم ... واني الى اوس بن لأم لتائب
واني الى آوس ليقبل عذرتي ... ويصفح عني ما جنيت لراغب
فهب لي حياتي والحياة لقائم ... بسرك منها خير ما انت واهب

---

(١) الطراز ج ٢ ص ١٢٢ .

(٢) نفس المصدر ١٢٥ و ١٢٦ .

سأمحو بمدح فيك اذ انا صادق كتاب هجاء سار اذا انا كاذب (١)

ومن الفصول المهمة التي وردت في الكتاب الفصل العاشر الذي عقده المؤلف في الجزء الثاني من كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الاعجاز والخاص بفن الاعتراض :

والاعتراض او ما يسميه بعض علماء البلاغة بالحشو هو اعتراض قد يكون بالمعنى مثل قول شوقي في قصيدة نهج البردة :

يا لائمي في هواه — والهوى قدر — لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم

فالاعتراض في هذا البيت واقع في قوله والهوى قدر وهي جملة مكونة من مبتدأ وخبر ، وقد يكون الاعتراض بالحرف مثل قول ابي الفتح البستي في الحمامة :

غير اني بالجوى اعرفها وهي ايضا بالجوى تعرفني

والاعتراض في هذا البيت واقع في لفظ « ايضا » .

والمؤلف في الفصل الذي عقده حول هذا الباب يحلل الاعتراض بحسب مواقعه في الكلام تحليلا دقيقا وذلك حين يقول :

« اعلم ان الاعتراض قد يدخل لفائدة جارية مجرى ، التأكيد وقد يكون داخلا لغير فائدة فهذان ضربان الضرب الاول ما يكون دخوله من اجل الفائدة التي تليق بالبلاغة وهذا كقوله تعالى « فلا اقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم ففي هذه الاية اعتراضان احدهما بجملة اسمية ابتدائية وهي قوله « وانه لقسم لو تعلمون عظيم » فأتى بها اعتراضا بين القسم وجوابه ، وثانيهما بجملة فعلية بين الصفة والموصوف وهو قوله تعالى « لو تعلمون » فانه وسطه بين الصفة وموصوفها كأنه قال وانه لقسم لو علمتم حاله او تحققتم امره لعرفتم عظمة وفخامة شأنه فهذان الاعتراضان قد اختصا بمزيد البلاغة وموقع الفخامة مبلغا لا ينال ومما ورد من المنظوم في الاعتراض قول امرىء القيس :

فلو ان ما اسعى لادنى معيشة كفاني — ولم اطلب — قليل من المال

---

(١) نسب ابن الاثير هذه الابيات في كتاب المثل السائر الى الاعشى ، ورواها المرتضى في اماليه لبشر بن ابي خازم الاسدي في حوار دار بين الاصمعي والرشيد حين طلب اليه شعرا قيل في الاعتذار من غير شعر النابغة فروى الاصمعي له هذه الابيات لبشر بن ابي خازم ، واثبتت هذه الابيات في ديوان الاعشى ، وهي مثبتة ايضا في ديوان بشر بن ابي خازم الاسدي انظر القصيدة التاسعة في صفحتي ٤١ و ٤٢ من ديوان بشر بن ابي خازم طبع دمشق تحقيق الدكتور عزة حسن ونحن نرجح نسبة الابيات الى بشر بن ابي خازم لتناسبها مع قصته المشهورة مع بشر بن حارثة وعدد ابيات هذه القصيدة سبعة في ديوان بشر وهذا نصها :

واني لراج منك يا أوس نعمة واني لاخرى منك يا أوس راهب
فهل ينفعني اليوم ان قلت انني سأشكر ان انعمت والشكر واجب
واني قد اهجرت بالقول ظالما واني منه يا بن سعدى لتائب
واني الى اوس ليقبل عذرتي ويعفو عني ما حييت لراغب
فهب لي حياة فالحياة لقائم بشكرك فيها خير ما انت واهب
فقل كالذي قال ابن يعقوب يوسف لاخوته والحكم في ذاك راسب
فاني سأمحو بالذي انا قائل به صادقا ما قلت اذا انا كاذب

فقوله « ولمْ اطلب » وارد على جهة اعتراض بين الفعل وفاعله وانمـــا أورده تعريفا بتحقير امر المعيشـة واعراضها عنها وانه يأتي بايسر امـــر وانمـــا الذي يحتاج الى العناية هو طلب الملك والمجد المؤثل :

ولكنما اسعـــى لمجـد مؤثـــل   وقد يدرك المجد المؤثـــل امثالي

اما الضرب الثاني من الاعتراض فهو الذي يأتي بغير فائدة واحسن الوجوه فيه أن يكون غير مفيد لكنه لا يكسب الكلام حسنا وقبحا وهذا كقول زهير :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش   ثمانين عاما ـ لا ابالك ـ يسأم

فقوله « الا ابا لك » من الاعتراض الذي ليس فيه فائدة توكيد وليس فيه قبح وهكذا ورد في قول النابعة :

تقول رجال يجهلـــون خليقتـــي   لعل زيادا ـ لا ابا لك غافـــل

فهذا وامثاله يغتفر فيه هذا الاعتراض وان كان لا فائدة تحته .

حروف الجر ووظائفها :

وحروف الجر عند النحاه محدودة او محددة الاعمال ، معروفـــة الوظائف وهم حين يشيرون اليها لا يتعدون تبيان مواقعهـــا من الجمـــل بحسب قوانين الاعراب ، ولكن علماء البلاغة يسبحون حول حروف الجر لتعلقها بعلم البلاغة سبحا طويلا ، وفي الفصل العاشر من هذا الكتاب والذي عقد حول الحروف (٢) ناقش المؤلف في هذا الباب حروف النفي ومواقعها من الجمل ومما جاء في هذا الفصل قوله :

« اعلم ان لحروف النفي تعلقا بالبلاغة لما يلحقها من الاسرار القرآنيـــة والمعاني الشعرية بحسب مواقعها ومواردها لها ، بالاضافة الى الازمنـــة التي تدخل عليها ثلاث حالات ، الحالة الاولى أن تكون داخلة على الفعل لنفي الازمنة الماضية وهذا نحو قولنا لم ولما فانهما موضوعان من اجل نفي الماضي خلا ان لما مفارقة « للم » من وجهين اما أولا فلأن لم لنفي فعل ليس معه قد ، ولما لنفي فعل معه قد ،فلم لنفي قولنا : هل فتقول في جوابه لم يفعل واما ثانيا فلأن نفي « لما » ابلغ من نفي لم ولهذا فانك تقول ندم ولم ينفعه الندم اي نفـــي ندمـــه ، وتقول لما ولما ينفعه الندم اي الى وقته ، فحصل من هذا ان نفي « لما » ابلغ من نفي « لم » لما قررناه والسبب في ذلك ان لما انفس في حروفها من لم فلا جـــرم حصلت المبالغة .

الحالة الثانية ان تكون داخلة لنفي الحال وهي ما فتقول : ما يفعل فلان وما فلان منطلقا ومنطلقا فالرفع لغة تميم والنصب لغة الحجاز وهي في جميـــع مداخلها لنفي الحال سواء كان دخولها على الفعل او على الاسم رافعة للخبر او ناصبة له .

---

(٢) نفس المصدر من ص ٢٠٦ الى ٢١٠.

الحالة الثالثة « لا » و « لن » وهما موضوعان لنفي الازمنة المستقبلة ، فان استعملا في غير الازمنة فانما يكون على جهة المجاز والاستعارة يشتركـــان جميعا في كونهما دالتين على النفي مطلقا ، وفي كونهما لنفي الازمنة المستقبلة ، وهذا لا يقع فيه خلاف بين ائمة الادب من اهل اللغة والنحاة في وضعهما حقيقة لما ذكرناه وانما يفترقان من جهة ان « ان » آكد من « لا » في نفي المستقبل مطلقا قال الزمخشري فيما عمله في مفصله و « لن » للنفي لتأكيد ما يعطيه « لا » من نفي المستقبل واراد بما قاله ان « لن » في النفي مرشدة الى التأكيد وان نفيهـــا ابلغ من نفي « لا » ولهذا جاءت على انها معطية لما اعطته لا مع زيادة بلاغة في تلك الفائدة التي ادتها « لا » ويقوى ما ذكر الزمخشري من طرق ثلاثة :

الطريق الاول قوله تعالى في آية « لا تدركه الابصار » فنفى الادراك عن ذاته على جهة العموم في الازمنة المستقبلة ، فلما اراد المبالغة في النفي بأبلغ من ذلك قال جوابا لسؤال موسى حيث قال : « رب ارني انظر اليك قـــال » لن تراني » فأتى بالجواب على جهة المبالغة بقطع وحسما لمادة الطمع والتشـــوق الى ذلك لأحد ويؤيد كونه واردا على جهة المبالغة هو انه عقبه بالتعليق على امر محال حيث قال « ولكن انظر الى الجبل » .

الطريق الثاني قوله تعالى لليهود « قل ايها الذين هادوا الى زعمتم انكم اولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين » ثم قال « ولا يتمنونه ابدا » فجاء في الجواب هنا « بلا » وقال في آية اخرى « قل ان كانت لكم الدار الاخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين ثم قال في هذه الاية « ولن يتمنوه ابدا » فجاء في الاولى « بلا » وجاء في الثانية « بلن » الى ان يقول المؤلف فلما حصل تأكيد هذا الخطاب بهذه الانـــواع من التوكيـــد اتى بالنفي بان وهذا كله دال على كونها موضوعة للمبالغة .

الطريق الثالث هو انه بالغ فيما نفى بان بأن اكده بقوله « ابدا » وفي هذا اعظم دالة على ان وضعها للمبالغة في النفي فأما ابن الخطيب ابو المكارم صاحب التبيان فقد يتلكأ في قبول ما ذكرناه ، وزعم ان الامر على عكس ما اوردنـــاه وان النفي « بلا » آكد من النفي « بلن » وقال ان الزمخشري انما ذهب الى هذه المقالة بناء على مذهبه في الاعتزال من نفي الرؤية واستحالتها على الله تعالـــى الى آخر ما قال » .

مناقشة هذا الرأي :

مما تقدم يظهر تأثر المؤلف براي الزمخشري في قوله الذي أورده في كتابه المفصل والخاص بلفظ ووظيفته في تأكيد النفي على سبيل المبالغة والواقـــع ان الزمخشري انما اوقعه في هذا التعسف الكبير محاولته نفي رؤية الذات الالهية في الحياة الاخرى التي يثبتها الاشاعرة مستندين الى الحديث المشهور المتعلق بالرؤية .

ونحن مع ابن الخطيب في رأيه المناقض للزمخشري في قضية خضوعه لاقوال اصحاب الإعتزال في هذه القضية اكثر من خضوعه لاقوال علماء اللغة ولسنا مع ابن الخطيب في ان حرف « لا » آكد في النفى من حرف « لن » ذلك لأن « لا » لا تفيد النفي في الحال والمستقبل ، على حين تفيد « لن » النفى في المستقبل مطلقا والفرق بين « لا » و « لن » ان « لا » تدخل على جملة الحال مثل قوله تعالى « لقد صدق الله رسوله الرؤيا لتدخلن البيت الحرام محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون ، اما حرف لن فيفيد النفى للمستقبل ولكن لا على اساس النفي الابدي وانما على اساس النفي المؤكد للتأبيد اذا قلت « لن » افعل ذلك ابدا .

عبد الباقي عبد المجيد في النثر المرسل

ضمن شهاب الدين النويري — كما اسلفنا — هذا الكتاب لابن عبد المجيد احد اجزاء موسوعة نهاية الادب والنويري في كلمته التي قدم بها الكتاب يتحدث — وهو صديق شخصي لابن عبد المجيد — عن المأساة التي يعاني منها القطر اليماني من جراء قلة المصادر التي تحمل أخبار حياته ، واحداث تاريخه بالقياس الى ذلك العصر — القرن الثامن — وهي مأساة لا تزال قائمة الى عصرنا ، الامر الذي جعل الشاعر ابراهيم الحضراني يستشهد في مقدمة كتاب « بهجة الزمن في تاريخ اليمن » بقول الشاعر العربي القديم ما اشبه الليلة بالبارحة ، قال النويري في هذا الصدد :

« أعلم وفقك الله تعالى وايانا — ايها المطالع لهذا الكتاب — يقصد كتاب بهجة الزمن لابن عبد الباقي — المتأمل لما اشتمل عليه من الفصول والابواب ، الباحث عن جمله وتفصيله المستوعب لتراجمه وفصوله . اننا لم نترك افراد بلاد اليمن بباب مستقل يشتمل على اخبارها ، ويستدل من مضمونه على آثارها ويعلم منه اخبار من وليها من العمال في السنين السالفة ومن استقل بملكها في المدد الماضية والآنفة ، ذهولا عنه ولا أهمالا ولا اخذناه استخفافا بقدرها ولا استقلالا ، كلنا لم نقف فيما سلف على تاريخ جرد لذكرها والف ، ولا كتاب أفرد في اخبارها وصنف — وانما كنا نقف من اخبارها على النبذة الشاردة ، والاشارة التي تكون في اخبار غيرها من الدول واردة ، فنورد من ذلك ما نقف عليه في اثناء اخبار الدولة الاموية والعباسية ، والملوك الايوبية والايام المنصورية والناصرية ، ونحن مع ذلك نتوكف أن نقف على مؤلف يجمع سيرها واخبارها ، ومصنف يكشف استارها ويبرز اسرارها ، ونسأل عن ذلك كل قادم ووارد ، فلا نجد من يرد ضالة هذه الشوارد الى ان وصل الى الديار المصرية المولى القاضي الفاضل تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد بن عبد الله اليماني كاتب درج الملك المؤيد داود من البلاد اليمنية وهو الذي اشرنا اليه فيما سلف من هذا الكتاب وذكرنا جملة من رسائله البليغة وادابه البديعة فاوقفني

على كتاب الفه لما عاد الى البلاد اليمنية سماه « بهجة الزمن في تاريخ اليمن » وهو في مجلده ، خدم بها الملك الظاهر المذكور آنفا فاجتمعت اخبار اليمن في هذا المكان بحسب الامكان وهي نبذة يستدل بها على آثاره ولمعة تهدي المتأمل اليها الى آثاره » .

وقد طبع كتاب « بهجة الزمن في تاريخ اليمن في عام ١٩٦٥ بتحقيق مصطفى حجازي وقدم له الشاعر اليمني ابراهيم الحضراني الذي كان يومذاك نائبا لوزير الاعلام بمقدمة اشاد فيها الى اهمية هذا المؤلف والى ما عانته وتعانيه اليمن من عزلة لا عن العرب فحسب بل عن العالم اجمع بحيث لم يعد يعرف الناس شيئا كثيرا عنها منذ ان تداعت حضارتها ، وتهدمت سدودها ودب الشقاق والخلاف بين ابنائها .

ويقع كتاب بهجة الزمن في نحو ١٣٠ صفحة ارخ فيها ابن عبد المجيد لليمن منذ عهد الخلفاء الراشدين الى عهد بني رسول ، فهو اذن تاريخ الم به المؤلف بذكر عمال اليمن في الدولة الاموية ، فعمالها في الدولة العباسية ، ثم اخبار دولة بنيْ زياد وبني نجاح ، واخبار علي بن الفضل والزيدية ، والصليحيين والحاتميين والذريعيين ودولة علي بن مهدي وبنيه وتاريخ الدولة الايوبية في اليمن والدولة الرسولية التي انهى المؤلف كتابه بذكر عودة الملك المجاهد الرسولي الى الحكم والقبض على عمه المنصور ووفاته .

« ومن الملاحظ (١) ان فترة حكم الخلفاء الراشدين والامويين وبعدهم العباسيين لليمن هي اصعب فترة واجهت ابن عبد المجيد حيث اجمل فيها الاخبار اجمالا لأن الامصار الاسلامية حينذاك كانت تبعيتها للدولة الاسلامية مطلقة يلي امرها من يختاره الخليفة الاسلامي في المدينة او في دمشق او في بغداد ومنذ انقسام الدولة العباسية بدأت ملامح الاستقلال في الامصار الاسلامية ومنها اليمن تتضح ، واصبح لكل دولة شأنها وسياستها وعلاقاتها بغيرها مما يؤلف تاريخا مستقلا بها على نحو ما هو معروف لدارسي التاريخ الاسلامي وقد استطاع المؤلف منذ اتضحت الرؤية في هذه الفترة ان يعرض علينا تاريخ اليمن والدول التي قامت فيه والاسرات الحاكمة التي تعاقبت في كل منها باسلوب سهل العبارة ، وفي منهج قريب التناول مما يجعل الكتاب في جملته وافيا بحاجة تلاميذ المدارس الثانوية وطلاب معاهد المعلمين في دراسة تاريخ اليمن خلال هذه الحقبة » .

وحتى نراجع أخبار الدولة الزيادية في اليمن واخبار آل نجاح والصلحيين وآل علي بن مهدي والايوبيين نلحظ بوضوح اعتماد المؤرخ اليمني عبد الباقي بن عبد المجيد على كتاب عمارة اليمني المسمى بالمفيد في اخبار صنعاء وزبيد . ففيما يتصل بهذه الفترة نرى ابن عبد المجيد ينقل ليس مجرد فقرات وانما صفحات كاملة من كتاب عمارة ومن امثلة هذا النقل ما كتبه عن دولة علي بن مهدي

(١) انظر كلمة المحقق ص ١٢ من كتاب بهجة الزمن .
(٢) بهجة الزمن ص ٧٠ وانظر ايضا ص ٢٢٩ من كتاب المفيد لعمارة .

وهل نقل حرفي لما ورد في كتاب عمارة قال ابن عبد الباقي عن علي بن مهـــدي وبنيه .

« وهم من اهل قرية يقال لها العنبرة من سواحل زبيد وكان ابوه رجـــلا صالحا سليم القلب ونشأ ولده علي هذا على طريقة أبيه عينا وقلبا ، وصددا ولبا وفوضنا اليه امر الممالك الاسلامية فقام فيها قياما اقعد الاضداد واحسن في ترتيب ممالكنا نهاية الاصداد وغاية الايراد وهو السلطان الاجـــل السيـــد الملك الناصر ـــ يقصد محمد بن قلاوون » .

ثم تهدد الرسالة المؤيد الرسولي بالغزو العسكري لليمن بواسطة جيش المماليك حيث يقول هذه الفقرات من الرسالة :

« فلم يعد جوابا لما رسمناه ولا عذرا لما ذكرناه الا تجهيـــز شرذمـــة من جحافله المنصورة ، وتعيين اناس من فوارسه المذكورة يقتحمون الاهـــوال ، ولا يعبأون بتغييرات الاحوال ، يرون الموت مغنما ان صادفوه ، وسبا المرهـــق مكسبا ان صافحوه ، لا يشربون سوى الدماء مدامة ، ولا يلبسون غير الترائك ـــ يقصد الخوذ الحديدية التي تلبس على الرأس ـــ عمامة ولا يعرفون طربا الا ما اصدره صليل السيوف من غنا ، ولا ينزلون عن صهوات خيلهم منا » .

ثم تشير الرسالة الى المآخذ التي اخذها المماليك بمصر على آل رسول في اليمن ، فتلمح الى قطع الميرة ـــ المؤن الغذائية ـــ التي كان يجريها الرسوليون على مكة ، وتبذير الاموال التي تبذل على وسائل اللهو والطرب ، وعدم ذكـــر الخليفة العباسي في خطبة الجمعة ، وقطع الحاكم الرسولي للهدايا التي كانت تساق الى مصر كتعبير عن الولاء للخلافة العباسية القائمة في مصر قياما شكليا تقول هذه الفقرات من الرسالة :

« ان امر اليمن ما برحت حكامنا ونوابنا تحكم فيـــه بالولايـــة الصحيحة والتفويضات التي هي غير صريحة وما زالت تحمل الى بيت المال المعمور مـــا تمشي به الجمال وئيدا وتقذفه بطون الجواري ـــ يقصد السفن ـــ الى ظهـــور اليعملاق يقصد الجمال ، وليدا واتصل بمواقفنا منك امور صدرت منك منها ـــ وهي العظمى التي ترتب عليها ما ترتب قطع الميرة عن البيت الحرام وقد علمت انه واد غير ذي زرع ولا يحل لاحد ان يتطرق اليه بمنع ، ومنها انصبابك عـــلى تفريغ بيت المال في شراء لهو الحديث ، ونقض العهود القديمة بما تبديـــه من حديث ، ومنها تعطيل اجياد المنابر من عقود اسمنا ، وخلو تلك الاماكن من امر عقدنا وحلنا ، ولو اوضحنا لك ما اتصل بنا من امرك لطال ولا تسعت فيه دائرة المقال » .

تلك فقرات قصيرة من هذه الرسالة المطولة التي بلغ عدد صفحاتها اكثر من خمس صفحات ومنها نستشف اسلوب ابن عبد المجيـــد في طريقـــة كتابته للرسائل الدسيمة كما نستشف ايضا العلاقات القائمة بين حكـــام مصر واليمن بعد سقوط خلافة بغداد ، واذا كنا نلاحظ فيها شيئا من الشدة فذلك راجع الى المهابة التي اكتسبها المماليك وخاصة في عهد الناصر محمد بن قلاوون للانتصارات

التي احرزوها في الحروب ضد الصليبيين ، اما التركيز في الرسالة على طلب المال من اليمن فلسنا نرد السبب فيه الى اكثر من الازمة الاقتصادية التي كانت تعانيها مصر من جراء التبعات المالية التي اقتضتها التعبئة العسكرية لمواجهة الصليبيين ، والى هذه الرسالة التي كتبها عبد الباقي عبد المجيد يرجع الفضل — في رأينا — في استدعاء مؤرخنا الاديب الى اليمن ليتولى للمؤيد الرسولي كتابة الانشاء .

ومن نثر عبد الباقي الفني الذي اثبته النويري في كتابه « نهاية الادب » مقال له في وصف السلاح وهذا الفن من الكتابة كان في ذلك العصر من الفنون التي يتبارى فيها الكتاب وقوام هذا الفن التعرض لانواع الاسلحة من سيف ورمح وترس ودرع وقوس وسهم ونبلة الى غير تلك من صنوف الاسلحة ، حيث يتعرض الكاتب لكل قطعة من قطع هذا السلاح مشيرا الى ما قيل فيها من صفات ونعوت واسماء مستمدا ذلك من نثر العرب وشعرهم مضيفا الى ذلك ما يجد عنده من اقوال تضيف الى هذه المادة اضافات جديدة .

وقد وصف عبد الباقي في هذه المقالة الدرع الذي يصفه بقوله : « خليق بمثله أن يغاض عليه مثل هذه الفضفاضة وأن يبلغ بها من ينل الاعداء وان يتخذها جنة تقيه سوء المذاريق في حومة القتال وان يتردعها فتخال عليه غديرا صافحت صفحته يد الشمال ، ان نشرت على الجسد غطت الكعبين ، وان طويت فكا لمبرد في يد القين ، حميدة الملبس مأمونة المساعي ، مسرورة النسج في عيون الافاعي ، داؤديه النسب تبعية المعزى قد تقادمت في الحلق وتناسقت في الاجزا ويستشهد على ذلك بهذا البيت للفارس اليمني عمرو بن معدي كدب الزبيدي في وصف الدرع :

واعددت للحرب فضفاضة تضاءل في الطي كالمبرد

وهو يشبه القوس بالهلال في سماء المعركة وبالوكر الذي تنطلق منه السهام كالنسور كما تقول هذه القطعة :

« مشفوعة بقوس طلعت حلالا في سماء المعارك ، ومجرة تنقض منها نجوم المهالك واما كفرق اولادها لاحراز الغرض من كل جانب تصرع بسهامها كل رامح ونابل وتبكي ومن عجب ان يبكي القتيل القاتل ، تطيعك في اول النزع ، وتتصيك في آخره ، وترسل سهما فلا يقنع من العدو الا بسواد ناظره :

اذا انبض الدامون عنها ترنمت ترنم شكلي قد أصيب وحيدها

ويصف عبد الباقي في الرمح في مقالته هذه « بانه ما سلب الروم ذروتها ، والعرب سمرتها ، واشبه العاشق ذبولا واصفرارا ، وخالط الضرغام في غيله فهو يلقى من بأسه عند المطاعنة اخبارا ، ان حمله الدارع تلت غصنا على غدير وان هذه الفارس والقاه قلت حية على وجه الارض تسير فهو كالرشاء — اي الحبل — لكن لا يرضى قليبا غير القلب — والقليب هي البئر » .

وهو في وصفه للسيف يعتمد على امرىء القيس حين يصف تألق صفحته والتهاب متنه بانه سنا لهب لم يتصل بدخان ويصفه هو بأنه نار متأجج في خلال لجة من الماء .

ومما اثبت له النويري في كتابه رسالة في فن التطفيل ، وهـذا اللون من الكتابة قديم العهد في الادب اكثر فيه الادباء والكتاب والشعراء ، ومن هذا اللون من الادب ما اتخذ طابع الاسطورة في الفولكلور الشعبي مثل حكايات اشعب الطامع التي اختصها توفيق الحكيم بقصته عن اشعب ، ومن اشهر ما وضع في هذا الباب كتاب التطفيل للبغدادي .

ولسنا نحب ان نستعرض رسالته في التطفيل ولكنا نحيل اليها من اراد الاطلاع عليها في مكانها من كتاب نهاية الادب للنويري ، او في كتاب « بهجة الزمن في تاريخ اليمن » حيث افرد محقق الكتاب ترجمة اضافية حول حياة عبد الباقي عبد المجيد وآثاره .

وموجز ما يمكن ان يقال في نثره الفني ان هذا الكاتب يمثل صورة واضحة للثقافة في القرن الثامن للهجرة حيث ظل النثر فيه يرسف في اغلال الصناعة اللفظية ، ولكنها على اية حال صناعة ليست من قرب المأخذ وسهولة التناول بحيث يقتدر عليها كل هاو من هواة الكتابة ، فانها صنعة تتطلب من الدربة والمران وغزارة المحفوظ وسعة الاطلاع ما لا يمكن ان يملكه الا القلة من الكتاب الذين احاطوا علما بالتراث العربي نثرا وشعرا واحرزوا باعا طويلا في ضروب المعرفة بقواعد اللغة وآدابها ، الى ثقافة واسعة في الفقه والتاريخ والفلسفة وما الى ذلك من الوان العلوم .

ان نثر ابن عبد المجيد يصدر عن مزاج فني يلبس لكل حالة لبوسها وابرزها ما يستشف من هذا المزاج تنوع آشكاله فهو في نثره الديواني ملتزم للنظام الذي يعيش في له يعبر عن سياسته وآهدافه في صدق وامانة ولو خالف هواه كما فعل في رسالته الى المؤيد الرسولي ، وهو في نثره الوصفي صاحب رياضة ذهنية يشارك معاصريه أو سابقيه في الفنون التي خاضوا فيها ترفا او تخففا من اعباء واقع سياسي قد يدفع الى شيء يشبه الهروب ، وهو في نثره الفكاهي صاحب قلم كاريكاتيري يرسم الصور التي ترسم على الشفاه ابتسامة مثلما فعل في رسالته عن فن التطفيل .

ابن عبد المجيد في نثره الفني

تعرفنا على صورة مبسطة عن اسلوب عبد الباقي عبد المجيد في التأليف التاريخي وبقي ان نتعرف على اسلوبه في النثر الادبي والنثر الادبي في هذا القرن ربما والذي يليه بقي معتمدا على الطريقة الفاضلة تلك المدرسة التي تأسست في القرن السادس ــ كما اسلفنا ــ والتي ظلت مؤثرة على طريقة الكتاب بضعة قرون .

وامامنا من نثر ابن عبد المجيد اونان ، لون يتخذ الطابع الرسمي والنمط الديواني ويتمثل ذلك في الرسائل التي كتبها ابن عبد المجيد وهو يمارس كتابة الانشاء في ظل الدولة الرسولية ومن المؤسف ان رسائل ابن عبد المجيد هذه

مفقودة ضمن ما فقد من رسائله ومؤلفاته على ان « النويري » صاحب كتاب « نهاية الادب » أورد لأبن عبد الباقي رسالتين من الرسائل الديوانية التي تمثل أسلوبه في هذا اللون من الكتابة الرسمية رسالة كتبها للناصر محمد بن قلاوون حاكم مصر في أحد الاغراض الديوانية والرسالة الثانية موجهة من الحاكم المصري المذكور الى هزبر الدين داود الحاكم الرسولي وفي الرسالة أنذار وتحذير وتهديد ووعيد لقطع الرسوليين ذكر اسم الخليفة العباسي في خطبة الجمعة باليمن وكان المماليك بمصر منذ عهد الظاهر بيبرس يتخذون من احياء الخلافة العباسية ستارا يصلون من ورائه الى حكم الشعب العربي الذي لم يكن مقتنعا بحكم المماليك ولم يكن الخليفة العباسي يومذاك اكثر من دمية ينصبها المماليك في احد القصور ، ليس له من دور في تصريف شئون الدولة فاذا ظهر منه اي تدخل في شئونهم ضايقوه في المعاش وربما خلعوه او نفوه ونصبوا غيره على كرسي الخلافة ليؤدي دوره الوهمي الذي ينسجون له خيوطه ويرسمون له مخططاته التي تضمن لهم بقاء السلطة ودوام ايام الحكم .

ومهما يكن الامر فان الرسالة التي كتبها ابن عبد المجيد الى الحاكم الرسولي باسم احد الحكام المماليك — وسنلغي اسم الخليفة العباسي لأنه ملغى بطبيعته — جديرة بان نقف امامها وقفة قصيرة لأنها تمثل العلاقات الجارية بين حكام الاقاليم في الوطن العربي المجزأ يومذاك .

والواقع أن الملك الرسولي الاول المنصور عمر بن رسول حين استقل باليمن خلفا للايوبيين الذين كانوا يحكمون مصر والشام لجأ الى الخليفة العباسي ببغداد يطلب منه اصدار مرسوم يثبت فيه سلطته باليمن وبعث الهدية الى بغداد من اجل هذا الغرض ، وحصل المنصور عمر بن رسول على ما اراد ، واستطاع ان يمد نفوذه الى مكة حيث طرد منها عمال آلايوبيين ، وظلت مكة منطقة شد وجذب بين الرسوليين وحكام مصر يعيين حكامها مدة من تعز ومدة من مصر تبعا لتغلب هذه الجهة او تلك عليها .

على ان العلاقات بين اليمن وحكام مصر من المماليك ظلت على ما يرام فكانت الوفود او ما كانت تسمى بالسفارات تتوالى بين تعز والقاهرة ولم يحدث ما عكر صفو هذه العلاقات الا ما حدث في عهد المجاهد الرسولي حين استعان بالحاكم المصري محمد بن قلاوون بعد ثورة عمه المنصور عليه فامده ابن قلاوون بقوة مكونة من الفي جندي ، ولما لاحظ المجاهد ان هذا الجيش المعين يوشك أن يتحول الى نصرة اعدائه رده الى مصر ، والا ما حدث من القبض على المجاهد الرسولي في مكة على يد اتباع المماليك وارساله الى مصر التي ظل فيها عشرة اشهر ثم اعاده ابن قلاوون الى اليمن معززا مكرما .

واذن فنحن امام هذه الوثيقة السياسية التاريخية ونقصد بها رسالة عبد الباقي التي كتبها على لسان الحاكم المصري ابن قلاوون موجها اياها الى المؤيد داود ابن المجاهد الرسولي ، وليس لهذه الرسالة تاريخ ولكن يبدو انها كتبت في الفترة بين عام ٧٠٤ و ٧٠٧ للهجرة ويدل على ذلك رسالته في وصف السلاح التي اثبتها النويري في كتابه « نهاية الادب » وحدد تاريخها مشيرا الى

انها مما كاتبه بها عبد الباقي في عام ٧٠٧ ولسنـــا نشـــك في ان هذه الرسالة السياسية الوثائقية كتبت ايضا في حدود هذا التاريخ لأن عبد الباقي وصل الى اليمن عام ٧٠٧ ــ كما اشار هو في كتاب بهجة الزمن ــ ليتولى ديوان الانشاء للمؤيد الرسولي .

اما نص هذه الرسالة فهو مقسم الى اقسام ، القسم الاول منه يشتمل على ديباجة طويلة فيها تعظيم وتمجيد للخلافة العباسية التي انتقلت الى مصر انتقالا اسميا بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد عام ٦٥٦ على يــد هولاكو التتاري وكانت اعادتها في مصر بعد ثلاثة اعوام من سقوطها في بغداد على يد ركن الدين بيبرس وليس في هذه الديباجة ما هو جدير بالتسجيل ألا الفقـرات التي تشير الى خروج الدولة الرسولية عن طاعة المماليك على النحو الذي تشير اليه هذه الفقرة : « لما كانت مصر في هذا العصر قبة الاسلام وفيئة الامام وثانية دار السلام تعين علينا ان نتصفح جرائد اعمالنا فوجدنا قطر اليمن خاليـــا من ولايتنا في هذا الزمن والعادة مستمرة بان لم تزل نوابنا في اليمـــن عرفنا هـــذا الامر من اتخذناه للممالك الاسلامية في العزلة والتمسك بالصلاح وحج وزار ولقي حاج العراق وعلماءها ووعاظها وتضلع في معارفهم وعـــاد الى اليمن فاعتزل واظهر الوعظ وكان فصيحا صبيحا أخضر اللون طويل القامـــة مخروط الجسم بين عينيه سجادة حسن الصوت طيب النغمة حلو الايراد غزيـــر المحفوظات قائما بالوعظ والتفسير وطريقة الصوفية وكان يحدث بشيء من احوال المستقبلات فيصدق وكان ذلك من اقوى عدده في استمالة قلوب العالم وظهر امره بساحل زبيد بقرية العنبرة وقرية وأسط وقرية التضيب والاهواب والمقتفـــى وساحل القارة وكان يتنقل بينها وكانت عبرته لا ترقا على ممر الاوقات ولم يـــزل يعظ الناس في البوادي من سنة احدى وثلاثين وخمس مائة فاذا دنـــا الموسم خرج حاجا على نجيب له الى سنة ست وثلاثين وخمس مائة ثم اطلقت الحـــرة ام فاتك بن منصور له ولاخوته وصهاره ومن يلوذ بهم خراج املاكهم فلم تمض بهم هيبة حتى اثروا واتسعت حالهم فركبوا الخيل ، ثم حالفه قوم من اهالي الجبال على النصرة فخرج من تهامة اليهم في سنة ثمان وثلاثين وخمس مائة فجمـــع جموعا تبلغ اربعين الفا وقصد بهم مدينة الكدرا فلقيه القائد اسحاق بن مرزوق الشحري في قومه فهزموا اصحابه ، وقتلوا خلقا من جموعه وعفوا عن اكثرهم وعاد ابن مهدي الى الجبال واقام بها الى سنة احدى واربعين وخمس مائة ثم كاتب الحرة بزبيد وسألها في ذمة له ولمن يلوذ به ويعود الى وطنه ففعلت له ذلك على كره من اهل دولتها ومن فقهاء عصرها « ليقضي الله أمرا كان مفعولا » واقام ابن مهدي يستغل املاكه سنين عدة وهي مطلقة الخراج فاجتمـــع له من ذلك مال وكان يقول في وعظه « ايها الناس دنا الوقت ، اذف الامر كأنكم بمـــا اقول لكم وقد رأيتموه عيانا فما هواه ان ماتت الحرة في سنـــة خمسة وراربعين حتى أصبح في الجبال في موضع يقال له الداسر » من بلاد خولان ثم ارتفع منه الى حصن يقال له الشرف وهو لبطن من خولان يقال لهم حيوان باسكان وسماهم الانصار وسمى كل من صعد من تهامة معه المهاجرين .

ثم ساء ظنه بكل احد ممن معه خوفا على نفسه فاقام للانصار رجلا من خولان يسمى سبأ بن يوسف وكناه شيخ الاسلام وللمهاجرين رجــلا يسمــى التويتي ولقبه ايضا شيخ الاسلام وجعلهما نقيبين على الطائفتين ولا يخاطبه ولا يصل اليه احد سواهما وربما احتجب فلا يرونه وهم يتصرفون في الغزو فلم يزل يغاري الغارات ويراوحها على تهامة حتى اخرب الحصون المصاقبــه للجبـــال والحبشة ـــ يقصد النجاحيين ـــ يومئذ تبعث الابدال في المراكز فلا يغنون شيئا فلم يزل ذلك دأبه مع اهل زبيد الى ان اخلى جميع اهل البوادي واهلك الحرف ومنع القوافل الى آخر ما قال في وصف النظام الذي اقامه علي بن مهدي معتمدا على كتاب المفيد في اخبار صنعاء وزبيدا اعتماد النقل بالحرف الواحد .

ويظهر ان الفارق كبير بين تاريخ عمارة وتاريخ عبد الباقي حتى في الفترة التي ارخ لها عمارة وحذا حذوه فيها عبد الباقي انه فارق في المنهج الذي اختلف فيه كل منهما عن الاخر .

فعمارة يؤرخ للاحداث بطريقة المذكرات الشخصية واحيانا يعتمد عــلى ايراد الخبر بطريقة الاسناد شأنه في ذلك شأن علماء الحديث وهــو بعد ذلك يخلط بين التاريخ والجغرافيا وعلم الآثار حين يصف المواقع والبلدان والمراكز والحصون ، وحين يذكر المنشآت والمآثر التي قامت في ظل هذه الدولة او تلك على حين انفرد تاريخ عمارة بميزة خاصة تمثلت في حرصه على الرصد للحركة الثقافية التي عاصرها والتي سبقه زمنها فقد قدم عمارة في تاريخــه مجموعة جيدة من ادباء وشعراء اليمن ممن عاشوا في ظل الدول الصليحيــة والنجاحية والزريعية من شتى انحاء اليمن ولولا وقوفنا على هذه التراجم في تاريخ عمارة لظلت مع آثارها ضمن الكثير من الاثار الثقافيــة المطمــورة في اليمن الى يومنا هذا .

اما تاريخ بهجة الزمن لعبد الباقي فان منهجه الوحيد فيه هــو تسجيــل الحوادث والاخبار مجردة على النحو الذي يصدق عليه قــول محقق الكتــاب مصطفى حجازي حين وصفه بانه كتاب صالح لتلاميذ الثانوية وطلاب معاهــد المعلمين .

نثر ابن عبد المجيد الغني :

عاش ابن عبد المجيد في عصر الصناعة اللفظية التــي يقف عــلى رأس مدرستها القاضي الفاضل في القرن السادس ويقول ابن شاكر في كتاب فــوات الوفيات في سياق الحديث عن ابن عبد المجيد انه كان (١) قــادرا عــلى النظم والنثر الا انه كان معجبا بنفسه يعيب على القاضي الفاضل وغيره ويظــن ان كلامه خير من .

---

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ٥١٢ .

اما النويري داوى كتاب بهجة الزمن ـــ فبالاضافـــة الى تضمين هـــذا الكتاب ضمن موسوعته فانه ايضا قد قدم نماذج من رسائل ابن عبد المجيد فيما اختاره من كتابات الاعلام امثال القاضي الفاضل ومحيي الدين بن عبد الظاهر وضياء الدين بن الاثير ومما جاء في كتاب نهاية الادب في سيـــاق الثنـــاء عـــلى عبد الباقي عبد المجيد قول الشهاب النويري .

هو الذي اتقن صناعة الادب في غرة شبابه وبرز على من اكتهل في طلبها وشاب في الترقي الى رتبها فما ظنك باترابه وجارى ذوي الفضل في الاقطـــار اليمنية فطلع مجلى الحلبة وبارى نجباء الافاضل بالملكة التعزية وكان المؤمـــل منهم بالنسبة اليه ارفعهم رتبة ، وسما الى سماء البلاغة فكان نجمها الزاهر وارتقى الى افلاك البراعة فكان نيرها الباهر .

ثم يشير النويري الى خروج ابن عبد المجيد من اليمن الى سواهـــا من الاقطار العربية ولم يشر الى المصادرة التي وقعت عليـــه من قبـــل المجاهـــد الرسولي كما لم يشر عبد الباقي نفسه الى هذا الحادث الذي ادى الى هروبه من اليمن بعد انضمامه الى صف المنصور عم المجاهد الذي حاول الخروج عليه والذي تقلد الوزارة مؤرخنا قبل ان ينتصر عليه المجاهد ويسترد الحكـــم قـــال النويري مشيرا الى خروجه من اليمن واستقبال الامصار له بالترحاب اعترافا بفضله وعلمه وادبه .

« وحين لم يجد لفضله مجاريا ، ولا عاين لفضائله مباريا صار بها كالغريب وان كان في اهله ووطنه ، والفريد مع كثرة ابنائه واخوان زمنه فسمت به نفسه الى طلب العلوم من مظانها ، والاحتواء عليها في ابانها واللحاق باعيان اهلها ، والاختلاط بمن ارتدى باردية فضلها ورؤية من توشح بقلائدها ، وترشح لبـــذل فرائدها ، ففارق الاقطار اليمنية وهي تسأله التأني وتبذل لرضـــاه الرغبـــة والتمني ، وهو لا يجيب مناديها ، ولا يعرج على ناديها ، ولا يميل الى حاضرها، ولا ينظر الى باديها ، وصرف وجهه عنها ونفض يده منها والتحق بالديار المصرية، وانبت في طلب العلوم باجمل سريرة ، واحسن سيرة فبلغ فيها مناه ، وادرك بها ما تمناه وغدا وثغر فصاحته بالعلوم اشنب ، وبرد بلاغته بالاداب مذهب .

تناهى عـــلاء والشبـــاب رداؤه فما ظنكم بالفضل والرأس اشيب

ولما عاينه اعيان اهل هذا الوادي وشاهدوه يباكر في طلب العلوم ويغادي تلقوه بالاكرام والترحيب ، وقابلوه بالتبجيل والتقريب ، وانزلوه بالمحل الارفع والفناء الخصيب ، وعاملوه بمحض الوداد ، وساواه شبابهم بالاخوة ومشايخهم بالاولاد ، وخلطوه بالنفس والمال وظهر له في ابداء امره بقرائن الاحوال حسن المال ، فاصبح من عدول المصر ، وامسى وهو من اعيان العصر فشكر عاقبة مسيره وحمد صباح سداه ، واجابه لسان الفضائل بالتلبية لما دعاه .

ثم ارتحل الى الشام فجعل دمشق مقر وطنه وموطن سكنـــه ومحـــل استفادته وافادته ، ونهاية رحلته وغاية ارادته ، فعامله اهلهـــا بفوق مـــا في نفسه ، فحمد يومه بها على امسه ، وغدا لأهل المصرين شاكرا ، ولمناقبهم تاليا

ولمحاسنهم ذاكرا ، واه من النظم ما رقت حواشيه ، وراقت معانية ، ومن النثر ما عذب وصغا ، وكمل بلاغة ولطفا ، وحسن اعجازا ، وتناسب صدورا واعجازا .

البهاء الجندي

السلوك في طبقات العلماء والملوك

المصادر الحديثة التي كتبت عنه اجمعت على أن اسمه يوسف بن يعقوب وانه توفي في حدود عام ٧٢٣ من الهجرة .

جاء في معجم المؤلفين (١) لعمر رضا كحالة ما يأتي :

هو يوسف بن يعقوب المعروف بالبهاء الجندي ابو عبد الله من قضاة اليمن توفي في حدود ٧٢٣ له السلوك في طبقات العلماء والملوك .

ومثل ذلك ورد في كتاب هدية العارفين في اسماء المؤلفين وآثار المصنفين لاسماعيل باشا البغدادي (٢) .

وفي كتاب كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة (٣) السلوك في طبقات العلماء والملوك للقاضي ابي عبد الله يوسف بن يعقوب المعروف بالبهاء الجندي المتوفي عام ٧٢٣ جمع فيه غالب علماء اليمن ، واضاف اليهم طرفا من اخبار الملوك الى عام ٧٢٣ واخذ غالب اخبارهم من كتاب أبي حفص عمر بن علي بن سمرة مؤلف كتاب طبقات فتها اليمن ، وكتاب أحمد بن عبد الله الرازي ، وتاريخ صنعاء لابن جدير الصنعاني ، والمفيد في اخبار زبيد لعمارة اليمني والباقي من وفيات ابن خلكان .

وانفرد الدكتور حسن سليمان محمود في المقدمة التي كتبها بين يدي كتاب تاريخ اليمن لعمارة وأخبار اليمن المنقولة من تاريخ ابن خلدون واخبار القرامطة للجندي انفرد بقوله « أجد الجندي في كافة المراجع اسمه يوسف بن يعقوب ولكنه في المخطوطة يسمي اباه بهذا الاسم يقصد يوسف وعلى ذلك فالجندي عند الدكتور حسن هو يوسف بن يوسف بن يعقوب وهو عنده من مواليد ٧٣٢ .

ولكن الحسيني بن عبد الرحمن الاهدل يقول في الصفحة الاولى من كتابه المخطوط « تحفة الزمن » (٤) لما وقفت على تاريخ ابي عبد الله محمد بن يوسف بن يعقوب بن جبريل المعروف بالبهاء الجندي ، ونحن نرجح قول الاهدل في ذلك بوصفه مؤرخا قريبا لعصر الجندي . وانما وقع المترجمون لحياة الجندي في هذا الوهم لأن اسمه المنسوب الى الجند هو الذي اشتهر به مضافا الى لقبه البهاء ، ومن المؤلفين من يغلب عليه اسم الاب حتى ليكاد يحجب اسمه .

---

(١) معجم المؤلفين جزء ١٣ ص ٣٤٤ .
(٢) العارفين ج ٢ ص ٥٥٦ .
(٣) كشف الظنون مجلد ٢ ص ٩٩٩ .

ولم نقف على تاريخ مولد البهاء الجندي ولكن وفاته كانت في ايام المجاهد الرسولي ، ومعنى ذلك انه شهد على الاقل ايام المظفر عمر بن رسول ، وايام الاشرف الاول عمر بن يوسف ، وايام المؤيد داوود بن يوسف ، وادرك البهاء الجندي عامين من آيام المجاهد علي بن المؤيد الرسولي فقد كانت وفاة المؤيد عام ٧٦٤ من الهجرة .

وعلى كثرة المؤلفين الذين اشاروا الى كتاب الجندي السلوك . والى انهم اعتمدوا عليه امثال الخزرجي والاهدل والسرجي صاحب كتاب طبقات الخواص الا انهم لم يشيروا الى حياته ويبدو ان الرجل كان مبتعدا عن الوظائف الحكومية ، ومنقطعا الى حياة الدراسة والتاليف . واية ذلك انه لم يتخصص في كتابة تاريخ دولة بني رسول كما فعل ابن عبد الباقي وهو من معاصري البهاء الجندي ، ولم يشر الخزرجي وهو مؤرخ الدولة الرسولية الى صلة للجندي بأي من حكام بني رسول او ولاتهم على كثرة من اتصل بهم من علماء ذلك العصر وادبائه وشعرائه .

والجندي من مواليد الجند ، على انه ـ كما يبدو طوف بمناطق كثيرة من مناطق اليمن وقد زار عدن مرارا ففي عدن اتصل بأبي العباس بن عمر القزويني الوافد من مكة الى عدن قال الجندي وعنه ـ يشير الى القزويني ـ اخذت الحاجبية ووسيط الواحدي في التفسير واجازة عامة وروى الجندي للقزويني هذين البيتين في فضائل التعليم :

علم العلم من اتاك لعلم ... واغتنم ما حييت منه الدعاء
وليكن عندك الفقير اذا ما ... طلب العلم والغني سواء

وفي ترجمته لمحمد بن عبد القدوس الازدي الظفاري قال ان لابن عبدالقدوس اشعارا رائعة منها ما انشد في محمد بن حمدي خطيب طاقة ـ قرية من قرى ظفار ـ في سنة ٧١٨ ونحن يومئذ في مدينة عدن قال انشدني ابن عبد القدوس لنفسه قوله :

من اين لي يوم القي اليه معذرة ... انجو بها من عذاب الخالق الباري
ذنبي عظيم وعفو الله اعظم من ... ذنبي وجرمي وعصياني واوزاري

وفي ترجمته لابي الطيب طاهر بن علي قال كان يؤم مسجدا في مدينة عدن يعرف بمسجد النبي ، وكانت الملوك تسفره ـ اي تبعثه سفيرا ـ لثقتهم بدينه ، سفره المظفر الى ظفار ثم بعد ذلك جعله على خزانة الفرضة ـ الميناء ـ بعدن وابوب علي هو الذي بنى الجناح الشرقي والمؤخر لهذا المسجد ، ووقف عليه عدة مواضع في عدن وجعل النظر في ذلك الى اولاده ولما دخلت عدن في سنة ٦٨٦ كنت كثير التردد الى زيارة هذا المسجد المذكور .

اما تاريخ الجندي السلوك في طبقات العلماء فقد بداه بسيرة النبي عليه السلام ثم سيرة الخلفاء الراشدين ثم اوخى من ذلك الى ذكر الولاة والعلماء الوافدين الى اليمن من قبل ان تستقل اليمن عن الدولة العباسية الى ان استقلت ، ثم بعدها آشار الى الاحداث مؤرخا لها عن طريق ترجمة الاشخاص وعن طريق

التراجم عرفنا الجندي اخبار الدول التي قامت في اليمن ما حصل لها من تقلبات واطوار وما اقامت من منشئات واثار ، ولكن اهتمامه كان اكثر ما يكون توجها الى تاريخ العلماء والفقهاء وقد أشار الى ذلك بقوله ان الدول والحكام بمنزلة اقل شأنا وخطرا من منزلة العلماء .

وقد اشرنا آنفا الى المصادر التي اعتمد عليها البهاء الجندي في تأليف كتابه السلوك ، وفي مقدمة هذه المصادر كتاب فقهاء اليمن ورؤساء الزمن لابن سمره عمر بن علي الجندي المتوفي في عام ٨٥٦ هـ وهذه ترجمته كما جاءت في كتاب السلوك :

« هو عمر بن علي بن سمرة مؤلف طبقات فقهاء اليمن ولد بقرية اتامر في سنة ٥٤٧ وتفقه بجماعة منهم علي بن احمد اليها قري وزيد بن عبدالله بن احمد الذبداني ومحمد بن موسى بن الحسيني العمراني وطاهر بن يحيى بن ابي الخير العمراني وغيرهم وكان فقيها فاضلا عارفا متفننا ولي القضاء في عدة اماكن من المخلاف من قبل طاهر بن يحيى ، وترأس فيها بالفتوى ثم لما صار الى ابين ولاه القاضي الاثير قضاء ابين في سنة ٥٨٠ واظنه توفي هناك عام ٨٥٦ وهو يقصد ابن سمرة — يسخى في جميع كتابي هذا ولولا تأليفه لم اهتد الى تأليف ما الفت » .

واعتمد على كتاب مفيد عمارة ، ولكن رغم اعتماده على هذا الكتاب فقد خالف الجندي عمارة في تاريخ بعض الاحداث المتعلقة بتاريخ الدولة الصليحية ودولة بني نجاح وكان الجندي في هذا الباب اتم ضبطا وادق تاريخا من عمارة ولابدع في ذاك فقد الف عمارة تاريخه وهو في مصر ، وكان استناده على كتاب تاريخ زبيد للملك النجاحى جياش ، وجياش عدو الد للصليحيين ، وهو قاتل علي الصليحي في موقعة ام الدهيم ، وقد كتب تاريخه بنشوة المنتصر وبعبارة اخرى من وجهة نظره هو ، هذا بالاضافة الى ان عمارة كتب « المفيد » معتمدا على ذاكرته بحيث وقع أختلاف في سنوات بعض الاحداث وقد اشار الى مثل هذا الخلاف من الباحثين المعاصرين الدكتور حسن سليمان محمود في كتاب تاريخ اليمن ، والاستاذ محمد علي الاكوع في كتاب « المفيد » لعمارة الذي حققه وعلق عليه .

والكتاب الثالث الذي اعتمد عليه الجندي ايضا كتاب تاريخ مدينة صنعاء لمؤلفه احمد بن عبد اله الرازي الصنعائي المتوفي عام ٤٦٠ هـ .

وقد طبع هذا الكتاب منذ حوالي عامين وعني بتحقيقه الشاب اليمني المثقف حسني بن عبد اله العمري ، وساعده في التحقيق عبد الجبار ذكار وقدم له الدكتور نبيه عاقل عميد كلية الاداب بجامعة دمشق .

ويتضمن الكتاب مجموعة من الاساطير والاخبار التي تدور حول فضائل مدينة صنعاء ، وكذلك الاحاديث التي قيلت فيها ، كما يشتمل الكتاب على مئات التراجم لعلماء صنعاء امثال وهب بن منبه وابنه همام بن وهب وعبد الرزاق المحدث المشهور الى غيرهم من رجال الفقه والحديث وعلم السير والاخبار والتواريخ .

اما المصدر الذي اعتمد عليه البهاء الجندي في تاريخه لحركة القرامطة فهو كتاب كشف اسرار الباطنية واخبار القرامطة لمحمد بن مالك بن ابي الفضائل الحمادي المتوفي في اواسط القرن الخامس ، وهذا الكتاب طبع في القاهرة عام ١٩٣٩ ، وهو كتاب صغير زعم مؤلفه انه عرف الداعية الاسماعيلي علي بن محمد الصليحي واتصل بحركته عن كثب وانه دخل في مذهبه على سبيل الامتحان لعقيدة اصحاب هذا المذهب وانه اطلع على كتبهم وعرف معانيها ، وانه الف رده عليه ليكشف — كما قال الحمادي كفره وضلالته — يقصد علي الصليحي .

اما الجندي فقد عف فيما روى من كتاب الحمادي عن كيل السباب والشتم للقرامطة واكتفى بايراد اخبارهم مجردة ، وان كان قد تابع الحمادي وغير الحمادي فيما نسبوا الى القرامطة من بدع كالاباحة وتحليل المحرمات وما يعف عن ذكره اللسان . ومن عجب ان البهاء الجندي يرمي علي بن الفضل بالزندقة على حين يصف رفيقه منصور بن حوشب بأنه كان ملكا مسددا ويقول مقارنا بين الداعيين الاسماعيليين « سألت جمعا من الذين يتحقق منهم المذهب فرايتهم مجمعين على ان علي ابن الفضل وان منصور اليمن من اعيان مذهبهم واخيارهم وذلك الذي تقرر في ذهني ، وواضح من هذا القول ان اعيان المذهب الاسماعيلي قد ساءهم خروج علي بن الفضل على الدعوة العلوية وانفراده بحكم اليمن ومحاولة اجبار منصور اليمن — شريكه في الحكم — على الدخول في طاعته بل ودخوله معه في حرب حصار دامت ثمانية اشهر وانتهت بأخذه ابن منصور اليمن رهينة عنده وكان الصلح بين كلا الداعيين على دخن حتى زال حكم علي بن الفضل وابن حوشب عن اليمن ، ودخلت الدعوة في دور الستر وبقي لها اتباع يتداولونها سرا رغم تعقب حكام اليمن لهم وانزالهم بهم اصناف النكال والتقتيل ، حتى ظهرت الدعوة الاسماعيلية من جديد على يد علي بن محمد الصليحي .

ثم اورد الجندي القصيدة المشهورة التي اولها :

خذي الدف يا هذه والعبي	وغني هزارك ثم اطربي
تولى بني بني هاشم	وهذا بني بني يعرب

اوردها على انها لعلي بن الفضل نفسه ولعله انما اوردها نقلا عن سبعة من الناقمين على دولة علي بن الفضل اذ ليس من المعقول ان علي بن الفضل قالها لأنه اولا لم يكن شاعرا والثاني لان القصيدة صيغت بضمير الغائب وليس من البيان في شيء ان يتحدث ابن الفضل عن نفسه بضمير الغائب ، والثالث ان القصيدة قد ساقها قائلها بصيغة التدح لا المدح ، وبهجة التهكم والاحتقار لا لهجة التسامي والاكبار .

ويقول الدكتور حسن سليمان محمود الجهني في تعليقه (١) على هذه القصيدة اننا نرى ان هذه القصيدة نسبت الى شاعر من شعراء بن الفضل ، وهذا الكلام فيه شيء من الابهام اذ كيف يمكن ان ينسب الى شاعر من اتباع هذه الدعوة قصيدة يشتم فيها مذهبه وداعية مذهبه .

ويقول العلامة نشوان الحميري في كتاب الحور العين غالب الظن ان قائل

هذه الابيات من الخطابية ولسنا نعرف من يقصد نشوان بالخطابية فان الخطابية (٢) فرقة من غلاة الامامية يقولون بأن الامامة كانت في اولاد علي الى ان انتهت الى جعفر الصادق والامامية بعد ذلك منقسمة الى فرق ولم يكن واحد منها موجوداً في اليمن ولعلل نشوان يقصد احد اتباع الزيدية الذين ينبزهم بوصف الخطابية ، لانه منحرف عنهم ومعارض لهم .

ومهما يكن من امر فان هذه القصيدة مجهول قائلها ولكن من الواضح انه علوي لانه يعرض بقحطان في هذا البيت الذي يقول :

تولى بني بني هاشـــم وهذا بني بني يعــرب

ومن مزايا البهاء الجندي يفتش في النصوص الادبية للوصول الى اغراضه من تحقيق قضايا التاريخ مثلما فعل حين تحدث عن مآثر المفضل بن ابي البركات مستشار الملكة اروى وقائدها المنافع عن دولتها ، لقد ذكر اجراء المفضل للغيل من خنوة ــ قرية تقع شمال الجند ــ الى بلدة الجند ، ووصف الطريقة العجيبة التي بنى بها هذا الاثر قال وقد ذكر القاضي الشاعر ابو بكر اليافعي قصة الغيل في قصيدته التي مدح بها منصور بن المفضل بن ابي البركات الحميري وجعل من جملة مدحه مدح ابيه ونبه على فعله في الغيل وقد تشككت فيمن اجرى الغيل حتى وجدته في شعر ابي بكر اليافعي المذكور وذلك انه لما ذكر المفضل قال :

واقل مكرمــة له وفضيلـــة احداؤه للغيــل في الاجنــاد

شق الجبال الشامخات فاصبحت وكأنها كانــت متــون وهــاد

وقد عاش البهاء الجندي ــ كما اسلفنا أيام بني رسول من بدايتها وتوفي في ايام المجاهد الرسولي ، ولم يكتب لهذه الدولة تاريخا خاصا كما فعـل ابن عبد المجيد او الخزرجي ولم يذكر من حكامها الا ما جاء ذكره عرضا في السياق الذي يقتضيه ويستدعيه منهجه في تأليف كتابه مع التزامه الحيـاد والامانـة التاريخية .

فكان كتابه السلوك جامعا كتاريخ اليمن العام باوضاعه السياسية ودوله القائمة ، وحكامه وولاته ، وادبائه وعلمائه الذيـن رتب سلاسلهـم بحسب مواقعهم الجغرافية في كل موقع من مواقع اليمن بحيث تتلمذ له كثيـر ممن جاء بعده من مؤرخي اليمن .

عبد الله بن أسعد اليافعي في كتاب مرآة الجنان

عرضنا في صفحات سابقة من هذا الفصل للعالم المؤرخ الاديب عبدالله بن أسعد اليافعي وأوردنا اكثر من نموذج من شعره الصوفي مع ترجمة موجزة لحياته وشيوخه الذين تلقى على أيديهم العلم ، ونحن الآن بسبيـل التعرض لاهم مؤلف من المؤلفات التي وضعت في القرن الثامن لهذا المؤلف الجليل .

وكنا نود ان نعرف الاسباب التي دفعته الى الهجرة الى مكة حيث كانت وفاته فيها في عام ٧٦٨ هـ بعد ان تنقـل بين الشام وفلسطين ومصر ، ولكن

المصادر التي ترجمت لحياته وأهمها تاريخ ثغر عدن لبامخرمة ، هذه المصادر لم تتحدث عن أسباب هجرته . ولكن الهجرة الى مكة في القرن الثامن للهجرة كان الدافع اليها اكثر من سبب ، فقد يكون من أسبابها الاتصال بمراكز الثقافة في الحجاز والشام ومصر حبا في طلب المزيد من العلم ، وقد يكون الدافع اليها طلب المجاورة للبيت العتيق كما كان يفعل العلماء وبخاصة المتصوفة الذين يعد عبدالله بن أسعد اليافعي في عدادهم ، وقد يكون من أسبابها استياء بعض الفقهاء من عادة السبوت التي كانت متبعة في تهامة والتي شجعها المجاهد الرسولي ومن تلاه ولم تكن تلك العادة اكثر من موسم أو عيد شعبي يمكن ان يطلق عليه اسم عيد النخل وقد كبر على بعض الفقهاء أن يشارك في مثل هذا العيد الرجال والنساء — في عهد الرسوليين — لذلك هاجر اعداد من العلماء الى الحجاز احتجاجا على اقامة مثل هذا العيد الذي كانوا يسمونه ببدعة السبوت ، وقد يكون من اسباب الهجرة ايضا الخصومات العنيفة التي قامت بين الفقهاء النصوصيين ورجال التصوف والتي كان ينحاز فيها الحكام الرسوليون الى جانب رجال التصوف غالبا كل هذه الاسباب قد يكون أحدها ينسحب على هجرة العلامة اليافعي الى خارج اليمن .

وعلى الرغم من العداء الصريح الذي كان قائما بين الائمة والصوفية الا أن اليافعي كان يحظى باحترام بعض الائمة .

ذكر اليافعي في كتاب مرآة الجنان (١) شيئا من شعره الذي قاله في مشيخة علي بن عبدالله اليمني ومن بين هذا الشعر قصيدته الثامنة التي يقول فيها :

تخلفت يوم البيني عنهم بجثتي وراحوا مقلبي يوم بان أحبتي

ويعقب اليافعي على أبيات هذه القصيدة معترضا على علماء السنة — ولا شك انه يقصد الفقهاء الذين كانوا يهاجمون الصوفية في اذواقهم ومواجيدهم وشطحاتهم — يعقب على هذه الابيات مستشهدا برضاء الامام العلامة عبدالله بن حمزة عنها مع ما عرف عن الائمة من رفض لطريقة الصوفية ، قال اليافعي في هذا الصدد :

« في بعض ابيات هذه القصيدة استعادات تطرق اليها انصار من بعض من لا يفهم معاني الاستعادات والمجاز والاشادات ، والعجب ان المنكرين هم من أهل السنة مع استحسان امام الزيدية العلامة الفاضل يحيى بن حمزة للقصيدة المذكورة فيما اخبرني به بعض حملة كتاب الله من المخبرين قال رأيته — يقصد الامام عبدالله بن حمزة — في جراز من بلاد اليمن ، وقد أتى غازيا الاسماعيلية في جيش كثير قال فلما علم أني قاصد الحج قال لعلك تأتيني أو قال عسى ان تأتيني بشيء من كلام فلان — يقصد اليافعي نفسه — فقد وقفت له على قصيدتين اعجبتاني احداهما في مدح شيخه » .

---

(١) مرآة الجنان ج ٤ ص ٣١٥ .

على ان أهم ما ألفه عبدالله بن أسعد اليافعي من الكتب هو كتاب مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان وهو عنوان مطول ولكنه شبيه بكثير من غيره من مؤلفات القدماء ، وقد سلك اليافعي فيه مسلك التاريخ بالسنة يؤرخ لاهم ما تجري فيها من أحداث وقضايا في ايجاز وقد تطول اخبار السنة الى بضع صفحات وقد تقصر الى بضعة سطور بحسب أهمية تلك الاخبار في نظر المؤلف على ان الملاحظ ان اليافعي ركز اكثر ما ركز في هذا الكتاب على ذكر اخبار العلماء والادباء والصوفية وغيرهم من الاعلام عبر التاريخ الممتد من أول سنة للهجرة الى عام ٧٥٠ منه .

وكتاب مرآة الجنان لم ينفرد بتاريخ خاص لليمن وحدها وانما عنى مؤلفه بالتاريخ العام للوطن العربي كله ولكن بالرغم من ذلك كله فقد خص المؤلف فيه اليمن باكبر قسط من اهتمامه ، وبخاصة في التراجم الكثيرة التي قدمها لاعلام اليمن من أول عام للهجرة الى منتصف القرن الثامن الذي انتهى المؤلف فيه من تأليف الكتاب .

ولم يدعنا المؤرخ عبدالله بن أسعد اليافعي في حيرة من أحد المصادر التي عاد اليها في تأليف الكتاب فقد اشار في مقدمة كتابه انه اعتمد في ذكر الشمائل المتعلقة بصاحب العام الهجري عليه السلام . اعتمد في هذه المادة على كتاب الشمائل وكتاب الجامع للتعزي وعلي محيحي البخاري ومسلم ، واعتمد في التاريخ على تاريخي الذهبي وابن خلكان ، أما في موضوع أعلام اليمن فقد اعتمد اليافعي على كتاب طبقات المؤرخ اليمني ابن سمرة ومما اخذه اليافعي على ابن سمرة خلو كتاب ابن سمرة من ذكر علماء الصوفية وكذلك أكثر اليافعي من ذكر اعلام التصوف في اليمن ليسد الثغرة التي لاحظها في تاريخ ابن سمرة .

وعلى الرغم من ضعف الرؤية السياسية في كتاب مرآة الجنان لليافعي حين نراه رافضا لكل الدول والحكومات التي قامت في اليمن ، الا ان الرجل كان ضابطا ضبطا دقيقا لتواريخ تلك الدول والشخصيات التي لمعت في سماء التاريخ ، ومن اجل ذلك نلاحظ ان بروكلمان اعتبر كتاب مرآة الجنان من أهم المراجع التي استند اليها في تأليف كتابه تاريخ الادب العربي حيث اكثر بروكلمان من الاشادات الى كتاب مرآة الجنان بحيث كاد كتاب اليافعي يقع في المرتبة الثانية بعد كتاب الاغاني لابى الفرج الاصبهاني من حيث الاشادة اليه من بين كثير من المصادر التي رجع اليها بروكلمان في تأليف كتابه المذكور .

ويتراءى لنا ضعف هذه الرؤية السياسية او عموميتها على الاقل في الاستدراك الذي وضعه اليافعي (١) في نهاية كتاب مرآة الجنان حول الاوضاع السياسية التي قامت في اليمن عبر التاريخ ، ففي هذا الاستدراك ذكر ما سماه بالافاق العظيمة والفتن التي وقعت في اليمن .

فمن هذه الآفاق في نظر اليافعي ظهور دولة القرامطة التي يصف داعيتها علي بن الفضل بالزندقة والطغيان وانه خبيث شيطان .

ويصف الداعي يحيى بن الحسيني الرسي بانه صاحب فتنة ، ويصف علي الصيلحي مؤسس الدولة الصيلحية بانه ضد اسمه من الافساد للبلاد والعباد في الظلم والاعتقاد ودعوته الى مذهب العبيديين الباطنية أولى الزندقة والالحاد .

ويصف اليافعي دولة علي بن مهدي التي قامت في القرن السادس هـ بأنها دولة الغواية وقتل الرجال ونهب الاموال وتخريب الديار وتحريق الاشجار .

على ان هذه الرؤية السياسية التي نصفها بالضعف ليست سوى النظرة المتوقعة من عالم من علماء القرن تجمع بين فقه أهل السنة ومواجيد أهل التصوف . على ان الكتاب يبقى بعد ذلك مرجعا هاما للتاريخ يحتاج اليه من أراد الالمام بتاريخ الفكر والثقافة والتصوف وأنواع المذاهبالفقهية التي دخلت اليمن منذ فجر الاسلام الى منتصف القرن الثامن للهجرة .

واليافعي مؤرخ قد عاصر الدولة الرسولية ، ولكن يظهر انه لم يكن راضيا عن حكامها ففي اخبار سنة احدى وعشرين وسبع ماية يتحدث اليافعي عن موت الحاكم الرسولي حزير الدين المؤيد داود الرسولي بن الملك المظفر يوسف بن عمر الذي دامت دولته بضعا وعشرين يتحدث عنه حديثا حياديا ينسبه الى بعض المؤرخين وفحواه ان المؤيد داود الرسولي كان عالما فاضلا سائسا شجاعا وعنده كتب عظيمة نحو مائة الف مجلد ويتحدث عن ابيه المظفر وابنه المجاهد علي انهما كلاهما اكثر منه مشاركة فرعا وأصلا . واذكى قريحة واشهر فضلا وأحسن ملحا ويذكر أن للمظفر الرسولي اربعين حديثا خرجها منتقات رويناها عن شيخنا الطبري يحق روايته لها عن محب الدين الطبري بروايته لها عن المظفر المذكور (١) .

كما يذكر أن للملك المجاهد الرسولي أشياء بديعة نظما ونثرا وديوان شعر ومعرفة بعلم الفلك والنجوم والرمل وبعض العلوم الشرعية من الفقه وغيره .

ولكن اليافعي يذكر في حوادث سنة خمس وعشرين وسبع مايسة قضية استنجاد المجاهد بالحاكم المملوكي المصري محمد بن قلاوون الذي أمده بقوة عسكرية ضد من خالف عليه من اقربائه قال اليافعي :

« ولكن لما أراد الله تأييد الملك المجاهد خرج من الحصن في نفر يسير وانتصر وسار الى عدن وأخذها بمساعدة « يافع » اذ كانوا هم الذين رتبوا في حصونها وجبالها يحرسونها ولم يزل ذا نجدة وشجاعة يقاتل قدام الجيش وملكه يزيد ويعلو ، الى ان لزموا آمر مصر في حجته ـ السنة التي حج فيها المجاهد ـ وساعدهم الشريف عجلان صاحب مكة ، وانخذل عسكر المجاهد ولم يزل مخذولا بعد ذلك وملكه يضعف وينزل الى أن لم يبق له من ملك اليمن شيء يعتد به وكان قد عاهد الله بعد ما لزم ـ اي القى القبض عليه ـ

---

(١) مرآة الجنان ج ٤ ، ص ٢٦٦ .

انه يعدل فلما تخلص من المحن ورجع الى اليمن لم يف بذلك وانعطف بل زاد ظلمه ولم يزل الظلم يقوى والملك يضعف الى ان تلاشى وذهب بالكلية » .

ذلك رأي المؤرخ عبدالله بن اسعد اليافعي في اسباب اضمحلال دولة بني رسول وهو رأي له وجاهته من حيث قول المثل العربي القديم الظلم مصرعه وخيم . ولكن خروج كثير من اجزاء اليمن على الرسوليين لم يكن سببه ظلم الملك المجاهد ، وانما السبب رجع الى امور اكثر من ذلك ومن هذه الامور تنازع ابناء الاسرة الرسولية على الحكم حتى لقد كان يثور الابن على ابيه والاخ على اخيه والقريب على قريبه ، يضاف الى ذلك خروج كثير من الائمة في الجبال الذين لم تختلف حالهم عن حال الرسوليين في تعز وتهامة وما عاقبها من المناطق في جنوب اليمن .

وقد حفل كتاب مرآة الجنان بأخبار مستفيضة وتراجم ضافية حول الشخصيات الصوفية ، وان من هذه الاخبار لما يدخل في باب الاستحالة لما يعقب المؤلف لافراد هذه الطائفة من كرامات وخوارق على ان اهم التراجم التي أوردها في هذا الباب ما تعلق منها بافرد الرعيل الاول من متصوفة اليمن الذين ظهروا في عصور مبكرة من تاريخ الاسلام أمثال أبي موسى الاشعري واويس القرني وطاووس وعمرو بن دينار وغيرهم من كبار رجال الفقه والزهد وكل اولئك لم ينسب اليهم المؤرخون القدماء من الخوارق والمكاشفات ما نسبه المؤرخون أمثال الخذرجي وبامخرمة وصاحب مرآة الجنان الى المتأخرين من رجال التصوف .

مقروءات اليافعي ومسموعاته

وقد نقل الينا كتاب مرآة الجنان صورة عن مقروءاته وبعض الاساتذة الذين اخذ عنهم ومنهم عالمان كبيران باليمن احدهما محمد بن احمد البصال وهو أول من درس على يديه وثانيهما أبو الحسن علي بن عبدالله اليمني الشافعي وقد توفى هذان العالمان مجاورين بالحجاز في يوم واحد من سنة ثمان واربعين وسبع مائة .

أما العالم الثالث الذي درس على يده فهو المحدث العلامة الراوية ابراهيم بن محمد الطبري المالكي وفي صدد ذكر مقروءاته على يد هذا العالم الجليل يثبت اليافعي هذا الثبت باسماء الكتب التي قرأها عليه والتي تعطينا صورة واضحة للثقافة المتداولة في اليمن في القرن الثامن للهجرة ، قال المؤلف : « ومن مقروءاتي عليه صحيح البخاري ومسلم ومسنن ابي داود والترمزي والنسائي والدارمي وابن حيان ومسند الامام الشافعي والشمائل للترمزي وعوارف المعارف للسهروردي والسيرة لابن حسام وعلوم الحديث لابن الصلاح وخلاصة السيرة وصفة القراء والمجالس والمجالس المكية والعوالي من مسموعات الفراوي والاربعيني من سباعياته والانباء المبينة عن فضل

المدينة والسداسيات للحافظ السلفي وسداسيات الميانسي وكتاب اعلام الهري وعقيدة ارباب التقي للسهروردي وتساعيات ابراهيم ابن محمد الطبري ـ شيخ اليافعي ـ وكتاب محاسبة النفس لابن ابي الدنيا وآجاره المجهول والمعدوم والاربعون للملك المظفر صاحب اليمن والاربعون للتوي الى غير تلك من المصادر « انتهى بشيء من حذف بعض المصادر » .

وقدم اليافعي في كتاب مرآة الجنان صورة من اجازاته العلمية التي كانت تعتبر في ذلك العصر بمثابة الشهادة الجامعية ، وقد منح تلك الشهادة عالم كبير من علماء القطر الحضرمي هو محمد بن اسماعيل صاحب الفتاوى المشهورة وشارح كتاب « المهذب » ومؤلف كتاب « نفائس العرائس » ، منحها احد تلاميذه ونصها يقول بعد الديباجة التقليدية :

« حصل على المولى الفقيه والولد المحبوب في الله ابراهيم بن محمد بن سعيد جميع كتاب التنبيه في الفقه بقراءته وقراءة غيره وقد اجزت له روايته بروايتي عن والدي بروايته عن الامام اليمني العالم محمد بن كبانة بضم الكاف وفتح الموحدة قبل الالف والنون الى ان يقول : وقد اجزت له روايته عني وان يروي عني جميع ما يجوز لي روايته من كتب الحديث والتفسير والفقه ».





الفهرس